سلسلة مؤلفات سماحة الشيخ عبد الله ابن جبرين رحمه الله ١٢

شرح الأربعين النووية

للإمام أبي زكريا
محيي الدين النووي الدمشقي
رحمه الله (ت ٦٧٦هـ)

شرحه
سماحة الشيخ العلامة
د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله
(ت ١٤٣٠هـ)

ج

الحديث

أعيد طبعه بإشراف مؤسسة الشيخ عبد الله ابن جبرين الخيرية

© مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن جبرين، عبدالله بن عبدالرحمن
شرح الأربعين النووية./ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين - ط ٢.
الرياض، ١٤٤١هـ
٣٧٦ ص: ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٣ - ٤٠ - ٨٢٢٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- الحديث ـ شرح ٢- الحديث ـ جوامع الفنون أ- العنوان
ديوي: ٢٣٧,٧ ١٤٤١/١٠٠٨٧

رقم الإيداع: ١٤٤١/١٠٠٨٧
ردمك: ٣ ـ ٤٠ ـ ٨٢٢٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٣٣٥ الرياض ١١٤١١
هاتف: ١٤٢٦١٠٠٠ ١ ٩٦٦+
فاكس: ١٤٢٦٣٧٠٠ ١ ٩٦٦+
جـوال: ٠٠٨٠١٠٠ ٥٦ ٩٦٦+
www.ibn-jebreen.com
info@ibn-jebreen.com
book@ibn-jebreen.com

أسهم في طباعته بعض محبي الشيخ رحمه الله
ليباع بسعر تشجيعي فجزاهم الله خيرًا

مؤسسة ابن جبرين الخيرية
Ibn Jebreen Foundation

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فحيث إن مؤسسة ابن جبرين الخيرية بعد وفاة سماحة الشيخ الوالد عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله حملت مهمة نشر تراثه العلمي، وحصلت من ورثته على الحق الحصري لنشر تراثه من كتب وغيرها.

وقد قامت المؤسسة بعدة خطوات في ذلك منذ وفاة الشيخ رحمه الله: حيث عملت على جمع المواد الصوتية والمرئية وتصفيتها وفهرستها وترتيبها وتفريغها، وجمع ما كتبه الشيخ بخط يده أو أملاه من كتب ورسائل وفتاوى؛ وذلك لإخراجها في عدد من المنتجات الورقية والإلكترونية والصوتية وغيرها.

وفي خطوة للتعجيل بنشر بعض كتب الشيخ رحمه الله وقع اختيار المؤسسة على عدد من الكتب التي عمل عليها بعض طلاب العلم من تلاميذ الشيخ رحمه الله وغيرهم، وكان اختيار هذه الكتب لسببين: وهما: أهمية الكتاب، وكون العمل فيه متقنًا في الجملة.

وكان من هذه الكتب كتاب (شرح الأربعين النووية). والذي اعتنى به وطبعه سابقًا مكتب (التحقيق بدار الراية)؛ فندعو الله أن يثيبه ويجزيه خيرًا على ما بذل من جهد.

والمؤسسة إذ تسعى في إعادة طباعته رغبة في نفع القارئ. وإكمالًا لرسالة الشيخ رحمه الله في نشر العلم الشرعي، وأملًا في أن يستمر أجر هذا العلم لمؤلفه ومحققه ومن سعى فيه.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء سماحة الشيخ المؤلف ومشايخه رحمهم الله، وأن يسكنهم فسيح جناته، إنه سميع مجيب.

قِسمُ البحثِ العِلميّ في مُؤسَّسةِ ابنِ جِبرينَ الخَيريّة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم سماحة الشيخ العلامة
د. عبدالله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله

الحمد للَّه الذي أرسل إلينا الرسل وأنزل الكتب، وبين الشرائع وختم الأنبياء بمحمد ﷺ، وأكمل له الدين، وأتم به النعمة، وآتاه جوامع الكلم وخواتمه، وفضل أمته على من قبلهم، نحمده سبحانه على ما أولى من النعم ودفع من النقم، ونشهد أن لا إله إلا اللَّه ولا رب لنا سواه ولا نعبد إلا إياه، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله والمصطفى من عباده ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعـــدُ:

فإن علماء الأمة المحمدية قد فضلهم اللَّه ورفع من شأنهم، وفتح عليهم من العلم ما تفوقوا به على غيرهم من أفراد الأمة وسائر الأمم، وإن من علمهم الشريف حفظهم للأحاديث النبوية وعنايتهم بها رواية ودراية؛ لأنها سنة النبي ﷺ، وهي الوحي الثاني الذي بين به النبي ﷺ ما أنزل إليه من القرآن، عملًا بقول اللَّه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فبين معاني القرآن وأوضح مجمله، وفسر القرآن بقوله وفعله.

ثم إن صحابته رضي اللَّه عنهم حفظوا سننه وعملوا بها وبلغوها أولادهم وتلاميذهم، وتناقلها العلماء من التابعين ومن بعدهم، حتى وفق اللَّه تعالى من كتبها وأثبتها ودونها وحفظها من الضياع والاختلاط بغيرها، فأولوها عناية كاملة ونقحوها، وهذبوها، فوصلت إلى من بعدهم صافية كاملة لم يفقد منها شيء، والحمد للَّه.

ثم إن مَن بعدهم اشتغلوا ببيانها وشرحها وتوضيحها وتقريبها للأفهام وتسهيل العمل بها وقسمُّوها إلى أقسام كثيرة كالأحكام والآداب والأخلاق والقصص والأمثال ونحوها . فنفع اللَّه تعالى بعلومهم من بعدهم ، ووصَّل إليهم أجر ما خلفوه من علم ونفع به الأمة .

وإن من أولئك العلماء الأجلاء الإمام المشهور يحيى بن شرف النووي الشافعي ، الذي أفنى عمره القصير في خدمة الإسلام وصنف المصنفات الكثيرة التي نفع اللَّه بها الأمة من سائر المذاهب .

وكان من تأليفه أن جمع اثنين وأربعين حديثًا في الشريعة من الأحاديث الجامعة النافعة ، ولقد اشتهرت هذه الأحاديث باسم «الأربعون النووية» وقد أقبل على حفظها شباب الأمة وكهولها وأفراد العلماء وأكثروا العناية بها ، واهتم العلماء بشرحها وأكثروا ذلك ما بين مختصر كابن دقيق العيد ومبسوط كابن رجب الحنبلي ، وبينوا بذلك عظمة هذه الأحاديث وكثرة فوائدها ومحتوياتها وما يستنبط منها ، ولا يزال طلبة العلم يهتمون بها ويحرصون على حفظها وعلى تلقي شرحها من أهل العلم والمعرفة .

ثم إني لما كنت أُدَرِّس في أحد مساجد الرياض طُلِب مني شرحها في درس عام يحضره الطلاب الذين يحفظون ويفهمون وكذا يحضره المصلون من المواطنين ، وهم مع ذلك يفهمون ويستفيدون ، فقمت بشرحها في مساء كل سبت ما بين الأذان والإقامة لصلاة العشاء ، ويسر اللَّه إتمامه مقتصرًا على ما جمعه الإمام النووي رحمه اللَّه تعالى ، دون الثمانية الأحاديث التي أضافها الإمام ابن رجب وشرحها في كتابه «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» .

وقد أتممت الشرح في هذا الوقت القصير ، ولم أتمكن من مراجعة الشروح

وإنما شرحتهما ارتجالًا مما أتذكره وأعرفه من سابق القراءات والشروح ، ثم إن تسجيلات الراية قاموا بتسجيل ذلك الشرح في أشرطة كالمعتاد ، وبقيت تلك الأشرطة أكثر من عشر سنين ، ثم قام مكتب التحقيق بدار الراية بتفريغها ، واعتنى بتخريج ما فيها من الأحاديث والآثار غالبًا ، وعُرضت عليَّ فقمت بتصحيح بعض الجمل إذا كان فيها خلل في التركيب أو تكرار لبعض الكلمات ، كما قمت بتكميل الشرح لبعض الأحاديث التي لم أتمكن من شرحها لضيق الوقت ، ويسر اللَّه إتمام ذلك كله ، ثم قمت بتقديم هذه المقدمة لبيان محتوى هذه الرسالة ، وأذنت بطبعها حيث طلبت دار الراية الإذن بذلك .

ومع هذا فإنه جهد المقل وقدرة المفلس ، فما كان فيه من صواب فمن اللَّه ، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان ، واللَّه ورسوله بريء من ذلك الخطأ ، حيث إنه قد وقع هذا الشرح ارتجالًا وبدون تذكر أو طول تفكير ، وقد يقع فيه تكرار وشرح لبعض الجمل في غير موضعها اعتمادًا على الذاكرة ، ومن عثر فيه على خطأ أو زلل فقد أذنت له في إصلاحه فإن الإنسان محل النسيان ، واللَّه تعالى أعلم .

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

قاله عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن عبد اللَّه الجبرين

٢٧/٥/١٤٢٥هـ

الحديث الأول

إنما الأعمال بالنيات

عن أَمِيرِ المُؤمِنِينَ أَبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ - رضي اللهُ عنه - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى ، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورَسُولِهِ ، ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيا يُصِيبُها أو امْرأةٍ يَنْكِحُها ، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه** » .

رواهُ إماما المُحَدِّثينَ : أبو عبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ المُغيرَةَ بنِ بَرْدَزْبَه البُخارِيُّ ، وأبو الحُسَيْنِ مُسْلِمُ بنُ الحَجّاجِ بنِ مُسْلِمٍ القُشَيْرِيُّ النَّيْسابُورِيُّ في « **صَحِيحَيْهِما** » ، اللذينِ هُما أَصَحُّ الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ (١) .

شرح الحديث :

هذا الحديث من أشرف الأحاديث ، وأجمعها ، وبه بدأ البخاري « صحيحه » ، وروي عن بعض السلف أنه قال : « **لو كتبت كتابًا لجعلت حديث الأعمال بالنيات في أول كل باب** » . وذلك لأنه يبرهن على المقاصد ويدل على ما في الضمائر ، فهذا هو السبب في ابتداء البخاري بذكره في كتابه ، والاكتفاء به عن الخطبة والمقدمة ، كما فعل مسلم ، فإنه جعل في كتابه خطبة ومقدمة ، والبخاري جعل

(١)أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب بدء الوحي : باب كيف كان بدء الوحي .... (١) (١/ ١٥- فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإمارة : باب قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات ...** » (١٥٥) (٣/١٥١٥ - ١٥١٦) ، كلاهما من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري ، قال : أخبرني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، أنه سمع علقمة بن وقَّاص الليثي ، قال : سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على المنبر يخبر بذلك عن رسول الله ﷺ ويقول : ... فذكره .

هذا الحديث نائبًا عن الخطبة والمقدمة .

هذا الحديث في أعمال القلوب - وهي النيات .

والنية : عمل القلب ، أي ما يقوم بالقلب عندما يعمل الإنسان الأعمال الظاهرة ، والنية هي التي يبنى عليها العمل ، فإن صلَحت النية صلَح العمل ، وإن لم تصلح لم يصلح العمل ، ويتضح هذا بالأمثلة :

فذكر النبي ﷺ أمثلة للأعمال الصالحة التي أحبطتها النيات(١)، فذكر غنيًا يكثر الصدقات ، وهو أول من يدخل النار ؛ لأنه ما أراد بالصدقات وجه اللَّه ، ولكنه أراد أن يشتهر عند الناس بأن يقال : فلان جوادٌ وفلان كريم . أزهق أمواله لأجل هذه المقالة ، فكان عمله بذلك حابطًا لا يستحق عليه أجرًا .

والثاني : الذي قرأ القرآن ، وتعلم العلم ، ومع ذلك هو من أول من يدخل النار ؛ لأنه إنما تعلم للشهرة . فقصده ونيته أن يُمدح عند الناس وأن يُثنى عليه ، وأن يكون له شهرة فيما بينهم ، يذكر بها في المجالس ويَشتهر ، ليس قصده وجه اللَّه ، ولا نفع نفسه ، ولا نفع المسلمين ، وإنما قَصَد أن يُمدح بهذا الذكر ، فكان ذلك سببًا في إحباط عمله ، فلم تنفعه قراءته ، ولم ينفعه علمه ، وكذلك ذكره ودعاؤه ونحو ذلك ؛ لأنه لم يكن على نية .

والثالث : المجاهد الذي قُتل في سبيل اللَّه ، ظاهره أنه مجاهد ولكنه ليس

---

(١) يُشير إلى حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكن قاتلت لأن يقال : جريء . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم ...» الحديث ، أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإمارة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٥٢) (٣/١٥١٣ - ١٥١٤) ، من طريق ابن جريج ، قال : حدثني يونس بن يوسف ، عن سليمان بن يسار ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

مجاهدًا في سبيل اللَّه ، وإنما لأجل المدح ، فيقال : فلان شجاع ، وفلانٌ جريءٌ ، وفلانٌ جيدٌ ، وفلان مقدامٌ ، وفلان جبارٌ ذو جراءةٍ وذو قوةٍ وذو بسالة . فهذا قصده الشهرة بين الناس ، فأبطل بذلك جهاده لأجل سوء نيته ؛ فصار عمله غير مقبول .

وقد أبطل اللَّه تعالى الأعمال التي يكون أصلها والباعث عليها الرياء ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ رئاء الناس : أي مراءةً للناس . ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء : ٣٨] ضرب لهم مثلًا لأعمالهم ؛ فتارةً مثَّل أعمالهم بالريح العاصف ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران : ١١٧] . وتارة ضرب مثلا لأعمالهم بالتراب الذي على صفاة أصابه مطرٌ كثيرٌ ، فحمله وبقيت الصفاة ليس عليها شيء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة : ٢٦٤] . وتارة مثَّل أعمالهم بالرماد الذي حملته الريح : ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم : ١٨] . وتارة مثَّل أعمالهم بالسراب الذي تراه من بعيد تعتقد أنه ماءٌ وليس بماء : ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور : ٣٩] هذه أعمال المرائين .

إذن فـ « **الأعمال بالنيات** » بمعنى : أن الإنسان عليه أن يعمل ويحسن عمله ؛ إن صلى فنيته أن يقصد بصلاته وجه اللَّه ، واتباع السنة . وإن تصدَّق فنيته وقصده بهذه الصدقة : الأجر والثواب ، وكذلك إذا حج أو جاهد ، أو قرأ أو أمر بالخير أو نهى عن الشر ، أو دعا إلى اللَّه أو عمِل أيَّ عملٍ صالح اعتبر عمله صالحًا بصلاح النية .

ورد عن بعض السلف أنه قال : « **كم من عمل صالح أفسدته النية ، وكم من عمل فاسد أصلحته النية** » .

فالأعمال بالنيات؛ فإذا تصدق إنسان بصدقة ونيته أن ينفع بها المستحق فوقعت في غير مستحق؛ فله نيته، ولا يقال: إنك أعنت على ما ليس بطاعة، فيقول: أنا نيتي النفع للمستحق. وقد حكى النبي ﷺ عن رجل تصدق بثلاث صدقات: «**قال: لأتصدقن الليلة بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على سارق. فقال: اللهم لك الحمد، على سارق! ثم قال: لأتصدقن الليلة بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يقولون: تصدق الليلة على زانية. فقال: اللهم لك الحمد، على زانية! لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته. فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني. فأتي فقيل له: إن صدقتك قد قبلت، فأما الغني فلعله يعتبر بك وأنت أفقر منه فيكثر من الصدقات، وأما الزانية فلعلها تتعفف بهذا المال وتترك الزنى، وأما السارق فلعله يترك السرقة ويتوب**»[(١)]. أي هذا بسبب صدقتك ويكون لك أجر.

ولا شك أن النية تُميِّز العادة عن العبادة، وقد ذكر بعض العلماء: أن النية تجعل العادة عبادة، فالعادات يثاب عليها بالنية الصالحة كما يثاب على العبادات، دليل ذلك قول النبي ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» يعني: إذا جامع امرأته بنية صالحة فإن له أجرًا - يعني: نوى بهذا الجماع إعفاف نفسه وإعفاف امرأته وأن يُرزق ولدًا صالحًا فإن له أجرًا، ولو كان ذلك بشهوة، فالشهوة هي التي تحمله حتى يفعل هذا الوطء، ولكنه مع النية الصالحة يثاب عليها.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الزكاة: باب إذا تصدَّق على غني وهو لا يعلم (١٤٢١) (٣/٣٤٠ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة: باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت ... (٧٨) (٢/٧٠٩)، كلاهما من طريق عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

ومن الأمثلة: قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: « **إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها وتضعها في في امرأتك** »[1] إذا أنفق الرجل على امرأته أو على ولده بنية صالحة - وهي أن ينفق على من يعول، وأن لا يُضيِّع مَنْ تحت يده، وأن يكفيهم عن الحاجة إلى غيره؛ كان ذلك مما يثاب عليه - مع أنه من الأمور العادية.

فإذا عمل الإنسان بالأمور المعتادة ورجا بذلك الأجر، أُجر؛ لقوله ﷺ: « **إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أجرت عليها** ». وهكذا - أيضًا - الأمثلة الأخرى.

وقد يثاب على قصده فقد يكون في العمل جهتان، ومع ذلك يثاب على إحداهما؛ فمثلًا إذا صام الإنسان وقال: قصدي من الصيام أن تنكسر حِدَّة الشهوة، فإن معي شهوة شديدة والرسول يقول في الصوم: « **إنه له وجاء** »[2] فهل له أجر على هذا الصيام؟ نعم! يثاب إذا كان يريد بذلك أن يعف نفسه عن الفاحشة، حتى لا تمتد عيناه إلى الحرام، ويقصد الامتثال لأمر النبي ﷺ.

فإن نوى بهذا الصيام الأجر الأُخروي وكان مثلًا عنده زوجة وليس بحاجة إلى ما يكسر شهوته، فصام لأجل الثواب الأخروي، فإن له أجرًا، فالأول يثاب على نيته

---

(١) جزء من حديث أخرجه: البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان: باب ما جاء أن الأعمال بالنية .. (٥٦) (١/١٦٥)، وفي « الأدب المفرد » (٧٥٢)، ومسلم في « صحيحه » كتاب الوصية: باب الوصية بالثلث (٥) (٣/١٢٥٠ - ١٢٥٣)، كلاهما من طريق عامر بن سعد عن أبيه - رضي الله عنه - فذكره.

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب النكاح: باب من لم يستطع الباءة فليصم (٥٠٦٦) (٩/١٤ - فتح)، ومسلم في « صحيحه » كتاب النكاح: باب استحباب النكاح ... (٣) (٢/١٠١٩)، كلاهما من طرق عن ابن مسعود مرفوعًا: « يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء ».

ولكنه دون من يقصد بصيامه الأجر الأخروي .

وكذلك لو قدرنا أن إنسانًا بلغه أن الأعمال الصالحة تكون سببًا للرزق فأخذ يعمل أعمالًا صالحة يقول : من حافظ على الصلاة فإن اللَّه يرزقه بغير حساب ، ومن يكثر قراءة القرآن فإن اللَّه يرزقه بغير حساب ، ومن أكثر من ذكر اللَّه تعالى فإن اللَّه يرزقه بغير حساب . فحافظ على الصلاة يقول : أصلي حتى يرزقني اللَّه ، أو أتصدق حتى يخلف اللَّه علي ما تصدقت به ، أو أذكر اللَّه وأقرأ كلامه حتى يرزقني اللَّه رزقًا واسعًا ؛ فهل يثاب عليَّ هذا ؟ نعم ، نقول : إنه يثاب على قدر نيته ، ولكن ليس مثل من قصد بالصلاة أداء الفرائض والأجر الأخروي ؛ لأن قصده بالصلاة الرزق فكأنه يقول : الصلاة تكون سببًا للرزق فأصلي حتى أحصل على رزق وعلى مال . فله أجرٌ حيث إن الصلاة عمل صالح ولكن أجره دون أجر من يصلي حتى يرضى اللَّه عنه أو يصلي أداءً لحق اللَّه أو نحو ذلك .

وكذلك من يعمل أعمالًا صالحة يرجو بها الحفظ ، فإذا سمع أن اللَّه تعالى يحفظ الصالحين والمصلحين عن أسباب الردى والهلاك ، يحفظهم عن العاهات وما أشبهها فيقول : سوف أعمل الصالحات من صدقات وصلوات ، وحج وعمرة وصيام ، وذكر ودعاء وأوراد ، وبر وصلة وإحسان ونحو ذلك ، حتى يحفظني اللَّه من الأعداء . فله نيته ، ولكن أجره أقل من أجر من يعمل هذه الأعمال الصالحة لأجل الثواب الأخروي .

فهذه أمثلة على قوله : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى** » .

ثم إنه ﷺ ذكر الهجرة كمثال على صلاح النية وفسادها ، فمن نوى بهجرته رضا اللَّه تعالى والفرار بدينه من الفتن والأذى ، ونوى التمكن من العبادات وأداء الواجبات ، فنيته صالحة وهجرته مقبولة وله أجرها ، حيث هجر بلدته وأسرته وأهله وماله ومنزله وهرب إلى بلد أخرى ليعبد اللَّه تعالى ، ويسلم من مجامعة المشركين

ومن تخذيلهم وأذاهم وليتفقه في دينه ويكون على بصيرة من أمره ، فهذا هجرته إلى اللَّه ورسوله ، وهي مقبولة وأجره على اللَّه تعالى . فأما من أراد بهجرته منفعة دنيوية ومصلحة عاجلة ، كنكاح امرأة يرغب فيها ، أو مال يحصل عليه فلا أجر له في هذه الهجرة . واللَّه أعلم .

❁ ❁ ❁

الحديث الثاني
بيان الإسلام والإيمان والإحسان

عَن عُمَر – رضي اللهُ عنه – أَيْضًا قال : بَيْنَما نَحْنُ جُلوسٌ عِنْدَ رسُولِ اللهِ ﷺ ذات يومٍ إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عليه أَثَرُ السَّفَرِ ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتى جَلَسَ إلى ﷺ ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ ووَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْهِ ، وقال : يا محمَّدُ أَخْبرني عَن الإسلامِ ؟

فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « **الإسلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمَّدًا رسولُ اللَّه ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ ، وتَصُومَ رَمَضانَ ، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إن اسْتَطَعتَ إليه سَبيلًا** » .

قالَ صَدَقْتَ . فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ . قال : فَأَخْبرني عن الإيمان ؟

قال : « **أَن تُؤْمِنَ باللهِ ، وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ، ورسُلِهِ ، واليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ** » .

قال صدقت . قال : فأخْبرني عَنِ الإحْسانِ ؟

قال : « **أنْ تَعْبُدَ اللَّه كأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاك** » .

قال : فأَخبرني عَنِ السَّاعةِ ؟

قال : « **ما المَسْؤولُ عنها بأَعْلَمَ من السَّائِلِ** » .

قال : فأخبرني عَنْ أَمَارَتِها ؟

قال : « **أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها ، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُون في الْبُنْيانِ** » .

ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قال : « يا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ ؟ » . قُلْتُ : اللهُ ورسُولُهُ أَعلَمُ . قال : « فإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » . رَواهُ مُسْلِمٌ[(١)] .

شرح الحديث :

هذا الحديث أول حديث رواه مسلم بعد المقدمة في أول كتاب الإيمان ابتدأ به « **صحيحه** » ، والحديث السابق ابتدأ به البخاري « **صحيحه** » . فهذان الحديثان تصدَّرا الصحيحين ، وكلاهما عن عمر - رضي اللّه عنه - .

هذا الحديث يعرف بحديث جبريل ؛ لأنه هو الذي جاء في صورة سائل يسأل عن هذه الأشياء ، وهو حديث جامع شريف عظيم ، له مكانته وأهميته . ذكروا أن الصحابة رضي اللّه عنهم كانوا يهابون النبي ﷺ لا يجرؤون على سؤاله ؛ وذلك لمكانته فيما بينهم ، أو لأن اللّه نهاهم بقوله : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة : ١٠٨] ، وبقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة : ١٠١] ، وبقول النبي ﷺ : « **وكره لكم ثلاثًا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال** »[(٢)].

فلما كره لهم كثرة السؤال كانوا يتوقفون عن بعض الأسئلة - حتى ولو كانت

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... (١ :٣) (١/٣٦ - ٣٧) ، والبخاري في « خلق أفعال العباد » (٢٦) ، كلاهما من طريق عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن أبيه - رضي الله عنه - به .

(٢) جزء من حديث المغيرة بن شعبة أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب قول الله تعالى : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١٤٧٧) (٣/٣٩٨ - فتح) ، وفي « الأدب المفرد » (٢٩٧) (ص١١١) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الأقضية : باب النهي عن كثرة السؤال ... (١٢ : ١٤) (٣/١٣٤١) ، من طريق ورَّاد مولى المغيرة بن شعبة عن المغيرة - رضي الله عنه - به .

مهمة ؛ فلأجل ذلك جاء جبريل - عليه السلام - ليسأل النبي ﷺ وهم يسمعون ، حتى يستفيدوا ، فكأنه معلم لهم ؛ لأن جبريل عليه السلام يعرف هذه الأشياء ، ولكن أراد أن يسمعوا الجواب حتى يفهموه وحتى يعرفوا هذه المسميات ؛ مسمى الإسلام ، ومسمى الإيمان ، ومسمى الإحسان .

وفي هذا آداب شريفة للمتعلم ؛ فمنها : المظهر ، فإن مظهره مظهر شريف ، حيث جاء في ثياب نظيفة : « **شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر** » يدل على أنه شاب في غاية القوة ؛ ليحث الشباب على أن يندفعوا للسؤال والاستفادة ، ويحثهم أن يتخلقوا بالنظافة ؛ نظافة الثياب ، وبجمال الظاهر . واستنبط عمر وتخيل أنه ليس من البشر ؛ كيف عرف ذلك ؟ لأنه ليس من أهل هذه البلاد ، وليس من أهل البراري ، وليس من أهل البلاد البعيدة النائية ، إذن ماذا يكون ؟ إما من الجن أو من الملائكة . هذا مأخوذ من قوله : « **لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد** » أي ليس من أهل المدينة ، ولو كان من أهل المدينة لعرفه واحد منا ، ولو كان من أهل البلاد البعيدة لرأينا عليه أثر السفر ؛ فالمسافر إذا جاء من بلاد بعيدة يسير يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام ، رأوا عليه آثار السفر ؛ رأوا سمرة في وجهه وبحة في صوته ، ورأوا عليه سحالة ، أو رأوا آثار السفر في لباسه أو نحو ذلك ، ولكن هذا ليس عليه آثار السفر ، فدلَّ على أنه ليس من أهل البراري ولا من أهل البلد ؛ إذن من يكون ؟

هذا دليل على أنه من الملائكة . كان حقًّا من الملائكة .

علَّم الصحابة أيضًا كيف يتلقون العلم عن معلميهم ؛ وذلك بصفته التي تواضع بها ؛ فإنه قابل النبي ﷺ وجهًا لوجه ؛ ليكون ذلك أدل على الإقبال من السائل والمسؤول .

وكذلك - أيضًا - برك على رجليه ، حيث جلس جلسة المفترش - افترش

رجلًا ووضع ركبتيه على الأرض حتى ألصقهما بركبتي النبي ﷺ أو قرَّبهما منه ، ثم وضع كفيه على فخذيه كهيئة جلسة الجالس بين السجدتين ، جلسة هيئة تدل على التواضع وتدل على الإقبال من السائل ليكون ذلك أدعى إلى الاستفادة .

هذه مما علمهم بالأفعال ، فكما علمهم بالأقوال فكذلك علمهم بالأفعال .

أما الأقوال : فإنه صدَّر السؤال بقوله : « **يا محمد** » ؛ ليوهمهم أنه ليس من العارفين فكأنه من الأعراب أو من البوادي ونحوهم ؛ فإن هذه عادة السائلين منهم . أما المسلمون وأهل المدينة فقد أدبهم اللَّه ونهاهم أن يدعوه باسمه فقال تعالى في سورة النور : ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور : ٦٣] أي : لا تدعونه باسمه ؛ تقولون : يا محمد ، بل ادعوه بوصفه الذي اختص به ؛ قولوا : يا نبي اللَّه ، يا رسول اللَّه ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ الآية .

ولما كانت عادة الأعراب مناداته باسمه ؛ دعاه - عليه السلام - باسمه ، فقال : يا محمد ؛ ليوهمهم أنه سائل غريب .

أما السؤال الأول : وهو قوله : أخبرني عن الإسلام .

أي : لأستفيد بهذه المعرفة ؛ فلما سأله أخبره النبي ﷺ بأعمال الإسلام ولم يخبره بآثار الإسلام أو بسبب تسميته إسلامًا . أخبره بالأعمال الظاهرة ، وفسره بالأركان ، فأركان الإسلام هي هذه الخمسة : الشهادتان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، ويأتي الكلام عليها في حديث ابن عمر - رضي اللَّه عنهما - الآتي وهو قوله ﷺ : « **بني الإسلام على خمس** ....» إلخ .

وهنا نتكلم على تسميته إسلامًا .

والإسلام في اللغة : الإذعان ، أسلم يعني : أذعن ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء : ١٢٥] .

فـ ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ : يعني : أذعن له وانقاد .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣].

(أسلموا): يعني: أذعنوا وانقادوا واستسلموا له. أسلموا: انقادوا لأمره وتحت تصرفه وتقديره، فالإسلام في اللغة: هو الإذعان، فلو رأيت بعيرًا يقوده إنسان بخطامه وقد انقاد لصاحبه قلت: هذا البعير قد استسلم لهذا القائد ينقاد بدون شد وبدون تمرد، بل هو ذليل ينقاد معه إلى ما يريد. وإذا كان الجمل - مثلًا - شرودًا ينازع صاحبه ويتفلت منه قلت: هذا البعير لم يستسلم ولم يذعن، بل هو يحاول التفلت، ولذلك ورد في حديث فيه ضعف لفظه: «**مثل المؤمن - أو مثل المسلم - كمثل الجملِ الأنف؛ إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرةٍ استناخ**»(١).

فالجمل الأُنف: يعني المدلَّل الذلول. إن قيد: يعني بخطامه انقاد، ولم يتفلت، وإن أُنيخ استناخ ولو على صخرة؛ فهكذا مثل المسلم؛ فالمسلم هو المستسلم، ولذلك فسر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (الإسلام) بقوله:

«**الاستسلام للَّه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله - هذه حقيقة الإسلام**». يعني حقيقته لغةً.

«**الاستسلام للَّه**» - يعني: أسلم وجهه للَّه، وأسلم أمره للَّه، واستسلم لطاعته وامتثلها، وصار طوعًا لأمر ربه، واستسلم للَّه تعالى لذلك قال اللَّه تعالى لإبراهيم: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] يعني: استسلمت للَّه تعالى، فكل الدين الذي فيه هذا الإذعان يسمى إسلامًا - كما في قول اللَّه تعالى عن يعقوب لبنيه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكذلك قول

---

(١) أخرج القضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٩) (١/ ١١٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٢٧٣/٦)، كلهم من طريق نافع عن ابن عمر مرفوعًا: «المؤمنون هينون مثل الجمل إن قدته انقاد وإن استنختة ناخ». =

الحواريين : ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة : ١١١] وغيرها - فهذا سبب تسميته إسلامًا .

فالمسلم هو الذي يستسلم لأمر اللَّه ، إذا قال له اللَّه : افعل . انقاد لأمر اللَّه وفعل . إذا قال له : اترك هذا . انصرف عنه وتركه ، فهو دائمًا مطيع لأمر اللَّه ، مستسلم للَّه منقاد لأمره ، فهو على ما يريد منه ، ولكن النبي ﷺ في هذا الحديث جعل علامة الإسلام فعل هذه الأركان الخمسة ، فإذا رأيت الذي يفعلها فيأتي بالشهادتين ويحقق معناهما ، ويحافظ على الصلوات الخمس بصفاتها وهيئاتها ، ويؤدي زكاة ماله ، ويصوم شهر رمضان ، ويؤدي الحج الذي فرضه اللَّه عليه ، عرفت أنه ممن أسلم للَّه تعالى - وإن كان هذا إسلامًا ظاهرًا فاللَّه يحاسبه على ما يقوم في قلبه . هذا تعريف الإسلام .

ثم قال : أخبرني عن الإيمان ؟ قال : « **أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** » . قال : صدقت . فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : « **أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل** » . قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : « **أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان** » قال : ثم انطلق فلبثنا مليا فقال النبي ﷺ : « **يا عمر ، أتدري من**

= قال العقيلي : « ليس له أصل عن ثقة » . وقال أبو حاتم والعقيلي عن عبد الله بن عبد العزيز - أحد رواته - : « أحاديثه منكرة » ، وله شواهد ، منها : ما أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٣٧١) (١/ ٣٥١) من حديث مكحول بسند صحيح لكنه مرسل ، ومنها : ما أخرجه الإمام أحمد (١٢٦/٤) ، وابن ماجه (٤٣) ، والحاكم (٩٦/١) من طريق ضمرة بن حبيب ، عن عبد الرحمن بن عمرو السهلي عن العرباض بن سارية .

قال الألباني : « وهذا إسناد صحيح رجاله معروفون غير عبد الرحمن ، وتابعه على روايته ثلاثة من الثقات » .

السائل ؟ » . قلت : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** » .

والشاهد : أنه جعل هذا كلَّه من الدِّين - أي : جعل تفسير الإسلام من الدين ، وتفسير الإيمان وتفسير الإحسان كله من الدين ، ومعلومٌ أن الدين هو الذي اختاره اللَّه لهذه الأمة فلابد أن يكملوه حتى يكونوا من أهله .

وقد عرفنا تفسير الإسلام من حيث العموم ، ويأتينا فيه حديثٌ - أيضًا - في تفسير أركانه .

ونتكلم الآن على أركان الإيمان - على وجه التذكير والتنبيه - وما تستلزمه هذه الأركان الستة ، وكذلك أدلتها وبيان آثارها على أهلها .

وأركان الإيمان ستة وهي تتفاوت في أهميتها ، وأهمها هو : الإيمان باللَّه ، وهو الجامع لها ، فإن من آمن باللَّه استلزم إيمانه الإيمان ببقية الأركان .

ويليه في الأهمية : الإيمان بالرسل ؛ لأنهم الواسطة بين اللَّه وبين الأمم من خلقه ، ثم الإيمان باليوم الآخر ؛ لأن الإيمان به يستدعي الاستعداد له .

ويدخل في الإيمان باللَّه : الإيمان بأنواع التوحيد ، والإيمان بالأسماء والصفات ، وهو : الإيمان بأنه وحده المعبود المستحق للعبادة دون ما سواه ، فمن آمن باللَّه آمن بأنه العظيم الأعظم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، إلى آخر أسمائه . وآمن بأنه رب العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، وبأنه مالك الملك ، المُدبِّر لمخلوقاته ، وأنه الرَّزاق ذو القوة المتين . فمن آمن بهذه الصفات ونحوها استلزم ذلك أن يعبده بل يخصه بالعبادة ، فمن آمن بأن اللَّه يعلم خفايا النفوس وضمائر القلوب وأنه بكل شيء عليم ، استلزم إيمانه أن يخلص للَّه وألا يشتمل قلبه على رياء أو شرك أو نية فاسدة ؛ لأنه يستحضر عِلْم رَبِّه بما يخفيه وما توسوس به نفسه .

ومعنى ذلك قد يطول بنا فالأصل أن الإيمان باللَّه حق الإيمان يلزم منه أن

يخاف المؤمن من عذاب اللّٰه وأن يرجو ثواب اللّٰه . وأن يعبد اللّٰه ويخلص في عبادته . وأن يبتعد المؤمن عن المحرمات فيترك المعاصي - خفيها وجليها - وأن يستعد المؤمن للقاء اللّٰه . وأن يدعو اللّٰه ويرغب إليه ويعلق قلبه به . فإن من آمن باللّٰه فعليه أن يستحضر عظمته وجلاله وكبرياءه ، مما يكون سببًا في قوة يقينه وكثرة حسناته .

وأما الإيمان بالملائكة : فيدخل فيه من سمّاهم اللّٰه تعالى : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨] ، سمى اللّٰه جبريل وميكال ، وسمى أيضًا في القرآن مالكا في قوله : ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف : ٧٧] . وبقيتهم غيرهم ذكر في بعض الأحاديث : منكر ونكير ، ملكان يعذبان الأموات في قبورهم أو يفتنانهم ، وسمّى رضوان خازن الجنة وغيرهم ، وذكر ملك الموت : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة : ١١] .

وبكل حال : نؤمن بمن سمى اللّٰه من الملائكة ، وبما ذكر اللّٰه تعالى عنهم وما وصفهم به ، قال تعالى : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآية [الأنبياء : ٢٦، ٢٧] وغير ذلك من الآيات التي في مدحهم ، وكذلك ما ورد في عددهم وكثرتهم كقوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

والإيمان بهم يستلزم الإيمان . بما ورد في وصفهم ، فقد ذكر اللّٰه تعالى أنهم يكتبون الأعمال في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار : ١٠، ١١] . وفي قوله تعالى : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٧، ١٨] وفي قوله تعالى : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] نؤمن بذلك ونستعد له ، فإذا عرف الإنسان أن أعماله تكتب عليه ، حمله ذلك ألا يعمل إلا الصالحات .

وأما الإيمان بالكتب : فنؤمن بأن اللّٰه تعالى أنزل كتبًا على أنبيائه ، أنزل على

نوح ، وعلى داود ، وعلى هود ، وعلى شعيب وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى ونحوهم ، أنزل عليهم كتبًا ، وهذه الكتب ضمنَّها أحكامًا وعقائد وعلومًا وتشريعات ، وألزم من أنزلت عليه أن يعمل بها وأن يتلوها ويتدبرها ، وحذَّر من الكُفر بها وتوعَّد عليه ؛ قال تعالى في ذمّ المنافقين : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء : ١٣٦] . فجعل من جملة من توعَّد عليه بالضلال : الكفر بالكتب : كإنكار أنها من اللَّه ، وأن ما تضمنته من شريعة اللَّه . وكذلك يستلزم الإيمان بها العمل بها ، حيث إنها أنزلت على من قبلنا ولم تصل إلينا فيكفينا ما أنزل علينا - وهو الكتاب الذي أنزله اللَّه على نبينا ﷺ وهو خاتمة الكتب ، وهو الناسخ لما قبله ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨] .

فكتاب اللَّه : القرآن ؛ الذي أنزل على قلب محمد ﷺ هو حظ هذه الأمة ، ولا يجوز لهم أن يرجعوا إلى كتب من قبلهم ، ودليل ذلك : أن النبي ﷺ رأى مرة مع عمر بن الخطاب أوراقًا من التوراة أعجبه ما فيها فقال : « **أمتهوكون يا ابن الخطاب ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي** »(١)

---

(١) يشير إلى حديث جابر - رضي الله عنه - أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه للنبي ﷺ فغضب ، فقال : « **أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده ، لو أن موسى ﷺ كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني** » . وهو حسن لغيره : أخرجه الدارمي في « سننه » (١/١١٥) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٣٣٨، ٣٨٧) ، وابن أبي عاصم في « السنة » رقم : (٥٠) ، والبزار في « مسنده » ، وأبو يعلى في « مسنده » - مختصرًا - (٢١٣٥) (٤/١٠٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢/٤٢) ، وزاد الألباني في « الإرواء » (١٥٨٩) : الهروي في « ذم الكلام » (٤/٢٠٦٧) ، والضياء المقدسي في « المنتقى من مسموعاته بمرو » (٢/٣٣) . كلهم من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر به .

قال الحافظ في « الفتح » (١٣/٢٨٤) : « رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار ، ورجاله موثقون ، =

فأمره أن يقتصر على ما جاءنا به ، جئتكم بهذه الشريعة « **بيضاء نقية** » تغنيكم عن أن ترجعوا إلى غيرها ، فلا حاجة لكم أن تقرءوا كتب الذين من قبلكم ، وذلك أن اللَّه أخبر أنه دخلها التحريف فهم يحرفون الكلم عن مواضعه . يحرفون الكلم من بعد مواضعه . قال اللَّه تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة : ٧٩] توعّدهم على أنّهم يكتبون شيئًا وينسبونه إلى اللَّه ، ولذلك قال تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٨] . وإذا كان كذلك فإننا لسنا بحاجة إلى كتبهم ولا إلى ما يكتبونه ، فكما أن محمدًا حظنا من الرسل فكتابه حظنا من الكتب .

نؤمن بالكتب كلها وأنها كلام اللَّه ، وأن اللَّه أنزلها على أنبيائه وفيها شرائعه ، ولكن العمل بما في شريعتنا .

وأما الإيمان بالرسل : فالمراد بهم : من حمّلهم اللَّه رسالة إلى قومهم أو إلى أهل زمانهم من البشر ، وذلك لأن اللَّه تعالى أرسل في كل أمةٍ رسولًا : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ٢٤] . ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] . ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر : ٧٨] . فنصدق بأن اللَّه أرسل الرسل فمنهم من قص اللَّه علينا خبره في القرآن ، ومنهم من لم يذكر اسمه ولا قومه ولا زمانه ، ولكن نصدق بأن هناك رسلًا كُثْرًا لا يعلمهم إلا اللَّه .

إيماننا بالرسل يستلزم أن نحبهم ، وأن نؤمن بصدقهم ، وأن نشهد بمعجزاتهم

= إلا مجالدًا فهو ضعيف » ا.هـ .

وأعله في « الإرواء » (١٥٨٩) بمجالد ثم ذكر له شواهد وحسنه .

وآياتهم التي نزلت عليهم وأيدهم اللَّه بها ، سواءً ما ذكر في القرآن كآيات موسى التي تأيد بها : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] . وكذلك آيات عيسى التي تأيد بها كقوله تعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] . وكقوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] . نؤمن بأن اللَّه أيديهم بهذه المعجزات لتكون دلالة على صدقهم ، ومع ذلك فإنه ما علينا إلا مجرد الإيمان بهم واعتقاد صدقهم وأنهم لم يقولوا إلا ما أرسلوا به .

ولكن الاتِّباع يختصُّ برسول هذه الأمة ، الذي هو خاتم الرسل وآخرهم نبينا محمد ﷺ ، فرسالته أشمل وأكمل وأعم ؛ لأنه أرسل إلى الناس كافة ، ولأن شريعته نسخت الشرائع ، ولأن دينه قائم إلى أن تقوم الساعة ، ولأن جميع الأمم وجميع من على وجه الأرض مُكلَّفون بأن يكونوا من أمته وأن يكونوا من أتباعه ، فعلى هذا يلزمنا :

أولًا : الشهادة له بالرسالة .

ثانيًا : الاتباع له .

وحتى نكون حقًّا صادقين في هذه الشهادة ، فيجب الاقتصار على شريعته .

وأما الإيمان باليوم الآخر : فالمراد به البعث بعد الموت - كما ورد في بعض الروايات - أي : نصدق أن الناس بعد الموت مبعوثون محاسبون ومجزيون بأعمالهم ؛ إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

وأهم أركان الإيمان : الإيمان بالبعث والنشور والجزاء على الأعمال ؛ جزاءٌ على الإحسان إحسانًا ، وجزاءٌ على الإساءة بما يستحقه المسيء .

هذا من أهم الأركان ؛ فمن آمن باليوم الآخر وصدق أنه بعد الموت يبعثه اللَّه ويعيده حيًّا مرة أخرى ليحاسبه على عمله الذي قدَّم لآخرته ، إذا عمل عملًا صالحًا

لقي جزاءه السعادة والفوز والظفر بالمطلوب . وإذا عمل سوءًا جازاه اللَّه بما يستحق : ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] . يحاسب على كل عمله على النقير والقطمير والفتيل ، من آمن بهذا فإنه ولابد سيستعد لذلك ، ويتأهب له ، ويعمل الأعمال الصالحة التي تنجيه في ذلك اليوم ، الذي يفترق فيه الناس فريق في الجنة وفريق في السعير .

ولما كان المشركون ينكرون اليوم الآخر والبعث بعد الموت ، كثر في القرآن ذكره والاستدلال عليه ، والأدلة على إحياء الموتى من القبور وإعادتهم بعد التفرق ، ذهاب الأبشار وذهاب العظام وصيرورتهم ترابًا وعظامًا ، وتعددت الأدلة والبراهين والمعجزات التي تدل على أنه يبعث من في القبور ، والرد على من أنكر ذلك . وبكل حال الإيمانُ به من أهم أركان الإيمان .

ثم ختم ذلك بالإيمان بالقدر خيره وشره .

والإيمان بالقدر قد ذكر كلام يتعلَّق به في كتاب « **السنة** » كما ذكرنا وفيه الكفاية ، فليراجع في السنة للخلال ولعبد الله بن أحمد وفي شرح الواسطية .

بعد ذلك ذكر الإحسان بقوله : « **أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » . وقسم الإحسان إلى هاتين المرتبتين :

المرتبة الأولى : « كأنك تراه » .

والثانية : « أنه يراك » .

وتسمى الأولى : « عين المشاهدة » ، وتسمى الثانية : « **عين المراقبة** » .

ولا شك أن الأولى أكمل ، وهو الذي يعبد اللَّه كأنه يشاهده ، فإن الذي يعبد اللَّه ويتمثل واقف بين يديه ، وأن ربه أمامه في قبلته ، يتمثل أنه يرى اللَّه ؛ ماذا تكون حالته ؟ هل يغفل ؟ هل يسهو ؟ هل يوسوس ؟ هل يحدث نفسه في عبادته ؟

إذا استحضر هذا الاستحضار ، فلابد أن يحضر قلبه ويتدبر ما يقول ، ويكون

مهطعًا مُقنعًا مخلصًا خاشعًا خاضعًا ، متواضعًا أتم التواضع ؛ لأنه يعبد اللَّه ربه كأنه يشاهده .

وأما المرتبة الثانية التي هي : « **عين المراقبة** » . فهو أنك إذا لم تكن تراه فإنه يراك ، تستحضر رؤيته لك كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٨ - ٢١٩] . ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس : ٦١] . ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] . والآيات الدالة على هذا مشهورة ، وهذا لا شك عظيم الأثر فهو يستدعي الإخلاص في العمل وإكماله وعدم الغفلة فيه ، والبعد عن أن يدخل عمله نقصٌ أو خلل .

هذا من آثار هذا الإحسان ، وبذلك عرف أن هذه المرتبة من أقوى وأفضل المراتب .

فمرتبة « **الإحسان** » أرفع من مرتبة الإيمان كما أن مرتبة الإيمان أرفع من مرتبة الإسلام .

ثم ختم الحديث بأشراط الساعة ، التي إذا رئيت عرف قرب الساعة :

الأول قوله : « أن تلد الأمة ربتها » تَكْثُر السراري حتى إذا اتخذ الإنسان سرية - يعني مملوكة - ووطئها وولدت له بنتًا فإن بنتها تستخدم أمها لأنها بنت سيدها ، تأمر أمها وتنهاها وتكلفها ، فالأم مملوكة والبنت بنت المالك - ولو كانت بنتها ، فهي بنت سيدها .

« **تلد الأمة ربتها** » - يعني : سيدتها .

والأَمَة : هي المملوكة ، وهذا قد وقع كثيرًا في الأزمنة الماضية وكَثُر اتخاذهم للسراري وإن كان قليلًا في هذه الأزمنة ، ولكنه قد وجد في الأزمنة المتقدمة .

وأما العلامة الثانية فإنها واقعة وهي قوله : « **وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء**

الشاء يتطاولون في البنيان » . يراد بهم الفقراء أو أهل البوادي .

العالة : يعني الفقراء .

ورعاء الشاء : أي الذين يرعون الشاء - يعني الإبل والغنم .

تراهم وقد تحضروا - سكنوا القرى - تطاولوا في البنيان ، وتفاخروا بمساكنهم ، يقول أحدهم : أنا أفخر من فلان وأكثر وأحسن منه بناءً . ويقول الثاني : لابد أن أكون أحسن منه ، فيتطاولون في البنيان ، وقد كانوا قبل ذلك يتبعون أذناب الإبل أو الغنم يرعونها ويفتخرون برعائها ، فاتخذوا بعد ذلك قرى ومدنًا واستقروا فيها .

فجعل النبي ﷺ هذا من أشراط الساعة . وبكل حال فأشراط الساعة مذكورة في كثير من الكتب ، وقد أخبر اللّه تعالى بقربها : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب : ٦٣] . ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى : ١٧] . وقال تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] . وقال تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر : ١] ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١] .

فإذا علم الإنسان أن الساعة قريب ، استعد حتى لا تفاجأه وهو على إعْراضه وإهماله ، لأنه عند قيامها ينفخ في الصور النفخة الأولى فيموت من كان على وجه الأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر : ٦٨] ، أي : صعقوا - يعني ماتوا - .

وهذه النفخة تأتي بغتة وعلى حين غفلة ، لذا على الإنسان أن يستعد لهذه النفخة حتى تأتيه وهو على أهبة ، وهو من المؤمنين الذي يحمد إيمانهم ويحسنون أعمالهم .

❁ ❁ ❁

الحديث الثالث
أركان الإسلام

عن أبي عَبْدِ الرَّحْمنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطابِ - رضي اللهُ عنهما - قال : سَمِعْتُ رسُولَ اللّه ﷺ يقولُ : « **بُنَي الإسلامُ على خَمْسٍ : شهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ ، وإقَامِ الصَّلاةِ ، وإيتَاءِ الزَّكاةِ ، وحَجِّ البَيْتِ ، وصَوْمِ رَمَضَانَ** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

هذا الحديث في أركان الإسلام وبه يفسر ، فالإسلام ما تضمنه هذا الحديث . وقد تقدم في الحديث الثاني ذكر هذه الخمسة تفسيرًا للإسلام في سؤال جبريل للنبي ﷺ : أخبرني عن الإسلام ؟ فقال : « **أن تشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا** » .

هذا هو تفسير الإسلام ، وجعله في هذا الحديث كالبناء ، فكأن الإسلام بناء مكونٌ من أركان ، لذلك سماها العلماء : أركان الإسلام ، ويُعرِّفون الركن بقولهم : « **ركن الشيء : جانبه الأقوى** » .

فمثلًا : هذا المسجد له أركان ، فهذا الجانب ركن - جانب قوي - وهذا

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب دعاؤكم إيمانكم (٨) (٦٤/١) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان أركان الإسلام ... (٢٢) (٤٥/١) ، كلاهما من طرق عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به .

الجانب ركنٌ - جانب قوي - فأركانه التي يعتمد عليها هي جوانبه ، ومعلومٌ أنه إذا سقط أحد جوانبه ، فالغالب أنه يتداعى للسقوط ؛ يجتذب بعضه بعضًا فيسقط . أو أنه يبقى مختلًا . لا يكون بناءً كاملًا ، فإن الدار إذا سقط أحد جوانبها صارت مأوى للسباع وللبهائم وللدواب وللحشرات ، لا يستقر الساكن فيها حتى يقيم ذلك الجانب الذي سقط لتكون صالحةً للسكنى . هذا تعريف .

وهناك تعريف ثاني ؛ فيقولون : **« ركن الشيء : جزء ماهيته »** يعني هو جزء منه يتكوّن من مجموعه تلك الأركان . فماهية الشيء يعني : ذاته التي يتكون منها ، سواءً كانت شخصًا أو عرضًا ، فإذا قلنا - مثلًا - : الإنسان له أركان يتكون من مجموعها ذاته ، فيده جزء منه - ركن ، ورأسه ركن ، وبطنه ركن ، وظهره ركن ، ورجله ركن . وكذلك أجزاؤه الباطنة ، قلبه جزءٌ منه ، وكبده جزءٌ منه ، مجموع هذه الأركان يتكون منها الإنسان .

وكذلك كل المخلوقات ، حتى ولو بعوضة فهي ذات أركان - يعني : أجزاء - من مجموعها يتكون هذا المخلوق .

وإذا كان غير محسوس ؛ فأركانه الأجزاء التي يكمل بها ، فنحن إذا قلنا - مثلًا - : الحج أربعة أركان ؛ الإحرام والوقوف والطواف والسعي ، فمعناه : أن هذه الأشياء يتكون منها هذا النسك . فكذلك إذا قلنا : الإسلام له أركان : الشهادتان والصلاة والزكاة إلى آخره ، فمعناه : أن الإسلام ماهيته تتكون وتتجمع من هذه الأركان ، فمن أخل بشيء منها اختل إسلامه ، أو نقص إسلامه فلا يكون مسلمًا حقا كامل الإسلام ، إلا إذا كمّل هذه الأركان - فيقال : أتى بأركان الإسلام .

وشرح هذه الأركان يطول بنا - مثلًا - : الشهادتان ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ؛ لها ركنان : **« النفي والإثبات »** ولها معنى وهو : **« أن لا معبود بحق إلا الله »** . ولها شروط : شروطها المجموعة في قوله :

علمٌ يقينٌ وإخلاص وصدقك مع   محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما   سوى الإله من الأنداد قد أُلِّهَ

ولا تفيده شهادة : لا إله إلا اللَّه ، إلا إذا أكملت هذه الشروط وتمَّ العمل بها ، وكذلك فوائدها وحقيقتها وأنه لا يكتفى بمجرد التَّلفُّظ بها ، بل لابد مع التلفظ من العمل . والمقصود بها : معناها وحقيقة لفظها .

ويقال كذلك في شأن شهادة أن محمدًا رسول اللَّه : أن يعرف أن الرسول ﷺ له حقوق على أُمَّته ولا يجوز أن يخلط بين حقه وبين حق اللَّه تعالى .

للرب حق ليس يشبه غيره   ولعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقًّا واحدًا   ....

فشهادة أن محمدًا رسول اللَّه لها معنى .

وإذا قيل : ما معناها ؟

تقول : إن معناها طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وألا يعبد اللَّه إلا بما شرع ، وأنه عَبْد لا يعبد ، ورسولٌ لا يكذب ، بل يطاع ويتبع .

وتقول : إن مقتضاها : تصديقه والعمل بشريعته وتَقَبُّل ما جاء به .

وأنه يدخل فيها الإيمان به – يعني : الإيمان بأنه مرسل من ربه ، كما أمر اللَّه بذلك بقوله : ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن : ٨] .

ويدخل فيها طاعته : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء : ٨٠] .

ويدخل فيها محبته ، لقوله ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥) (١/ ٧٥) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب وجوب حب النبي ﷺ ... (٦٩) (١/٦٧) ، =

ويدخل فيها اتباعه، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويدخل فيها التأسي به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ويعم الوعيد من ترك شيئًا من سننه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعني: يعصونه ويتركون ما أمرهم به.

وكذلك أيضا من حقوقه ﷺ توقيره في حياته وتوقير سنته بعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]. وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ولا شك أن أصل هذه الأشياء هي الشهادة له بالرسالة، فمن شهد له أنه مرسلٌ حقًّا فلابد أن يعمل بسنته ويؤمن به ويحبه وينصح له ويتبعه ويوقر سنته، هذا أثر من آثار حقِّه، ولكن لا يصل الأمر إلى أن يُجْعَل حقُّه حقَّ اللَّه، فإن هذا غلوٌّ منهي عنه، وقد قال ﷺ: **«لا تُطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد اللَّه ورسوله»**(١). والمسيح أيضًا عبد للَّه، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

= من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس - رضي الله عنه - به.
ومن طريق شعبة عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - به. أخرجه أيضًا - البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان: باب وجوب محبة الرسول ﷺ ... (٧٠) (٦٧/١).

(١) هو جزء من حديث لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الحدود: باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت (٦٨٣٠) (١٤٨/١٢ - ١٤٩ - فتح) مطولًا، وفي مواضع أخرى من «صحيحه»، من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

كذلك كان ينهي ﷺ - عن أن يرفع في مدحه بأشياء حتى يُسوَّى بالله فمثلًا : لما قال له وفد بني عامر : يا سيدنا وابن سيدنا . قال : « **السيد الله** »[(١)] . أي من باب التواضع . قالوا : وأفضلنا فضلًا[(٢)] ، وأعظمنا طولًا . قال : « **أيها الناس ، قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** »[(٣)] . وهذا من تواضعه وإلا فهو مشهود له بالسيادة حتى قال ﷺ : « **أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر** »[(٤)] . وله فضائله التي فضَّله الله بها على

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٢١١) (٨٣) ، وأبو داود في « سننه » كتاب الأدب : باب في كراهية التمادح (٤٨٠٦) (٤/٢٥٥) ، والنسائي في « الكبرى » (١٠٠٧٤، ١٠٠٧٦) (٦/٧٠) ، وبنحوه (١٠٠٧٥) (٦/٧٠) ، وفي « عمل اليوم والليلة » (٢٤٥، ٢٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٤/٢٤) ، وبنحوه (٤/٢٠) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » بنحوه (١٤٨٢) (٣/١٥٣) . كلهم من طريق مُطرِّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه - رضي الله عنه - وكان في وفد من بني عامر به . وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » .

(٢) وفي رواية : أنت أفضلنا فيها قولًا ، وأعظمنا فيها طولًا .

(٣) أخرجه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٢٤٩) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ١٥٣، ٢٤٩) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١٣٠٩) (ص٣٩٠) ، (١٣٣٧) (ص٣٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢٤٠) (١٤/١٣٣) . كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك . فذكره .
وأخرجه النسائي في « الكبرى » (١٠٠٧٧) (٦/٧٠) ، وفي « عمل اليوم والليلة » (٢٤٨) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت وحميد عن أنس به .
وأخرجه أحمد في « مسنده » (٣/٢٤١) من طريق حماد عن حميد عن أنس به .
وصحح الأرناؤوط إسناده على شرط مسلم في « هامش ابن حبان » ، ولفظ أنس : أن رجلًا قال : .... وفي رواية : أن أناسًا قالوا .

(٤) أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب التفسير : باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨) (٥/٣٠٨) وقال : « حسن صحيح » ، وفي كتاب المناقب : باب ما جاء في فضل النبي ﷺ (٣٦١٥) (٥/ ٥٨٧) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الزهد : باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨) (٢/١٤٤٠) ، وأحمد في « مسنده » (٣/٢) . كلهم من طريق علي بن زيد بن جُدْعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد - رضي الله عنه - به . =

الرسل وقد نالت أمته - أي وصل الفضل فيها إلى أمته - فصار لهم مَيزة حيث إنهم أفضل الأمم، كما أن نبيهم أفضل الأنبياء.

الناس في حق النبي ﷺ قسمان:

منهم من فعل ما نهاه عنه وترك ما أمره به، فالذين يدَّعون - مثلًا - أنهم يحبون الرسول ﷺ ويوقرونه ومع ذلك يحلفون به ويدعونه في الشدائد: يا رسول اللَّه مدد. أو مُدَّنا يا رسول اللَّه. ونحو ذلك - كأنهم يعبدونه، نراهم مع ذلك يعصونه ويخالفون كثيرًا من إرشاداته وأوامره التي يأمرهم بها، أو يتكاسلون عن الصلوات ويتخلفون عن الجماعات، أو يحلقون اللحى ويسبلون اللباس، أو يشربون الخمور وقد سمعوا الوعيد فيها، ونهي النبي ﷺ عنها، فكيف يقولون إنهم يحبونه؟!! لو كانوا يحبونه محبة صادقة لما فعلوا هذه المخالفات ونحوها.

وعلى كل حال فإن الكلام على الشهادتين معروف قد أطال العلماء الكلام على ما يتعلق بهما.

وأما الأركان الأربعة الباقية:

وهي إقام الصلاة: فالمراد إتمامها - كما جاء في صفتها، فكلما يذكر اللَّه الصلاة يأمر بإقامتها، وليس المراد بالإقامة الكلمات التي يتلفظ بها المؤذن وفي

= وعلي بن زيد بن جدعان مجمع على ضعفه.
وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل: باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨) (٤/١٧٨٢)، وأبو داود في «سننه» كتاب السنة: باب التخيير بين الأنبياء... (٤٦٧٣) (٤/٢١٨)، وأحمد في «المسند» (٢/٥٤٠).
- كلهم - من طريق الأوزاعي عن أبي عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ...».
وصححه الألباني والأرناؤوط.

أثنائها يقول: قد قامت الصلاة، بل المراد بإقام الصلاة: فِعْلهَا أو إظهارها وإعلانها، وذلك لأن الصلاة تعتبر من أظهر شعائر الإسلام وأبرزها، فلابد أن تكون قائمة في العيان، ولأجل ذلك يُنادى بها على رؤوس الأشهاد، وتصلى في هذه المساجد جماعات - هذا معنى إقامتها.

وأما إيتاء الزكاة: فالمراد دفعها لمستحقها وإخراج المال أو الجزء من المال الذي يسمى زكاة، يعني: تَطهيرًا - هذا سبب تسميتها زكاةً؛ من الزكاء الذي هو النماء. زكا المال: يعني نما وكثر. أو من التزكية التي هي التطهير: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] يعني: تُطهِّرُوها - ويقال: زكيت المال: يعني طهرته.

فالزكاة طُهرةٌ للمال من المكاسب الرديئة ونحوها وسبب في نمائه وزيادته، ولهذا جاء في الحديث: «**مانقصت صدقةٌ من مال**»(١).

وأما الصيام: فمعروف أنه صيام رمضان، الذي جعله اللّه ركنًا من أركان الإسلام وأمر به وفرضه، وأكّده النّبي ﷺ.

وأما الركن الخامس: فهو الحج. ومعروفٌ أنه قصد البيت الحرام لأداء تلك المناسك، وأن اللّه تعالى فرضه وجعله من شعائر الإسلام الظاهرة.

هذه هي أركان الإسلام ومن كملها فقد أتى بالأركان.

ومعلوم أن الإسلام يحتاج إلى مكملات زيادة على الأركان حتى يتم الانتفاع به، وقد ضربنا مثلًا بهذا المسجد أن له أربعة أركان - يعني: أربعة جوانب، كل جانبين متقابلان، وأن الركن الخامس هو السقف مثلًا، والعمد التي يعتمد عليها،

---

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه**». أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة: باب استحباب العفو والتواضع (٦٩) (٤/٢٠٠١)، من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

وبذلك يكون قد تم البناء ولكن لا ينتفع به إلا بعد ما تكمل مكملاته ، فهو يحتاج إلى أبواب ، يحتاج إلى نوافذ ، يحتاج إلى تجميل وتزيين ، يحتاج إلى إنارة ، يحتاج إلى تكييف ، يحتاج إلى فرش .

وهكذا بقية شعائر الإسلام ، فمثلًا لم يذكر الجهاد في سبيل اللَّه ، ولم يذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا الحب في اللَّه والبغض في اللَّه ، ولا الدعوة إلى اللَّه تعالى - مع أنها من وظائف الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وكذلك بر الوالدين وصلة الأرحام وإحسان الجوار وغيرها ؛ فكثير من الأعمال لم تُذْكر في هذا الحديث . والإسلام يكمل بهذه الأعمال حتى ينتفع به صاحبه ، وحتى يُعَدَّ مُؤَثِّرًا فيه وتقبل منه أعماله التي تَقرَّب بها - وهي الأصول ، وتتبعها هذه المكملات ، بل تعد تلك المكملات مما تستلزمه الأصول ، فإن الصلوات ، إذا كملها دفعته إلى أن يتقرب بجنسها من الصلوات ، والزكاة ، إذا كملها دفعته إلى أن يتقرب بجنسها من الصدقات وهكذا . فعرف بذلك أن هذا الحديث مشتمل على الإسلام الحق ، وذكر فيه أصوله ، والمسلم العاقل يحرص على تكميل شرائع الإسلام حتى ينتفع بإسلامه .

❁ ❁ ❁

الحديث الرابع

الأعمال بخواتيمها

عن أبي عبْدِ الرَّحْمن عبدِ الله بنِ مسعودٍ - رضي اللهُ عنه - قال : حدَّثَنا رسولُ اللهِ ﷺ وهُوَ الصَّادقُ المَصْدوقُ : « **إن أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّه أرْبعينَ يوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك ، ثُمَّ يَكُون مُضْغَةً مِثْلَ ذلك ، ثُمَّ يُرْسَلُ إليه المَلكُ فَيَنْفخُ فيه الرُّوحَ ويُؤمَرُ بأرْبَعِ كلماتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ وأَجَلِهِ وعَمَلِهِ وشَقيٍّ أو سَعيدٌ ، فَوَاللهِ الَّذي لا إله غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ ليَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حتى ما يكُون بَيْنَهُ وبَيْنَها إلا ذِرَاعُ ، فَيَسْبقُ عَلَيْه الكِتابُ فَيَعْمَلُ بعَملِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها . وإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتى ما يَكُون بَيْنَهُ وبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكتابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجنَّةِ فَيَدْخُلُها** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

هذا حديث جامع عظيم يتعلَّق بالإيمان بالقدر ، والقدر الذي تعلَّق به هو : العلم السابق ، وقد ذكر العلماء أن القدر على أربعة أقسام :

الأول : العلم السابق .

والثاني : الكتابة .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب بدء الخلق : باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٣٢٠٨) (٦/٣٥٠ - فتح) وأطرافه في : (٣٣٣٢، ٦٥٩، ٧٤٥٤) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب القدر : باب كيفية الخلق الآدمي ... (١) (٤/٢٠٣٦) ، كلاهما من طريق زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - به .

والثالث : المشيئة .

والرابع : الإيجاد والخلق .

فهذا الحديث يتعلق بأولها وهو : « **العلم السابق** » ، وقد أكَّده ابنُ مسعود بـ :

الأمر الأول : بالتحديث بقوله : « **حدثنا رسول الله ﷺ** » ؛ وهو يدل على أنَّه أخذه منه مباشرة ، وسمعه منه بدون واسطة .

والأمر الثاني : قوله : « **وهو الصادق المصدوق** » .

هذا التأكيد الثاني ليفيد أنه مصدَّق فيما قاله ، وأنه يلزمنا فيما حدَّث به التصديق مِنْ قِبَل المسلمين المؤمنين الذي شهدوا له بالرسالة .

الجملة الأولى في هذا الحديث ، قوله : « **إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة** » .

كلمة (نطفة) استغربها بعض الرواة أو بعض المُحدِّثين ؛ فقالوا : إنه تفرَّد بها أحدهم ، وأكثر الرواة لم يذكروا هذه الكلمة ، إنَّما فيه أنه يُجمع في بطن أمه أربعين يومًا ، ولكن اللَّه – تعالى – ذكر تطوير خلق الإنسان وهو في بطن أمه ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون : ١٢] يعني : أبا الإنسان – وهو آدم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون : ١٣] – يعني : جنس الخلق ، وهو كل آدمي ، فإنَّه كان في أوَّل أمره نطفة في قرار مكين – يعني : في مكان مستقر ، وهو الرحم ، لا تصل إليه أيدي العابثين ، ولا أيدي العاملين ، كما في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات : ٢٠] . يعني هذه النطفة : ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات : ٢١] . فاللَّه تعالى أخبر بأنَّه نطفة في قرار مكين : ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات : ٢٢، ٢٣] . فالنطفة في الأصل هي المني الذي ينصب من الرجل عند الجماع ، فيستقر في الرحم ، فإذا استقر في الرحم بقيت كذلك إلى أن يأذن اللَّه بتكوينها .

يقول: «**ثم يكون علقة**». وهذا هو التطوير الثاني.

فالتطوير الأول: النطفة التي هي الماء المهين.

والتطوير الثاني: العلقة: «**ثم يكون علقة مثل ذلك**».

فالعلقة: في الأصل ما نعرفه سابحًا في المياه، دُوَيبَّة شبه الدُّود طويلة دقيقة تسبح في الماء، ثم يشربها الإنسان مع الماء ولا يشعر، فتعلق بحلقه، ثم تمتص من دمه حتى تكبر، ويصعب إخراجها. وكثيرًا ما يخرج معها ما تمتصه من دم من حلقه ومن أنفه.

هذه العلقة قطعة من دم؛ لأنها تتغذى على الدم. وقد ذكر اللَّه - تعالى - أنَّ هذه النطفة تنقلب إلى علقة - يعني: قطعة من دم شبيهة بالعلقة.

وفي آية أخرى يقول اللَّه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦]. أخبر بأنَّه خلق من ماء دافق. وفي آية أخرى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]. يعني من هذا الدم الذي هو شبه العلق.

وقيل: سُمِّي علقة أو علقًا؛ لأنَّه يعلق بالرحم، أي: كأنَّه يتعلَّق به، ويتشبث به، ويصير ملتصقًا بالرحم، فلذلك سُمِّيَ علقًا من التعلق. ولكن لما جاءت أنَّها علقة - يعني بالإفراد دلَّ على أنَّ المراد: القطعة من الدم، وهكذا فسرها أكثر المفسرين، وقد ذكرت في مواضع؛ ففي سورة الحج قال اللَّه تعالى لما ذكر تطوير خلق الإنسان: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]. وكذلك في سورة المؤمنون يقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:

١٢، ١٣]. وهو الرحم في قرار مكين: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

فهذا تطوير خلق الإنسان في الرحم، مَنِ الذي قدر على تطويره وتكوينه وتقليبه من طَوْر إلى طَوْر إلى أن تم خلقه وخرج إنسانًا سويًّا حيًّا متحركًا سميعًا بصيرًا؟! لا شك أن هذا دليل كمال قدرة اللَّه - سبحانه -.

وكذلك يقول تعالى في سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ [غافر: ٦٧]. فأخبر بتطور خلق الإنسان في هذه الأماكن.

أمَّا المضغة: فالأصل أنَّها قطعة من اللحم صغيرة بقدر ما يمضغها الماضغ - يعني: قطعة من اللحم - فبعد ما كانت قطعة دم انقلبت إلى قطعة لحم - مع التطور، ثمَّ بعد ذلك تكون عظامًا تنقلب وتتصور إلى عظام صغيرة دقيقة مُتلاحمة، ثم بعد ذلك ينبت عليها اللحم.

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]. ذكر أنه بعد تمام الأربعة أشهر وهي ثلاث أربعينات؛ أربعين يومًا نطفة، ثم أربعين يومًا علقة، ثم أربعين يومًا مضغة، بعدها تنفخ فيه الرُّوح، قال ﷺ: «**ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح**» وإذا نفخ فيه الرُّوح، تُحِسُّ المرأة بنوع حركة يسيرة ولا يزال يتحرَّك بعد ذلك شيئًا فشيئًا؛ لأنه نُفخت فيه الروح، وهذه الرُّوح هي رُوح الحياة، وليست الرُّوح التي هي النَّفس الذي يعيش به بعد ما يخرج، وهو حي حال كونه في بطن أمه، فلا يحتاج إلى هذا النَّفس، ولكنه فيه الروح التي هي حياته.

فإذا نُفخ فيه الرُّوح يقول اللَّه تعالى للملك: «**اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**». فيكتب ذلك وهو في بطن أُمه، يُكتب رزقه؛ غني أو فقير أو

متوسط ، حرفته التي يحترفها ، عمله الذي يعمله ، صنعته التي يصنعها ، شغله ، تجارته ، حَرْثه ، مَكسبه الذي يكتسب منه ، كل ذلك مكتوب وهو في بطن أُمِّه ، ولا يُمكن أن يتغير ما كتبه الملك من هذا الأمر ، لأن اللَّه تعالى عالم بذلك قبل إيجاد المخلوقات ، وهكذا يكتب أجله : طويل العمر ، قصير العمر ، متوسط العمر ، يموت شابًا ، أو كهلًا ، أو شيخًا ، أو هَرِمًا ، يكتب ذلك كلُّه ، وأيضًا يكتب رزقه وأجله وعمله الذي يعمله ، يعمل أعمالًا صالحة أو أعمالًا سيئة ، يعمل السيئات أو الحسنات ، سعيد أم شقي - كل ذلك مكتوب وهو في بطن أمه .

وعندما حدَّث النبي ﷺ بهذا الحديث ونحوه ، قال بعض الصحابة : « **يا رسول للَّه أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل** » - يعني : إن كنا من أهل الجنة مكتوبين فإننا سنصير من أهل الجنة ، وإن كان اللَّه كتبنا أشقياء مِنْ أهل النار فلا حيلة لنا ، فكيف نعمل ؟ نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فقال النبي ﷺ : « **اعملوا فكل ميسر لما خلق له** » ، أمَّا أهل الجنة فيُيسَّرون لعمل أهل الجنَّة ، وأمَّا أهل النَّار فَيُيسَّرون لعمل أهل النَّار » .وقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (١)[الليل ٥: ١٠] . فالأول عمل ، لقوله : ﴿ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ فاللَّه تعالى يسَّره وسهَّله وأعانه ، وسهَّل له الأسباب فسار من أهل اليسرى .

والثاني أيضًا عمل ، وهو الذي ذكر اللَّه عنه هذه الأعمال فقال اللَّه : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ

---

(١)أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب القدر : باب : وكان أمر الله قدرًا مقدورًا (٦٦٠٥) (١١/ ٥٠٣ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب القدر : باب كيفية الخلق الآدمي ... (٦/٧) (٤/ ٢٠٣٩) ، كلاهما من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن علي - رضي الله عنه - ولفظه : أن النبي ﷺ كان في جنازة ، فأخذ عودًا فجعل ينكت في الأرض ، فقال : « ما فيكم من أحد إلا كتب مقعده من النار ، أو من الجنة » قالوا : ألا نتكل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ .. الآية » .

لِلْعُسْرَىٰ﴾ . يعني : لما بخل واستغنى وكذب بالحسنى يسره اللَّه للعسرى ، فكل منهما عمل ، فهذا يسره اللَّه لخيرٍ ، وهذا يَسَّره لشرٍّ ، فالأعمال بالخواتيم .

فالإنسان يسأل ربه حسن الخاتمة ، وعليه مع ذلك أن يعمل بحسب استطاعته ويعرف أن اللَّه تعالى هو الذي يقدره على العمل ، ويعينه عليه ، وهو الذي وفقه ويسره لهذا العمل ، وهو الذي أعانه عليه حتى أدَّاه كما ينبغي ، فلذلك عليه أن يعترف بأن حسناته وأعماله الصالحة فضل من اللَّه ، وأن هدايته وحمايته وحراسته وتوفيقه لترك السيئات هداية وتوفيق من اللَّه - تعالى - فالإنسان مكتوب عليه ما سوف يعمله في حياته من أول حياته إلى آخرها ، مكتوب عليه أنْ سيسعد أو يشقى ونحوه ، ولكن عليه أن يبذل الجهد ، وعليه أن يحرص على حُسن الخاتمة .

وفي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ أن الأعمال بالخواتيم ، فأخبر أن الإنسان يعمل عمل أهل الجنة ويختم له بعمل أهل النار إذا كان شقيًا في علم اللَّه ، ويعمل عمل أهل النار فيختم له بعمل أهل الجنة إذا كان سعيدًا في علم اللَّه ، فقال ﷺ : « **إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة** » - يعني : طوال حياته ، يعني يبقى ستين أو سبعين سنة أو ثمانين سنة ، وهو يعمل الصالحات ، ويعمل الحسنات فيُصلِّي ، ويصوم ، ويتصدَّق ، وينفق ، ويجاهد ، ويصل الرَّحم ، ويبر الأبوين ، ويحب المسلمين ، ويساعدهم ، ويعمل أعمالًا صالحة ، ويكثر من ذكر اللَّه ويُصلِّي على نبيّه ، ويقرأ كتابه ويتدبره ، ويتعلم العلوم الشرعية ؛ ولكن في آخر حياته ، وقبل موته بأيام أو ساعات يكفر ويرتد فيختم له بعمل سيئ فيدخل النار - والعياذ باللَّه - .

ولقد أخبر النبي ﷺ عن الفتن في آخر الزمان ، فقال : « **إنَّ بَين يَدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يُصبح الرَّجل فيها مُؤمنًا ويُمسي كافرًا ، ويُمسي فيها مؤمنًا ويُصبح كافرًا ، يبيع دينه بِعَرَضٍ من الدُّنيا** »[1] .

---

(١) أخرجه : أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٧٢، ٢٧٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٢٥، ٥٣١) ،=

يُصبح وهو من المؤمنين فلا يأتيه الليل إلا وهو قد ارتدَّ ، وذلك لكثرة الفتن ، والمغريات من الأمور الدنيوية . « **يبيع دينه بِعَرَضٍ من الدُّنيا** » . ولم يعلم أنَّه قد قرب أجله ، وأنَّه ما بقي من عمره إلا سُويعات - ومع ذلك يبيع دينه ، ويشتري دنياه . فيخسر دُنياه وأُخراه ، فهذا من الذين كتب اللَّه عليهم الخسارة .

كثير من الدول التي تُستَقدم في هذه البلاد ، لا يرسل إلى العمل إلا الكافر النصراني أو البوذي أو نحوهما ، حسدًا للمسلمين ، فيأتي بعض المسلمين ويكتب نفسه كافرًا ، فيقول : الديانة نصراني ، أو الديانة بوذي ، أو غير ذلك من الأديان حتى يذهب ، فيرتد عن دينه لأجل أن يحصل على هذا العمل ، وربما يموت في الطريق أو يموت ولم يعمل كما حصل لكثير منهم ؛ فيبيع دينه بعرض من الدنيا .

ضد ذلك - أيضًا - الرجل يعمل بعمل أهل النار ، يعمل بالكفر ، والمعاصي ، والمحرمات يكفر باللَّه ، ويسبُّه ، ويستهزئ ، ويسخر ، ولا يعمل شيئًا من الصالحات ، فإذا كان قُبَيْل موته ، هداه اللَّه ، وأقبل عليه بقلبه ، ومَنَّ عليه ، فدخل الإسلام ، واعتنقه عن قناعة ، فيموت وهو مؤمن ، ويُكفِّر إيمانُه ما تقدَّم من سيئاته وما عمله من المخالفات ، فيختم له بعمل صالح .

هذا معنى قوله ﷺ : « **وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ** » يعني ما بينه وبين الموت إلا شئٌ قليل ، لو مات لدخل النار ، فيسبق عليه الكتاب الذي في اللوح المحفوظ ، أو كتابه الذي كتبه الملك عليه ، فيعمل بعمل أهل الجنة ويُختم له بعملها فيدخلها ، هكذا أخبر .

فالأعمال بالخواتيم ، والإنسان يؤمن بقضاء اللَّه وقدره ، ومع ذلك يعمل بالأسباب التي تجعله من أوليائه .

= أخرجاه من طريق المبارك بن فَضالة عن الحسن عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - به .
وأخرجه الطيالسي في « مسنده » (٨٠٣) ص ١٠٧) من طريق آخر عن النعمان به .
وفي الباب عن أبي موسى الأشعري ، والضحاك بن قيس بن خالد الفهري .

الحديث الخامس

النهي عن الابتداع في الدين

عن أُمِّ المُؤمِنينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّه عائِشَةَ - رضي اللهُ عنها - قالَتْ : قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا هذا ما لَيْسَ منهُ فَهُوَ رَدٌّ** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ[1] .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث الجامعة التي ذكر بعضهم أنها يدور عليها الإسلام ، فقال بعضهم : هو ربع الإسلام ، وقال بعضهم : ثلث الإسلام .

يتعلق هذا الحديث بالرد على المبتدعة ، وبيان أن دين اللَّه كامل ، وأن نبيه ﷺ قد بيّن ما أوحي إليه ، وقد بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، وأن هذا الدين لا يحتاج إلى أن يُضاف إليه شيءٌ ، ولا يزاد عليه شيء ، سواء كانت الزيادات في الأعمال ، أو في العقائد ، أو في المعاني ، فكل زيادة أضيفت إلى الشريعة وهي غير موجودة فيها أو لا أصل لها ، فإنها بدعة لا تضاف إلى الشريعة ، تُرد على من جاء بها ، فقوله ﷺ : « **مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُو رَدٌّ** » .

الحدث : هو الشيء الجديد ، يعني : أتى بشيء جديد مُحدَث ، لم يكن له

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الصلح : باب إذا اصطلحوا على صلح ... (٢٦٩٧) (٥/ ٣٥٥ - فتح) ، وفي « خلق أفعال العباد » (٢٩) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الأقضية : باب نقض الأحكام الباطلة ... (١٧، ١٨) (٣/١٣٤٣ - ١٣٤٤) ، كلاهما من طريق سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن القاسم بن محمد عن عائشة .

أصل في الشرع . « **أَمْرِنَا هَذَا** » . يعني : شرعنا وديننا . « **فَهُوَ رَدّ** » . أي ما جاء به من ذلك الحدث الذي ليس منه ، الذي ليس من أصل الشرع فهو مردود على من أتى به كائنًا من كان ، ولو حسَّنه ، ولو مدَحه ، ولو كان فيه كما يقول : مصلحة وفائدة ونحو ذلك .

والحاصل : أن هذا الحديث رد على المبتدعة ، وقد أمر النبي ﷺ في حديث العرباض بن سارية كما سيأتي بالتمسك بالسنة ، فقال : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعَضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومُحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة** » ، وفي رواية : « **وكل بدعة ضلالة** » ، وفي رواية : « **وكل ضلالة في النار** » .

والمحدثة : الأمر الحديث الذي لا أصل له ، ومثلها - أيضًا - البدعة : الأمر المبتدع الذي لم يسبق له مثيل ، ولا يوجد عليه دليل ، يُسمى بدعة ، أي أنه مُبتدع . البدعُ : هو التجديد . ابتدع فلان كذا ، يعني : جدده ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٩] . أي : مبتدعًا .

فهذا الحديث ردٌّ على كل من جاء بشيء لا أصل له في الشرع ، وقد فصل العلماء أنواع البدع ، وبيَّنوا أمثلة لها ، وبيَّنوا متى تكون البدعة بدعة ، ومتى تكون غير بدعة ، وأخذوا من قوله ﷺ : « **مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا** » أن البدعة هي المحدثة في الدين ، فيخرج المحدثات في الدنيا ، فلا تسمى بدعة ، إنما البدع هي التي لها صلة بالعبادات أو القربات أو الشرائع إذا لم يوجد لها دليل ، بخلاف الأعمال الدنيوية ، والمبتدعات الجديدة فإنها من المباحات ، فلذلك لا تدخل في البدعة الأشياء الجديدة التي ابتدعت واخترعت في هذه الأزمنة ، بمعنى أنها من المباحات التي يسرها اللّه تعالى وأعان على اختراعها وصناعتها ، وإن كانت غير موجودة في الزمن القديم .

وقد أنكر العلماء - رحمهم اللَّه - بعض البدع التي تتعلق بالشركيات ، فأنكروا بدع البناء على القبور ، وبناء القباب عليها ، وقالوا : هذه بدع لأنها تتخذ قربات ، فإن الأمر الذي ورد به الشرع هو دفن الميت بعد تكفينه والصلاة عليه ، ورفع قبره قدر شبر أو نحوه حتى يُعلم أن هذا قبر ، فأما البناء عليه ، تجصيصه ، وبناء القبة عليه ، فإن هذه بدع ، وكذلك أيضًا العكوف عنده والتمسح به ، وما أشبه ذلك ، وكذلك دعاؤه والتوسل به ونداؤه مع اللَّه ، فإن هذه بدع أو من وسائل الشرك ، ولما أنكر ذلك على هؤلاء القبوريين - أنكر ذلك أئمة السلف ، وأئمة الدعوة - قام هؤلاء القبوريون يعيبون على أهل الدعوة بالأمور الجديدة التي يستعملونها في أعمالهم العادية ، فذكروا عن أحدهم أنه نظم بيتين يعيب بهما أهل السنة ، يقولون : إن عندكم بدعا :

وها أنتم قد تفعلون كغيركم حوادث قد جاءت عن الأب والجد
كحرب ببارود وشرب لقهوة وكم بدع زادت عن العد والحد

هكذا يعيبنا ، يقول : عندكم بدع ، ما هذه البدع ؟! أنكم تشربون قهوة ، أنكم تحاربون بالبارود . كان الحرب قديمًا قبل وجود الأسلحة الجديدة بالبارود الذي يجعل في البندقية ، ويضرب ويرمى به من بعيد ، فيصيب المحاربين ، فيقول : إن هذا بدعة ، لأن الرسول ﷺ ما كان يحارب إلا بالسيف ، أو الرمح ، أو السهم ، فيردون عليه ، ويقولون : إن البدع لا تكون إلا في قربات ، وأما هذه فإنها عادات ، لأن الرسول ﷺ قال : « **من أحدث في أمرنا هذا** » . ولم يقل في أمر الدنيا ، إنما قال : في أمر الدين . فشرب القهوة من الأمور الدنيوية ، فهو مباح ، وكذلك استعمال الحرب بمثل ما تجدد بعد ذلك من عدة الحرب بالصواريخ ، وبالقنابل ، وبالرصاص ، وما أشبه ذلك ، كل هذا مما يُباح في الحرب ؛ لدخوله في قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] . وفسر القوة بالرمي فقال ﷺ :

« ألا إن القوة الرمي »(١) . أراد بذلك التمثيل ، يعني أن من القوة استعمال الرمي ، وتعلمه ، ويدخل في ذلك جميع أنواع الأسلحة التي يُرمى بها ، والتي يحصل بها نكاية للعدو - إذن فلا تدخل هذه في البدع .

فالبدع : إما أن تكون بدعًا عملية ، أو بدعًا اعتقادية ، وتفصيل ذلك مذكور في الكتب التي فنَّدت البدع ، وردَّت على المبتدعين ، وشنَّعت أفعالهم ، وهم كثير ، وقد كتب من المتقدمين محمد بن وضاح رسالة مطبوعة : « البدع والنهي عنها » ، وهناك كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث » لأبي شامة ، ومن أوفى من كتب في ذلك الشاطبي في كتاب « الاعتصام » فإنه ذكر الكثير من البدع ، ولكنه أطال فيما يدخل فيها وما لا يدخل ، ومثله كثيرون ممن ألف في البدع - وأما البدع الاعتقادية فقد كثرت قديمًا وحديثًا ، وكتب فيها العلماء أيضًا ، وبينوا بدعية تلك الفرق ، وبيان خلالهم وخطئهم ، فمن المتقدمين : « الأشعري في كتابه الذي سماه : « مقالات الإسلاميين » فإنه ذكر الفرق المبتدعة ، وبين بطلان بدعيتها ، وكذلك كتاب : « مقالات الإسلاميين » فإنه ذكر الفرق المبتدعة ، وبين بطلان بدعيتها ، وكذلك كتاب : « الفرق بين الفرق » لعبد القاهر البغدادي ، والكتاب مطبوع موجود ، وكتاب : « الفصل بين الملل والنحل » لابن حزم ، وكتاب : « الملل والنحل » للشهرستاني ، وأشباهها كثير التى تبين البدع الاعتقادية ، وأنها ليست من سنة الرسول ﷺ فتدخل في أنها مُحدثة في الدين : **« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »** - **« من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد »** وقد

---

(١) يشير إلى حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ **ألا إن القوة الرمي ...** » . أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإمارة : باب الرمي والحث عليه ... (١٦٧) (٣/١٥٢٢ت) ، من طريق عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبي علي الهمداني ثمامة بن شفي عن عقبة بن عامر به .

يقول بعض المتأخرين الذين يتبعون تلك البدع - كأهل المولد مثلًا - أنا ما أحدثته ، أحدثه من قبلي ، فنقول له : ألست تعمل به ؟ « **من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد** » . إذًا فأنت داخل في المبتدعة لأنك عملت بهذا المبتدع فيعُمك الحديث ، فعملك هذا مردود عليك ، وهكذا المذاهب الباطلة والمناهج والمسالك المخترعة التي لا أصل لها كلها ، يجب أن تُرد على من جاء بها ، وفي الشريعة الإسلامية ، وفيما بلغه الرسول ﷺ كفاية ومقنع ، ولا حاجة إلى أن يضاف إليه شيء ، وذلك لأن اللّٰه تعالى قد أكمل به الدين ، وأنزل عليه في آخر حياته : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] . ومتى كان الدين كاملًا فلا يضاف إليه شيء ، وإذا قالوا : إن هذه أعمال صالحة . كما يقول أهل بدعة المولد ، أو أهل صلاة الرغائب ، يقولون : ما أتينا بشيء جديد إنما نذكر اللّٰه ونُصلي على النبي ﷺ ، ونقرأ القرآن ، ونقرأ السيرة النبوية ، وما أشبه ذلك .

فنقول لهم : لماذا خصصتم ليلة في السنة ؟ وما دليلكم على هذا التخصيص ؟ إذا كنتم تحبون النبي ﷺ فاتبعوه ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] . ومعلوم أنه ما احتفل بمولده ، ولا بمولد غيره ، ولا احتفل بذلك صحابته ، ولا غيرهم من علماء أمته ، وإنما حدث ذلك في القرون المتأخرة ، فكيف مع ذلك تدعون أنكم بذلك تُظهرون محبته ، من أراد محبته فليعمل بشريعته ، وليطبق سنته ، إذا أراد أن يكون صادقًا في أنه محبٌّ له ، فأما أن يُضيف إلى شرعه ما ليس منه ، فإن ذلك دليل على أنه قد اتهمه بأنه لم يُبلغ الشرع كله ، أو اتهمه بأن دينه ناقص يحتاج إلى تكميل ، فينبغي أن ينفي ما جاء به من هذه الزيادات والإضافات ويقتصر على الشرع المطهر فهو كافٍ وافٍ .

❁ ❁ ❁

الحديث السادس

الحلال بَيِّـن والحرام بَيِّـن

عَنْ أبي عَبْدِ اللهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي اللهُ عنه - ما قَالَ : سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إن الْحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُما أمور مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ الناسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ ، كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِك أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلا وَإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً أَلا وَإنَّ حِمَى اللَّه مَحَارِمُه ، أَلا وَإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ[١] .

شرح الحديث :

هذا الحديث متفق عليه كما سمعنا ، ومن الأحاديث الجامعة التي ذكر أن الإسلام يدور عليها ، ونظم بعضها أحد الشعراء بقوله :

عمدة الدين عندنا كلمات أر بع من كلام خير البريه
اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية

فبدأ بهذا الحديث : « **اتق الشبهات** » حديث النعمان ، و« **ازهد** » قوله :

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) (١/١٥٣ - فتح) ، وفي كتاب البيوع : باب الحلال بين والحرام بين .. (٢٠٥١) (٤/٣٤٠ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٠٧ : ١٠٩) (٣/ ١٢١٩ : ١٢٢٠) ، كلاهما من طريق الشعبي عن النعمان بن بشير به .

« **ازهد في الدنيا** » . كما سيأتي ، و« **دع ما ليس يعنيك** » حديث : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** » . و« **اعملن بنية** » . حديث : « **إنما الأعمال بالنيات** » .

فحديث النعمان هذا حديث يتعلق بالحلال والحرام في وجوه المكاسب ، ويتعلق بالمال الذي يحصل عليه الإنسان ، فذكر أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام : حلال ، وحرام ، ومشتبه ، فكل الأمة يعرفون مثلًا أن الغصب حرام ، والنهب حرام ، والسرقة حرام ، وكذلك يعرفون أن الميتة والدم ولحم الخنزير ولحوم الكلاب والسباع ونحوها حرام ، كما أنهم يعلمون أن اللحم المذكى ولحم السمك ونحوه إذا صيد من طريق مباحة أنه حلال ، وأن التمور والخبوز التي اكتسبت من طريق صحيح أنها حلال ، وأن كسب المال بطريق البيع والشراء السالم من غش ومن مخادعة ومن تدليس أو نحوه أنه حلال ، وأن تحصيل المال عن طريق الهبة أو الهدية التي ليس فيها شبهة ، وكذلك عن طريق الكسب الذي هو الغنيمة ، أو عن طريق الميراث ، وما أشبه ذلك ، أن هذا حلال بين وليس فيه شبهة ، وأنواع المكاسب المحللة المباحة كثيرة ، وأنواع المكاسب المحرمة كثيرة معروفة مشهورة ، ويبقى عندنا المشتبه الذي أخبر بأن فيه شبهة قوية ، وتلك الشبهة قد تخفى على كثير من الناس ، ولكن من رزقهم اللّه معرفة وفقهًا يعرفون حكمها فليست مشتبهة على الجميع وإنما اشتباهها على البعض ، ولهذا قال : « **وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس** » أي : لا يعلمون وجه الشبهة فيه .

وقوله ﷺ : « **وبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ** » . يدل على أن هذه الأمور لا تخفى إلا على بعض الناس ، أما الذين لهم خبرة في الأدلة وتتبع للمعاملات ومعرفة بالعقود والمعاوضات ووجوه المكاسب ونحوها ، فإنهم يعرفون الحكم فيلحقونها بأحد الأمرين : إما بالحلال البين ، وإما بالحرام البين ، وأما الذين

تشتبه عليهم فإن الأولى بهم التوقف عنها والتوخي لها وتركها والبعد عنها حتى لا يقعوا في الحرام ، وذلك حتى يسلم لهم دينهم وأبدانهم وأعراضهم ؛ لأن الكسب الحرام التغذي به حرام ، والله تعالى قد أباح الحلال وأمر بكسبه وأباح الكسب منه ، وسماه فضلًا في قوله تعالى : ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة : ٢] .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل : ١٤] .

أي : لتكسبوا وتحصلوا على شيء من فضل الله الذي يتفضل به على من يشاء من عباده ، فهو واسع الفضل ، وهو ذو الفضل العظيم ، فالكسب من وجوه مباحة هذا لا شك أنه من الأمور المباحة ، وأن الكسب حلال ، وأن التغذي به حلال ، والاقتيات منه يكسب البدن خيرًا وقوة ، وأما الكسب الحرام ، والكسب المشتبه الذي يخاف منه أن يكون حرامًا ، فإن التغذي به يفسد القلب ويجرِّئ صاحبه على الحرام وعلى المعاصي ، وقد يسبب عدم قبول الصالحات والقربات وما أشبه ذلك .

وقد ثبت أنه ﷺ حثَّ على طيب المكسب فقال لسعد رضي الله عنه : « **أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة** »(١) . لما طلب منه أن يستجاب له في

---

(١) قال الحافظ في « التلخيص » (١٤٩/٤) : « وعن ابن عباس في « الأوسط » (٥٠٢٦) ولفظه : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال : « يا سعد طَيِّب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ... » وأعلَّه ابن الجوزي ، وذكره ابن أبي حاتم في « العلل » (١٩٢٩) وصحح عن أبيه وقفه » .اهـ .

وقال الأرناؤوط في « هامش العلوم والحكم » (٢٦١/١) : « رواه ابن مردويه في تفسيره عن الطبراني كما في تفسير ابن كثير (٢٩٢/١) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٩١/١٠) ، وقال : رواه الطبراني في الصغير ، وفيه من لم أعرفهم » .اهـ .

دعوته أرشده إلى أن لا يأكل إلا طيبا حتى تستجاب دعوته . وسيأتي الحديث العاشر وفيه قوله ﷺ : « **إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ....** » إلى آخره . أخبر فيه أن الكسب الحرام والمطعم الحرام والملبس والمنكح الحرام سبب لرد الدعاء وعدم قبوله ، وروي أنه ﷺ قال : « **أيما لحم نبت على سحت فالنار أولى به** »[1] يعني تغذى بسحت - والسحت : هو المال الحرام الذي وصف اللهُ اليهودَ بأنهم يأكلونه في قوله تعالى : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة : ٤٢] .

وفي قوله تعالى : ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة : ٦٢] .

أي يأكلونه كثيرًا ، ولا شك أن ذكره بهذا الاسم : « **سحت** » يدل على أنه يسحت الأبدان ، ويسحت الأعمال ، ويسبب العذاب ، وهذا تنفير عنه بهذه التسمية التي تنفر السامعين . ثم أخبر النبي ﷺ بأن المسلم عليه أن يتجنب المشتبهات بقوله : « **فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الْحَرَامِ** » .

---

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (٥٥٦٧) (١٢/٣٧٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢١٢) (١٩/١٠٥) ، (٢٩٨) (١٩/١٣٥) ، (٣٠٩) (١٩/١٤١) ، (٣١٧) (١٩/١٤٥) ، و(٣٦١) (١٩/١٦٢) ، وفي « الصغير » (٤٣٠) (١/٢٦٢) ، (٦٢٥) (١/٣٧٤) . كلهم من طرق عن كعب بن عجرة مرفوعًا : « إن كان عليك أمراء من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ... يا كعب بن عجرة ، إنه لا يدخل الجنة لحم ولا دم نبت من سحتٍ ، وكل لحم ودم نبت من سحت فالنار أولى بهما ... » . وصححه الأرناؤوط في « هامش ابن حبان » . وفي الباب عن جابر عند الدارمي (٢/٣١٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٧٢٣) (٥/٩) ، وعن عمر عند الطبراني في « الكبير » (٨٧) (١/٧٣) ، وعن ابن عباس عند الطبراني في « الكبير » (١١٥٤٤) (١١/٢١٧) ، (١١٢١٦) (١١/١١٤) ، وفي « الصغير » (٢٢٤) (١/١٤٧) (١/١٤٧) ، وابن حبان في « المجروحين » (٤٠٨) (١/٣٢٨) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣١١٢) (٦/٧٦) ، وعن عبد الرحمن بن سمرة عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦٥٤٩) (١٢/١٠٩) كلهم بذكر موضع الشاهد .

ومعنى : « **اتَّقَى الشُّبُهَاتِ** » . يعني : ابتعد عنها وتجنبها وترك كل شيء فيه شبهة ، فإذا اشتبهت عليه هذه المكاسب خاف أن تكون من الحرام فتركها ، إذا اشتبه عليه هذا الطعام خاف أن يكون من الحرام فتركه ، حتى قال بعض السلف : « **إن من الورع أن تترك كثيرًا من الحلال مخافة أن تقع في الحرام** » يعني : حتى لو غلب على ظنه أنه حلال لكن من باب الورع ، أو من باب التحري ، ومن باب التوقي ، تتركه حتى يسلم دينك ، ويسلم عِرضك ، وحتى يسلم لك بدنك من أن يتغذى بشيء من الحرام ، هكذا أخبر النبي ﷺ : « **فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقَدْ اسْتَبْرَأ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ** » .

خص الدين والعرض ، وذلك لأن الإنسان إذا كان كثير الشبهات فإن الناس يقدحون فيه ويعيبونه وينفرون منه ، وينتشر له سمعة سيئة فيقال : فلان يأخذ الرشوة ، فلان يتعامل بالربا ، فلان يغش في المعاملة ، فلان يزيد في السلع فوق ما تستحقه ، فلان يتعامل مع البنوك الربوية ، ويأخذ أو يعطي الربا ، أو يقال : فلان يخالف القواعد الشرعية ويكسب مكاسب ليست طيبة . فيدخل في ذلك الكثير من المكاسب المشتبهة ، وسواء كان تحريمها بأدلة شرعية كقوله تعالى : ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران : ١٣٠] وكقوله تعالى : ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة :] ويدخل في السحت كما فسر به : الرشوة ، وما أشبهها أيًا كان مصدرها ، كما يدخل في السحت وفي الحرام الغش ففي الحديث : « **من غش فليس منا** »(١) يعني : الغش في المعاملات وما أشبهها ، ويدخل في الحرام - أيضًا - ما منع منه لمصلحة ، فإذا منعت الدولة بعض المعاملات لمصلحة فإن المسلم يتوقف عن ذلك

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب قول النبي ﷺ : « من غشنا فليس منا » . بدون رقم بعد رقم : (١٦٤) (٩٩/١) ، ومن طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبي عن أبيه هريرة - رضي الله عنه - به .

حتى يسلم دينه وعرضه ، فمثلًا إذا كانت الدولة تمنع المواطنين من بعض الأعمال مثل بعض التجارات أو أن يتعاطوا قيادة سيارات الأجرة وما أشبهها ، كان هذا مما يلزم التقيد به للمصلحة التي نظرت إليها الحكومة في ذلك ، كذلك أصحاب المؤسسات ونحوهم الذين يستجلبون عمالًا أجانب ويبيعون تأشيراتهم بمبالغ زائدة ضررها على العمل نفسه ، لا شك أن هذا - أيضًا - من الحرام أو من المشتبه ولو كان برضًا من العامل ، وكذلك الذين يفرضون على العمال الذين يستجلبونهم فرضًا شهريًا أو نحوه يأخذونه وهم لم يشتغلوا عندهم هذا- أيضًا - ليس بحق لهم ، وما ذاك إلا أنهم استجلبوهم لعمل عندهم وإعطائهم مرتبات أو نحوه . فكل هذه الأشياء التي فيها شبهة يكون تركها من ترك المشتبهات ، فيدخل في هذا الحديث : « **مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فقَدِ اسْتَبَرأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ** » . سلم دينه من أن يكون فيه قادح ، وسلم عرضه من أن يتكلم الناس فيه ويعيبوه ويلحقوا به تنقصًا وازدراءً واحتقارًا له وعيبًا له ونحو ذلك ، ويكون هذا - أيضًا - ردًّا لشهادته حيث إنه لم يتورع عن الحرام أو لم يتورع عن المشتبه وما أشبه ذلك ، فلا يسلم إلا إذا ابتعد عن المشتبهات ، التي فيها شبهة . فخاف أن تكون من الحرام ولم يعلم أنها من الحلال ولم يجزم بأحدهما ؛ فتركها هو التورع والسلامة حتى لا يدخل في بطنه إلا ما هو كسب طيب ، وكثير من السلف - رحمهم اللَّه - كان لا يدخل في بطنه إلا لقمة قد عرف أصلها ومخرجها ومدخلها يقول : « **ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا أعرف من أين جاءت ، ومن أين اكتسبتها . وما حكمها** » . هكذا يتفقدون طعامهم عند الأكل ونحوه .

يقول ﷺ : « **وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الْحَرَام** » . يعني أنه لابد أن يقع في أطراف الحرام ؛ ذلك لأن الذي يكثر من الشبهات قد يقول : هذا ليس عليه دليل ، وهذا لا مانع منه ، أو هذا يمكن أن يكون مباحًا أو نحو ذلك ثم يتمادى في

أكل هذا المشتبه ، أو إدخاله في ماله أو مكسبه ، أو نحو ذلك سواء أكله أو تركه لوارثه ، وقد يكون ذلك سببًا في رد أعماله عند كثيرٍ من العلماء حتى روى في حديث مرفوع : « **أن من صلى بثوب وفيه درهم حرام لم تقبل له صلاة** » . وإن كان ذلك من باب التنفير ، فمن وقع في الشبهات وأكثر منها جرته إلى المحرمات ولابد .

ثم ضرب النبي ﷺ مثلًا فقال : « **كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ** » الراعي : هو الذي معه سائمة من إبل أو بقر أو غنم يرعاها في البراري التي فيها أعشاب ونباتات برية . فإن هذا الراعي عليه أن يبتعد عن الأشياء الممنوعة ، عليه أن يرعى في أرض اللّٰه الواسعة ولا يقترب من الأرض التي قد حميت وجعل لها اختصاص بأحد من الذين لهم القدرة على الحماية . فكثير من الملوك يجعلون لهم حمى ، وهي أرض يحمونها ، تارة تكون لهم خاصة وتارة تكون لبيت المال ، وثبت أن النبي ﷺ حمى النقيع موضع تنبت فيه النباتات ولكنه جعله لخيل المسلمين أو لخيل وإبل بيت المال والصدقة(١) ، وكذلك عمر رضي اللّٰه عنه حمى أرضًا وجعلها مرتعًا لدواب بيت المال(٢) ، وذلك لأن هذه الدواب مصلحتها للمسلمين ، فجعل

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/ ٩١، ١٥٥، ١٥٧) ، والبيهقي في « الكبرى » (٥/٢٠١) ، (٦/ ١٤٦) من طريق عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به .

قال في « المجمع » (٤/١٥٨) : « رواه أحمد وفيه عبد الله العمري وهو ثقة ، وقد ضعفه جماعة » .اهـ .

وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » من طريق آخر عن ابن عمر - رضي الله عنهما - (٤٦٨٣) (١٠/٥٣٨) ، وصححه الأرناؤوط في « هامش ابن حبان » .

(٢) أخرجه البيهقي في « الكبرى » (٦/١٤٦) بسنده عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الصعب بن جثامة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا حمى إلا لله ولرسوله** » قال الزهري - رضي الله عنه - وقد كان لعمر بن الخطاب حمى بلغني أنه كان يحميه لإبل الصدقة . =

هذه الأرض محمية حتى تكفي هذه الدواب التي لا يستطيع أن يذهب بها ، إلى البلاد البعيدة ، أما أهل الرعاية وأهل الدواب والأغنام ونحوهم ، فإنهم يستطيعون أن ينزحوا إلى البلاد البعيدة وإلى الأرض الواسعة ، فأرض اللَّه واسعة ؛ لذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « **ألا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى** » . يعني : أن العادة أن كل ملك يجعل له حمى ؛ يحمي له بقعة من الأرض يمنع الناس أن يرتعوا فيها ، فالذي يعرف أن هذه الأرض قد حميت لا يقترب منها بدوابه ، وذلك لأن الدواب لا تعقل فقد يغفل عنها الراعي وتدخل في الأرض المحمية وتقع فيها وترعى منها ، فيعثر عليها الحراس الذين يحرسون هذه الأرض ، فإذا عثروا عليها فإنهم لا يضربون الدواب لكونها بهائم ، ولكن تكون العقوبة على الراعي الذي جاء هذا الحمى واقترب منه ، فكذلك الذي فعل شيئًا من هذه المشتبهات ويتعامل بها لا يؤمن أن يقع في شبه الحرام وهو لا يشعر ، ويتعامل بحرام ويظنه حلالًا ، كما أن الراعي يرعى في هذه الأرض يظن أنها مباحة وهي محمية ، أو يتغافل فتتقدم الدواب إلى الأرض المحمية فيقع فريسة في أيدي الحراس ، فيعذبونه على إتيانه إلى هذه الأرض .

يقول ﷺ : « **ألا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُه** » . يعني كما أن الملوك يحمون هذه الأرض ويمنعون أحدًا أن يُسيِّب فيها دوابه ، فإن اللَّه تعالى قد حمى المحارم - يعني : حرمها ، وحرم القرب منها وفعلها ، وحرم المكاسب الخبيثة التي تُدْخِل على الإنسان مالًا حرامًا ، ولو كان أصل المال طيبًا لا شبهة فيه ولا خبث فيه ، لكن خبثه من حيث كسبه مثلًا : الأموال الربوية التي تدخل على المرابي ، وهي ليست نجسة

= وأخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الشرب والمساقاه : باب لا حمى إلا لله ولرسوله ... (٢٣٧٠) (٥/٥٤ - فتح) طرفه (٣٠١٣) ، والبيهقي في « الكبرى » (٦/١٤٦) ، (٧/٥٩) - أخرجاه - من طريق الزهري به ، وفيه من قول الصعب : وأن عمر بن الخطاب حمى الشرف والربذة .

في ذاتها ، ولكن خبثها من حيث مدخلها عليه ، اكتسبت الخبيث فأصبحت محرمة وخبيثة ، وكذلك التي أخذها بغش وتغرير بالمسلمين وقهرهم ، أو أخذها غصبًا ونهبًا أو سرقة أو نحو ذلك ، فإن خبثها معنوي ليس خبثًا حسيًا ، بخلاف الميتة ولحم الكلاب ولحم الخنازير ولحم الحشرات وما أشبهها ، فإن خبثها خبث حسي بحيث تنفر منها النفس وتشمأز منها القلوب وتتقزز منها النفوس ، فلا تقربها لخبث طعمها ولخبث التغذية بها ، وكذلك الأشياء الضارة التي حرمت لضررها كالسموم وما أشبهها ، فإنها محرمة لما فيها من الضرر .

ثم يقول ﷺ : « **أَلا وَإِنَّ في الْجَسَدِ مُضْغَةً** » . المضغة : هي القطعة من الجسم الصغير التي تكون بقدر ما يمضغها الماضغ في فمه . « **إِذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجْسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ** » . القلب : قد يراد به الجسم الصنوبري المودع في التجويف الأيسر من الصدر ، وقد جعله اللَّه تعالى للعقل ، والمضخة الذي يضخ الدم في العروق ، وتكون نبضاته وحركاته مفيدة للجسم كله ، وجعل اللَّه تعالى فيه هذه المادة التي هي العقل والإدراك والإحساس والتمييز بين الخبيث والطيب ، وبين النافع والضار ، هذه الغريزة التي جعلها اللَّه تعالى في هذا القلب وجعلها لهذا الإنسان يميزه بها ، لا شك أن هذه هي التي إذا صلحت وكانت سليمة - يعني : صحيحًا سالمًا من الشبهات وسالمًا من التشكيكات ونحوها - صلح الجسد كله ، صلح اللسان ، وصلحت الأذنان ، وصلحت اليدان والرجلان ، والعينان ، وصلح الجسد ونما نموًا حسنًا ، وصلاحه باستقامته على الفطرة ، وإذا فسدت وانحرفت وامتلأت بالشبهات وامتلأت بالتشكيكات ، فسد كله ، أي فسدت الأعضاء ولم تستقم وصارت وبالًا على صاحبها ، فصار لا يتكلم إلا بسوء ، ولا ينظر إلا إلى محرم ، ولا يأكل إلا محرمًا ، ولا يكسب إلا محرمًا وذلك لفساد هذه المضغة التي هي القلب .

ولا شك أن صلاح القلب يكون بالنظر في أسباب الصلاح ، كالأدلة التي ينظر فيها ويتعقل فيها ، والبراهين والبينات التي تكون سببًا في صلاحه ، وكذلك أيضًا صلاحه يكون بحمايته عن الشبهات وعن التشكيكات ، وأن يدخل فيه ما يفسد عليه فطرته ، وما يغير عليه ميزته التي تميز بها ، وأن يحرفه ويصرفه عن الصراط السوي إلى الكفر والشرك والشك - والعياذ بالله - فهذا دليل على أن هذا الحديث حديث جامع يتأمل فيه المسلم حتى يستفيد منه ويأخذ منه عبرة وموعظة .

❁ ❁ ❁

الحديث السابع
الدين النصيحة

عن أبي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بنِ أوْسٍ الدَّارِيِّ - رضي اللهُ عنه - : أَنَّ النَّبي ﷺ قالَ : « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » . قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قالَ : « **للهِ ، ولِكِتَابِهِ ، ولِرَسُولِهِ ، ولِلأَئِمةِ المُسْلِمِينَ ، وعامَّتِهِمْ** » . رَواهُ مُسْلِمٌ[1] .

شرح الحديث :

قوله ﷺ : « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » . كررها ثلاثًا : « **الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ** » . للاهتمام ولتعظيم هذه الكلمة ولينتبه السامعون . ولما كانت النصيحة أمرًا يتعدى غالبًا سألوه لمن تكون النصيحة ؟ فقال : « **للهِ ولِكِتَابِهِ ، ولِرَسُولِهِ ، ولأئمة المسلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ** » - يعني هذا الأصل أنها تتعدى وإن كان قد يقال إنها تصير لازمة ، بمعنى أن الإنسان قد يقال فيه : فلان نصح لنفسه .

كيف تكون النصيحة لازمة ؟

الجواب : إن الإنسان إذا أصلح أعماله على ما ينجي نفسه في دينه وعلى ما يهذبها ، وأدَّبها بالآداب الحسنة وتخلَّق بأخلاق المسلمين ، صدق عليها أنه قد نصح نفسه وأنه قد نظر في مصلحتها ، وأما من لم يتأدب بآداب الإسلام أو جلب إلى نفسه ما يضرها وتعاطى من الأفعال ما يؤلمها ، سواء ألمًا حسيًّا أو ألمًا معنويًا ؛

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان أن الدين النصيحة (٩٥) (٧٤/١) ، من طريق عطاء بن يزيد الليثي عن تميم الداري به . وفي الباب عن ابن عباس ، وابن عمر - رضي الله عنهم - .

فإنه ما نصح نفسه ، فبهذا نعرف أن النصيحة قد تكون لازمة وقد تكون متعدية ، وأن اللازمة هي كونه يصلح عمله ، فإنه بذلك يصدق عليه أنه ناصح ، وأن الذي لم ينصح نفسه هو الذي يضرها ، سواءٌ يضرها بضرر حسي كالذي يجلب إلى نفسه الأمراض بتعاطي المخدرات أو الدخان أو ما أشبهه ، فيقال : هذا أضر نفسه ، هذا أهلك نفسه ، ما نصح نفسه ، ما أحب الخير لنفسه ، أو من حيث المعنى من حيث لا يتأدب بآداب الإسلام ولا يتخلق بأخلاقه ، ولا يعامل نفسه معاملة المسلمين ، فلا شك أن مثل هذا ما نصح نفسه .

أما النصيحة المتعدية : فأخبر النبي ﷺ بأنها النصيحة للَّه ، والنصيحة لكتاب اللَّه ، والنصيحة لرسله ، والنصيحة لعامة المسلمين .

الأصل في النصيحة : أنها عمل تعمله لمصلحة من تنصحه ، بحيث إنك إذا نصحته ينتفع بنصيحتك ، وذلك كما وصف اللَّه تعالى أنبيائه بأنهم ناصحون ، قال اللَّه تعالى عن نوح : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف : ٦٢] . وقال تعالى عن هود : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف : ٦٨] . وقال عن صالح : ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف : ٧٩] . وكذلك قال عن شعيب : ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٣] . وهذا دليل على أن النصيحة أمر محبوب .

وقد قال العلماء : إن النصيحة مشتقة من النصح الذي هو الخلوص ، ومنه قولهم : « **نصح العسل** » يعني : خلصه من الشوائب . ومنه قول اللَّه تعالى : ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم : ٨] . أي خالصة صادقة .

فالناصح هو الذي يخلص مودته أو يخلص محبته ويخلص في أعماله ويخلصها من الشوائب التي تفسدها ، ولكن لابد أنها تختلف باختلاف من توجه إليه

النصيحة، ومعلوم أن المنصوح غالبًا يستفيد من النصيحة، ولذلك ورد في الحديث(١) في حقوق المسلم على المسلم، منها: إذا سلم عليك أن ترد عليه، وإذا مرض، تعوده، وإذا استنصحك فانصح له، أي إذا طلب منك أن تنصحه وتبين له فإن عليك أن تخبره بما تدين به للَّه، وبما يكون فيه مصلحة، فهذا دليل على أن النصيحة تنفع المنصوح الذي توجه إليه.

ولا شك أن هذا الحديث جعل الدين كله في النصيحة، ثم فسرها بما فسرها به من النصيحة للَّه إلى آخره، وقد بين الشراح ما يتعلق بالنصيحة لهؤلاء.

قوله: «**للَّه**» النصيحة للَّه ليس معناها أن اللَّه تعالى محتاج إلى نفع العباد، أو إلى أعمالهم، أو أن نصيحتهم تزيده، أو أن عدمها يضره، فإنه تعالى لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم؛ ولكن تفسير النصيحة في حق اللَّه، أو للَّه أنها بمعنى: الخلوص، فالنصيحة للَّه، يدخل فيها إخلاص العبادة له، وطاعته وامتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وتعظيمه حق التعظيم وإجلاله، وتكبيره، وتسبيحه، وتحميده، وكذلك - أيضًا - تنزيهه عن النقائص، وعن الشركيات، وصرف جميع أنواع العبادة له، فلا يدعو إلا اللَّه، ولا يخاف إلا منه، ولا يرجو غيره، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يستعان إلا به، ولا يعتمد إلا عليه، ولا يوثق إلا بكفايته: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]. وبه يستعاذ من المعضلات ومن الشرور، وبه يستغاث في المهمات والملمات، وإليه يتوب، وعليه يقبل بقلبه وقالبه، وإليه يؤوب ويرجع

---

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة مرفوعًا: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس». أخرجه: البخاري في «صحيحه» كتاب الجنائز: باب الأمر باتباع الجنائز: باب الجنائز (١٢٤٠) (١٣٥/٣ - فتح)، وفي «الأدب المفرد» (٥١٩) (ص١٨٣)، (٩٢٥) (ص٣١٩) (٩٩١) (ص٣٤٣)، ومسلم في «صحيحه» كتاب السلام: باب حق المسلم على المسلم: رد السلام (٤) (١٧٠٤/٤ - ١٧٠٥)، كلاهما حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

إليه ويعاهده ويصدقه فيما عاهد عليه ، وكذلك يعتقد جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وارتفاعه فوق خلقه ، وقربه ومعيته ، ويعتقد قدرته على كل شيء ، وقدرته على المخلوقات وصغر المخلوقات بالنسبة إلى عظمته ، ويعتقد - أيضًا - أنه المستحق وحده لأن يعبد ويدعا ، وأن عبادة ما سواه باطلة وضلالة ، ويعتقد أنه موصوف بصفات الكمال وأنه سميع لا كسمع البشر ، وأنه بصير لا كبصرهم ، وأنه يتكلم كما يشاء ، وأنه يجيء لفصل القضاء بين عباده ، وأنه سريع الحساب ، وشديد العقاب ، وشديد البطش ، وأنه عزيز ذو انتقام ، وأنه متكلم يتكلم إذا شاء كما يشاء ، وأنه يتنزه عن النقائص ، عن السِّنة والنوم والغفلة والموت وعزوب شيء عن علمه وغفلته عن خلقه أو إهمالهم ، أو أن يخلق خلقًا بلا حكمة ، أو أنه يتركهم هملًا وسدى لا يؤمرون ولا ينهون .

هذه أمثلة ، والأمثلة كثيرة فيما يتعلق بحقوق اللَّه تعالى ، فمن فعل ذلك يعد ناصحًا للَّه تعالى .

وفسروا النصيحة لكتاب اللَّه أو لكتبه ، حيث إن الكتاب في قوله : « **وكتابه** » .
يصدق على القرآن ويصدق على الكتب كلها . فالنصيحة لكتاب اللَّه : التصديق بأنه كلام اللَّه منزل منه غيرمخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأنه المعجز بكلماته وبمعانيه وبآياته ، وأن الخلق لا يقدرون على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ويعتقد أنه الذي لا تصح الصلاة إلا بقراءته أو بقراءة بعضه وأن قراءة غيره لا تكفي عنه ، ويعتقد أنه منزه عن وصمة أو عن نقص أو عيب أو خلل أو اختلاف كما في قوله : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] . ومن حقوقه أو من النصيحة للقرآن أن يتلوه حق تلاوته ، وأن يتدبره ويتعلمه ويعمل بمحكمه ، ويؤمن بمتشابهه ويقف عند عجائبه ، ويتلوه حق تلاوته ، ويقيم حروفه وحدوده ، ويتبع إرشاداته وأوامره ، ويجتنب زواجره ونواهيه ، ويتلوه ويقرؤه في كل

الأحوال ، ولا يعرض عنه ولا يهجره كالذين قال الرسول ﷺ ، فيما حكاه عنه تعالى : ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : ٣٠] . ويعتقد أنه منزل من اللَّه تعالى ، أنزله على قلب نبيه ﷺ وأنه : ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] .

وكذلك النصيحة للنبي ﷺ هي أداء حقوقه ، فمنها : أن يشهد أنه مرسل من ربه ، وأن اللَّه تعالى اصطفاه واختاره رسولًا وخصه بالرسالة دون غيره من أهل زمانه وما اختاره إلا لعلمه كما قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص : ٦٨] . وقال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . وأنه أهل للرسالة وأهل للاختيار ؛ لأنه على خلق عظيم ، ولأنه الصادق الأمين ، ويعتقد أنه بلغ ما أنزل إليه ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في اللَّه حق جهاده ، وترك أمته على مثل البيضاء ليلها كنهارها ، وما ترك خيرًا إلا ودل أمته عليه ، ولا شرًّا إلا وحذرها منه ، والخير الذي دلهم عليه : التوحيد وجميع ما يحبه اللَّه ويرضاه ، والشر الذي نهاهم عنه وحذرهم منه : الشرك وجميع ما يكرهه اللَّه ويأباه .

ثم من حقوقه ومن النصيحة له أن يحبه غاية المحبة ، بل يقدم محبته على ماله وولده وأهله وأبويه ونفسه والناس أجمعين ، فذلك من شروط الإيمان ، وكذلك يؤمن به إيمانًا جازمًا ، يؤمن بأن ما جاء به هو من اللَّه تعالى ، وأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٤] . وأنه إنما بلغ الذي أوحي إليه ولم يقل شيئًا من قبل نفسه ، وحاشاه أن يقول على اللَّه بغير علم ، أو أن يكتم شيئًا من الوحي ، أو أن يزيد فيه من نفسه .

ويعتقد - أيضًا - أن طاعته من طاعة اللَّه ، وأن من عصاه فقد عصى اللَّه ؛ لأنه الواسطة بين العباد وبين اللَّه في تبليغ الرسالة .

وكذلك من حقوقه تقبل إرشاداته وأوامره واتباعه فيما سنَّه وفيما شرعه لأمته

وطاعته في ذلك . هذا مثال من الأمثلة في حق النبي ﷺ ، وأدلة ذلك كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] . ومثل قوله تعالى : ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن : ٨] . ومثل قوله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور : ٦٣] . ومثل قوله : ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور : ٦٣] . أي لا تدعوه باسمه بل ادعوه بالنبوة وبالرسالة ، ومثل أمره سبحانه لهم ألا يعاملوه برفع الصوت : ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات : ٢] ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الحجرات : ٣] . وقوله ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** » . كل ذلك من حقوقه وداخل في النصيحة له .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين : فالمراد بهم ولاة الأمور ، كل من كان واليًا لأمر من أمور المسلمين سواءً كانت ولايته عامة أو ولايته خاصة .

فالولاية العامة : كالملوك الذين لهم الملك العام على جميع البلاد الإسلامية .

والولاية الخاصة : كرؤساء الدول الذين لهم التصرف في دولتهم ، وكذلك الأمراء والنواب الذين يكونون نوابًا على قطر من الأقطار ، أو مقاطعة أو منطقة من المناطق ، هؤلاء - أيضًا - لهم حق ، لهم نصيحة تخصهم ؛ وذلك لأنهم يتولون هذه الولاية التي فيها مصلحة وفيها منفعة وخير للمسلمين ، فلابد أن تكون هذه الولاية موافقة للشرع ، ومعلوم أنهم بحاجة إلى إرشادات ممن تحت أيديهم أو تحت ولايتهم فحق على الرعية أن ينصحوهم ويبينوا لهم أسباب الخطر حتى يتوقوها ، ويبينوا لهم أسباب النجاة حتى يسلكوها ، وذلك لأنهم بشر ، ولأنهم ليسوا يعلمون الغيوب ، وليسوا يطلعون على ما في الأرض كلها ، ولا يعلمون الأشياء إلا بعد أن تبلغهم ، أو تصل إليهم ، فهم بحاجة إلى أن ينصحهم أفراد الرعاية أو مجملها

ويوصلوا إليهم ما يعلمون أن فيه مصلحة ومنفعة ونجاة لهم ونجاة لمن تحت أيديهم .

ومن حقوقهم - أيضًا - السمع لهم والطاعة كما ورد ذلك في قوله ﷺ : « **اسمع وأطع - أو عليكم بالسمع والطاعة - وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة يقودكم بكتاب الله** »(١) . أخبر بأن الوالي يكون من حقه أن يطاع ولا يخالف ، ولا شك أن هذا يكون سببًا للأمن والطمأنينة والحياة الطيبة كما أن العصيان والمخالفة ونزع يد الطاعة سبب للاضطراب في الحياة ، وسبب لكثرة الزعازع والفتن والمخاوف والاضطراب في الأمن .

فحق الولاة على رعاياهم وعلى أفرادهم : أن يحبوا لهم النجاة ويحبوا لهم الخير ويدلوهم عليه بحسب ما يستطيعون أو ما يقدرون عليه ، وينبهوهم على الأخطار التي يعرفونها ، ويرشدوهم إلى ما يعلم منه النجاة وينصحوهم ويحببوا لهم الخير ويؤثروهم به ، وعليهم أن يحرصوا على استقامتهم واهتدائهم وابتعادهم عن الأخطار وما أشبهها ، مع عدم المخالفة وعدم نزع اليد عن الطاعة وعدم الانفراد والاستبداد بالآراء وما أشبهها .

وأما النصيحة للعامة : فالمراد بهم أفراد المسلمين ، وحق المسلم على المسلم كثير وكبير ، وكله داخل في النصيحة التي هي فرد من أفراد الدين ، التي بتحقيقها يكون مكملًا للدين حقًا ، فإن المسلم يحب للمسلم ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، ويدله على الإرشادات الدينية فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر

---

(١) يشير إلى حديث أنس - رضي الله عنه - يحدث أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « **اسمع وأطع ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة** » . أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأذان : باب إمامة العبد والمولى (٦٩٣) (٢/٢١٦ - فتح) ، وباب إمامة المفتون والمبتدع (٦٩٦) (٢/٢٢١ - فتح) . وانظر : (٧١٤٢) ، من طريق شعبة عن أبي التياح يزيد بن حميد عن أنس - رضي الله عنه - به .

ويرشده إلى سبل النجاة التي يعرف أنه بسلوكه لها ينجو من المهالك والأخطار ، سواء كانت دنيوية أو دينية ، فإن كانت دنيوية فإنه إذا رآه يتعاطى معاملة فيها ضرر عليه أو فيها كساد وخسارة ونحوه ، أحب له الخير فدله على السبيل التي يربح فيها والتي ينجو بها من الخسران ومن الخطر ، ومن المغارم ونحوها ، أو حذره من أسباب الخسران ونحوه ، يقول له : إني أحب لك الخير وإني لك لمن الناصحين ، وقد رأيتك تتعامل مع فلان ، وهذه المعاملة سبيلها الخسران ، فإن الغالب منه ومن أمثاله أنهم لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة ولا ينظرون في مصالح العامة ولا في مصلحة غيرهم ، فيحبون أن يربحوا وأن تنموا أموالهم على حساب غيرهم ، فإياك أن تتعامل معه واطلب غيره . أو يرشده بقوله له : تعاملك مع فلان ، أو تعاملك بالمعاملة الفلانية ، أو بالحرفة الفلانية ، هي أربح لك ، وهي السبب في تحصيل الخير وتحصيل الرزق بالحلال ، وما أشبهها .

وهكذا - أيضًا - النصيحة له في الصحبة بأن تدله على الصحب الذين قد يربح بصحبتهم وينجو من المهالك ويسلم من المعاطب والمعائب ، أو يكتسب بالصحبة سلامة ويكسب بها علمًا وعملًا وخيرًا دينيا وخيرا دنيويًا فتقول له : عليك بصحبة فلان وفلان فإنهما يعينانك على أمر دينك ودنياك فإنك تجد منهما التفقه والتعلم والقوة عليه والنشاط ، وإياك أن تصحب فلانا أو فلانا فإنك ستخسر دينك ودنياك حيث إن من صاحبهم ورافقهم وقع في مشكلات ، ووقع في المخدرات ، ووقع في الخزي وفي العذاب وفي النكال ، وما أشبهه .

لا شك أن هذا ونحوه من حق المسلم على المسلم ، فلأجل ذلك كانت النصيحة للمسلمين من أهم الأعمال التي إذا عملوها رزقهم اللَّه ووفقهم وجمع كلمتهم على الخير وقواهم .

❁ ❁ ❁

الحديث الثامن

حرمة دم المسلم وماله

عن ابنِ عُمَرَ – رضي اللهُ عنهما – أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ قال : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدُوا أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا رسُولُ اللهِ ، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ ، فإذا فَعَلوا ذَلِكَ عَصَموا منِّي دِماءَهُمْ وأمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإسْلامِ ، وحِسابُهُم على اللهِ تعالى** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث الجامعة المفيدة ، فإن النبي ﷺ لما توفي كفر كثير من الأعراب وارتدوا عن الإسلام ، ولما ارتدوا كان منهم من منع الزكاة ، ومنهم من عاد إلى عبادة الأصنام ، ومنهم من صدق المتنبئين كمسيلمة والعنسي وطليحة وسجاح ، فعزم الصديق رضي اللَّه عنه على أن يقاتلهم كلهم ، فأنكر عليه بعض الصحابة قتال من يشهد الشهادتين ، وقال عمر : كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا اللَّه . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على اللَّه** » . فقال أبو بكر رضي اللَّه عنه : واللَّه لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، واللَّه لو

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة ...) (٢٥) (١/ ٩٤ – ٩٥ – فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب الأمر بقتال الناس حتى ... (٣٦) (١/ ٥٣) ، كلاهما من طريق شعبة عن واقد بن محمد عن أبيه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – به .

منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّه ﷺ : لقاتلتهم على منعها . يقول عمر : واللَّه ما هو إلا أن رأيت اللَّه قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق .

استدل عمر بعموم هذا الحديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم** » . واستدل أبو بكر بقوله : « **إلا بحقها** » . فإن حقها أداء شعائر الإسلام الظاهرة ، فالذين يجحدون تعاليم الإسلام يقاتلون حتى يعودوا إلى الإسلام ويلتزموا تعاليمه ولا يكفيهم أن يتلفظوا بلا إله إلا اللَّه ، وقد عملت بذلك الأمة فقد عملوا بقتال من ترك شعيرة من شعائر الإسلام ، أو استحل ذنبًا وجرمًا حرمهما الإسلام ، وذلك لأنه يكون قد طعن في الإسلام طعنًا حقيقيًا لم يصدق بأن اللَّه فرض هذا الإسلام بكماله ، بل اعتقد أن الإسلام يصح الاكتفاء ببعضه ، فإن الإسلام كل لا يتجزأ لا يقبل بعضه دون بعض .

هذا من حيث الظاهر ، لذلك روى ابن عمر هذا الحديث وفيه ذكر الصلاة والزكاة وأنه يقاتل عليهما .

« **أُمِرْتُ** » . أي : كلفت حيث أمرني ربي . يقول ﷺ : جاءني الأمر من اللَّه بقتال جميع الناس حتى يأتوا بهذه الأركان .

ومعلوم أن النبي ﷺ كان في مكة لم يؤمر بالقتال ، بل أمر بأن يقتصر على الدعوة والبيان ؛ وذلك لأنه لم يكن عنده من القوة ما يقاوم به قوة المشركين ؛ لكثرتهم ، فلما نصره اللَّه وأيده وقواه وهدى على يديه المؤمنين من الأنصار والمهاجرين أمر بعد ذلك بالقتال ، فأول ما نزل عليه في القتال قول اللَّه تعالى في سورة الحج : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج : ٣٩] .

أذن لهم بأنهم ظلموا : يعني : أذن لهم بالقتال ، فإنه لما نزل عليه الإذن في قوله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ يعني : رُخص لهم في القتال بعد أن كانوا ممنوعين مأمورين بالاقتصار على الدعوة دون قتال ، ولكن لما بدأ المشركون يقاتلونهم

ويؤذونهم ويخرجونهم رخص لهم في القتال مجرد إذن ، ثم بعد أن زادت قوتهم أمروا أن يقاتلوا ، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة : ١٩٠] . فكانوا لا يقاتلون إلا من قاتلهم ، يعني يقاتلون الذين قاتلوهم قال تعالى : ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [التوبة : ١٣] . فأخبر بالأسباب التي رخص لهم في القتال لأجلها : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ . ونهاهم عن الاعتداء ، أي لا تتجاوزوهم فتقاتلوا غيرهم فتكونوا من المعتدين فصاروا يقاتلون . من قاتلهم من قريش وغطفان ونحوهم من القبائل الذين نصبوا العداوة للمسلمين وصاروا يحاربونهم ، وبعد أن قوي الإسلام وتمكن واستتب وثبت في البلاد الإسلامية أمر اللَّه المسلمين بأن يقاتلوا جميع المشركين ، فأنزل آية السيف في سورة التوبة وهي قوله تعالى : ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ إلى قوله : ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة : ٥] . فأمر بقتالهم إلى أن يتوبوا من الشرك والكفر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وهما عملان من الأعمال التي يقاتل عليها ، ولما منع الزكاة المرتدون قالوا : لا نعطيها لغير محمد فإنها خاصة به . احتج عليهم الصحابة بأنها حق المال ، وأنها من جملة أركان الإسلام ، واستدلوا عليهم بهذه الآية : ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ . وفي الآية الأخرى : ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة : ١٣] . فقاتلوا مانعي الزكاة لهذه الأدلة ، وقاتلوهم - أيضًا - لهذا الحديث : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ** » .

وهكذا - أيضًا - في الدعوة فإنه ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له :

« فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّه » وفي رواية : **« إلى أن يوحدوا اللَّه ، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة »** . نقله إلى الصلاة ، أي : إذا وحدوا اللَّه فادعهم إلى الصلاة ، ثم ذكر الزكاة – أيضًا – إذا وحدوا اللَّه فادعهم – أيضًا – إلى أداء الزكاة بعد الصلاة[1] . فهذا ونحوه دليل على أنه يبدأ بدعوتهم إلى التوحيد ثم إلى الأعمال الظاهرة وأهمها : الصلاة ، وإذا التزموا بالصلاة والتزموا بالزكاة ، التزموا – أيضًا – بالصيام ، والتزموا بالحج ، والتزموا بالجهاد ، والتزموا – أيضًا – بالتروك ، يعني بترك الربا وبترك الزنى وبترك السرقة ، وبترك الرُشا ، وبترك جميع المحرمات ؛ وذلك لأن الإسلام يحتم عليهم حقًّا أن يعملوا بكل ما أرشد إليه ويتركوا كل ما نهى عنه ، وعلى هذا فإذا امتنعت طائفة عن ركن من أركان الإسلام فإنهم يقاتلون حتى يدينوا بذلك الركن ، فلوا اتفقوا على أنهم لا يصلون لكان ذلك ردة فيقاتلون ، وإذا اتفقوا على أنهم لا يزكون أو لا يصومون قوتلوا حتى يدينوا به .

وإذا قلت ! لماذا لم يذكر في حديث ابن عمر الصيام والحج مع أنهما من أركان الإسلام ؟

فالجواب : أنها داخلة في قوله : **« إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ »** . لأنه قال : **« فَإِذَا فَعَلُوا**

---

(١) يشير إلى حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : **« إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ؛ فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات ....»** الحديث . أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب وجوب الزكاة (٣٩٥) (١/٥٩٥ – فتح) ، وفي مواضع أخرى من « صحيحه » في المغازي والتوحيد والمظالم ....، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب الدعاء إلى الشهادتين .. (٣٠/٣١) (١/ ٥٠ ، ٥١) ، كلاهما من طريق يحيى بن عبد الله بن صيفي عن أبي معبد مولى ابن عباس عن ابن عباس – رضي الله عنهما – به .

ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا - أو إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ» فحق الإسلام : أن تطبق تعاليمه ، وأن يعمل بكل ما فيه ، وأن يدين المسلم الذي دخل فيه بكل ما أمر به من الطاعات التي جعلها اللَّه شرائع وفرائض . ومعلوم أن الإسلام جاء بفرائض لم تكن قبله مثل : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وقد كان أصلها موجودًا قبل الإسلام ، وجاء الإسلام - أيضًا - بأشياء موجودة قبله ولكنه جعلها من الإسلام مثل : بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والصدق في المقال ، وأداء الأمانات ، وحسن المعاملة ، والنصح لكل مسلم ، ومثل محبة أهل الخير وموالاتهم ، وما أشبه ذلك .

وجاء - أيضًا - بالنهي عن أشياء ممقوتة ومحرمة قبل الإسلام وأقر تحريمها ، فالزنى كان - أيضًا - معروفًا بشاعته قبل الإسلام ولا يفعله إلا الأراذل ويغار العرب على بناتهم وعلى نسائهم ، ومع ذلك فإنه موجود ، ولكن جاء الإسلام بتأكيد تحريمه ، وجاء الإسلام بتحريم الربا ، وكان معمولًا به قبل الإسلام ، كما جاء بتحريم الرياء الذي هو الشرك وبتحريم أخذ الرشا ونحوها ، وبتحريم الخيانة ، وبتحريم العقوق والقطيعة ونحوها من المحرمات ، وكل هذه داخلة في قوله : « **إِلَّا بِحَقِّهَا** » . فإننا إذا رأينا من استحل الربا ودان بحله صراحة ، وأعلن ذلك مع ورود النصوص الصريحة بتحريمه ، حكمنا بردته ووجب قتاله إلى أن يدين بتحريم ما حرمه اللَّه ، وهكذا لو أنكر تحريم الخمر وأعلن ذلك وقال : إنها شراب طيب ، وإنه ذو نكهة طيبة ، وكيف يحرمها الإسلام ؟ ! لكان إنكاره هذا إنكارًا لنص معلوم من الدين بالضرورة ، فيلزم قتاله ، ويقال كذلك في كل الأمور المعلومة من الدين بالضرورة أنه يقاتل عليها ، يقاتل من استحل الرشوة ظاهرًا وقال : لا بأس بها من حاكم ، أو عالم ، أو جاهل ، أو نحو ذلك .

كما يقاتل من استحل الغش ، ومن استحل الغيبة أو النميمة ، ومن استحل الظلم

والعدوان، ومن استحل نهب الأموال وسلبها بغير حق، كل هؤلاء يقاتلون لدخولهم في قوله: «**إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ**».

كما أن العبادات أيضًا لها مكملات، فيقاتل من ترك المكملات أو استهان بها، فمن استهان بالطهارة وصلى وهو نجس أو حامل نجاسة، أو استباح ذلك، فقد ترك أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة وشرعًا شرعه الله وهو الطهارة فيقاتل على ذلك، أو أنكر الغسل من الجنابة وأباح للجنب أن يصلي في جنابته، فقد أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، وكذا لو استحل ترك جزء من أجزاء الصلاة، فإن قومًا في الجاهلية أرادوا أن يدخلوا في الإسلام واستثنوا السجود فقالوا: اعفنا من السجو. فقال النبي ﷺ: «**لا نعفيكم**»، واستثنى بعضهم الصلاة فقال: «**لا خير في دين ليس فيه صلاة**»[1]. فلابد لمن دخل في الإسلام أن يأتي بحقوقه. فإذا لم يأتِ بها حل قتاله لهذه الآية.

وهي قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ولهذا الحديث.

وذلك لأنهم إذا تابوا فالتوبة تستلزم العمل بجميع أعمال الشريعة، فيتركون المحرمات ويدينون بالطاعات، فهذا هو السبب في أنه اقتصر على التوبة وعلى

(١) ضعيف أخرجه: أبو داود في «سننه» كتاب الخراج والإمارة والفيء: باب ما جاء في خبر الطائف (٣٠٢٦) (٣/١٦١ - ١٦٢)، وأحمد في «مسنده» (٤/٢١٨)، والطيالسي في «مسنده» (٩٣٦) (ص ١٢٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٥٢٠) (٣/١٨٦)، وابن الجارود في «المنتقى» (٣٧٣) (ص١٠١)، والبيهقي في الكبرى (٢/٤٤٤). كلهم من طريق حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - به.
وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» من طريق آخر عن الحسن به (١٥٢١) (٣/١٨٦) ولفظه: «لا خير في دين لا ركوع فيه ...» وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

الصلاة والزكاة ، ولذلك يقال : إن من قوتل على شيء فإنه يقاتل حتى يدين بذلك الشيء الذي أنكره ، فالمشركون الأولون كانوا يقاتلون على لا إله إلا اللَّه ؛ لأنهم كانوا يقولون : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] . فإذا قالوا : لا إله إلا اللَّه . وجب الكف عنهم ، ولهذا لما قاتل أسامة رجلا وأقبل عليه قال : لا إله إلا اللَّه . فقتله أسامة أنكر عليه النبي ﷺ مع أنه قال : إنما قالها متعوذًا ، إنما قالها خوف السلاح[1] . أنكر عليه وذلك لأنه إذا قال : لا إله إلا اللَّه . فإنه يكف عنه ثم بعد ذلك ينظر في أمره ؛ فإن استمر على العمل بشروط لا إله إلا اللَّه ومكملات لا إله إلا اللَّه كف عنه وعومل معاملة المسلمين ، وأما إذا ترك شيئًا من مكملات لا إله إلا اللَّه أو مكملات التوحيد ومكملات الإسلام وشروطه ؛ فإنها لا تنفعه ، ولذلك يقاتل كثير من الذين يقولون : لا إله إلا اللَّه . ولا يعملون بها ، مثلا الذين يقولون : لا إله إلا اللَّه . ويطوفون بالقبور ويدعون الأموات لا تنفعهم لا إله إلا اللَّه ؛ لأنهم نقضوها ، وكذلك الذين يقولون : لا إله إلا اللَّه ويكذبون بالرسالة أو يكذبون بالبعث لا تنفعهم ؛ لأنهم ما عملوا بحقها ، فلا يكف عنهم إلا إذا عملوا بجميع حقوقها هذا معنى قوله « **إلا بحقها** » .

ثم إذا عملوا بها من حيث الظاهر ودانوا بما تدل عليه وأذعنوا للَّه تعالى بما دلت عليه هذه الكلمة وقلوبهم منكرة فهل نقاتلهم ؟ لا نقاتلهم ، ولهذا قال : « **وحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** » لأن . القلوب يتولاها علام الغيوب ، نحن نقاتلهم على الظاهر ، فإذا أظهروا لنا الشهادة والصلاة وترك المحرمات فإننا نكف عنهم ، ولهذا في حديث

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب المغازي : باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات ... (٤٢٦٩) (٥٧/٥٩٠ - فتح) وطرفه في (٦٨٧٢) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله (١٥٨، ١٥٩) (١/٩٦ - ٩٧) ، كلاهما من طريق أبي ظبيان ، عن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - به .

ذلك الرجل الذي اعترض على النبي ﷺ وقال : اعدل . فقال النبي ﷺ : « **ومن أحق مني بالعدل خبت وخسرت إن لم أعدل** » . ثم ولى الرجل فقال خالد : ائذن لي أن أقتله . فقال النبي ﷺ : « **لعله يصلي** » . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال ﷺ : « **إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم** »(١) . وكذلك قال لأسامة : « **هلا شققت عن قلبه ؟** » يعني : حتى تعرف أنه قالها بيقين أو لا ؟ ومع ذلك فإننا نأخذهم بالظاهر ، وهذا ما ذكر عمر رضي اللَّه عنه في خلافته قال : « **إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول اللَّه ﷺ وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم بالظاهر ، فمن أظهر لنا خيرًا أحببناه وقربناه وواليناه ، ومن أظهر لنا شرًّا أبعدناه وعاديناه ولو كان قلبه مؤمنًا** »(٢) . إذن نحن نعامله بالظاهر .

فالحاصل : أن النبي ﷺ أخبر بأنه أُمر بقتال الناس : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس** » . ولم يستثن لم يقل : أقاتل العرب ، ولا أقاتل الزنج ، ولا أقاتل الروم ، ولا الفرس ، ولا اليهود ، ولا النصارى ، بل الناس كلهم ، وهذا دليل على أن شريعته عامة لجميع الناس ، وأن الناس جميعًا يلزمهم أن يدخلوا في هذه الشريعة ، وأن يقاتلوا عليها إذا لم يقبلوها ولم ، يعملوا بها ، ودليل على أن القتال لأجل الكفر لأجل الرد والدفاع .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي : باب بعث علي بن أبي طالب وخالد - رضي الله عنهما - .. (٤٣٥١) (٧/٦٦٥ - ٦٦٦) وفي مواضع أُخرى من « صحيحه » ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٤٤) (٢/٧٤٢) ، كلاهما من طريق عمار بن القعقاع بن شبرمة عن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبي سعيد - رضي الله عنه - به .

(٢) أخرجه : البخاري في « صحيحه » كتاب الشهادات : باب الشهداء العدول ... (٢٦٤١) (٥/ ٢٩٨ - فتح) ، وفي « خلق أفعال العباد » (ص٩٣) ، من طريق شعيب عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عتبة عن عمر - رضي الله عنه - به .

ففي هذه الأزمنة ظهر أناس يقولون : القتال لأجل الدفاع ، أي لا تقاتلوا إلا من اعتدى عليكم . ويستدلون بقوله تعالى : ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٤] . وما دروا أن هذه الآية في العدوان العادي ، وأن الله تعالى أمر بقتال المشركين عمومًا ، يبدأ بالأقرب فالأقرب كما قال تعالى : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة : ١٢٣] . ابتدئو بالذين يلونكم ثم بعد ذلك قاتلوا من بعدهم ثم الذين يلونكم ، وهكذا إلى أطراف الدنيا ، هكذا يلزم في قتال المشركين من الناس كلهم . فالذين قالوا : إن القتال للدفاع لا لأجل النهي عن الشرك والكفر ، قولون : استسلموا وسالموا واذعنوا للمشركين واتركوهم على شركهم ولو كنتم أقوى منهم وأقدر وأغلب ، اتركوهم ولا تقاتلوهم إلا من ابتدأكم ، فإذا ابتدأكم أحد فقاتلوه لكف شره ولكف عدوانه ، هذا هو الأصل . وخالفوا هذه النصوص ، فالله تعالى أمر بقاتلهم لأجل شركهم : ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة : ٥] وأمر بقتالهم لأجل كفرهم ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة : ١٢٣] وأمر بقتال أهل الكتاب في قوله : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة : ٢٩] . هؤلاء الذين هم أهل الكتاب تقبل منهم الجزية وغيرهم يقاتلون حتى يسلموا أو يقتلوا ، فهذا هو الأصل في قتال الكفار .

❁ ❁ ❁

الحديث التاسع
التكليف بما يستطاع

عن أبي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ صَخْرٍ - رضي اللهُ عنه - قال: سمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: **«ما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجتَنبوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فأتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فإنَّما أَهْلَكَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ واخْتلافُهُمْ على أَنْبِيَائِهِمْ»**. رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ[١].

شرح الحديث:

قوله: **«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبوهُ»**. النهي هو التحذير من الشيء الذي فيه ضرر، والنبي ﷺ لا ينهى، عما فيه خير، أو عما هو مباح، فلا ينهي إلا عما نهى اللّه عنه وأمره اللّه تعالى أن ينهى عنه، فالذي نهى اللّه تعالى عنه ونهى عنه رسوله ﷺ فذلك دليل على أنه حرام أو أنه مكروه، سواء كراهة تحريم أو كراهة تنزيه، وأن المؤمن عليه أن يجتنبه لقوله صلى اللّه عليه و سلم: **«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»**.

وقد وردت المناهي في القرآن كثيرًا سواء كانت عن أقوال، أو عن أعمال، أو مخاطبًا بها الناس، أو مخاطبًا بها أهل الإيمان، أو لم يسبقها خطاب، فكلها يجتنبها المسلم، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ (٧٢٨٨) (١٣/٢٦٤ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الحج: باب فرض الحج مرة في العمر (٤١٢) (٢/١٩٧٥)، كلاهما من طرق عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. و﴿رَاعِنَا﴾ كلمة كان يقولها اليهود ويقصدون بها الرعونة، فنهاهم الله تعالى أن يقلدوهم، وأمرهم بكلمة أحسن منها فقال: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾.

فالله تعالى ينهى عن بعض الأشياء تارة بالنهي بقوله: لا تفعلوا، وتارة بلفظ التحريم كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣].

فإذا وردت النواهي فإن المسلم يجتنبها ويعلم أن الله كرهها أو حرمها، سواء في الكتاب أو في السنة، وسواء كانت عن أعيان أو عن أفعال، فمثلًا قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾. فإن هذا نهي عنها، أي عن أكلها، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٢]. شعائر الله: يعني المشاعر المقدسة. أي لا تستحلوا المعاصي فيها والقتال فيها وانتهاك حرمتها، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ إلى آخر الآيات [المائدة: ٥٧]. فإن الله تعالى ينهانا في هذه الآيات عن هذه المحرمات، فواجبنا أن نجتنبها وكذلك النواهي في الأحاديث النبوية، فإن قوله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تنافسوا، ولا تهاجروا**».

فهذه ما نهى عنها إلا لأن فيها مفاسد، ولو كانت من الأخلاق التي تكون في العباد فيما بينهم، ولكنه نهى عنها لما فيها من الأضرار الاجتماعية، فواجب المؤمن أن يبتعد عنها، وكذلك بقية المنهيات التي نهى عنها وحذر منها مثل قوله ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**». وأشباه ذلك كثير، فإذا ورد النهي أو التحريم فإن المؤمن يترك هذا الشيء ويبتعد عنه.

فقوله : « فَاجْتَنِبُوهُ » . الاجتناب التباعد ، أي ابتعدوا عنه حتى تكونوا في جانب وهو في جانب .

وكلمة (اجتنبوا) أبلغ من كلمة (اتركوه) أو (دعوه) . لأن الترك قد يكون من غير ابتعاد ولكن الاجتناب يلزم منه البعد ، أي كونوا في جانب وهو في جانب ، ومثله قوله تعالى في الخمر : ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة : ٩٠] . أمر بالاجتناب فهو أبلغ من قوله : اتركوا . وإن كان الكل يفيد التحريم ويفيد المنع . ولكن الاجتناب أبلغ ، ولأجل ذلك يؤمر المسلم أن يجتنب ويبتعد عن الأشياء التي نهى اللَّه عنها ونهى عنها رسوله ﷺ ، ولو قدر أنه لم يعرف الحكمة في التحريم ، فإنه يعرف أن اللَّه تعالى لا يحرم إلا ما فيه ضرر في العاجل أو في الآجل ، في الدين أو في الدنيا ، فالمحرمات حرمت لأجل الضرر الذي فيها والشر الذي تحتوي عليه ، فلا يسلم العبد من ضررها إلا إذا ابتعد عنها وتركها تركًا كليًا ، فإذا قال : إن فيها مصلحة . قلنا : لو كان فيها مصلحة لشخص فإن مضرتها للأشخاص الآخرين ظاهرة أو لم تظهر المضرة . فلابد أن يكون فيها مضرة ولو دينية .

فإن كثيرًا من الناس الآن يتعاملون بالمعاملات الربوية ويقولون : إن فيها مصلحة ، لماذا حرمها اللَّه ؟ لماذا حرمها الشرع ؟

والجواب : لا شك أن اللَّه تعالى حرمها تحريمًا بليغًا بقوله : ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . أي من عاد إلى استحلالها والتعامل بها مستحلًا لها غير مكترث بتحريم اللَّه لها فله هذا الوعيد .

وعلى المؤمن أن يترك ما حرم اللَّه ولو لم تظهر له الحكمة ، ولو ظن أن فيها مصلحة أو منفعة ، فالذين يشربون الخمر يقولون : إنها شراب لذيذ ونافع ، فكيف

يحرم مع ما فيه من المنفعة ؟ ! وما علموا أن مضرته أكبر ، وأن أضراره الدنيوية والأخروية كثيرة ، ولكنهم لا يفكرون ، ولذلك أمر المؤمن أن يجتنبه ويبتعد عنه .

والحاصل : أن كل شيء نهى اللَّه تعالى عنه أو نهى عنه رسوله ﷺ أو ذمه ، فإن المؤمن يجتنبه .

وليس النهي خاصا بقوله أنهاكم عن كذا ، ولا بقوله لا تفعلوا كذا . بل كل خصلة توعَّد عليها فإنها منهي عنها ، فمثلًا قوله ﷺ : « **من غش فليس مني** » نهي عن الغش فهو لم يقل : أنهاكم عن الغش ، أو قال : لا تغشوا . لكن توعد على ذلك ، ومثل قوله : « **ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** »(١) .

لم يقل : لا تضربوا الخدود ، أو نحو ذلك ، وإن كان ورد النهي في حديث آخر أو اللعن أو البراءة ، كل ذلك من خصال النهي .

فقوله : أنا بريء من كذا وكذا ، أو : من فعل كذا فأنا بريء منه . هذا دليل على النهي .

والأدلة على المناهي التي نهى اللَّه تعالى عنها ونهى عنها رسوله ﷺ كثيرة قد أوصلها بعضهم إلى أربعمائة خصلة أو خمسمائة خصلة مما حرمه وتوعد عليه ، وجعل من الخصال ما يعذب بسببها ويستحق عليها الوعيد ؛ فسبيل المؤمن أن يتركها ويبتعد عنها .

ويمكن أن يرخص له في بعضها ، فعند الحاجة يرخص في بعض الأشياء

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب المناقب : باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٣٥١٩) (٦/ ٦٣١ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (١٦٥، ١٦٦) (١/ ٩٩) ، كلاهما من طريق مسروق عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - به .

المحرمة عند الضرورة ، أو عند الإكراه ، أو ما أشبه ذلك ، فمثلًا ذكروا أن الإنسان لو غُصَّ بطعام وليس عنده إلا خمر جاز له أن يدفع الغصة بشربة ولو من خمر ، فإن ذلك للضرورة ، وكذلك إذا احتاج إلى معاملة في حال حرج وهي منهي عنها ، كبيعه على بيع أخيه ، أو بيع ما لا يملك ، واحتاج إلى ذلك لحاجة وضرورة ، أو بيع ما ليس عنده ، أو بيع شيء فيه ضرر ، ولكنه احتاج إليه لمناسبة أو صلح على أمر ، وإن كان فيه ضرر ، ولكن لمصلحة فإنه يفعل بقدر الحاجة ، وكذلك قد أحل اللَّه أكل الميتة عند الضرورة والجوع بقدر الحاجة في قوله : ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام : ١١٩] .

فعرف بذلك أن الاجتناب يقتضي الابتعاد عن المحرمات ، وأن المسلم عليه أن يتركها ويبتعد عنها ، هذا بالنسبة لما نهى اللَّه تعالى عنه ونهى عنه رسوله ﷺ .

وأما الأوامر فإن سبيل المؤمن أن يأتي منها بما يقدر عليه وما يستطيعه ، ففرق بين الأوامر والنواهي ، فالنواهي قال فيها ﷺ : « **فَاجْتَنِبُوهُ** » . والأوامر قال : « **مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** » أي : افعلوا منه قدر ما تستطيعون .

ومعلوم أن الأوامر تارة تكون فروضًا ، وتارة تكون تطوعات ، والكل يصدق عليه أنه مما أمر اللَّه به ، أو أمر به نبيه ﷺ ، فإذا كان مأمورًا به فإنه قربة وطاعة وعبادة يثاب عليها ، ولو لم تظهر له الحكمة في فعلها أولم ير فيها مصلحة ظاهرة جلية ، ولكن يعرف ويتحقق أن اللَّه لا يأمر إلا بما فيه خير كما أنه لا ينهى إلا عما فيه شر ، فإذا أمرنا اللَّه تعالى أو رسوله ﷺ فعلينا امتثال الأمر واحتساب الأجر فيه ولو كان فيه شيء من الكلفة أو المشقة ، مع أنه سبحانه قد أسقط الحرج والمشقة في الأشياء التي فيها صعوبة ، مما يدل على أنه لا يأمر إلا بالخير الذي لا ضرر فيه ولا شر - فمثلًا - أمر اللَّه تعالى بالطهارة عند الصلاة ، وبالاغتسال بعد الجنابة ، وإذا حصل مشقة وقلة ماء وضرر ، تركت هذه الطهارة وعدل إلى التراب والتمسح به ،

فكلاهما مأمور به ، مأمور بأن تتطهر إذا كان الماء موجودًا وليس لك عذر ، وإذا لم تقدر فأنت مأمور بأن تتيمم ، ولذلك قال تعالى : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة : ٦] . ولما أمر اللَّه بالصيام علم أن هناك من يشق عليه الصيام كالمريض ، والمسافر ، فرخص لهم في الفطر والقضاء فقال : ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] . يعني أن في تكبدكم للصيام مع السفر والمشقة عسرًا ومشقة وصعوبة ، واللَّه لا يكلف العباد إلا ما يطيقونه ، ولما أمر اللَّه تعالى بالحج علم أن هناك من يعجز عنه فلم يفرضه إلا على القادر فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] . أي : فمن لم يستطع لعجز كالبعد الذي لا يقدر معه ، وكالفقر الذي لا يقدر معه . على الوصول إلى المشاعر فإنه يسقط عنه ، ولما أمر اللَّه تعالى بالجهاد في قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح : ١٦] .

علم اللَّه أن هناك من لا يقدر فقال بعد ذلك : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح : ١٧] . أي ليس عليهم حرج ألا يدخلوا معارك القتال لعجزهم الحسي ونقصهم الحسي الظاهر ، فاللَّه تعالى لم يكلف إلا من يطيق ، وقد تكرر قوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] . ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق : ٧] . ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

ومثال آخر على قوله ﷺ : « **مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** » . فالنبي ﷺ دخل مرة على رجل وهو مريض يصلي وقد جعل قدامه وسادة رفعها ليسجد عليها ، فألقى الوسادة وقال : « **إن استطعت أن تسجد على الأرض وإلا فأومئ بالسجود ،**

واجعل سجودك أخفض من ركوعك»[1]. أمره بأن يصلي على حسب حاله وهو جالس، وأن يشير بالركوع فيحني ظهره، ويشير بالسجود ولكن يكون سجوده أخفض من ركوعه حتى يميز بين السجود الذي هو على الأرض، والركوع الذي هو من الهواء، فلذلك فإن الإنسان يؤمر بأن يأتي ما يستطيعه.

ولما أمر اللَّه تعالى بالمحافظة على الصلوات، عَذَر من لا يستطيع أن يصليها كما هي فقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]. يعني: إذا كنتم خائفين، كحال القتال، فإنكم تصلون ولو كنتم تسيرون على الأرجل، وتصلون ولو كنتم على ظهور الخيل، أو ظهور الإبل، تومئون إيماءً، كل ذلك جعله تخفيفًا على العباد حتى لا يتكلفوا، وحتى لا ينفروا، فاللَّه تعالى لم يكلف العباد ما فيه مشقة وكلفة شديدة تنفر عن الطاعة وعن فعل العبادات والقربات، ولقد كان النبي ﷺ يحب الإكثار من العبادات، ولكن يكره المشقة على أمته، فكان يحب أن يتطوع بأنواع من التطوعات ويخشى أن تقتدي به أمته فيشق عليها، فقد صلى في رمضان جماعة ثلاث ليالٍ صلاة طويلة، ولما كثروا خاف أن تفرض عليهم فأمرهم بأن يصلوا بمفردهم وترك الخروج إليهم رحمة بهم؛ لأن ذلك قد يكلفهم وقد يشق عليهم مشقة زائدة لا يستطيعونها، هذا هو السبب في كونه تركها دون أن يستمر

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه: البزار في «مسنده» (٥٦٨) (١/٢٧٤ - ٢٧٥ - كشف)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٨١١) (٣/٣٤٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/٣٠٦)، وفي «معرفة السنن والآثار» (٢/١٤٠)، من حديث جابر - رضي الله عنه -.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/١٤٨ - ١٤٩): «رجال البزار رجال الصحيح. وعن ابن عمر قال: عاد... رواه الطبراني في الكبير وفيه حفص بن سليمان المنقري وهو متروك، واختلفت الرواية عن أحمد في توثيقه والصحيح أنه ضعيف والله أعلم ...». اهـ.
والحديث صححه الألباني بمجموع الطرق في «الصحيحة» (٣٢٣).

في الصلاة بهم، وكذلك - أيضًا - كان يحب أن يعمل بعض الأعمال ولكن يتركها من أجل المشقة على أمته، فيفطر في السفر مع قدرته على الصيام حتى لا يكلفهم ما لا يطيقون، وينام في بعض الليالي حتى لا يكلفهم أن يقوموا قيامًا يشق عليهم، ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه**»(١). فمتى نعس وهو يتهجد فإن عليه أن ينام حتى لا يقول مقالة يكون فيها ذنب ومعصية.

وبكل حال فهذا دليل على أنه ﷺ كان رفيقًا بأمته ولم يكلفهم الأشياء التي تنفرهم عن الطاعة.

ولما ذكر له أن بعض أصحابه يطيل في الصلاة كمعاذ؛ فقد قرأ بهم في صلاة العشاء سورة البقرة قال له: «**أفتان أنت يا معاذ**»(٢) يعني: تفتن الناس، وقال في حديث آخر: «**أيها الناس إن منكم منفرين**»(٣). أي لا تنفروا الناس عن عبادة ربهم

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الطهارة: باب الوضوء من النوم ... (٢١٢) (١/٣٧٥ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب صلاة المسافر وقصرها: باب أمر من نعس أن يرقد (٢٢٢) (١/ ٥٤٢، ٥٤٣)، - كلاهما - من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنه - به.

(٢) جزء من حديث جابر - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأذان: باب إذا طول الإمام ... (٧٠١) (٢/٢٢٦ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصلاة: باب القراءة في العشاء (١٧٩) (١/٣٤٠)، كلاهما من طريق جابر - رضي الله عنه - به.

(٣) جزء من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو، أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم: باب الغضب في الموعظة والتعليم ... (٩٠) (١/٢٢٤ - فتح) وفي مواضع أخرى في الأذان والأدب والأحكام، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصلاة: باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (١٨٢) (١/٣٤٠ - ٣٤١)، - كلاهما - من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود - رضي الله عنه - به.

ولا تكرّهوها وتُثقلوها عليهم ، بل سَهِّلوا عليهم ، فالمطلوب من العابد أن يحبب العبادة إلى الناس ، فإن العبادة إذا كانت خفيفة سهلة أحبها العبد وأتى إليها باشتياق ومحبة ورغبة ، وكلما كانت العبادة محبوبة عند النفس فإن الثواب عليها أكثر ، فالمسلم يجيء إلى الصلاة وهو مشتاق إليها محب لها راغب فيها ، يرى أن فيها لذته ، وأن فيها سلوته ، وأن فيها قرة عينه ، وسرور قلبه ، وراحة وقوة جسده ، فيكون ثوابه عليها أكثر ؛ وذلك لأنه يقبل إليها برغبته ويخشع فيها ويخضع ويتواضع ويدعو فيها ربه ، ويحضر فيها قلبه ، ويأتي بكامل سننها وكامل مكملاتها ، فالثواب عليها كبير ، هكذا رغبهم في إتمام الصلاة وغيرها من العبادات ومحبة العبادة محبة قلبية .

وفي آخر هذا الحديث نهاهم عن كثرة الأسئلة ،وأخبر بأنه إنما أهلك من كان قبلهم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وكأنهم كانوا يسألون عن أشياء لا أهمية لها ، وقد ورد في القرآن النهي عن مثل ذلك فقال تعالى : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ . يعني : أن تسألوه عن أشياء لا تحتاجون إليها : ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] . فلا تكثروا الأسئلة بأشياء لا تحتاجون إليها ، أما الأشياء التي أنتم بحاجة إليها فإنكم تسألونها حتى تعرفوا حكمها وتأتوا بها على وجهها ، وكذلك قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] . فنهاهم أن يسألوا عن أشياء قد سكت عنها ، وفي حديث أبي ثعلبة أن النبي ﷺ قال : « **إن الله حرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها** » . وسيأتي هذا الحديث . وفي حديث آخر - أيضًا - : « **أعظم الناس جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته** »(١).

---

(١)أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الاعتصام : باب ما يكره من كثرة السؤال ... (٧٢٨٩) =

وقال بعضهم :إن هذا خاص بزمن النبوة ، فأما بعده فإن الإنسان يسأل عما يهمه ، ويسأل عما يظن أنه يحتاج إليه هو ، أو يحتاج إليه الناس ، حتى يستفيد ويكون على بصيرة من دينه .

* * *

= (٢٧٨/٣ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » في توقيره ﷺ ... (١٣٢، ١٣٣) (١٨٣١/٤)، كلاهما من طريق الزهري عن عامر بن سعد عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنها - به .

الحديث العاشر
الاقتصار على الحلال الطيب

عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي اللهُ عنه - قال : قَال رسُولُ اللَّه ﷺ : « **إنَ اللّه طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا ، وإنَّ اللّه أَمَرَ المُؤمِنينَ بِمَا أَمَرَ به المُرْسَلينَ فقال تعالى :** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُل يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ يا رَبِّ يا رَبِّ ، ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، ومَشْربُهُ حَرَامٌ ، وغُذِّيَ بالحَرَامِ ، فأَنَّى يُسْتَجَابُ لهُ » . رَواهُ مُسْلِمٌ[١] .

شرح الحديث :

هذا حديث جامع عظيم فيما يتعلق بالحلال والحرام ، والطيب والخبيث من المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمال المقتنى ، وقد تقدم حديث قريب منه وهو حديث النعمان ، وهو قوله ﷺ : « **الحلال بين والحرام بين** ....» إلى آخره .

يقول في هذا الحديث : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا** » . معلوم أن اللّه يقسم دائمًا الأعمال إلى طيب وخبيث ، ويقسم الأشخاص إلى طيب وخبيث .

وقوله ﷺ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا** » الطيب : هو ما يستطاب في الطباع ، وهو كل شيء يستحسن في الفطرة وتشهد العقول بحسنه وملائمته

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٦٥) (٧٠٣/٢) ، والبخاري في « جزء رفع اليدين » (٩١) ، كلاهما من طريق فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

ومناسبته، فيدخل في ذلك الأشخاص، قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]. قسم الأشخاص إلى خبيث وخبيثة، وطيب وطيبة، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. فيدخل في ذلك الأموال وما أشبهها، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. يدخل في ذلك الأشخاص، فيميز الله الأشخاص الطيبين من الأشخاص الخبيثين: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. يجعلهم في جهنم لأنهم من أهلها، فهذا داخل فيه الأشخاص.

ولكن المراد بقوله في الحديث: «**لا يَقْبلُ طَيِّبًا**» يدخل في ذلك الأعمال، فإن الأعمال منها طيب ومنها ما ليس بطيب، فالطيب من الأعمال هو الخالص، ويدخل في ذلك الصدقات والصلوات والقربات وما أشبهها، فيقال: هذه الصلاة من الطيب مقبولة، لكمالها ولإخلاص العبد فيها، وهذه الصلاة ليست من الطيب بل من الخبيث، لنقصها وللخلل الذي فيها، سواء كان خللًا ظاهرًا أو خللًا باطنًا، ويقال - مثلًا -: هذه الصدقات من الخبيث، أو من الطيب، ويقال: هذا الصوم خبيث أو طيب، أو هذا الحج خبيث أو طيب، وكذلك هذا الذكر، أو هذه القراءة، أو هذا النصح، أو هذه الدعوة، أو ما أشبه ذلك، فيه ما هو خبيث وفيه ما هو طيب، فإذا علم الإنسان أن الأعمال فيها خبيث وطيب حرص على أن يعمل بالطيب ويتجنب الخبيث، وإذا علم أن المكاسب فيها خبيث وطيب حرص على أن يأتي بالطيب ويكتسب منه ويتجنب الخبيث ولا يكتسب منه، فيجعل كسبه من الطيب حتى يكون من الطيبين، ولا شك أن الحديث مسوق للمكاسب، ولذلك استدل عليه بالأكل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] وبقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فالحديث أوله عام: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**». يدخل في ذلك الأعمال، ولكن سياق آخره يحث على الطيب في الكسب، وأن على الإنسان أن يقتصر على الكسب الطيب ويبتعد عن الكسب الخبيث، ويحرص على أن يأكل من الطيب ويجتنب الأكل من الخبيث.

وقول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. خطاب للمؤمنين، فأمر اللَّه المؤمنين بما أمر به المرسلين كل منهم أمره بالأكل من الطيبات ومعناه: لا تأكلوا ولا تكسبوا الخبائث، اجتنبوا الخبيث واقتصروا على الطيب، ففي الخبيث خبث، وفي الخبيث شين، وفي الخبيث قبح، وآثار سيئة، فيكفيكم الطيب عن أن تكسبوا من الخبيث أو تتعاملوا به.

ومعلوم أنه أجمل هنا الخبيث وإن لم يفصل فيه، وكذلك أجمل الطيب؛ فنحن نقول: الخبائث من الأطعمة منها ما خبثه حسي، ومنها ما هو معنوي، من فالجيف مثلًا والقاذورات خبثها حسي مشاهد تنفر منه النفس وتتقزز منه النفوس الشريفة، ويعرفون أنه مستقذر مستقبح في الفطر، وأما خبيث المال، كالمسروق أو المأخوذ برشوة أو غصب أو ما أشبه ذلك، فهذا خبثه معنوي لا يعرف إلا إذا عرف مدخله، فهو خبيث خبثًا معنويًا لا خبثًا حسيًا، فأنت إذا جاءك مثلًا نقود من كسب طيب ونقود من كسب خبيث لم تفرق بينهما ولم تعرف هذه، من هذه ولكن صاحبها هو الذي يميز بينها ويعرف أن هذه أتت هدية من إنسان، أو أتت أجرة على عمل، أو أتت ربحًا في مبيع، أو ما أشبه ذلك، فهي كسب طيب، وهذه أتت من جهة خبيثة كثمن محرم أو سرقة أو اختلاس أو انتهاب أو ما أشبه ذلك، فهي من الخبيث، فيتجنب ذلك حتى يكون من الطيبين الذي امتثلوا أمر اللَّه في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقد يقال : هل الخبيث رزق ؟ نعم هو من جملة الرزق ، ولكن اللّه تعالى نهى عنه ، فهو الذي يسر الأسباب كلها لهؤلاء ، ولهؤلاء ولكن نهى عن الكسب الخبيث وأمر بالكسب الطيب ، ولذلك إذا اقتصر العبد على ما رزقه اللّه من الطيبات كفاه عن الخبائث ، وذلك لأن اللّه تعالى أحل هذا وحرم هذا ، كما قال تعالى في وصف النبي ﷺ : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

فعلى المسلم أن يكون مبتعدًا عن كل خبيث سواء كان خبثه حسيًا أو خبثه معنويًا ، وقد ورد في وصف الخمر أنها أم الخبائث ، فهي قد اكتسبت هذا بوصفها الظاهر ولو كان أصلها من المباح ، فإن أصلها قد يكون عن التمر والعسل والشعير والزبيب وما أشبه ذلك ، يجمع بعضه مع بعض ثم يعمل ، ولكن اكتسبت الخبث من وصفها الذي هو الإسكار ونحوه ، فصارت أم الخبائث فمن تغذى بها أصبح ممن تغذى بالخبيث لا بالطيب ، فكذلك معلوم أنه يلحق بها كل ما هو ضار ، فالدخان - مثلًا - من الخبائث لا من الطيبات ، يعترف بذلك حتى المبتلون به ، يشهدون بأنه ليس طيبًا ، وإذا لم يكن طيبًا فإنه خبيث ، ومثله كل شيء يضر البدن ، كالمخدرات التي تضر العقل وتضر البدن ، لا شك أنها خبيثة غاية الخبث وهو خبث حسي .

فإذا عرف العبد المسلم ما هو خبيث وما هو طيب ففي الحلال غنية عن الحرام ، فيحرص على أن يتغذى بالحلال أيًا كان نوعه ، ويتجنب ما هو من المحرمات ولو كان تحريمه لنوع من الكراهية أو لشيء من الصفة التي اقترنت به ، وقد ثبت أنه ﷺ قال : « **مهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث ، وحُلوان الكاهن خبيث** »[١] . نص على هذه المكاسب وإن كانت

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب المساقاة : باب تحريم ثمن الكلب (٤٠، ٤١) =

داخلة في العموم ؛ وذلك لأنها مكاسب قد ينخدع بها الناس سيما ثمن الكلب ، فقد يستحسنه بعض الناس ، فشهد النبي ﷺ بخبثه ، وكذلك كسب الحجام ، وذلك لأنه يمتص من الدماء فيكون خبيثًا لممارسته هذه الأقذار وما أشبهها ، وكذلك بطريق الأول مهر البغي وهي الزانية ، أي ما يبذل لها على زناها ، وحلوان الكاهن ما يعطاه على تكهنه ، وصفت هذه المكاسب بأنها خبيثة فتكون من غير الطيب ، فمن تغذى بها أو استعملها وقع في الخبيث ، ومن وقع في الخبيث وتغذى به نبت لحمه على ما هو محرم .

وقد ورد في الحديث : « **كل جسد نبت على الحرام فالنار أولى به** »(١) . وهذا وعيد شديد ، فإذا نبت الجسد على مال حرام يعني على مطعوم حرام ، فإن هذا الجسد يكون من أهل النار أو ممن يستحق النار - والعياذ باللَّه - وأما الطيب فإنه من أهل الجنة وله آثار طيبة في الدنيا ، فمن ذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص - رضي اللَّه عنه : « **أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة** » . لما طلب أن يكون مستجاب الدعوة لا شك أن طيب المطعم له تأثير في قبول الدعاء كما هو معروف ومشاهد ، وقد نعرف أناسًا قصروا أيديهم على كسب حلالٍ لا شبهة فيه ولا إثم فيه ، وصاروا يأكلون من كسب أيديهم وصار الشيء الذي يكون فيه شبهة يبتعدون عنه ويقتصرون على الحلال الطيب الذي لا شبهة فيه ، وظهر لهم آثار طيبة في قبول دعواتهم ، وكذلك في إجابتها ، وفي تأثيرهم في غيرهم ، فهذا من آثار الكسب الطيب ، بخلاف الكسب الحرام ، فقد أخبر النبي ﷺ أنه سبب لرد الدعاء وعدم قبوله ، حيث ذكر في هذا الحديث : « **الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدِيهِ**

= (١١٩٩/٣) ، من طريق السائب بن يزيد عن رافع بن خديج - رضي الله عنه - به .

(١) سبق .

إِلَى السَّمَاءِ : يا رَبِّ يا ربِّ ، ومطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ ، حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَاب لَهُ ؟ » . لم يستجب دعاؤه بسبب الغذاء الحرام ، مع أنه أتى بالأسباب التي يستجاب بها الدعاء ، فإنه ذكر أربعة أسباب من أسباب إجابة الدعاء :

الأول : إطالة السفر .

الثاني : كونه أشعث أغبر .

الثالث : مد اليدين إلى السماء .

الرابع : تكرار الدعاء بقوله : يا رب يا رب .

وقد ورد أن إطالة السفر سبب للذل ولانكسار المسافر الذي يطول سفره ، وتبعد وتطول غيبته عن أهله ، ويبقى مدة غائبًا عن أهله ففي هذه المدة يكون منكسر القلب منكس الرأس متذللًا متواضعًا ، وذلك أقرب إلى حضور قلبه وأقرب إلى خشوعه وتذلله ؛ لبعده عن أهله في السفر ، وقد يبقى أشهرًا متتابعة ، وإن كان في هذه الأزمنة تقاصرت الأسفار فإطالة السفر من أسباب إجابة الدعاء حتى ورد أن دعوة المسافر مقبولة .

وأما كونه أ شعث أغبر فإن هذا - أيضًا - بسبب ضعفه وانكساره بين يدي ربه .

الشعث : هو انتشار شعر الرأس لبعد العهد بالترفه والتنعم وفهو بعيد عهده بالنظافة ، بعيد عهد بالعناية ببدنه ، فلذلك اغْبَرَّ وجهُه ، واغْبَرَّ بدنه ، واغبرت ثيابه ، واغبر وانتشر شعره ، فأصبح بذلك من أهل المسكنة والذل والاستكانة بين يدي اللَّه تعالى ، فكان ذلك سببًا من أسباب إجابة الدعاء ، ومع ذلك يمد يديه ويرفعهما إلى ربه يستنجد ويطلب من ربه ، فمد اليدين - أيضًا - من أسباب إجابة الدعاء كما في حديث سلمان المشهور أنه ﷺ قال : « **إن ربكم حييٌّ كريم ، يستحي من عبده**

أن يرفع إليه يديه، فيردهما صفرًا – أو قال خائبتين»[1] . يعني خاليتين، ومع ذلك لم يستجب له .

وفي رفع اليدين في الدعاء أحاديث كثيرة من فعل النبي ﷺ ومن قوله، جمعها السيوطي في رسالة بعنوان : «**فض الوعاء في أحاديث رفع اليدين في الدعاء**» . بلغت اثنين وأربعين حديثًا تكلم عليها .

وكذلك من أسباب إجابة الدعاء تكرار أسماء اللّه تعالى، ومنها الرب : يا رب يا رب، يدعو اللّه تعالى ويتوسل إليه بأنه ربه، والرب هو المربي، والرب هو المالك، يعترف بأن اللّه تعالى هو ربه وكأنه يقول : أنت ربي وأنا عبدك، أنت الرب المربي، وأنت المنعم المتفضل، وأنا عبد لك ذليل ضعيف مستضعف من عبادك الأذلاء فيطلب من ربه أن يعطيه وأن يستجيب له، ولكن لم يستجب دعاءه مع هذه الأسباب، لماذا ؟ لأن غذاءه حرام، مطعمه الذي يأكله ويغذي به جسده من السحت ومن الحرام، إما من الغصب أو النهب أو السرقة أو الاختلاس أو الربا أو الرشا، أو غير ذلك من المحرمات التي ذكرنا أمثلة منها، وكذلك مشربه قد يكون ممن يشرب خمرًا، أو ممن يشرب غير ذلك من المشروبات المحرمة، كذلك – أيضًا – ملبسه،

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الدعوات : باب في الدعاء (١٤٨٨) (٢/٧٩)، والترمذي في «سننه» كتاب الدعوات : باب في دعاء النبي ﷺ (٣٥٥٦) (٥/٥٥٧) وقال : «حسن غريب»، وابن ماجه في «سننه» كتاب الدعاء : باب رفع اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) (٢/ ١٢٧٢)، وأحمد في «مسنده» (٥/٤٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٧٦) (٣/١٦٠)، والحاكم في «المستدرك» والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١١١) (٢/١٥٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/٢١١) . كلهم من طريق جعفر بن ميمون عن أبي عثمان عن سلمان به، وتابعهم الطبراني في «الكبير» (٦١٣٠) (٦/٢٥٢)، (٦١٤٨) (٦/٢٥٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١١٠) (٢/١٥٦) من طريق آخر عن أبي عثمان به .

وصححه الألباني في «صحيح أبي داود، والترمذي، وابن ماجه» وقوّاه الأرناؤوط في «هامش ابن حبان» .

أي كسوته التي يستتر بها من كسب حرام، بنوع من أنواع المحرم.

وسواء كان غذاؤه في صغره أو بعد كبره فقد نبت جسده على الحرام فكان ذلك سببًا في رد دعوته وعدم استجابتها، فيعرف بذلك أن الغذاء الحلال له تأثير في إجابة الدعوة، وأن الغذاء الحرام له تأثير في رد الدعوة.

هذا في عاجل الأمر، وأما في الآخرة فقد ذكر اللَّه الفرق بينهما في الآيات التي ذكرنا، منها قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. لا شك أن هذا يدخل فيه الأشخاص الذين هم من أهل الخبث، سواء كان خبث أعمال أو خبث أموال، كل واحد منهم داخل في ذلك، فعلى المسلم أن يحرص على أن يتفقَّد كسبه ويتفقَّد مطعمه فيتفقد ما يدخل في بطنه، ليكون بذلك متحريًا للحلال ومبتعدًا عن الحرام.

وقد ذكر عن بعض السلف أنه قال: «**ما رفعت لقمة إلى فمي إلا وأنا أتذكر من أين أتت، ما مدخلها وما صفة دخولها**» يعني مخافة أن يكون فيها شبهة أو تكون من الحرام، وكذلك كان الصحابة - رضي اللَّه عنهم - يتحرَّزون من الشيء المشتبه أو من الحرام؛ فقد كان لأبي بكر - رضي اللَّه عنه - غلام قد استغنى عن خدمته فكان يتكسَّب له ويأتي بكسبه، فجاءه مرة بطعام فأكل منه أبو بكر ثم بعد ذلك قال له الغلام: أتدري من أين أتيت بهذا الطعام؟ قال: لا. فقال: كنت في الجاهلية قد تكهنت وما أحسن الكهانة فلقيت الرجل الذي تكهنت له فأعطاني هذا الطعام الذي أكلت. فلما علم أبو بكر أنه حلوان الكاهن أدخل يده أو إصبعه في حلقه فاستقاء[1] كل ما في بطنه، أي كل ما أكله في ذلك اليوم أخرجه، وقال كما

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب مناقب الأنصار: باب أيام الجاهلية (٣٨٤٢) (٧/١٨٣ - فتح)، حديث عائشة - رضي الله عنهما -.

في بعض الروايات : « **لو لم تخرج إلا بخروج روحي أخرجتها** » - يعني : أنه يخاف أن يكون في غذاءه شيء حرام ، وقد يقال : إن إثمه على المكتسب . ولكن من باب التحفظ عن الأشياء التي فيها شبهة يبتعد عنها ، ومعلوم أننا نبتلى في هذه الأزمنة بزيارة أناس في أموالهم شيء من الشبهة ، أو يتعاطون شيئًا من المحرمات التي تحريمها ظاهر أو تحريمها خفي ، ويَتأوَّلُون بها ولكن لا يتجرَّأ أحدنا أن يترك الأكل عندهم وقد استزاروه ، أو قد زارهم لغرض من الأغراض فنقول : الأصل هو الإباحة والإثم على المكتسب ، ولكن إذا استطعت ألا تدخل على من في ماله شبه كالذين يعملون في البنوك الربوية مثلًا ، أو يتعاملون بمثلها ، والذين يعملون في بعض الدوائر ويأخذون أموالًا من غير حلها ، والذين يأخذون شيئًا بدون أن يعملوا به ، أو يعطون رشا مقابل إنجاز بعض المعاملات أو ما أشبهها ، لا شك أن في أموالهم شبهة أو فيها شيء من الحرام ، فيتحرج الإنسان ويحفظ نفسه حتى لا يقع في شيء حرام أو في شيء مشتبه ،

وقد تقدم أنه ﷺ قال : « **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام** » يعني : وقع غالبًا وإن لم يكن دائمًا .

❁ ❁ ❁

الحديث الحادي عشر
التورع عن الشبهات

عَنْ أَبي مُحمَّدٍ الحسَنِ بْنِ عليّ بْنِ أبي طَالِب ، سِبْطِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَيْحَانَتِهِ - رضي اللهُ عنهما - ، قالَ : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ : « **دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى مَا لَا يَرِيبُكَ** » . رواه التِّرمِذيُّ وَالنَّسائي ، وقالَ التِّرمِذيُّ : « **حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ** » (١) .

شرح الحديث :

هذا أحد الأحاديث الجامعة التي قل لفظها وكثر معناها وذكر بعضهم أنه ربع الإسلام ، وقال : إن الإسلام يدور على أربعة أحاديث . ونظمها بعضهم بقوله :

عمدة الدين عندنا كلمات اربع من كلام خير البريه

(١) صحيح : أخرجه : الترمذي في « سننه » كتاب صفة القيامة : باب (٢٥١٨) (٤/٦٦٨) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائي في « سننه » كتاب الأشربة : باب الحث على ترك الشبهات (٨/ ٣٢٧) ، وفي « الكبرى » (٥٢٢٠) (٣/٢٣٩) ، والدارمي في (٢/٢٤٥) ، وأحمد في « مسنده » (١/٢٠٠) ، والطيالسي في « مسنده » (١١٧٨) (ص١٦٣) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » مطولًا (٤١٦) (١/٣٠٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » مطولًا (٦٧٦٢) (١٢/١٣٢) ، وابن خزيمة في « صحيحه » مطولًا (٢٣٤٨) (٤/٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٢٢) (٢/ ٤٩٨) ، والحاكم في « المستدرك » وصحَّحه على شرطهما ، وقوى إسناده الذهبي في التلخيص ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢٧٥) (١/١٨٦) ، والبيهقي في « الكبرى » (٥/٣٣٥) . كلهم من طريق شعبة عن بريد بن أبي مريم ، عن أبي الحوراء السعدي عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - به .

وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٧١١) (٣/٧٦) ومطولًا (٢٧٠٨) (٣/٧٥) ، والحاكم في « المستدرك » من طرق أخرى عن بريد بن أبي مريم به .

والحدث صحَّحه الألباني في « صحيح الترمذي والنسائي » ، والأرناؤوط في « هامش ابن حبان » .

اتق الشبهات ، وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنيه

فالحاصل : أن اتقاء الشبهات هو ترك الشيء المشكوك فيه وهو قوله ﷺ « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » .

ومعلوم أن الإنسان في معاملاته يعتريه شكوك في بعض المعاملات ، فمتى يتخلص منها ومتى يعرف أنه على يقين ، أو أن ما فعله وقاله أو كسبه فمباح وحلال ، يكون بالبعد عن الشبهات والبعد عما فيه ريب وشك لا يدري هل هو مباح أو غير مباح ؟ ويدخل في ذلك المكاسب والأقوال والأعمال ، ويدخل في ذلك -أيضًا - العقود والأنكحة وما أشبهها ، فإن الشيء الذي فيه شك يجب على الإنسان أن يبتعد عنه ، ولذلك أمثلة :

ففي حديث عقبة بن عامر - رضي اللَّه عنه - قال : تزوجت أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءتنا أمة سوداء فقالت : قد أرضعت عقبة والتي تزوج . فقال عقبة : ما أذكر أنك أرضعتينا ولا أخبرتينا بذلك . فرحل إلى النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليسأله ، يقول : فسألته فأعرض عني ثم سألته فقال : « **كيف بها وقد زعمت أنها قد أرضعتكما ، دعها عنك** »(١) . ففارقها عقبة لمجرد شك ، وقد تكون كاذبة تريد التفريق بينهما ، ولكن لما كان كلامها قد يكون صحيحًا أنها أرضعتهما وصارا أخوين فإن الورع الترك ، وإن عليه ترك الشيء الذي فيه ريب وفيه شك ، فإذا حصل رضاع بين اثنين ولكن هذا الرضاع مشكوك فيه هل هو رضاع محرم أو غير محرم ؟ فإن الأولى البعد عنه حتى لا يترتب على ذلك ما فيه حرمة فيترك الشيء الذي فيه شك من باب : « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » .

---

(١) أخرجه : البخاري في « صحيحه » كتاب العلم : باب الرحلة في المسألة النازلة ... (٨٨) (١/ ٢٢٢) ، وفي مواضع أخرى من « صحيحه » ، من طرق عن ابن أبي مليكة عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - به .

وفي قصة أخرى أنه اختصم إلى النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص وعبد ابن زمعة - رضي اللَّه عنهما - في ابن وليدة زمعة ، فادعى سعد أنه ابن أخيه عتبة وأنه أوصاه بأنه وطئ أمة زمعة فحملت منه ، وأن هذا الولد له ، ولو كان ابن زنى ، فهو ولده وشبهه ظاهر في أنه شبيه بعتبة ، وادعى عبد أنه ابن وليدة أبيه ولد على فراش أبيه ، فحكم به النبي ﷺ لعبد ، وقال : « **هو لك يا عبد ابن زمعة ، الولد للفراش وللعاهر الحَجَر** » ثم قال لسودة بنت زمعة : « **احتجبي منه** »[١] . كيف تحتجب منه وهو أخوها ؟ فقد حكم بأنه ابن لزمعة ولكن أمر سودة أم المؤمنين أن تحتجب عنه وقد حكم بأنه أخوها وذلك من باب الورع : « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » - يعني : مخافة أن يكون ليس ولدًا لزمعة فتكشف له وهي أم المؤمنين ، وأمهات المؤمنين لهن حرمتهن ، فلذلك نهاها أن تكشف له ، فاحتجبت عنه فلم يرها حتى فارق الدنيا . فهذا - أيضًا - من اتقاء الشبهات ومن ترك ما فيه ريبة ، والمعاملات إذا خيف أن فيها شبهًا فالبعد عنها أسلم ، فإذا رأيت شبهة في هذا المال ، هل هو حلال أو حرام ؟ وتتوقف في حله وفي حل وجهه الذي اكتسب منه ، أليس السلامة أن تتركه حتى يسلم دينك وحتى لا تأكل إلا حلالًا يقينًا ، كما قال ﷺ « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » .

ولقد كان كثير من السلف - رحمهم اللَّه - يعملون بهذا الحديث في كثير من المشتبهات ، فكانوا يتقون ولاية القضاء ، وذلك لأن القضاء قد يكون فيه شيء من الميل أو من الحيف أو من الجور ولو يسيرًا ، فيكون هذا القاضي الذي قضى بهذا قد

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الوصايا : باب قول الموصي لوصيه : تعاهد ولدي ... (٢٧٤٥) (٤٣٧/٥ - فتح) وفي مواضع أخرى من « صحيحه » في الفرائض والمحاربين ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الرضاع : باب الولد للفراش ... (٣٦) (٢/ ١٠٨٠ ، ١٠٨١) ، كلاهما من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها - به .

أخذ هذا الرزق الذي يرزقه من بيت المال وهو لا يستحقه أو فيه شبهة ، وقد يكون أصل المال - أيضًا - فيه شبهة ، فيتورع عنه لذلك فإن الإمام أحمد - رحمه اللَّه - لما ولِّي ابنه صالح القضاء لم يأكل من طعامه تورعًا وابتعادًا عن الشبهة ، ولم يأكل من بيته ، حتى ذكروا أنه مرة أُصلح له خبز في تنور - فرن - صالح ، أُوقد من حطب اشتراه صالح فخبز فيه خبز لأبيه فقال : « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » . فلم يأكل من هذا الخبز مع أن أصله من حلال ، ولكن خشي أن يكون فيه شيء مشتبه أو قريب من المشتبه .

ولا شك أن هذا كله من التورع عن المشتبهات ، فهم يقتصرون على الشيء الذي يجزمون أنه حلال ، وكان أحدهم يقول : « **ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا أتذكر أصلها ومن أين جاءت ، ومن أين دخلت عليَّ ، وأعرف مدخلها وأصلها ومكتسبها** » يتذكر ذلك في كل لقمة يأكلها حتى لا يدخل في غذائه شيء مشتبه ، فإذا شك في شيء مما اكتسبه تورع عنه وابتعد عنه عملًا بقوله ﷺ : « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » .

ويدخل في ذلك المعاملات التي تشتبه أو يشتبه أن يكون فيها شيء من الربا ،أو شيء من الغش أو نحو ذلك ، وهكذا - أيضًا - الأكل عند من يتعاملون بشيء من المشتبهات يتورع عنه أهل الزهد وأهل الورع ، ويخشون أن يكون فيه شيء ، من المحرم ولو قليلًا حتى لا تنبت أجسامهم على أكل حرام فقد ورد في الحديث : « **كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به** »[1]. هذا فيما إذا نبت كله على سحت ، لكن يخشون أن يدخل في غذائهم أو في أكلهم شيء مما فيه شبه . وكذلك - أيضًا - الهدايا ونحوها لا يقبلون هدية إلا ممن وثقوا بأن رزقه حلال ، وأن كسبه حلال ، وأن معاملاته ليس فيها شيء مما فيه ريب أو شك ، فهنالك يقبلون ما يهديه لهم

---

(١) تقدم .

مخافة أن يأكلوا شيئًا فيه شيء مما يشبه المحرم ، فيقع في مخالفة هذا الحديث .

ولا شك أن أعظم ما يدخل في ذلك المعاملات والمبيعات ونحوها ، فالذين يغشون في المعاملات هؤلاء ما تورعوا ولا تركوا ما فيه ريب ، فإذا كذب في الإخبار برأس المال فإن رزقه فيه شبهة ، وإذا كذب في وصف السلعة فوصفها بما ليس فيها فقد أدخل في رزقه ما فيه شبهة ، ولو كان متأولًا بحيث يصدقه المشتري ويبني على كلامه ، وكذلك إذا زاد في ثمن سلعة على المغفل أو الجاهل وأخذ ما لا يستحق في ثمنها فقد أدخل في ماله شيئًا فيه ريبة ، ولو قال إنه قد رضي ببذل ما بذله فالجواب : نعم أنه رضي ولكن أخذ كلامك وصدقك في قولك أنه أصْلِي ، أو أنه طيب ، أو أنه ثمين ، أو قد اشتريته بكذا وقد بعت منه بكذا ، وأنت متأول أو كذاب أو صادق ، ولكن ليس هو قيمة أو ما أشبه ذلك ، فهذه المعاملات فيها ريبة ، فنقول لصاحبها : « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ** » . لا تتعامل بمثل هذه المعاملات التي تكتسب بها شيئًا قد يكون مدخلًا في رزقك ما يفسده عليك وعلى أولادك ، فتتغذى بما هو حرام أو ما هو قريب من الحرام .

ولا شك أيضًا أن من جملة ما يدخل في ذلك النفقات التي ينفقها الإنسان على من تحت يده ، فالإنسان الورع يتورع عن أن يقبل نفقة فيها شبهة ، فإذا كان هذا الذي ينفق عليك ممن يتعامل بالربا أو يعمل في البنوك الربوية ويتساهل بها ، أو نحو ذلك ، فإن من الورع أن تدع الأكل منه أو تتورع ، وإن كان بعض العلماء قد يرخصون في قبول بعض الهدايا أو النفقات ممن هذا جنسه ، ويقولون : الإثم على المكتسب . ولكن الورع والبعد عن الريبة أولى ، وترك مثل هذه الأموال التي فيها شبهة أو شك في حلها أفضل . هذه أمثلة في الأموال التي فيها شبهة .

ويدخل بعضهم في هذا الحديث - أيضًا - ما يتعلق بالعبادات ، فالعبادة التي تشك هل هي سنة أو بدعة ؟ وليس عندك دليل على أنها من السنة لا تتعبد بها ، فقد

تكون بدعة فتدخل في المبتدعة، ولذلك قال حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه: «**كل عبادة لم يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تتعبدوها**»[١]. ولو ظهر لك فيها أنها خير وأنها ذكر وأنها طاعة وأنها مفيدة، فلا تتعبدها حتى تعرف أصلها.

وقد قرأت لبعض المبتدعة تأييدًا لبدعة المولد ويقول: تنكرون علينا إقامة مولد النبي ﷺ الذي يدل على محبتنا له، وليس فيه إلا قراءة سيرته، وقراءة شيء من أخباره وأحاديثه، وصلاة وعبادة وتهجد، وما أشبه ذلك. فنحن نقول للجاهل الذي لم يطلع على الحكم: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**». ونقول للعالم: لا تتعبد إلا بعبادة لها أصل في الشريعة وإلا فاجتنبها حتى تكون من العابدين الذين يَتقرَّبون إلى اللّه تعالى بما شرعه، لا بما ليس من شرعه أيًّا كان، ولو كانت هذه البدعة صلاة كصلاة الرغائب، أو اجتماعًا على أمر كالاجتماع في بعض الأندية التي فيها ما فيها من غناء أو رقص أو ما أشبه ذلك، فالبعد عن مثل هذا أولى ليسلم للإنسان دينه.

وبهذا يعرف أن هذا الحديث: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**» يدخل فيه ما يشك في شرعيته من العبادات، ويدخل فيه ما يشك في إباحته من الأموال، ويدخل فيه ما يشك في إباحته - أيضًا - من الفروج، وما أشبه ذلك، فإذا شك الإنسان في شيء فلا يقربه بل يبتعد عنه ولا يعمل إلا بيقين، ففي حديث مروي عن النبي ﷺ أنه قال لرجل: «**ترى الشمس؟**» قال: نعم. قال: «**على مثلها فاشهد أو دع**»[٢]. أي تورع عن الشهادة إلا بشيء تتيقنه وتعرف أنه حق وصدق ليس فيه

---

(١) ذكره الألباني في «الضعيفة» تحت حديث (٣٧٢) من قول حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٨١) (٦/٢٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٩٨) وصححه على شرطهما وتعقبه الذهبي فقال: «واه»، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١٥٦) كلهم من طريق عمرو بن مالك البصري عن محمد بن سليمان بن مشمول المكي عن عبيد الله بن سلمة بن وهرام عن أبيه عن طاوس عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: ذكر رسول الله ﷺ =

شك عندك ، وليس فيه ريب ، فإذا شهدت بشيء لم تتحققه فإنك بذلك قد شهدت بلا علم .

فيدخل في ذلك - أيضًا - الشهادات ونحوها ، وكذلك قد ذكرنا أن القضاء - أي ما يعمله القضاة - داخل في ذلك ، وأن القاضي لا يقضي إلا بشيء يتأكَّد من صحته مخافة أن يقضي بشيء فيه شك أو فيه ريب ، فيكون قد قضى بلا علم ، وهكذا بقية الأعمال .

فعلى المسلم أن يكون حريصًا على ما أبيح له مقتنعًا به بعيدًا عما حرمه اللَّه عليه من المآكل والمساكن والمشارب ونحوها حتى يسلم دينه وعرضه .

❁ ❁ ❁

= الرجل يشهد شهادة فقال : « أما أنت يا بن عباس فلا تشهد إلا على أمر يضيء لك كضياء هذه الشمس » . وأومأ رسول الله ﷺ بيده إلى الشمس .

وأخرجه ابن عدي في « الكامل » في نفس الموضع السابق من طريق آخر عن محمد بن سليمان بنحوه ، وقال الزيلعي في « نصب الراية » (٨٢/٤) : « رواه كذلك ابن عدي في « الكامل » والعقيلي في كتابه وأعلَّه بمحمد بن سليمان بن مشمول ، وأسند ابن عدي تضعيفه عن النسائي ووافقه ، وقال : عامة ما يرويه لا يتابع عليه إسنادًا ولا متنًا » .اهـ .

الحديث الثاني عشر
ترك ما لا يعني المسلم

عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي اللهُ عنه - قالَ: قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**». حديثٌ حسنٌ، رَواه التِّرمِذِيُّ وغَيرُهُ هَكَذَا[1].

شرح الحديث:

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة مع اختصاره، فإنه يدخل في أشياء كثيرة، فلذلك عد من الأحاديث التي يدور عليها الإسلام التي نظمها بعضهم بقوله:

عمدة الدين عندنا كلمات ار   بع من كلام خير البريه
اتق الشبهات وازهد ودع ما   ليس يعنيك واعملن بنية

أشار بقوله: (دع ما ليس يعنيك) إلى هذا الحديث «**مِنْ حُسنِ إِسْلَامِ المرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيه**». ومراده بالحسن التمام، يعني أن الإسلام بذلك يكون حسنًا ويكون تامًّا، وأنه بضده يدخل فيه الخلل والنقص، والإسلام المُختل والدين الناقص

---

(١) صحيح: أخرجه: الترمذي في «سننه» كتاب الزهد: باب حدثنا سليمان بن عبد الجبار البغدادي... (٢٣١٧) (٥٥٨/٤) وقال: «حديث غريب»، وابن ماجه في «سننه» كتاب الفتن: باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٦) (١٣١٦/٢، ١٣١٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٩) (٤٤٦/١ - إحسان)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٩٢) (١٤٤/١) كلهم من طريق الأوزاعي عن قرة بن عبد الرحمن بن حيوئيل عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٦١) (٢٣٤/١) من طريق آخر عن الزهري به.

والحديث صححه الألباني في «صحيح الترمذي، وابن ماجه»، وحسنه لغيره: الأرناؤوط في «هامش ابن حبان».

يكون صاحبه ناقص الأجر والثواب الذي يترتب عليه .

فالحاصل : أنه جعله من حسن الإسلام كأنه يقول : ومن سوء إسلامه ومن خلل إسلامه تعرضه وتدخله في الشيء الذي لا يعنيه . وهو دليل - أيضًا - على أن الإسلام تدخل فيه الأقوال وتدخل فيه الاعتقادت وإن كان عند الإطلاق يفسر بالأركان وبالأعمال الظاهرة ، حيث فسره النبي عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل بأركانه بقوله : « **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه ...** » إلخ[١] . ولكن جعل هذا الأمر وهو ترك ما لا يعنيه داخلًا في الإسلام وداخلًا في محاسن الدين ، والمراد بما لا يعنيه : أي ما لا يهمه ، وسواء كان من أمور الناس ، أو من أمور الدنيا ، أو من أمور الآخرة ، فالذي لا يهمه ولا حاجة به إليه تركه أولى به ، وعدم التدخل فيه أسلم له ، فإن كان في أمور الناس فإنه يجتنب أن يسأل عن دواخلهم وعن أسرارهم ، وعن بواطن أمورهم ، لأن ذلك مما لا فائدة له فيه . فكونه يسأل فلانًا عن رأس ماله ، أو عن دخله ، أو مرتبه ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا حاجة له فيه . هذا لا يعنيك ، قد يقول صاحبه : لماذا تسألني وأنت لا صلة لك بي ولا يهمك أمري ولا يهمني أمرك ، دع ما ليس يعنيك ولا تتدخل في هذه الأسئلة التي لا فائدة لك فيها .

وكذلك - أيضًا - تساؤله عن الحوادث التي لا أهمية له بها ولا فائدة له فيها ، فكثيرًا ما يشغل الإنسان قلبه وفكره بتتبع الأخبار وتتبع الحوادث التي تجري ، وماذا يستفيد منها ؟ لا يستفيد منها فائدة تعود عليه بالعلم ولا بالعقل ولا بالدين ولا بالزيادة في الخير ، وإنما تشغل باله وتشغل فكره وفهمه ، ويبقى وقتًا طويلًا يردد هذه الحوادث ، التي حدثت وما فائدتك من تتبعك لهذه الحوادث ونحوها ؟ وكثيرًا ما نسمع الذين يقتنون بعض الأجهزة الإعلامية أو يشترون كثيرًا من الصحف ويقولون : نزداد ثقافة ، نزداد معرفة ، نعرف كيفية أحوال العالم ، نعرف ما يحدث

---

(١) تقدم .

في الشرق والغرب ، نعرف ما يستفيدونه ، وما يفكرون فيه ، وما يكيدون به ، وما يقع عندهم من الحروب ومن السلم ومن الحوادث ونحوها . نقول : ماذا تستفيدون من ذلك ؟ تشغلون وقتًا طويلًا بقراءة تلك الصحف وبقراءة تلك المجلات وما أشبهها ، تشغلون وقتًا- أيضًا - طويلًا بمشاهدة تلك الأفلام وسماع تلك الإذاعات والأخبار التي لا أهمية فيها ولا فائدة سوى إضاعة الوقت ، فتندمون على وقت تضيعونه في هذه الأشياء وتركها أولى « **مِنْ حُسنِ إِسْلَامِ المرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيه** » .

هل يعنيك أخبار تلك الدول الكافرة وحوادثهم وما يفعلونه وما يدبرونه وما يجري عندهم ؟ إذا كان لا فائدة لك فيه فالأولى الإعراض عنها ، والحوادث التي تحدث عندهم قد يحدث عندنا مثلها وأعجب منها ، ولكن لا نعجب إلا من تلك الأخبار البعيدة نتتبع الأخبار البعيدة ونترك الأخبار التي عندنا وهي مثلها أو أعجب منها ، ومع ذلك لا فائدة في الجميع ، قد يقال : إن هناك ما فيه عبرة وعظة وهو مما اهتم به العلماء المتقدمون من الحوادث ، وفيها وضعوا كتب التاريخ ، وضمنوها الوقائع التي وقعت والحروب والغزوات وما أشبهها فتلك فيها فائدة وهي تذكرة أحوال المسلمين وما أتاهم من الابتلاء والامتحان ، وذكر تراجمهم وقراءة بعض أخبارهم التي تدل على صبرهم وتدل على تَحمُّلهم ، وتدل على قوة إيمانهم ، وكذلك - أيضًا - ما جرى عليهم من المحن والفتن وما أشبه ذلك مما ذكر في كتب التاريخ فمثل هذه الكتب التاريخية والحوادث لا بأس بقراءتها ؛ لما فيها من الفائدة ولكن كثيرًا من الكتب ، يذكرون تراجم لا أهمية لها من متقدمين ومتأخرين ، وكثير - أيضًا - من النشرات والصحف يذكرون أخبارا - أيضًا - لا أهمية لها ولا فائدة ، يملئون هذه الصحف من تلك الصور والأخبار أو الحوادث وما أشبهها ، ويطيلون فيها حتى يملأ مثل عشر صفحات أو عشرين صفحة من الجريدة ، يريدون بذلك أن تروج هذه البضاعة ، والغالب أن كثيرًا مما يذكر في تلك

الصحف لا حقيقة له ، وإنما يريدون شغل أوقات الناس ، فنحن نقول : إن الأولى بك ألا تقبل على تلك الصحف إلا ما فيه فائدة ، كالصحف التي لا تنشر كذبًا ، ولا تنشر إلا الشيء الواقع الصحيح ، والصحف التي تحتوي على أخبار وفوائد دينية ومفيدة ، فمثل هذه لا بأس بقراءتها عندما يكون عند الإنسان وقت فراغ يشغله في ذلك ، وإلا فمن حسن إسلامك ترك ما لا يعنيك وما لا تحتاج إليه .

ولا شك أنه يدخل في هذا تتبع أحوال الناس .

ومن الذي لا يجوز سؤال الرجل عما يحدث بينه وبين امرأته ، فإن هذا مما لا يعني الإنسان ، وكذلك لا يجوز سؤاله لم ضرب ابنته أو لم ضرب خادمه ، أو نحو ذلك فإن هذا مما لا يعني الإنسان ، وكذلك لا يجوز سؤاله عما في داخل منزله من الأشياء التي يشتريها أو يملكها أو نحو ذلك ، فإن هذا - أيضًا - لا يعني الإنسان .

وبالجملة إذا سألك إنسان عن شيء وعرفت أنه ليس بضروري له فذكره بهذا الحديث وقل له : هذا لا يعنيك ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وإذا عرفت أن فلانًا أو فلانة لست بمضطر إلى معرفة ما يحصل له ، أو ما حصل ، فقل لنفسك : إن هذا لا يعنيني ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وهكذا بقية أحوال المسلمين .

❁ ❁ ❁

الحديث الثالث عشر

كمال الإيمان

عن أبي حَمْزَةَ أَنسِ بنِ مالكٍ - رضي اللهُ عنه - خادِمِ رسولِ اللهِ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١).

شرح الحديث:

هذا الحديث «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». يؤكد النبي ﷺ أن على المسلم أن يحب إخوته المسلمين، وأن يحب لهم ما يحبه لنفسه، وتمام ذلك أن يكره لهم ما يكره لنفسه.

ومعلوم أن الإنسان يحب لنفسه كل ما يلائمها وكل ما يصلحها ويتم بقاءه وصحته وسلامته وبعده عن الآفات، ويحب لنفسه النجاة من الشرور والآفات والمحرمات، ويحب لنفسه الثروة والخير والغنى والاستغناء وجمع ما يسد به حاجته وفاقته، ويحب لنفسه النجاة في الآخرة، والنجاة من عذاب الله، ومن غضبه ونقمته على عبده، ويحب لنفسه أن يكون من أهل الأعمال الصالحة الذين يحصلون على ثواب الله تعالى وعلى جزيل الأجر الذي رتبه على الأعمال الصالحة، وإذا كان كذلك فإن عليه أن يحب هذا - أيضًا - لأخيه المسلم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان: باب الإيمان أن يحب لأخيه ... (١٣) (٧٣/١ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان: باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ... (٧١) (٦٧/١)، كلاهما من طريق قتادة عن أنس - رضي الله عنه -.

قوله : « **حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ** » . المراد : المسلم ، وليس المراد أخاه الذي هو ابن أحد أبويه ، ومعلوم أن إخوته الذين هم أولاد أبيه أو أولاد أبويه أنهم آثر عنده من غيرهم ، وأنه يؤثرهم للشفقة عليهم ولمحبته لهم وللقرابة التي جعل اللَّه تعالى آثارها بين الأقارب آثارًا قوية متمكنة ، فيحب الإنسان مثلًا أولاده محبة طبيعية ، ويحب أولاد أبيه محبة طبيعية ، وكذلك أولاد أولاد أبيه الذين هم بنو إخوته ، وكذلك يحب أولاد جده وهم أعمامه ، وأولاد أولاد جده ، ونحو ذلك من القرابات ، وتعد هذه محبة طبيعية فلذلك يدل إخوته وأقاربه على خير ما يعلمه ، ويحذرهم عن شر ما يعلمه وكذلك - أيضًا - ينصح لأولاده ولأحفاده ولأقاربه ويدلهم على طرق النجاة وطرق السلامة ، هذا أمر طبيعي ولا يلام على ذلك ، فإذا أرشد أخاه إلى حرفة أو إلى وظيفة تناسبه ، ويكون له بها مصلحة ، أو دل أحد أولاده أو جميعهم على ما هو مصلحة لهم وعلى ما فيه تحصيل خير لهم من خيري الدنيا والآخرة ، فإنه لا يلام على ذلك ؛ لما ركز في الطباع من المحبة التي هي مودة الخير للأقارب ، والتي دل اللَّه عليها وذكرها بقوله تعالى : ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال : ٧٥] . وبقوله تعالى : ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء :] . ولكن مع ذلك فإن جميع المسلمين قد جعلهم اللَّه تعالى إخوة وثبتت الأخوة بينهم فقال تعالى : ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، أي الأخوة التي أصبحتم بها هي أخوة الدين ، وقد كانوا قبل الإسلام متعادين ومتحاربين . فانتزعت تلك البغضاء منهم وطهر الإسلام قلوبهم فأصبحوا متحابين ، وأصبحوا كلهم متآخين في ذات اللَّه تعالى .

وكذلك - أيضًا - قد ثبت أنه ﷺ أكد هذه الأخوة فقال : « **لا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تنافسوا ، وكونوا عباد اللَّه إخوانا ، المسلم أخو المسلم** »(١) .

فقوله ﷺ : « **كونوا عباد اللَّه إخوانا** » . هكذا أكد أنهم يكونون إخوانًا -

---

(١) سيأتي .

يعني : كما أن أولاد الرجل إخوان من الأب ، فكذلك أنتم أيها المسلمون إخوان أخوة دينية ، أخوة إسلامية ، كذلك قال ﷺ : « **المسلم أخو المسلم** » . فجعل بينهم أخوة سببها الإسلام وحده ليس لها سبب إلا الإسلام ، وإن كان هناك أخوة الصداقة وأخوة القرابة وأخوة الشراكة وأخوة الصحبة في أي مجال ، ولكن الغالب أن تلك الأنواع من الأخوة لا تثبت بل تتزعزع إذا تغيَّر سببها ، فكم رأينا اثنين أو جماعة اصطحبوا أو تآخوا ، إما بصفتهم جيرانا ، أو بصفتهم شركاء في تجارة ، وإما بصفتهم زملاء في وظائف ، وإما بصفتهم زملاء في دراسة ، فكانوا كالإخوة يؤثر بعضهم بعضًا ، ويحب بعضهم بعضًا ، ويواسي بعضهم بعضًا ، ويدل كل منهم أخاه على الخير ، ويرشده إلى الخير ، ولكن بعد زمن يسير أو طويل تغيرت تلك الأخوة لماذا ؟ لأنهم كانوا متآخين على النصرة ، ومتآخين على الإيثار ، وعلى العطاء ، وعلى التهادي يهدي بعضهم لبعض ، ويزور بعضهم بعضًا ، ويستزير بعضهم أخاه ، ويكرم أحدهم أخاه ، ويعطيه ويهدي له ، ولما تغيرت هذه الأوصاف انقلبت إلى عداوة ولم تبق تلك الأخوة التي معها ذلك الإيثار وتلك المحبة وذلك التزاور ونحوه ، بل صاروا متعادين لا يزور أحدهم صاحبه ولا يتعرف عليه ولا يسأل عن أحواله ، أليس ذلك دليلًا على أن الأخوة التي على غير الدين لا تكون ثابتة بل متزعزعة .

إذن فالأخوة الصحيحة الصادقة هي الأخوة لأجل الدين وتعين على ثبات الإيمان في القلب ورسوخه وقوة تمسكه بالإسلام ، فأنت تحب كل من رأيته مسلمًا مؤمنًا محققًا للإسلام مُحافِظًا على شرائع اللَّه ، مُحافِظًا على أوامره مُتجنبًا لنواهيه ، مُحافِظًا على حدود اللَّه وعلى طاعته ، فتحبه لأن اللَّه تعالى يحبه ، وتحبه لأنه موافق لك فيما تعمله من هذه الأعمال الصالحة ، وهذه الإرشادات وهذه الطاعات ، فلما أحببته للَّه أحبك اللَّه تعالى لأجل محبتك له ، ولهذه المحبة آثار ، فإذا أحببت إنسانًا

في ذات اللَّه تعالى فإن لهذه المحبة مكملات وآثارًا وتوابع ، منها : أن تكون المحبة لأجل اللَّه تعالى لا لمصلحة عاجلة أو لمصلحة آجلة ، وإنما تحبه لأن اللَّه تعالى يحبه لتمسُّكِه بالطاعة ، وقد جعل النبي ﷺ هذا النوع من أسباب الدخول في ظل العرش يوم القيامة في قوله : « **سبعة يظلهم اللَّه يوم لا ظل إلا ظله – منهم – ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه** »(١) . وجعل هذا من أسباب الثواب في الآخرة ، وكذلك جعل المحبة من علامات حلاوة الإيمان كما قال ﷺ : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا في اللَّه ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه** »(٢) .

معنى : « **يحب المرء لا يحبه إلا للَّه** » . أي تحب هذا الإنسان أو تحب هؤلاء الجماعة وليس قصدك من محبتهم إلا أن اللَّه تعالى يحبهم ، أو أنهم يحبون اللَّه ، فهم أحباب اللَّه ، هذا أثر من آثار هذه المحبة أن تكون من اللَّه ، تعالى وفي اللَّه وأن تكون محبتك لهم لأجل طاعة اللَّه ، أي لأجل أنهم يطيعون اللَّه ، ثم لابد – أيضًا – إذا أحببتهم أن تحرص على نجاتهم من المهالك وتحرص على فوزهم وفلاحهم وتحرص على أن يكونوا من الفائزين الذين يعملون الخير فيفوزون به ويفلحون وتحذرهم من الهلاك ومن الآفات والأضرار التي توبقهم فتدلهم على الخير

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب الصدقة باليمن (١٤٢٣) (٣/٣٤٤ – فتح) وفي مواضع أخر من الصلاة والرقاق ، والمحاربين ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب فضل إخفاء الصدقة (٩١) (٢/٧١٥) ، كلاهما من طريق عبيد الله بن عمر عن حبيب بن عبدالرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – به .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب من كره أن يعود في الكفر (٢١) (١/٩١) وانظر : (٦٠٤١) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٦٨) (١/٦٦) ، كلاهما من طرق عن أنس – رضي الله عنه – به .

وتحذرهم عن الشر ذلك علامة محبتك لهم، وهو أيضًا علامة الإيمان.

فقوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» أي لا تكون مؤمنًا صادقًا الإيمان ولا تكون مؤمنًا ولا تكون مؤمنًا كامل الإيمان إلا إذا أحببتهم ودللتهم على الخير الذي تحبه لنفسك ليس هذا خاصًا بخير الدنيا بل والآخرة، فهي أولى بالاهتمام، فعليك أن تدلهم على المصالح التي يحصل منها لهم منفعة أي على الكسب الحلال وعلى الرزق الهني، وعلى الحرفة الطيبة التي يسهل منها حصول رزق وحصول مال طيب، فترشدهم إليها تقول: بموجب محبتي لك فإنني أحب لك الخير الذي أحبه لنفسي، فعليك أن تعمل كذا حتى تكون من المفلحين ونحو ذلك.

وكذلك تقول له: إني أكره لك ما أكره لنفسي، أنا أكره لنفسي الإفلاس، وأكره لنفسي الفقر، وأكره لنفسي المكاسب السيئة، والمكاسب الرديئة، وأكره لنفسي التعب والنصب الذي لا فائدة فيه ولا أهمية له، فأكرهه لك، أكره لك أن تحترف بهذه الحرفة، لأنها ليست مفيدة، أو هي ضارة وليست نافعة، أو نحو ذلك، فهذا من آثار المحبة وهو من تمام الإيمان، وكذلك - وهو أهم - الاهتمام بأمور الدين فإنها علامة الإيمان الصحيح، وهو أن تُولي إخوانك اهتمامًا بأمر دينهم وتذكرهم بهذه المحبة.

إذا كان النبي ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» فإنَّ ممَّا تحبه لنفسك الأعمال الصالحة التي تحصل بها على الفوز في الدنيا بالحياة الطيبة وعلى الفوز في الآخرة بالجنة، وبالنجاة من النار، فإذا كان كذلك فإن عليك أن تدل عليها إخوانك وأحبابك فتذكرهم بهذه المحبة، فإن النبي ﷺ يقول: «**لا يُؤْمِن أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**». فتقول: أنا أحب لنفسي أن أكون من أهل الأعمال الصالحة، أحب لنفسي أن أكون من المُتقدِّمين إلى

بيوت اللَّه ، أحب لنفسي أن أكون من عُمَّار المساجد الذين يترددون إليها ويألفونها ، الذين قلوبهم معلقة بالمساجد ، وأحب ذلك لك أيه الأخ ، بل أحب ذلك لكم أيها المسلمون جميعًا ، وكذلك أكره لنفسي المعاصي ، أكره لنفسي أن أقع في معصية توجب سخط اللَّه ومقته وعقوبته ، أكره لنفسي أن يعلق بها شيء من الذنوب التي حرم اللَّه ، أكره لنفسي فعل ذنب يسخط اللَّه عليَّ ، وأكرهه لك أيها المسلم ، فأكره لكم أن تكونوا - مثلًا - من أهل الغيبة والنميمة ، أكره لكم أن تكونوا من أهل الفواحش والمنكرات ، أكره لكم أن تتعاطوا فعل المحرمات التي يسخطها اللَّه تعالى ويعاقب عليها . فإذا دللت إخوتك على هذا الخير الذي أنت تعلمه لهم وحذرتهم من الشر الذي تعلمه لهم وذكرتهم بأنَّك تحب لهم ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك ، كمل بذلك إيمانك .

فقوله ﷺ : « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ** » يعني : لا يكون إيمانه كاملًا حتى يحب لإخوته من الخير مثل ما يحب لنفسه ، أي : من خيري الدنيا الآخرة ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، أي : من شرور الدنيا ومن شرور الآخرة ، أي من المعاصي والمحرمات ، فإذا كان كذلك فإنه من أهل الإيمان .

❁ ❁ ❁

الحديث الرابع عشر

حرمة دم المسلم وأسباب إهداره

عن ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي اللهُ عنه - قالَ : قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ : « **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأَنِّي رَسُولُ اللهِ إلَّا بإحْدَى ثَلَاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَماعَةِ** ». رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

في هذا الحديث حرمة دم المسلم المؤمن ، فلما من اللَّه تعالى على عباده باعتناق هذا الإسلام جعلهم إخوة ، وربط بينهم بهذه الأخوة ، فحرم الاعتداء من هذا على هذا ، ورتَّب على ذلك العذاب الشديد والوعيد الأكيد ، بل أطلق عليه أنه كفر كما في قوله ﷺ : « **سباب المسلم فسوق وقتاله كفر** »(٢) . وقد أعظم اللَّه

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الديات : باب قول الله تعالى : (أن النفس بالنفس ...) (٦٨٧٨) (٢٠٩/١٢) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب القسامة : باب ما يباح به دم المسلم (٢٥: ٢٦) وتاليهم بدون رقم : (١٣٠٢/٣ - ١٣٠٣) ، كلاهما من طريق الأعمش عن عبد الله بن مُرَّة عن مسروق عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - به .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب خوف المؤمن أن يحبط عمله ... (٤٨) (١٣٥/١ - فتح) وفي مواضع أخرى في الفتن والأدب ، وفي « الأدب المفرد » (٤٣١) (ص١٥٤) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان قول النبي ﷺ : « سباب المسلم فسوق » (١١٦/١١٧) (٨١/١) ، كلاهما من حديث عبد الله - رضي الله عنه - مرفوعًا به . وأخرجه النسائي في « سننه » (٧/ ١٢١، ١٢٢) ، وفي « الكبرى » (٣٥٦٨، ٣٥٦٩، ٣٥٧٠) (٣١٣/٢) ، (٣٥٧٧) (٣١٤/٢) من كلام عبد الله موقوفًا عليه .

تعالى شأن القتل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. وهذا وعيد شديد على قتل المسلم، وكذلك جعل الله تعالى حرمة المسلم أشد حرمة، فكلما ذكر المحرمات ذكر تحريم القتل ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] - يعني: لا تقتلوا النفس البريئة إلا بالحق.

فالقتل بغير حق يعد ذنبًا كبيرًا وإثما عظيمًا، وقد ذكروا عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أو غيره من الصحابة أنه طاف مرة بالكعبة - البيت الحرام - ثم إنه قال للكعبة: «**ما أعظمك وأعظم حرمتك وإن حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمتك**» [(١)] فإذا كان الناس يعظمون الكعبة، ولو أن إنسانًا اعتدى على الكعبة وأراد هدمها وشقَّق مثلًا كسوتها وفرَّق حجارتها، اعتبروه أكفر الكفار، وأظلم الظلمة،

(١) صحيح موقوف: أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب البر والصلة: باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢) (٤/٣٧٨) وقال: «حسن غريب»، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٦٣) (١٣/٧٥) - أخرجاه - من طريق الفضل بن موسى عن الحسن بن واقد عن أوفى بن دلهم عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - موقوفًا.

وقال الألباني في «صحيح الترمذي»: «حسن صحيح»، وقوّي الأرناؤوط إسناده في «هامش ابن حبان». وأخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الفتن: باب حرمة دم المؤمن وماله (٢/١٩١٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٦٨) (٢/٣٩٦) أخرجاه من طريق نصر بن محمد عن عبد الله بن أبي قيس عن عبد الله بن عمرو - قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا» وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» يعني: مرفوعًا.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٦٦) (١١/٣٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - مرفوعًا بنحوه، وفي «الأوسط» (٦٩٩) (١/٣٩٨) من حديث جابر مرفوعًا بنحوه.

حيث اعتدى على بيت اللّٰه الحرام فيقال : إن حرمة المسلم أعظم من حُرْمة هذا البيت الحرام . فالذي يقتل مُسْلِمًا ويريق دمه ويعتدي عليه بغير حق قد فعل جرمًا وذنبًا كبيرًا كالذي هدم الكعبة أو استحل حرمتها .

وقد أخبر النبي ﷺ أن دم المسلم لا يحل إلا بإحدى ثلاث ، في بعض الروايات تقيد المسلم بأنه من أهل الشهادة : « **لا يحل دم امرئ مسلم – أو مؤمن – يشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأني رسول اللّٰه بإحدى ثلاث** » فتقييده بكونه مسلمًا أو مؤمنًا ، يعني من دخل في الإسلام وانتمى إليه أي بأنه من أهل الشهادتين ، الذين يعملون بالتوحيد ويتبعون الرسول عليه الصلاة والسلام ، يعملون بالسنة ، فلا يحل قتله ولا يجوز إراقة دمه إلا إذا فعل خصلة من هذه الخصال الثلاث : « **الثَّيِّبُ الزَّاني والنَّفْسُ بالنَّفْس ، والتَّارِكُ لِدِينِهِ المفَارِقُ للْجَمَاعَةِ** » .

« **الثَّيِّب** » : هو المحصن وهو الذي قد تزوج زواجًا صحيحًا ودخل بزوجته ثم زنى بعد ذلك فإن حده الرجم .

وقد تكاثرت الأدلة على أن الزاني إذا كان قد منَّ اللّٰه عليه بالنكاح الحلال ولكنه عدل عن الحلال إلى الحرام ، وعدل عما أباح اللّٰه له وما متَّعه به من النكاح الحلال والزوجة الحلال ، عدل عن ذلك فاقترف فاحشة الزنى وثبت زناه فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت .

ثبت أنه ﷺ رجم الزاني ، فرجم ماعزا الأسلمي[١] ، ورجم الغامدية[٢] ،

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » في كتاب الحدود : باب ٢٢ (٦٨١٥) ، ومسلم في « الحدود » (١٦) ، وغيرهم من أصحاب « السنن » من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – وغير واحد من الصحابة كجابر بن عبد اللّٰه ، وابن عباس رضي الله عنه كما في « صحيح مسلم » ، وأبي بكر الصديق – رضي الله عنهم – كما في « مسند أحمد » وغيره ، وأبي سعيد الخدري .

(٢) قصة رجم الغامدية أخرجها : مسلم في « صحيحه » كتاب الحدود : باب من اعترف على نفسه بالزنى (٢٣) (١٣٢٣/٣ – ١٣٢٤) ، وأبوداود في « سننه » .

ورجم صاحبة العسيف[(١)] ورجم يهوديين[(٢)] شهد عليهما بالزنى .

فذلك بلا شك دليل على ثبوت هذه السنة التي هي قتل الزاني بهذه القتلة ، ولعل السبب في ذلك أنه لما تمتع بالشهوة الحرام وتلذذ بدنه كله بهذه الشهوة المحرمة ناسب أن يرجم بالحجارة فتصيب الحجارة جميع بدنه ، فيرجم بحجارة متوسطة ليست كبيرة ولا صغيرة ، فيرجم مع رأسه ومع بطنه ومع ظهره ومع عضديه ومع رجليه ومع جميع بدنه حتى يموت بذلك الرجم ، معاقبة له على تلذذ بدنه بهذه الفاحشة المحرمة وعدوله عما أحل اللَّه له .

ولو كان عزبًا - يعني : قد تزوج ثم طلق ، أو تزوج وماتت امرأته ، فإنه يصدق عليه أنه ثيب فزناه موجب لهذا الحد الذي هو القتل ، والنبي عليه الصلاة والسلام أطلق عليه هذا الحديث .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الحدود : باب إذا رمى امرأته ... (٦٨٤٢) (١٧٩/١٢ - فتح) وفي النذور ، والصلح ، والأحكام ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الحدود : باب من اعترف على نفسه بالزنى (٢٥) (١٣٢٤/٣ - ١٣٢٥) ، كلاهما من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن زيد بن خالد به ، وزاد بعضهم عن زيد وأبي هريرة وشبل - رضي الله عنه - ، وبعضهم زاد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - فقط .

(٢) يشير إلى حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا أن رجلًا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « **ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟** » فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - : كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا فيها الرجم . فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد اللَّه : فرأيت الرجل يحنا على المرأة يقيها الحجارة . أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الجنائز : باب الصلاة على الجنائز ... (١٣٢٩) (٢٣٧/٣ - فتح) وفي مواضع أخرى في التوحيد والحدود والمناقب ...، ومسلم في « صحيحه » كتاب الحدود : باب رجم اليهود ... (٢٦، ٢٧) (١٣٢٦/٣ - ١٣٢٧) ، كلاهما من طريق نافع عن ابن عمر مطولًا ومختصرًا .

وقد اختلف هل يرجم فقط أو يجمع عليه بين الجلد، والرجم وسبب الاختلاف أنه قد ثبت أنه ﷺ قرأ قول اللّٰه تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]. فقال: « **خذوا عني، قد جعل اللّٰه لهن سبيلًا، البكر بالبكرجلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم** »[١]. ففي هذا أنه أمر بأن يجلد مائة جلدة ثم بعد ذلك يرجم حتى يموت، ولكن ثبت أنه أمر برجم الأسلمي، ولم يجلده قبل ذلك، وكذلك الغامدية والجهنية وصاحبة العسيف، لم يثبت أنه جمع بين الجلد والرجم بل اقتصر على الرجم، هذا هو المعمول به.

أما قوله: « **والنَّفْسُ بالنَّفْس** ». فالمراد: قتل القاتل، قال اللّٰه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ٤٥].

فـ ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني: أن يقتل الإنسان بمن يكافئه، فإذا قتل إنسان مسلمًا حرًا محصنًا فإنه يقتل به.

أما إذا قتل زانيًا فإنه لا يقتل به، لأنه ليس بمحصن - يعني: ليس بمعصوم الدم، وكذلك لو قتل عبدًا فإن العبد مُقوَّم تدفع قيمته لسيده، وكذلك لو قتل كافرًا ولو من أهل العهد أو أهل الذمة فإنه لا يقتل به، لقول النبي ﷺ: « **لا يقتل مسلم بكافر** »[٢]. وإنما تدفع له الدية.

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الحدود: باب حد الزاني (١٢/ (٣/١٣١٦ - ١٣١٧)، من طرق عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة به مطولًا ومختصرًا.

(٢) أخرجه البخاري: حسن صحيح: أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الجهاد: باب في السرية تَرُدُّ على أهل العسكر (٢٧٥١) (٣/٨١)، وفي كتاب الديات: باب أيقاد المسلم بالكافر؟ =

فأما إذا تعدى إنسان على أخ له مسلم من أهل الإسلام معصوم الدم وليس بمهدر الدم ، ولم يكن قاتلًا لأحد من أقاربه ؛ فإنه يقتص منه إذا طلب ذلك أولياء المقتول واتفقوا على مطالبتهم بالقصاص فيقال : أنت اعتديت على أخيك المسلم وأرقت دمه بغير حق ، وقد طالب أبناؤه أو ورثته بالقصاص ، فلابد أن يقتص من القاتل لمطالبة الأولياء والورثة بالقصاص .

هذا معنى : « **النَّفْسُ بالنَّفْس** » أي يقتل القاتل بمن قتل به .

ويقتل الرجل بالمرأة ، فقد ثبت أن يهوديًا .

قتل امرأة فقتل بها وتقتل المرأة بالرجل فإذا قتلت رجلًا فإنها تقتل به ولا يدفع معها شيء ، وإذا قتل رجل امرأة فإنه يقتل بها ولا يدفع شيئًا ، وذلك لعموم قوله تعالى : ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ ، وكذلك هذا الحديث ، والحكمة في ذلك ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

كيف يكون القصاص حياة ؟

« **حياة** » : أي سبب لحياة الاثنين ؛ وذلك لأن هذا إذا هم بأن يقتل هذا الذي سبه ، أو شتمه ، أو أخذ شيئًا من ماله ، أو اعتدى عليه ، أو أراد أن يقتله تكبرًا وظلمًا ، فإنه يفكر ويقول : إذا قتلته فإني سوف أقتل ، فلا خير في قتل يكون بعده القتل ، لماذا أقدم على قتله مما يسبب قتلي فأقتل به قصاصًا ؟ ! فعند ذلك يتوقف عن

= (٤٥٣١) (١٧٩/٤) ، والترمذي في « سننه » كتاب الديات : باب ما جاء لا يقتل مسلم بكافر (١٤٣١) (٢٥/٤) وقال : « حسن » ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الديات : باب لا يقتل مسلم بكافر (٢٦٥٩) (٨٨٧/٢) ، وأحمد في « مسنده » (٢/ ١٨٠، ١٩١، ١٩٤، ٢١٥) ، وابن الجارود في « المنتقى » (١٠٥٢) (ص٢٦٣) ، (١٠٧٣) (ص٢٦٩) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٢٨٠) (٦٢/٤) ، والبيهقي في « الكبرى » (٢٩/٨) - كلهم - من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - رضي الله عنه - به .

وقال الألباني في « صحيح الترمذي وأبي داود وابن ماجه » : « حسن صحيح » .

الإقدام على القتل فيحى نفسه ويحيى ذلك الذي أراد قتله فيكون في القصاص حياة .

وأما الخصلة الثالثة : « والتارك لدينه المفارق للجماعة » . فيعبر عنه بمن أتى ما يكفُر به من الأعمال التي يحكم على صاحبها بأنه مرتد ، وأنه يقتل بردته ، سواء كان تاركًا للدين كله أو تاركًا لما يحكم بأنه مرتد لأجله .

فالردة تسبب قتل صاحبها ، سواء ارتد عن الإسلام ردة كاملة أو ردة جزئية فإنه يقتل ، ودليل ذلك قول النبي ﷺ : **« من بدَّل دينه فاقتلوه »**[(١)] .

فيدخل فيه تبديل الدين كله وتبديل بعضه ، فمن سب اللَّه تعالى ، أو سب النبي ﷺ ، أو سب القرآن وتنقصه ، أو سب الإسلام الذي هو دين المسلمين ، كالذي يقول - مثلًا - : لعنك اللَّه ولعن دينك الذي تدين به . وهو يريد الإسلام ، فمثل هذا يعتبر مرتدًّا ، فلابد أن يقتل ردة ، أما إذا رجع إلى الكفر بأن اختار النصرانية مثلًا ، أو اختار البوذية ، أو اختار الهندوسية ، أو اختار القاديانية ، أو اعتنق دينًا غير دين الإسلام ، فإنه والحال هذه يصير مرتدًا ردة كبرى ، فمثل هذا يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، يقال له : ارجع إلى دينك الذي كنت عليه وإلا قتلناك . فإذا أصر على ردته فإنه يقتل .

وأما من سب اللَّه تعالى أو تكررت ردته ، فالصحيح أنه لا يستتاب بل يقتل حدًّا يعامل معاملة المرتد الكافر ، فلا يجهزه المسلمون بل يدفن في مكان غير مقابر المسلمين ، هذا هو المرتد ، وكذلك كل من استحل شيئًا من المحرمات فإنه يكون مرتدًّا .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الجهاد والسير : باب لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٧) (٦/ ١٧٣ - فتح) ، وفي كتاب استتابة المرتدين : باب حكم المرتد والمرتدين (٦٩٢٢) (١٢/ ٢٧٩ - فتح) ، من طرق عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - به مطولًا ومختصرًا .

وقد توسع العلماء في ذكر الخصال الذي تحصل بها الردة فقالوا : إنها تحصل بالاعتقاد ، وتحصل بالأعمال ، وتحصل بالتروك .

فالأعمال : - مثل - الذي يستحل الربا ويقول : ليس بحرام - والمراد الربا الصريح الذي لا شبهة فيه - يستحله ويقول : إنه ليس بحرام . ويكذب النصوص الواردة في ذلك فإنه يعد مرتدًّا ، وكذلك الذي يستحل الخمر التي حرمها اللَّه تعالى يعد مرتدًّا . روي أن أناسًا في عهد عمر - رضي اللَّه عنه - شربوا الخمر فأمر بإحضارهم فأمر رجلًا أن يسألهم إن كانوا مستحلين لها قُتلوا ، وإن كانوا يعتقدون تحريمها جلدوا ؟ فقالوا : نقر أنها حرام لكن سولت لنا أنفسنا . فأمر بجلدهم .

فدل على أن الذي يعتقد أنها حلال يكون مرتدًّا فيقتل حدًّا ، وكذلك الذي يستحل دماء المسلمين بغير حق ، يكون - أيضًا - مرتدًّا فيحكم بردته ويقتل حدًّا ، وهكذا الذي يترك الواجبات ، فالذي يصر على ترك الصلاة ويستمر عليها ويدعى إلى فعلها ، ولكنه لا يجيب بل يمتنع ويقول : لا أصلي أبدًا . فمثل هذا يقتل ردة ويحكم بكفره ، وكذلك من منع الزكاة المفروضة ، فقد ثبت أن الصحابة قاتلوا العرب الذين منعوا الزكاة وأعلنوا منعها فقاتلوهم وحكموا بردتهم ، وكذلك الذي يجحد فرضية صوم رمضان ويعلن الأكل عنادًا في نهار رمضان بغير عذر ، وينكر أنه فريضة يصير - أيضًا - مرتدًّا ، وكذلك قد حكم عمر وعلي - رضي اللَّه عنهما - على من قدر على الحج ولم يحج بأنه يستحق أن توضع عليه الجزية وأنه ليس بمسلم ، وإذا كان ينتمي إلى الإسلام فإنه يصير - أيضًا - مرتدًّا .

وهكذا من استحل شيئًا من المحرمات ، مثل أن يستحل لحم الخنزير ويقول : إنه لحم طيب . وقد حرمه اللَّه ، أو استحل أكل الميتة وقال إنها طيبة ولا قذارة فيها ، وتحريمها خطأ . ورد على اللَّه تعالى في تحريمها صار مرتدًّا .

وهكذا من استحل المعاصي كإتيان الكهان واستحل السحر وقال : لا بأس بتعلم السحر وبالعمل به . وما أشبه ذلك ، يعد مرتدًّا .

فعرف بذلك أن « **التارك لدينه المفارق للجماعة** » أي : لجماعة المسلمين ، يستحق أن يقتل سواء قيل : إنه يستتاب أو يقتل بلا استتابة كقتال أهل الحدود .

❁ ❁ ❁

الحديث الخامس عشر

آداب الإسلام

عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي اللهُ عنه - : أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال : « **مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُل خيرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ، ومَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ ، ومَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ[١] .

شرح الحديث :

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة يكثر في السنة تذكير الناس بالله وباليوم الآخر يقتصر من أركان الإيمان على ركنين :

الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر كما في هذا الحديث قال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** » . في الجمل الثلاث لم يقل من كان يؤمن بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله ما ذكر هذه الأركان وذلك لأنها داخلة في الإيمان بالله ؛ لأن من آمن بالله ربًّا فإنما يؤمن به عن طريق رسله ، ومن آمن بالرسل فإنه يلزمه اتباع الكتب التي بلغتها الرسل أي هذه الكتب التي هي كتب الله التي ضمنها الله شرائعه- هذا هو السبب في الاقتصار على الإيمان بالله .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب : باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره (٦٠١٨) (١٠/٤٦٠ - فتح) ، وانظر : (٦١٣٦، ٦٤٧٥) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب الحث على إكرام الجار ... (٧٥، ٧٦) (١/٦٨) ، - كلاهما - من طرق عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

وأما الإيمان باليوم الآخر فلا شك أنه من أهم الأركان :

أولًا : أن المشركين كانوا ينكرون البعث ويقولون : ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات : ٣٦] لما نهاهم عن الشرك ويقولون : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات : ١٦، ١٧] ، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق : ٣] يستبعدون رجوعهم وبعثهم بعد الموت فلأجل ذلك يكثر في الأحاديث تذكير الناس باليوم الآخر الذي هو البعث بعد الموت .

ثانيًا : أن من آمن باليوم الآخر فإنه يستعد له ، إذا آمن بأنه لا بد أن تعاد الأرواح إلى الأجساد ، وأن تجمع هذه الأجساد التي تلفت وأصبحت ترابًا بعد أن كانت بشرًا سويًا يعيدها اللَّه تعالى ويحييها كما كانت من التراب ومن البلى ونحوه ، ثم يعيد إليها أرواحها كذلك -أيضًا- إذا آمن بأنه بعد البعث لابد من الوقوف في موقف القيامة الذي قال اللَّه ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين : ٦] فقد ورد أنهم يقومون على أقدامهم زمنًا طويلًا ، وكذلك إذا آمن بأن يوم القيامة يوم طويل كما قدره اللَّه في قوله تعالى : ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] إلى قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج : ٦، ٧] إن هذا اليوم الذي هو بهذا المقدار يستبعدونه وينكرونه ونراه قريبًا وكل ما هو آتٍ قريب ، وكذلك إذا آمن بما في ذلك اليوم فقد ذكر اللَّه فيه حساب الناس على أعمالهم وأن كلًا منهم يؤتى كتابه ويحاسب نفسه ويقال : ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٤] ، أو يؤتى كتابه بيمينه أو بشماله وذكر اللَّه ماذا يقول إذا أوتي كتابه بيمينه أو بشماله وكذلك -أيضًا- إذا نصبت الموازين ووزنت الأعمال أو وزنت الأنفس ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة : ٦: ٩] وكذلك أيضًا عندما ينصب الصراط ويسيرون عليه بأعمالهم كما ذكر في الأحاديث .

لا شك أن الذي يؤمن بذلك وبما بعده يحمله إيمانه أن يجد في الاستعداد لذلك اليوم وإذا آمن به عمل له .

أما الذي لا يهتم باليوم الآخر ولا يستعد للقاء اللَّه ولا يعمل أعمالًا صالحة تؤهله لرضى اللَّه ولا يترك السيئات التي توجب سخط اللَّه فإنك تقول : هذا ضعيف الإيمان بربه ، وضعيف الإيمان بالبعث بعد الموت ، ولو كان مستحضرًا لعظمة اللَّه تعالى ومستحضرًا لعذابه ، وشدة انتقامه ، ومستحضرًا للوعيد الذي توعد به من عصاه ، وللوعد والثواب الذي وعد به من أطاعه .

فإقدامه على هذه المخالفات والمعاصي يدل على ضعف الإيمان ، فلأجل ذلك يُذكِّر النبي - ﷺ- كثيرًا بهذين الركنين : الإيمان باللَّه ، والإيمان باليوم الآخر ، فالإيمان بهما فيه اليقين الكامل الذي يحمل على بقية الأعمال على فعل الطاعات وعلى ترك المحرمات وها هنا ذكر ثلاثة أعمال :

قوله : « **فليقل خيرًا أو ليصمت** » .

قوله : « **فليكرم جاره** » .

قوله : « **فليكرم ضيفه** » .

وهذه الأشياء من الأمور العادية ولكن إذا أكدها النبي - ﷺ- بهذا التأكيد وجعلها علامة على الإيمان باللَّه واليوم الآخر دل على أهميتها .

أما الأولى : وهي الكلام الحسن وترك الكلام السيئ ؛ فذلك لأن اللَّه تعالى يحصي على الإنسان كلماته يحصي عليه نبضات قلبه وفلتات لسانه ، فكلماتك التي تتكلم بها مقيدة .

قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٦: ١٨] .

« **الرقيب والعتيد** » : ملكان عن اليمين وعن الشمال يكتبان كل ما يقول .

« **ما يلفظ من قول** » : ما يتكلم به من كلمة إلا وتدون وتكتب فإما أن تكون عليه ، وإما أن تكون له ، وإما ألا يكون فيها كذا وكذا فهي التي تمحى ، ولكن ورد في بعض الأحاديث أن كلامك كله مكتوب عليك أو مكتوب لك ، فورد أنه - ﷺ- قال : « **كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله** »[(١)] .

فمعنى قوله : « **عليه** » . أي : أنه وبال عليه ، أنه محاسب عليه وأنه ثقل عليه ووزر عليه وذنب عليه حيث أنه لا فائدة فيه ، أو فيه مضرة وإذا لم تكن فيه فائدة فإنه يحاسب عليه ويندم عليه ويأسف عليه ، ومصداق ذلك -أيضًا- من القرآن قوله تعالى : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

« **النجوى** » : الكلام . أي : مناجاتهم وكلام بعضهم مع بعض سواء كان سرًا أو جهرًا ليس فيه خير ، وإذا لم يكن فيه خير فقد يكون فيه ضرر وقد يكون مفوتًا للخير .

فالكلام ، إما أن يكون نافعًا ، وإما أن يكون ضارًا ، وإما أن يكون مفوتًا للكلام

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب الفتن : باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٢) (٤/ ٦٠٨) ، وقال : « حسن غريب » ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الفتن : باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٤) (٢/١٣١٥) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١٥٥٤) (ص٤٤٨) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٧١٣٢) (١٣/٥٦) ، (٧١٣٤) (١٣/٥٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤٨٤) (٢٣/ ٢٣٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٨٩٢) (٢/٥٥٦) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٠٥) (١/٢٠٢) - كلهم - من طريق محمد بن يزيد بن خنيس المكي عن سعيد بن حسان المخزري عن أم حبيبة - رضي الله عنها - به .

وضعفه الألباني في « ضعيف الترمذي وابن ماجه » وحسنه الترمذي وهو أقدم .

النافع . أي : بدل ما تتكلم بهذا الكلام السيئ أو الذي لا فائدة فيه اجعل بدله كلامًا حسنًا حتى تربح وقتك وتربح من كلامك ولا تكن قد خسرت زمنًا أو خسرت كلامًا يكون ضارًا أو لا فائدة فيه . « **كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا** » . ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

فأخبر النبي - ﷺ- بأن الإنسان إذا أراد أن يسلم فليسكت ، فالإنسان ما دام ساكتًا فإنه سالم فإذا أراد أن يتكلم فليزن كلامه وينظر هل كلامه هذا له أو عليه ، فإن كان له فيه فائدة نطق به وأقدم عليه حتى يكتب في سجل حسناته ، وإن كان عليه ليس فيه فائدة أحجم وسكت ولم ينطق به حتى يسلم من الإثم ويربح الوقت الذي كان له أن يستغله .

هذا معنى قوله : « **فليقل خيرًا أو ليصمت** » .

الخير يدخل فيه : ذكر اللَّه ودعاءه ، فإذا ذكر اللَّه تعالى وسبحه واستغفره وحمده وشكره وأثنى عليه وهلل وكبر وشكر اللَّه على نعمه وذكره بأسمائه الحسنى ودعاه بها ، وكذلك -أيضًا- ذكره بذكر نعمه عليه وفضله وعطائه ومنته على عبده وما أسداه عليه من الخيرات وما دفع عنه من الشرور وما أشبه ذلك ، وهكذا -أيضًا- إذا ذكره بأحكامه وشرائعه وما أشبه ذلك ، وهكذا إذا ذكره بتلاوة كتابه ، أو ذكره بوعده ووعيده وتذكر ذلك في حالة من حالاته ، وكل هذا يعتبر من ذكر اللَّه تعالى فهو خير . « **فليقل خيرًا** » .

وكذلك من الخير النصح للمسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى اللَّه وبيان الحق وتعليم العلم وبيانه وشرح أسماء اللَّه تعالى وصفاته وشرح كلام اللَّه تعالى وكلام رسوله وبيان أصول الإيمان وأصول الدين وما أشبه ذلك من الكلام الذي فيه فائدة فإن هذا من الخير . « **فليقل خيرًا** » .

فإذا عرف أن هذا الكلام ليس فيه خير فليصمت إن كان غيبة أو نميمة تنقصًا لإنسان غائب أو سبابًا أو هجاءً أو بهتانًا أو ظلمًا أو تتبعًا لعورة المسلمين، وكذلك إذا كان استهزاءًا أو سخرية بآيات الله وبوعده وبوعيده وتنقصًا للرسل واتباع الرسل وما أشبه ذلك فلا شك أن هذا من الكلام السيئ وأنه ليس بخير فالسكوت عنه أسلم ويجب - أيضًا - الإنكار على من فعله ولا يكفي السكوت أي إذا سكت الإنسان بين أناس يخوضون في هذه المحرمات وهذه المنكرات فعليه إثم لإقرارهم عليه، فلهذا لا يجوز له أن يسكت عنهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] إذا كان هذا المجلس الذي أنت فيه يخوضون في أعراض المسلمين أو يستهزئون ويلمزون المطوعين كالذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧٩] يعني: يعيبون هذا بأنه متشدد ومتطوع ومتكلف أو أنه معه غلو أو مبالغة فيما أمر به أو تكلف أو ما أشبه ذلك، وكذلك -أيضًا- يستهزئون بآيات الله ويستهزئون برسله ويستهزؤن بدينه فأمثال هذا لا تجلس معهم يقول الله تعالى: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، إذا جلستم معهم وأقررتموهم فأنتم مثلهم في هذا العمل حيث أنكم أقررتم المنكر وأنتم قادرون على أن تغيروه أو أقررتموه وأنتم قادرون على أن تفارقوه وتفارقوا أهله.

فالحاصل: أنه يجب على الإنسان أن يقول خيرًا أو يصمت وأن عليه أن يفارق المجالس التي تعمر بالباطل ويتكلم فيها بالسخرية وبالمعاصي وبالمحرمات وما أشبهها حتى يسلم على دينه وعرضه.

وأما إكرام الضيف وإكرام الجار فهي من شيم المؤمنين، من الشيم الكريمة فالجار له حق على من بجواره وقد ورد في أحاديث كثيرة الوصية بالجار حتى قال

النبي - ﷺ- : «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[١]. أي : يجعله من جملة الورثة لكثرة ما أوصى به - ﷺ- أو ما أوصاه به جبريل وورد أن له حق جعله الله تعالى من جمله الحقوق فقال تعالى : ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء : ٣٦] .

فجعل الجار على قسمين : جار قريب وجار أجنبي . فالجار الأجنبي له حق والجار القريب له حقان : حق الجوار وحق القرابة .

فالإحسان إلى الجار فعل ممدوح ومحمود ، وخصلة من خصال الخير التي يتقرب بها إلى الله ويُرجى بها الثواب ، والإيذاء للجار ذنب من كبائر الذنوب ومعصية من المعاصي ولأجل ذلك قال في هذا الحديث : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره**» . وفي رواية : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»[٢]. فأنت مأمور بإكرام الجار ومنهي عن إيذاء الجار معًا .

الإكرام معناه : احترامه وإيصال الخير إليه وزيارته واستزارته وإهداؤك إليه من الشيء الذي يفرح به ويسر ، وكذلك -أيضًا- البشاشة في وجهه والسلام عليه والتحفي به وإحسان الخلق معه وصدق الحديث معه وإيصال كل خير إليه هذا من

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب : باب الوصية بالجار (٦٠١٥) (١٠/٤٤٥ - فتح) ، وفي «الأدب المفرد» (١٠٤) (ص٥٠) ، ومسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة : باب الوصية بالجار ... (١٤١) (٤/٢٠٢٥) ، - كلاهما - من طريق عمر بن محمد بن زيد عن أبيه عن ابن عمر - رضي الله عنه - به .

وفي الباب : عن عائشة وأبي هريرة وجابر - رضي الله عنهم- .

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الأدب : باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره (٦٠١٩) (١٠/٤٦٠ - فتح) وفي مواضع أخرى في الرقائق ....، وفي «الأدب المفرد» (٧٤١، ٧٤٣) (ص٢٥٩) ، ومسلم في «صحيحه» كتاب اللقطة : باب الضيافة ونحوها (١٤ - ١٦) (٣/١٣٥٢ - ١٣٥٣) ، - كلاهما - من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكلبي - رضي الله عنه - به .

جهة ، ومن جهة ثانية وهي أهم : أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتعليمه ما يجعله وتنبيهه على ما قصر فيه إذا رأيته -مثلًا- فعل منكرًا نبهته ونصحته فقلت : هذا من حق الجار على أخيه رأيتك يا جاري كذا وكذا رأيتك -مثلًا- تحلق لحيتك رأيتك تسبل ثوبك رأيتك تشرب دخانًا أو رأيتك تتكاسل عن الصلاة أو لا تصلي في الجماعة صلاة الصبح أو ما أشبه ذلك- هذا من حق الجوار أني أنصحك وأحبك هذا من كرامتك ، الرسول يقول : « **فليكرم جاره وإكرامك أن أنصحك وأبين لك الخير لأني أحب لك الخير وأحب أن تفعله ولا شك أنك إذا قمت بهذه الأسباب فقد أكرمته ونصحته وأسديت إليه معروفًا ، أما إذا تركته وسكت عنه وأقررته على هذه المنكرات فما أكرمته وما نصحته وما أوصلت إليه خيرًا بل تكون قد غششته وأقررته على منكر حتى ولو عاند حيث إن بعض الجيران إذا نصحته وقلت له : يا أخي لماذا تسمع الأغاني ولماذا تدخل آلات الملاهي التي تجلب لك السوء وتظهر في بيتك هذه المنكرات وهذه الصور الخليعة وما أشبهها لماذا -أيضًا- تؤذي جيرانك بهذه الأصوات المزعجة أصوات الغناء والطرب وما أشبه ذلك مما هو إكرام له ودلالة على الخير .**

مما لا شك أنه من باب النصيحة فقد يقول كثير من الجيران -هداهم الله- : أنا أخبر بنفسي أنت مسؤول عن نفسك لست بمسؤول عني . فقل : بلى أنا مسؤول عنك- يعني : أوصل إليك الخير وأكف عنك الشر وأكرمك ومن كرامتك أن أنصحك في ذات اللّٰه وأن أُبين لك الخير وأعينك عليه وإذا وقع عليك شيء من الصعوبة فإني أخففها عنك أنا أبين لك الخير حيث أنك بجواري فلا أرضى أن تكون فاسقًا ولا عاصيًا ولا أحب لك السهر على قمار وعلى لهو وباطل ، ولا أحب لك مجالسة العصاة والفسقة ونحوهم الذين يفسدون عليك أخلاقك ويفسدون عليك دينك لا أحب لك أن تكون مع هؤلاء المفسدين وتتكلم معهم بالكلام السيِّئ- هذا

من حق الجار عليك أن ينصحك ويبين لك أما إذا تكرر ذلك النصح والتحذير والبيان منك له ولكنه أصر وعاند فإنك تظهر له المقت وتظهر له البغض وتحقره وتبين له أنه جار سوء وأنه ممقوت عند اللَّه وعند عباد اللَّه وأنه لن يوصل إلى جيرانه ولا إلى إخوانه الخير بل أوصل إليهم الشر وآذاهم وأن المؤذي حق على جيرانه أن يشتكوه ويبعدوه فإذا كان لك جار متظاهر بهذه المعاصي وأهمها -مثلًا- التخلف عن الصلاة وما أشبهها فإن عليك أنت والجار الثاني والثالث والرابع أن تجتمعوا على نصحه وعلى تخويفه إذا أصر على ذلك فلابد أن يرحل عن جواركم حتى لا يبقى في المجاورين لكم من هو متظاهر بالسوء وحتى تكونوا متناصحين في ذات اللَّه تعالى .

هذا كله من إكرام الجار . « **ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » .

« **الضيف** » : هو النازل بك من بلاد بعيدة نزل بك لأجل أن تكرمه بالقرى وإكرامه هو جائزته .

ورد -أيضًا- في بعض الأحاديث « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه وجائزته** » . قالوا : وما جائزته يا رسول اللَّه ؟ « **يوم وليلة** » . ثم قال : « **والضيافة ثلاثة أيام فما زاد عليه فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه** » .

هذه كلها من الخصال التي يزيد بها الإيمان وينقص بفقدها حفظ الكلام ، وكذلك -أيضًا- إكرام الجار وإكرام الضيف .

وقد أطال العلماء على إكرام الضيف وبينوا ما يتعلق به وخصوه بأهل القرى الصغيرة التي إذا نزل بها لم يجد مطاعم ولا فنادق فينزل بأحد المواطنين ولا يستطيع أن ينصب قدره ويصلح طعامه ، أما الناظر فعلى من نزل أن يكرمه بالطعام والإيواء والتدفئة ونحو ذلك واللَّه أعلم .

الحديث السادس عشر

النهي عن الغضب

عن أبي هُرَيْرَةَ – رضي اللهُ عنه – أنَّ رَجُلًا قال لِلنَّبِي ﷺ : أَوصِني ، قالَ : « **لا تَغْضَب** » ، فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قال : « **لا تَغْضَب** » . رواه البخاري[١] .

شرح الحديث :

قال في هذا الحديث عن أبي هريرة -رضي اللَّه عنه- أن رجلًا قال للنبي - ﷺ : أوصني . قال : « **لا تغضب** » . فردد مرارًا قال : « **لا تغضب** » . أي كرر بقوله : أوصني . قال : « **لا تغضب** » ، ثم قال : أوصني . قال : « **لا تغضب** » . ولعله عرف أن هذا الرجل شديد الغضب أو أنه دائم الغضب أو سريعه فنهاه عن الشيء الذي هو متلبس به أو الذي عليه منه خطر ويحدث منه كثيرًا ، وهكذا كانت وصاياه - ﷺ- يوصي كلًا بما يناسبه ويذكر في كل حالة ما يناسب الحاضرين فيوصي - مثلًا- هذا بقوله : « **اتق اللَّه حيثما شئت** » . وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . كما سيأتي ويوصي أحيانًا بقوله : « **أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة** » . كما سيأتي وهكذا .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب : باب ما يجوز من الغضب ... (٦١١٦) (١٠/ ٥٣٥ – فتح) من طريق أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – به .

وفي الباب : عن أبن عمرو ، وجارية بن قدامة ، وابن عمر الأحنف ، وأبي سعيد ، وسليمان بن صرد – رضي الله عنهم– ، وسيأتي – إن شاء الله – بعضها .

فهذا الرجل اقتصر على وصيته بترك الغضب وهذه الوصية تعتبر وصية له ووصية لغيره وهو النهي عن الغضب وقد يقال : إن الغضب أمر ضروري أو اضطراري ليس باختيار فكيف يُنهى عنه وهو لا يملك نفسه كيف يقال له : لا تغضب مع أنه ليس ترك الغضب في ملكيته ولا في قدرته بل قد يأتيه الغضب قهرًا عليه ؟ !

والجواب : أن نقول : إن عليه أن يبتعد عن الأسباب التي توقعه في الغضب ، حتى لا يقع في شيء يوصله إلى أن يغضب .

فُسر الغضب بأنه غليان دم القلب لطلب الانتقام وأنه شيء يعتري الإنسان بسبب كبير أو بسبب حقير والناس يختلفون فيه فمن الناس من يكون حليمًا يرزقه اللَّه تعالى حلمًا وسعة بال ولا يغضب ولو سبه من سبه ولو عابه من عابه ولو قدحوا فيه ولو تكلموا فيه وتنقصوه لا يغضب بل يحلم ويصفح ، وهذا هو الذي يُطلب من المسلم أنه لا يغضب إلا لغضب اللَّه لا يغضب لنفسه ولا يغضب لأجل أن أحدًا سبه أو شتمه أو نحو ذلك بل عليه إذا سابه أحد أن يمدحه وأن يثني عليه وأن يرفع من مقداره ، فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت : ٣٤] أي : ادفع السيئة بالتي هي أحسن حتى يكون هؤلاء الذين بينك وبينهم عداوة أصدقاء وأولياء ، فتنقلب تلك السيئة أو تلك البغضاء إلى محبة وإحسان -هكذا وصيته ﷺ- بقوله : « **لا تغضب** » . أنه أراد أنك إذا سبك أحد أن تحلم عنه وأن تمدحه وأن تُثني عليه ، وإذا منعك أن تعطيه فتعطي من حرمك وتعفو عن من ظلمك وتحسن إلى من أساء إليك وتمدح من ذمك وقدح فيك ، وتوالي من عاداك وتحرص عليه حتى لا يكون بينك وبين مسلم شيء من البغضاء ، وهكذا يفعل أهل الحلم الذين يحلمون ولا يغضبون .

وقد ورد في بعض الأحاديث : « أن الغضب جمرة في قلب الإنسان » . ثم

يقول: «**ألا ترون إلى احمرار وجهه واحمرار وجنتيه**»[(١)].

فكأنه من آثار هذه الحرارة يكون الغضب والتأثر في وجهه.

ووقع في مجلس فيه النبي - ﷺ- أن رجلين استبا فغضب أحدهما واحمر وجهه حتى كاد أن يتمزق من شدة الغضب، فقال النبي - ﷺ-: «**إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد**»[(٢)]. ولكن الرجل لم يقلها.

فأفادنا هذا أن الغضب من الشيطان وأن الشيطان إذا استعيذ منه طفئ أثره وزال تسببه لهذا الإنسان الذي وقع في هذه الشدة وفي هذه الحالة السيئة.

وورد -أيضًا- في حديث: «**إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»[(٣)]. فجعل وضوءه سببًا

---

(١) صحيح: أخرجه مطولًا الترمذي في «سننه» كتاب الفتن: باب ما أخبر النبي - ﷺ - أصحابه بما هو كائن.... (٢١٩١) (٤/٤٨٣-٤٨٤)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٩، ٦١)، والطيالسي في «مسنده» (٢٠١٦) (ص٢٨٦)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٨١٤) (ص٢٧٣)، والحميدي في «مسنده» (٧٥٢) (٢/٣٣١)، وأبو يعلي في «مسنده» (١١٠١) (٢/٣٥٢) - كلهم - من طريق علي بن زيد بن جدعان.

قال الحافظ عنه في «التقريب»: «ضعيف» وليس ما رواه يكون ضعيفًا.

وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» وتصحيح الترمذي أقوى وأولى.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب بدء الخلق: باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٨٢) (٦/٣٨٨ - فتح)، وفي «الأدب المفرد» (٤٣٤) (ص١٥٥)، (١٣١٩) (ص ٤٤٦، ٤٤٧) - اللفظ له-، ومسلم في «صحيحه» كتاب الأدب والبر والصلة: باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (١٠٩، ١١٠) (٤/٢٠١٥) - كلاهما - من طرق عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن سليمان بن صرد به - رضي الله عنه-.

(٣) ضعيف: أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣٣) (٧/٨)، وأبو داود في «سننه» كتاب الأدب: باب ما يقال عند الغضب (٤٧٨٤) (٤/٢٥٠)، وأحمد في «مسنده» (٤/٢٢٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٢٦٧) (٢/٤٦٤)، (١٤٣١) (٣/١١٠)، وابن حبان في=

لسكون الغضب أو لسكون حدته وحرارته فيكون هذا من الأسباب التي ينطفئ بها الغضب- يعني : أن يتوضأ كوضوئه للصلاة أو يغتسل حتى تذهب حرارة الشيطان الذي قد لابسه .

وهكذا -أيضًا- ورد في بعض الأحاديث : **« إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن لم يذهب عنه الغضب فليضجع »**(1) أشار بذلك ليكون المسلم بعيدًا عن التأثير بهذا الغضب فكأن الغضب يحمله على أن يندفع إلى ذلك الذي سبه أو شتمه فإذا قعد فقد أمسك نفسه ، فإذا لم يخف عنه اضطجع حتى يوهم نفسه أنه ابتعد عن تأثير الشيطان .

والناس يختلفون في هذا الغضب اختلافًا كثيرًا حتى ورد حديث في وصل الناس بالنسبة إلى الغضب تقسيمهم إلى أربعة أقسام :

الأول منهم : « سريع الغضب سريع الفيئة فهذه بهذه » .

والثاني : « بطيء الغضب بطئ الفيئة فهذه بهذه » .

= « المجروحين » (٥٥٤) (٢/٢٤) ، والطبراني في « الكبير » (٤٤٣) (١٧/١٦٧) ، والمزي في « تهذيب الكمال » (٣٩١١) (٢٠/٣٢) ، وزاد في « الضعيفة » (٥٨٢) ابن عساكر (١٥/٢٣٧/٢) - كلهم - من طريق إبراهيم بن خالد عن أبي وائل قال : دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلمه رجل فأغضبه فقام فتوضأ ، فقال : حدثني أبي عن عطية فذكره .

وضعفه الألباني في « الضعيفة » وقال : « فيه مجهولان » .

(1) صحيح : أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الأدب : باب ما يقال عند الغضب (٤٧٨٢) (٤/٢٥٠) ، وأحمد في « مسنده » (٥/١٥٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٦٨٨) (١٢/٥٠١) كلهم أخرجوه من طريق أبي معاوية عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود - وزاد أحمد عن أبي الأسود - عن أبي ذر - رضي الله عنه - به .

وقال الهيثمي في « المجمع » (٨/٧١٩) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » . اهـ .

وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » والأرناؤوط في « هامش ابن حبان » .

رواه أبو داود في « سننه » (٤٧٨٣) مرسلًا وقال : « وهذا أصح الحديثين » - يعني المرسل .

« وخيرهم من هو بطيء الغضب سريع الفيئة ، وشرهم من هو سريع الغضب بطيء الفيئة » .

« الفيئة » : هي رجوعه عن الغضب .

فالذي يكون **« سريع الغضب »** هو الذي يتأثر بأدنى فعل أو كلمة يسمعها من أخيه ، أو من صاحبه ، أو من صديقه ؛ فيغضب لأجل ذلك ويشتد غضبه ولكنه إذا كان **« سريع الفيئة »** . يعني : يرضى سريعًا فإن **« هذه بهذه »** . يعني : سرعة رجوعه تقابل سرعة غضبه .

وأما الذي **« بطيئ الغضب »** . يعني : لا يغضب بسرعة بل لا يغضب إلا بعد شدة وبعد أن يرى سوءًا كثيرًا من أخيه ونحو ذلك فهذا -أيضًا- إذا كان **« بطيء الفيئة فهذه بهذه »** .

أما إذا كان **« بطيئ الغضب سريع الفيئة »** . فهذا هو الأحسن وهو كونه لا يغضب إلا بعد جهد وإذا غضب يرضى بسرعة- هذا الذي مدحه النبي - ﷺ- بقوله : **« ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »**(١) .

الشديد عند الناس : هو الذي يكون قوي البدن والبنية بحيث أنه يصرع من صارعه ، فهو شديد تركيب البدن .

وأما الشديد الحقيقي : فهو الذي يملك نفسه إذا غضب فلا يندفع إلى ما يندفع إليه غضبه لا يمد يده ولا لسانه ولا عينه ولا يتمادى في غضبه بل يتمالك نفسه ويرجع ويفيء ويستغفر ربه ويرجع إلى اللَّه تعالى ، فهذه حال

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب : باب الحذر من الغضب (٦١١٤) (١٠/٥٣٥ - فتح) ، وفي « الأدب المفرد » (١٣١٧) (ص٤٤٦) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة والأدب : باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ... (١٠٧، ١٠٨) (٤/ ٢٠١٤، ٢٠١٥) ، - كلاهما - من طرق عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

الذين إذا غضبوا هم يغفرون فقد مدحهم اللَّه تعالى بقوله : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] .

روى البخاري عن الحر بن قيس وكان من جلساء عمر -رضي اللَّه عنه- : قدم عُيينة بن حصن وكان أميرًا من أمراء العرب فقال للحر الذي هو ابن أخيه : لك وجه يا ابن أخي عند هذا الأمير -يعني عمر- فاستأذن لي عليه فلما دخل على عمر -رضي اللَّه عنه- وكان في نظره أنه قائد من القواد وأمير من الأمراء وله مكانة مرموقة وادعى أن عمر احتقره وأنه ما أنصفه فقال : هي يا ابن الخطاب فواللَّه ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل(١) - كلمة جافية من أعرابي جاف يسب أمير المؤمنين ويرميه بالحيف ويرميه بالجور وبعد العدل ، وأمير المؤمنين -رضي اللَّه عنه- لم يكن بهذا الوصف بل كان يعدل حتى أنه يحرص على إيصال كل خير إلى أبناء المسلمين وأفراد المسلمين في كل البلاد ، ومع ذلك يسبه هذا الأعرابي الجافي بهذه المسبة . فغضب عمر لما سبه بهذا ولكن قرأ عليه الحر بن قيس -رضي اللَّه عنه- آية في سورة الأعراف هي قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي : اعف والتزم العفو ، أمر من اللَّه تعالى لنبيه .

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ هذا الأمر من اللَّه تعالى لنبيه ليس خاصًا به بل لكل فرد من أفراد الأمة أن يقال له : ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ اعف واصفح وتجاوز ولا تمد يديك ولا تغضب .

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ مثل هذا الأعرابي الذي يسب خليفة نصبه اللَّه على المؤمنين ويتنقصه .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب التفسير : باب خذ العفو وأمر بالمعروف ... (٤٦٤٢) (٨/ ١٥٥ - فتح) من طريق عبيد الله بن عتبة بن ابن عباس - رضي الله عنهم - به .

فعمر -رضي اللَّه عنه- عفا عن ذلك الأعرابي وكان مستحقًا أن يرمي به في السجن أو أن يقتل أو أن يعاقب حيث أنه يتنقص أمير المؤمنين الذي هو غاية في العدل بهذا التنقص .

فانظر إلى هذا الحلم وإلى التقيد بكتاب اللَّه تعالى ، فهذا أثر من آثار من وصفهم اللَّه تعالى بالحلم وبعدم التسرع في الغضب .

فعرف بذلك أنه - ﷺ- ما نهى عن الغضب إلا وأن له آثارًا سيئة ، أوصى هذا الرجل بقوله : « **لا تغضب** » . وذلك لأن الإنسان قد يغضب فيسب نفسه ويغضب فيضرب نفسه أو يضرب ولده أو يضرب امرأته ومما يحدث كثيرًا أن يغضب غضبًا شديدًا فيوقع الطلاق ويقول : إني طلقت امرأتي وأنا غضبان . ما الذي حملك على هذا الغضب ؟ ألا تكون حليمًا ، ألا تكون سريع الفيئة إذا سبتك زوجتك -مثلًا- أو ولدك أو أحد من أحبابك فلا تتأثر بهذا السب بل اعف واصفح وتجاوز عن ذلك السباب واعف عن من أساء إليك أو أخطأ إليك واعلم أن الإنسان لا يزيده هذا العفو وهذا الصفح إلا رفعة يرفعه اللَّه تعالى ويعرف الناس فضله إذا رأوا أنه يعفو عن من ظلمه ويعفو عن من سبه ولا يتجاوز الحد الذي حُد له ، فإذا غضبت على قريب لك أو زوجة أو ولد فلا يحملك هذا الغضب على أن تتمادى فتتلفظ بألفاظ تأسف عليها وتشتم نفسك وتشتم ولدك وتشتم امرأتك وتطلق أو تفسد شيئًا من مالك أو نحو ذلك أو تحرم عليك حلالًا ، كل هذا يحصل من الذين يتسرعون في هذا الأمر ويغضبون بأدنى كلمة وما كان المسلم سريع الغضب بل يعفو ويصفح ويكون حليمًا كما وُصف بذلك أهل الحلم ، فالحلم ما كان في شيء إلا زانه وما رفع عن شيء إلا شانه .

❁ ❁ ❁

الحديث السابع عشر
الأمر بإحسان الذبح والقتل

عن أبي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - رضي اللهُ عنه - ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « **إنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسانَ على كلِّ شَيءٍ ، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، ولْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ** » .رَواهُ مُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

قوله - ﷺ- : « **إن اللّٰه كتب الإحسان على كل شيء** » .

« **الإحسان** »: مشتق من الحسن وهو ضد القبح فالأشياء التي تراها إما أن تحكم عليها بالحسن أو بالقبح إما أن تقول : هذا حسن أو هذا قبيح .

ولا شك أن الحسن محبوب وأن القبيح مكروه فكل شيء مستحسن فالنفوس تحبه وتألفه وتقرب منه وكل شيء مستقبح فالنفوس تنفر منه وتبغضه وتكرهه وتكره قُربه أو التخلق به .

يكون الإحسان في الأشكال وفي الأفعال يكون الحسن في هذا وفي هذا .

فأما الحسن الذي هو خلقه وجبلة- يعني : خلق ظاهر فهذا ليس للإنسان تصرف فيه وليس له فيه حيلة ، وإن كان يحب هذا ويكره هذا ويقول : هذا حسن الخلقة وهذا قبيح الخلقة . ولكن إنما يملك التخلق بالأخلاق الحسنة وكان من

---

(١)أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الصيد : باب الأمر بإحسان الذبح ... (٥٧) (٣/١٥٤٨-١٥٤٩) ، من طريق أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن شداد بن أوس - رضي الله عنه - به .

دعاء النبي - ﷺ - : « **اللهم كما حسنت خَلقي فحسن خُلقي** »[١] .

تحسين الخلق هو الصورة الظاهرة فإن صورة الإنسان إذا كانت حسنة جميلة وكان جميلًا في صورته فهو مما يجلب الطمأنينة إليه والأنس به فإن النفوس ترغب فيه وتحبه وتنظر إليه نظر إعجاب ، وإن كان هذا عامًا في خلق الله تعالى فخلقه كلهم خلق حسن كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤]- يعني : في أحسن قامة ، وكما في قوله : ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار : ٧، ٨] .

ولا شك أن الناس يتفاوتون فمنهم من يكون كامل الحسن ومنهم من هو متوسط الحسن ومنهم من هو ناقص الحسن وهذا من الله تعالى .

وأما الأخلاق فإنها مما يكتسبه الإنسان ويقدره الله عليه فيكون هذا حسن الخلق وهذا سيئ الخلق أو قبيح الأخلاق فيمدح حسن الخلق ويقال : ما أحسن أخلاقه تجده -مثلًا- لين الجانب وسهل العبارة سهل الكلام ومنطلق الوجه لينًا

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد في « مسنده » (٦/١٥٥) من طريق إسرائيل عن عاصم بن سليمان عن عبد الله بن الحارث عن عائشة - رضي الله عنها - به ، (٦/٦٨) وزاد عن عبد الله بن الحارث عن عائشة بنت طلحة عن عائشة - رضي الله عنها - به .

قال في « المجمع » (١٠/١٧٣) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح »ا . هـ .

وله شاهد من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أخرجه أحمد في « مسنده » (١/٤٠٣) ، والطيالسي في « مسنده » (٣٧٤) (ص٤٩) ، وابن سعد في « الطبقات » (١/٣٧٧) ، وأبو يعلي في « مسنده » (٥٠٧٥) (٩/٩) ، (٥١٨١) (٩/١١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٩٥٩) (٣/ ٢٣٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٧٢) (٢/٣٣٤) (١٤٧٣) (٢/٣٣٥) - كلهم - من طريق عوسجة بن الرماح عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن مسعود - رضي الله عنهم - به .

قال في « المجمع » (١٠/١٧٣) : « رواه أحمد وأبو يعلي فقال : « فحسن خلقي » ورجالهما رجال الصحيح ، غير عوسجة بن الرماح ، وهو ثقة .

وأما ما ورد عن تقييد هذا الدعاء بالنظر في المرآة فلا يصح ، وانظر « الإرواء » (٧٤) (١/١١٥) .

بشوشًا وكذلك -أيضًا- تجده في خصاله كلها يحب أن يحظى بكل خير ويفعل الخصال الخيرة فهذا قد جبل على محاسن الأعمال ومحاسن الأخلاق .

وقد ذكر العلماء كثيرًا من الآداب التي تُسمى محاسن أخلاق ولكن هذا الحديث يقول : « **إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء** » . يراد به : فيما يظهر الإحصان المتعدي بخلاف الإحسان اللازم الذي هو تحسين الأعمال والتخلق بالأخلاق الحسنة فإن أدلته غير هذا الحديث فعليه أدلة كثيرة .

فالإحسان المتعدي : هو إيصال الخير إلى المسلمين وإيصال النفع إليهم سواء في دينهم أو في دنياهم وكذلك الرفق بهم وحسن معاملتهم كل ذلك داخل في الإحسان الذي كتبه اللَّه .

« **إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء** » . أي : فرضه كما في قوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة : ١٨٣] أي : فرضه .

فنقول : إن الإحسان المتعدي هو الإحسان إلى الناس في دينهم والإحسان إليهم في دنياهم فإذا نصحت مسلمًا رأيته مخلًا بواجب أو بأمر يخل بدينه فقد أحسنت إليه وكان عليه أن يشكرك ويقول لك : أحسنت أحسن اللَّه إليك في نصيحتك . وإذا رأيته يتكاسل عن عبادة من العبادات فنصحته فهذا من الإحسان وإذا رأيته يقترف ذنبًا من الذنوب رأيته -مثلًا- يلوك لسانه باستهزاء وسخرية أو يمد عينيه إلى ما لا يحل له النظر إليه فأرشدته فقد أحسنت إليه إحسانًا كبيرًا وقد دللته على خير ولا شك أن هذا من الإحسان المتعدي .

والناس -أيضًا- قد يظنون أن الإحسان فقط هو إيصال المال إليه ، وهذا نوع من الإحسان ، فإنك إذا رأيته فقيرًا فأقرضته فإنه يشكرك ويقول : أحسنت ، أو رأيته مسكينًا أو محتاجًا فتصدقت عليه أو وصلته أو رأيته منقطعًا فأركبته أو رأيته في حاجة شديدة فيسرت له حاجته وشفعت له أو دللته على الوجه الذي يتخلص به من مأزمة

أو من ضرر وقع فيه فإن هذا -أيضًا- لا شك أنه من خصال الخير وأنك بذلك تكون قد أحسنت إليه إحسانًا ظاهرًا يتأثر به ويعرف بذلك فضلك عليه وهكذا يقال في سائر خصال الإحسان أنها مما كتبه اللَّه .

« **إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء** » . يعني : على كل شخص في أي عمل أن يعمله . وهكذا -أيضًا- على الإنسان أن يحسن فيما أؤتمن عليه من الأمانات ، فإنه إذا فعل ذلك فهو من المحسنين الذين يحبهم اللَّه تعالى كما في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

ومعلوم أن الإنسان يؤتمن على صنعته فعليه أن يحسنها ويتقنها كخياطة -مثلًا- أو تغسيل أو بناء بيت أو إصلاحه أو هندسة أو تركيب شيء أو أي عمل من الأعمال اليدوية التي يحتاج إليها إنسان فيأتي إلى صاحبها الذي هو مختص بهذه الصنعة فيقول : اعمل لي هذا العمل وأنت مؤتمن عليه . فيجب عليه أن يحسن هذا العمل وأن يؤديه كما ينبغي وألا يخون فيه ، فإذا أداه كما ينبغي- مع أنه يأخذ عليه أجرًا- اعتبر من المحسنين ولو كان عمله بأجر ولكن يعرف أنه يفعل ذلك أداءً للأمانة حيث إنه لا يراه فيه إلا اللَّه تعالى يقدر على أن يخون فيه وأن ينقص منه وأن يأخذ منه شيئًا يختص به لنفسه ولكن أمانته وديانته تحمله على أن يؤديه كما ينبغي وأنه يصنع هذه الصنعة ويعمل هذه الحرفة ويؤديها خوفًا من اللَّه الذي هو رقيب على العباد ، فمثل هذا يعتبر من الإحسان ولو كان يتقاضى عليه أجرًا أو أجرة .

وهكذا -أيضًا- من الإحسان دفع الضرر عن الحيوانات وترك الأفعال التي فيها نوع من الضرر ولذلك ضرب النبي - ﷺ- مثلًا بقوله : « **فإذا قتلتم فأحسنوا**

القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

فجعل هذا من الإحسان .

« فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » . والقتل هنا قد يراد به قتل من يكون مستحقًا للقتل ولو كان كافرًا ولو كان قتل قصاصًا أو نحو ذلك ، فإنه يحسن قتله ولا يعذبه أو يؤذيه أذى شديدًا بل يقتله قتلًا مريحًا ليس فيه أذى **« فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة »** .

وهذه مسألة فيها خلاف فقد ذهب بعض العلماء إلى أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به- يعني : من قتل إنسانًا بسكين قتل بمثلها ومن قتل إنسانًا برصاص رمي برصاص ومن قتل بحجر قتل بحجارة أو ما أشبهها واستدلوا أن يهوديًا رض رأس جارية من الأنصار بين حجرين[1] ، فأمر النبي - ﷺ- فرض رأسه بين حجرين ، وجعل هذا هو القصاص .

وما روي أن ناسًا من عكل وعرينة قتلوا راعي النبي - ﷺ- ومثلوا به ، فأمر بهم فمُثل بهم وعزروا وعذبوا[2] وجعل ذلك من باب القصاص .

واستدلوا -أيضًا- بقوله تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى : ٤٠]

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الديات : باب سؤال القاتل حتى يقر ... (٦٨٧٦) (١٢/ ٢٠٦) وفي الوصايا والديات ، ومسلم في « صحيحه » كتاب القسامة : باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره ... (١٧) (١٣٠٠/٣) كلاهما - من طرق عن أنس - رضي الله عنه - به .

(٢) يشير إلى حديث أنس - رضي الله عنه - الذي أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الطب : باب الدواء بأبوال الإبل (٥٦٨٦) (١٤٩/١٠) ، وفي المغازي والجهاد ....، ومسلم في « صحيحه » كتاب القسامة : باب حكم المحاربين المرتدين بعد (١٣) (١٢٩٨/٣) ، - كلاهما - من طرق عن أنس - رضي الله عنه - بلفظ : إن ناسًا من عُرينة اجتووا المدينة ، فرخص لهم رسول الله - ﷺ - أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها فقتلوا الراعي ، واستاقوا الذود ، فأرسل رسول الله - ﷺ - فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمّل أعينهم بالحرة يعضون الحجارة .

وبقوله : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل : ١٢٦] وأشباه ذلك من الأدلة .

ولكن اللَّه تعالى جعل ذلك مباحًا وحث على الإحسان فقوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ عقبه بقوله : ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل : ١٢٦] وختم السورة بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وكذلك قوله : ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أعقبه بقوله : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] فجعل هذا علامة على الخير .

فعلى هذا يكون إحسان القتل في قوله : « **فأحسنوا القتلة** » . يعني : اقتلوه قتلة مريحة ، وإن كانت بمثل ما قتل به فلا تقتلوه بأشد منها- يعني : من قتل بحجر يقتل بحجر ومن قتل بسكين يقتل بسكين مخافة أنهم قد يعذبونه ويضرون به ضررًا بينًا مثل ما إذا ظفر بعضهم بالمشرك وقد وجب عليه القتل فإنه في هذه الحال لا يقتلونه قتلًا حسنًا حتى يقطعوا منه -مثلًا- إصبعًا ، ثم يقطعوا إصبعًا ثانيًا ، ثم يقطعوا إصبعًا ثالثًا ، ثم يطعنوه طعنه خفيفة من هنا ، ثم عشر طعنات من هنا ، وعشر طعنات كلما تألم طعنوه طعنة أخرى ، وكلما سكن ألمه طعنوه أو -مثلًا- يقتلونه بالضرب بالعصا- يعني : يضربونه مع وجهه ومع بطنه وما أشبه ذلك ولو فعل المشركون -مثلًا- ذلك فإن المسلمين عليهم أن يحسنوا القتلة كما أمر اللَّه وكما أمر رسوله ﷺ اللَّه بمعنى : أنهم ولو أضروا بالمسلمين فلا يصل الضرر بهم إلى مثل هذه الحال .

« **فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة** » . ولو كان المقتول يستحق التعزير والتعذيب .

ثم يقول : « **وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة** » . الذبح هنا هو ذبح البهائم التي أباح اللَّه تعالى أكلها فإنه أباح أن تذبح ذبحًا شرعيًا وأن لا تعذب ، وما ذاك إلا أنها تتألم فكل ذي روح يحس بألم ويتألم من الضرب والطعن ويتألم من العذاب وما أشبه ذلك

حتى لو كانت البهائم غير مأكولة فلا يجوز تعذيبها ولا تعزيرها .

قد ثبت أنه - ﷺ- أخبر «**أن امرأة عُذبت في هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض**»(١). حتى ماتت جوعًا فعذبت بها في النار وجعلت الهرة تخمش ووجهها في النار ، لا شك أن هذا تعذيب شديد لكونها دابة ذات روح فإن حبسها وربطها مدة طويلة إلى أن تموت من الجوع من الجهد تعذيب شديد ومثل ذلك -أيضًا- لو ظفر إنسان بعدو من الأعداء وعذبه بالجوع فهذا - أيضًا- مخالفة للإحسان الذي أمر به النبي - ﷺ- سواء أريد قتله أو أريد استبقاؤه ، فلا يجوز تعذيبهم بالجوع ولا بالظمأ ولا يجوز أن يحبس هذا الإنسان ولو كان كافرًا ويبقى -مثلًا- يومين أو ثلاثة أيام أو أربعة أو أكثر أو أقل وهو لم يطعم ولم يشرب وهكذا -أيضًا- لا يجوز تعذيبه بشيء يتألم به فلا يحبس -مثلًا- في مكان شديد الحر ولا في برد شديد يتألم به سيما إذا كان عاريًا فإن هذا من التعذيب الذي نهى اللَّه تعالى عنه في الحيوان فكيف بالإنسان بل إذا قبض على إنسان مجرم فلا يعذب بنوع من التعاذيب التي يصل الأذى فيها إلى روحه ويتمنى الموت حتى إن كثيرًا من الذين يعذبون بأيدي أعدائهم كما يذكر ذلك عنهم كانوا يتمنون الموت للتخلص من ذلك العذاب ولا شك أن هذا مما يُنافي الإحسان .

فاللَّه تعالى كتب الإحسان على كل شيء حتى على البهائم فلا يجوز ترك الإحسان مع نوع الإنسان ولو كان كافرًا أو مجرمًا أو خائنًا أو قاتلًا أو نحو ذلك بل يسلك معه نوع من الإحسان وكذلك -أيضًا- ما ملكنا اللَّه تعالى من الدواب ذوات الأرواح يجب أن يحسن إليها صاحبها فلا يجوز أن يترك تعليفها أو يعلفها شيئًا

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب السلام : باب تحريم قتل الهرة (١٥٢) (٤/١٧٦٠) من طرق عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

وفي الباب : عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عند البخاري ومسلم وغيرهما .

يضرها بل عليه أن يطعمها ويسقيها ويحميها من الأضرار ولو كانت ملكه ولو قال - مثلًا- : إنها ملكي وإني أنا الذي أتضرر بفقدها أو بموتها . نقول : أنت تتضرر بموتها ولكن هي تتألم في حياتها فأنت المسؤول عنها فلا توصل إليها ألمًا تتأثر به ، ولو كنت أنت الذي تفقدها فما دامت حية فأحسن إليها ولا يجوز تعذيبها بأي من أنواع التعذيب أو الحمل عليها أكثر مما تطيقه ؛ لأنها لا تحمل إلا شيئًا محددًا ، فإذا حمل عليها أكثر تألمت واشتد ذلك عليها .

وكذلك من الإحسان إحسان الذبح ، فاللَّه تعالى أباح ذبحها لأجل أكل لحمها ولكن نهى عن تعذيبها عند الذبح فلذلك قال النبي - ﷺ- في الحديث : « **وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته** » .

« **والشفرة** » : هي السكين التي تذبح بها .

والعادة أن الدواب تذبح بهذه السكين في حلقها في أصل الرأس أو في أصل العنق كما في الإبل ونحوها ، فإذا كانت يباح ذبحها فلا يجوز تعزيرها عند الذبح فأمر بأن يحد السكين أي يسنها حتى تصير حادة بحيث أنها تقطع الجلد وتقطع اللحم بسرعة وتصل إلى العظم وتقطع العروق التي يخرج منها الدم حتى يكون ذلك أدعى إلى راحتها وعدم تعزيرها وعدم طول إحساسها بالألم ، فإنها إذا كانت السكين كالة وأخذ يحزها لا شك أن هذا الحز يؤلمها كما أنه يؤلم الإنسان ، فلو أريد -مثلًا- قطع يد سارق ونحوه فلابد أن تكون السكين حادة حتى تقطع اليد بسهولة ، أما إذا كانت السكين كالة وأخذوا يحزون اليد بهذه السكين الكافة فإنه يتألم تألمًا شديدًا ويطول ألمه بخلاف ما إذا كانت حادة فإنها تقطع اليد بسهولة وتغمس في زيت مغلي وهو ما يسمى بالحسم- أي : تحسم حتى يتوقف الدم ، كذلك الدابة عليه أن يحد شفرته وأن يريح ذبيحته فيذبحها بسرعة حتى تخرج روحها وحتى ترتاح ولا تتألم- هذا من الإحسان الذي أمر به النبي - ﷺ- .

فعلى المسلمين أن يعرفوا الإحسان فيما بينهم إذا كانوا مأمورين بالإحسان إلى البهائم والدواب عند ذبحها وعند غير ذبحها ، فكذلك الإحسان إلى نوع الإنسان حتى عند قتله إذا كان مستحقًا للقتل وعند غير قتله كتعزير أو تعذيب أو نحو ذلك يلتزم في ذلك الإحسان ، فاللَّه تعالى يحب الإحسان ويحب المحسنين .

❁ ❁ ❁

الحديث الثامن عشر
حسن الخُلُق

عن أبي ذَرٍّ جُنْدُب بِن جُنَادَة، وأبي عبد الرحمن مُعَاذ بِن جَبَلٍ - رضي اللهُ عنهما -، عن رسول اللّه ﷺ قال: **«اتق اللّه حيثما كنت، وأَتْبِعِ السَّيئةَ الحسنةَ تَمحُها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ»**. رَواه التِّرمِذيُّ وقالَ: **«حَديثٌ حَسَنٌ»**. وفي بَعْضِ النُّسَخِ: حسنٌ صحيحٌ(١).

شرح الحديث:

قال - ﷺ- في هذا الحديث: **«اتق اللّه حيثما كنت أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**. هذه ثلاث جمل كل جملة منها لها معنى وفائدتها متحدة ويظهر أن هذه وصايا من النبي - ﷺ- ولعله أوصى بها معاذًا عندما بعثه إلى اليمن داعيًا ومعلمًا فإنه دائمًا يُوصي أصحابه عند فراقه وعند سفرهم بوصايا عامة يوصيهم بما يكون فيه نفع لهم إذا عملوا به وحققوه ولا شك أن هذه وصية مفيدة اشتملت على ثلاث جمل:

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب البر والصلة: باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) (٣٥٥/٤) وقال: «حسن صحيح» وهو كما قال، والدارمي في «سننه» (٣٢٣/٢)، وأحمد في «مسنده» (١٥٣/٥، ١٥٨، ١٧٧، ٢٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٥٤/١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٥٢) - كلهم - من طريق سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر - رضي الله عنه - به.
والطبراني في «الصغير» (٥٣٠) (٣٢٠/١)، ومن طريق آخر عن حبيب في «الكبير» (٢٩٥، ٢٩٦) (١٤٤/٢٠)، (٢٩٧) (١٤٥/٢٠).

الجملة الأولى : قوله : « اتق الله حيثما كنت » :

وصية بتقوى الله تعالى وقد ثبت أنه - ﷺ- أوصى بها -أيضًا- في آخر حياته ، ويأتينا إن شاء الله حديث العرباض -رضي الله عنه- وفيه أنه - ﷺ- قال : « **أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة** » . لما قالوا : كأنها موعظة مودع فأوصنا ، فأوصاهم بتقوى الله وكذلك -أيضًا- هي وصية الله للأولين والآخرين قال الله تعالى في سورة النساء : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] لم يذكر إلا هذه الكلمة وصينا الذين من قبلكم وأوصيناكم -أيضًا- أن اتقوا الله ، ولما كان كذلك دل على عظم هذه الكلمة وهي اتق الله ، وذلك لأن التقوى كلمة جامعة تصلح أن تكون وصية بالطاعات ووصية بترك المحرمات وبفعل الحسنات وبترك الخطيئات وجميع السيئات ؛ وذلك لأنها مشتقة من الوقاية والتقوى مشتقة من التوقي كأنه أمر بتوقي عذاب الله وتوقي سخط الله- أي : اجعل بينك وبينه وقاية- يعني : حاجزًا منيعًا حتى تحصن نفسك منه فإذا قيل : اتق الله تعالى . فمعناه : اتق عذابه ، اتق سخطه ، اتق انتقامه اتق غضبه ؛ لأنه هو الذي يغضب إذ عُصي كما ورد في حديث قدسي أن الله يقول : « **إذا عُصيت غضبت وإذا غضبت لعنت** »(١). بمعنى أنك مأمور بأن تتوقى غضب الله .

كيف تتوقى غضبه كيف تتوقى عذابه ؟ يكون ذلك بالبعد عن الأسباب التي تغضب الرب عليك وبالبعد عن الأسباب التي تسبب دخولك في دار العذاب وهي النار ، وقد ورد -أيضًا- الأمر باتقاء النار فيقال -أيضًا- : اتق النار قال الله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] .

---

(١) كأنه من الإسرائيليات ، ولم أظفر به ، وأوله : إذا اطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية ، وتمامه : ولعنتي تبلغ السابع من الولد ...

« **اتقوا النار** » : يعني : توقوها اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

فأكثر ما ترد الكلمة مضافة إلى اللّه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

ويسمى الذين يعملون بالتقوى : المتقون ، وهي أول صفة وردت للمؤمنين في القرآن في قول اللّه تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] هذه أول صفة في القرآن بعد الفاتحة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصهم بأنه هدى لهم ، ولا شك أن في هذا حث على أن يكون العباد منهم ، ثم إنه فسرهم وكأنه أجمل الوصف بقوله : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فقيل من هم المتقون ؟ فقال : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] إلى آخر الصفات– يعني : أن من كان من المتقين فإنه يكون مؤمنًا بهذه الخصال ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخر الصفات فمن كان من المتقين ظهرت عليه هذه الصفات .

ولأجل ذلك حث العلماء دائمًا على الوصية بالتقوى ، دائمًا يوصي أحدهم أخاه يقول : اتق اللّه اتق عذاب اللّه اتق سخط اللّه اتق النار ، فالذين يقبلون ذلك يثيبهم اللّه ويعظم أجرهم ، والذين لا يقبلون ذلك يعاقبهم اللّه ، وقد ذكر اللّه صفة من يرد هذه الكلمة قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] فإذا قيل لك : اتق اللّه . فقل : أرجو أن يعينني اللّه على تقواه أرجو أن أكون من المتقين . ولا ترد وتقول : أنا منهم أنا من أهل التقوى . بل عليك أن تقبل ممن نصحك بالعمل بالتقوى وتقنع بذلك وترضى وتسلم .

ولا شك أن التقوى كلمة جامعة اشتقاقها كما قلنا من التوقي– ومعناها : ترك الذنوب صغيرها وكبيرها أورد ابن كثير عند تفسير قوله : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عن بعض الصحابة كعمر –رضي اللّه عنه– أنه سأل بعض الصحابة عن تفسير التقوى ؟

فضرب له مثلًا وقال : أما مشيت على أرض فيها شوك وفيها حجارة ؟ قال : بلى . فقال : فكيف فعلت ؟ فقال : أخذت حذري . أو كما قال . جعل هذا مثالًا للمتقين لو أن إنسانًا حافي القدمين أتي على أرض فيها شوك كثير وفيها حجارة محددة فماذا يفعل ؟ لا شك أنه يتوقى فلا يضع قدمه إلا على مكان يعرف أنه سليم ليس فيه شيء يضره فيتقوى الشوك والأذى ونحو ذلك ، نظم ذلك بعضهم فقال :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فهذا مثال للتقوى أن الذي يكون متقيًا هو الذي يترك الذنوب كلها صغيرة وكبيرها ، فلا يحتقر صغيرة ولا يصر عليها ولا كبيرة بل يبتعد عنها ، وبذلك يكون من أهل التقوى ، ومتى كان من أهل التقوى فإنه يحصل له الأجر الكبير ، فمن جزاء المتقين قول اللّه تعالى : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣] هكذا جعل اللّه تعالى هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فما أعظمه من ثواب ، كذلك -أيضًا- ذكر جزاءهم في قول اللّه تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] هكذا ذكر اللّه ثواب من اتقاه .

و« **المخرج** » : هو المخرج من الآفات والمخرج من الشرور والمخرج من الأزمات التي تقع عليه والمخرج من المخاوف والمحاذير يجعل له مخرجًا ويجعل له فرجًا كما من الدعاء المأثور : « **اللهم اجعل لي من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ومن كل بلاء عافية** » .

وإذًا الذي يريد أن يخرج من المأثم عليه أن يحقق التقوى وكذلك يقول اللّه تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق : ٥] هذا -

أيضًا- جزاء على التقوى ويذكر اللَّه تعالى أن أهل التقوى هم الذين ينتفعون بالآيات ، كثيرًا مما يذكر ذلك في القرآن يقول اللَّه تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٠] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٥٧] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة : ٢] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة : ٤] .

فإذا يأمر اللَّه تعالى في هذه الآيات بالتقوى ، ولا شك أن ذلك دليل على أهمية هذه الوصية .

« اتق اللَّه حيثما كنت » . يعني : اتق اللَّه في خلوتك وفي مجتمعك اتق اللَّه في نفسك اتق اللَّه في ولدك اتق اللَّه في أهلك اتق اللَّه في معاملاتك كلها عليك أن تكون من المتقين فيها .

كيف تتقي اللَّه في نفسك ؟

تظهرها من الأدناس وتطهرها من المعايب وتبتعد عن المحرمات وتبتعد عن الذنوب .

كيف تتقي اللَّه في مالك ؟

تطهره من الشبهات ، تطهره من الرشا ومن الربا ومن الغصوب ومن الحرام وما أشبه ذلك .

كيف تتقي اللَّه في أولادك ؟

تربيهم التربية الحسنة وتراقب اللَّه فيهم وتؤدي حقوقهم .

كيف تتقي اللَّه تعالى في إخوانك- أي من المسلمين عمومًا- ؟

تؤدي حقوقهم وتعمل معهم ما أمرت بأن تعمله من الحقوق الخاصة والعامة .

كيف تتقي اللَّه تعالى في سرك ؟ كيف تتقي اللَّه في نجواك ؟ كيف تتقي اللَّه في علانيتك ؟ كيف تتقي اللَّه في ركوبك وفي نزولك وفي سفرك وفي حضرك وفي مقيلك وفي نومك وفي يقظتك وفي كل حالاتك ؟

هذا داخل في قوله - ﷺ- : **« اتق اللَّه حيثما كنت »** . فهو عام في كل الحالات ؛ ذلك لأن الذي يتساهل في أمر اللَّه تعالى في حال دون حال لا يكون من المتقين مطلقًا بل يكون من الذين يتقون اللَّه في حال دون حال ، وإذًا فالمتقي لا شك أنه يعمل بالتقوى في كل حالاته وأنه يخشى اللَّه تعالى ويخافه أشد الخوف .

ولا شك -أيضًا- أن كلمة التقوى كلمة جامعة عامة مفيدة لمن اعتقدها ولمن عمل بها ويطول الكلام عليها وكذلك الكلام على أسبابها وفروعها وهي مشروحة في أماكن كثيرة فنكتفي بهذا .

أما قوله - ﷺ- : **« وأتبع السيئة الحسنة تمحها »** . فهي وصية ثانية مفيدة قال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود : ١١٤] .

ورد -أيضًا- أن اللَّه تعالى وكل بكل إنسان ملكين أحدهما يكتب الحسنات والثاني يكتب السيئات فإذا عمل العبد سيئة فإن الذي على اليسار لا يكتبها رجاء أن يأتي بحسنة تمحوها ، فإذا عمل الحسنة بأن استغفر اللَّه أو سبحه أو كبره أو هلله أو دعاه أو ذكره بقلبه أو بلسانه ، محيت تلك السيئة فلم يكتبها ملك السيئات ، أما إذا عمل بعدها سيئة وسيئة وسيئات فإنها تكتب في سجل سيئاته(١) ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أوصى من عمل سيئة بأن يعمل بعدها حسنة حتى تمحى تلك السيئة ، وقد أخبر اللَّه تعالى بأن اللَّه تعالى يُقدر على الإنسان ما يقع فيه من المعاصي

---

(١) ودليله ما أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧٧٦٥) (١٨٥/٨) ، (٧٧٨٧) (١٩١/٨) (٧٩٧١) (٢٤٧/٨) ، وفي « مسند الشاميين » (٤٦٨) (٢٦٩/١) (٥٢٦) (٣٠١/١) ، (١٢٢٨) (٢/ ٢٢٣) من طرق عن القاسم عن أبي أمامه مرفوعًا : « صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل العبد حسنة أثبتها ، وإذا عمل سيئة قال له صاحب اليمين : امكث ست ساعات فإن استغفر لم يثبت عليه وإلا أثبت عليه السيئة » .

وأشار الألباني في « صحيح الجامع » إلى حُسن إسناده .

ولكن عليه أن يفعل الأسباب .

وتطلق السيئة على الخطايا فهي تسمى سيئات وتطلق -أيضًا- على المصائب تسمى سيئات قال تعالى : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩] قد يقال : إن السيئة هنا هي المصيبة : وقد يقال : إن السيئة هي الذنوب .

« السيئات » : أي : ما وقعت فيه من السيئات فإنها من نفسك فهي التي جذبتك وأوقعتك في هذه السيئات فواجبك أن تندم وأن تتوب وأن تستغفر بعدها وأن تعمل أعمالًا صالحة تكون ماحية لتلك السيئات .

ومن الحسنات التي تمحو السيئات : الأذكار والأعمال الصالحة .

وقد وردت أدلة كثيرة تبين أن للسيئات مكفرات فمن ذلك : الصلوات الخمس يقول - ﷺ - : **« أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ »** قالوا : لا يبقى من درنه شيء . فقال : **« فذلك الصلوات الخمس يمحو اللَّه بهن الخطايا »**(١) .

معلوم أن الصلوات حسنات فإذا حافظ العبد على هذه الصلوات فإن اللَّه تعالى يمحو ما عليه من السيئات .

ومعلوم أن الإنسان يكتسب سيئات في مجالسه يكتسب سيئات بلسانه يكتسب سيئات ببصره يكتسب سيئات بسمعه يكتسب سيئات بقلبه يكتسبها بيده يكتسب برجله يكتسب بفرجه يكتسب بماله يقع في سيئة حتى ولو كان صامتًا ما

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الصلاة : باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨) (٢/١٤-١٥ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب المساجد : باب المشي إلى الصلاة يمحي ... (٢٨٣) (١/٤٦٢-٤٦٣) - كلاهما - من طريق يزيد بن عبد الله بن الهادي ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

دام أنه يحدث نفسه بأحاديث سيئة أو نحو ذلك، فإذا كان كذلك فإن عليه أن يحذر من الإصرار عليها بل كلما تذكر فإنه يستعيذ من الشيطان ويستغفر ربه قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠] وأخبر عن وصف عباده بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

«**إذا مسهم طائف من الشيطان**». وفي قراءة: (طيف من الشيطان) – يعني: وسوسة أو أن الشيطان أغواهم وأوقعهم في ذنب وفي مصيبة أو سيئة، فانتبهوا لأنفسهم وتذكروا وعرفوا أنهم قد وقعوا في خطيئة فعند ذلك يرجعون إلى ربهم ويتوبون من فورهم ولا يصرون على السيئة، فالذين يصرون على السيئات هم أهل العذاب –والعياذ بالله– ذمهم الله تعالى ومدح الذين لا يصرون في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إذا وقعوا في ذنب أية ذنب ولو كان صغيرًا تذكروا فإذا هم مبصرون ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم وتابوا إليه ورجعوا والله تعالى يحبهم ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات.

إذًا فعلى العبد كلما وقعت منه خطرة أو غفلة أن يتذكر وأن يتوب إلى الله تعالى وأن يستغفر ويقلع عن السيئة ويندم عليها أشد الندم حتى تزول عنه هذه السيئة ويزول عنه أثرها.

الوصية الثالثة: قوله: «وخالق الناس بخلق حسن»:

وهي وصية مفيدة وذلك لأن الإنسان لابد أن يكون مدنيًا كما يقال الإنسان مدني بالطبع لابد أنه يخالط الناس ولابد أنه يعامل ويجالس ويأنس ويتعامل ويصحب فتصحب هذا –مثلًا– في مجلس وتصحب هذا في وظيفة وتصحب هذا

في طريق وتصحب هذا في مركب وتصحب هذا في منزل وتصحب هذا في مجلس أو بمسجد أو في طريق من الطرق أو ما أشبه ذلك فإذًا عليك أن تستعمل حسن الخلق. حسن الخلق شيء هين وجه طليق وكلام لين.

« وخالق الناس بخلق حسن ». بأن تلقاهم ووجهك إليهم منبسط وتبتسم في وجوههم وتضحك لهم وتظهر لهم السرور، وتعاملهم بأحسن معاملة يتعامل بها إنسان مع أخيه، وتحب لهم الخير وتوصله إليهم بقدر ما تستطيع، وتصدقهم إذا حدثتهم وتصدقهم إذا وعدتهم وتفي بكلامك الذي قلته وتكون أمينًا موثوقًا عدلًا وتنصح لهم عندما يطلبون منك النصيحة وتشير عليهم عندما يستشيرونك ويطلبون منك مشاورة في أمر من الأمور تشير عليهم بما تعلمه لهم حسنًا وتدلهم على خير ما تعلمه لهم وتحذرهم من شر ما تعلمه لهم وتخالقهم بأحسن الأخلاق.

فحسن الخلق هو اللطافة واللين والمعاملة الطيبة وقد ورد في الحديث أنه - ﷺ- قال: **« كاد حسن الخلق أن يذهب بخيري الدنيا والآخرة »**[(١)]. - يعني: حسن الخلق الذي هو لين الجانب طلاقة الوجه والبعد عن ألفاظه وعن البشائة.

من كان حسن الخلق واستعمل محاسن الأعمال أحبه الناس وألفوه وقربوا منه ومدحوه وأوصلوا إليه الخير وأبعدوا عنه الشر.

وبذلك يعرف قدر هذه الوصية التي جمعت هذه الوصايا.

---

(١) منكر: أخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٥٠٥) (٣٤٧/٥)، وأبو الشيخ ابن حبان الأنصاري في « طبقات المحدثين بأصبهان » (٦٧٥) (٢٩١/٤) من طريق عبيد بن إسحاق عن سفيان - وعند ابن عدي: سيار بن هارون - عن حميد عن أنس عن أم حبيبة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله تكون المرأة منا يكون لها الزوجان في الدنيا فإذا ماتت فلأيهما تكون في الآخرة؟ قال: « تكون لأحسنهما خلقًا، ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة ».

وعبيد ابن إسحاق قال البخاري: « منكر الحديث »، وقال ابن عدي: « عامة ما يرويه إما أن يكون منكر الإسناد أو منكر المتن » ا. هـ.

الحديث التاسع عشر
احفظ اللَّه يحفظك

عن أبي العَبَّاس عَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ - رضي اللهُ عنهما - قال : كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا ، فقال : « **يا غُلامُ ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كلِماتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْك ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَك ، إذا سأَلْتَ فاسْأَلِ اللهَ ، وإذا اسْتَعنْتَ فاسْتَعِنْ باللهِ ، واعْلَمْ أنَّ الأُمَّة لَو اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وإن اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضُروكَ إلا بِشَيء قد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** » . رَواه التِّرمِذيُّ وقالَ : « حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ » . وفي روايةِ غَيْرِ التِّرمِذِيِّ : « **احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أمامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ ، واعْلَمْ أنَّ ما أخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَما أصابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ وَأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا** »(١) .

شرح الحديث :

في هذا الحديث عظم هذه الوصية من النبي - ﷺ- لابن عمه عبد الله بن عباس وهو في ذلك الوقت غلام يافع قريب من البلوغ ولكنه كان ذكيًا فاهمًا حريصا على العلم وحريصًا على الاستفادة .

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب صفة القيامة : باب ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (٢٥١٦) (٤/٦٦٧) ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد في « مسنده » (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٦٣٦) (ص٢١٤) ، وابن الجعد في « مسنده » (٣٤٤٥) =

أولًا : « احفظ اللَّه يحفظك »

حفظ اللَّه تعالى هو حفظ أوامره وحفظ شرائعه وذلك بأداء ما أمر اللَّه به من العبادات والمحافظة عليها وكذلك بالابتعاد عن المحرمات وحفظ النفس عن الوقوع فيها .

« **احفظ اللَّه يحفظك ، احفظ اللَّه تجده أمامك- أو تجاهك-** » . أي : تجد اللَّه تعالى أمامك ويجازيك بأعمالك التي قدمتها في هذه الحياة الدنيا أو تجد ثواب حفظك أمامك في الآخرة .

« **إذا سألت فاسأل اللَّه ، وإذا استعنت فاستعن باللَّه** » . يقتضي هذا الحصر أي : لا تسأل غير اللَّه ولا تستعن بغيره .

« **السؤال** » : هو المطلب- أي : اطلب حاجتك من اللَّه وحده ولا تطلبها من غيره فإنه هو الذي بيده أزمة الأمور وهو الذي يسهل لك كل عسير وهو الذي يقرب إليك كل بعيد فاطلبه وهو الذي يعطيك ما تسأله .

وذُكر في ترجمة أحمد بن محمد بن قدامة قوله :

لا تجلسن بباب من يأبى عليك دخول داره
وتقول حاجاتي إليه يعوقها إن لم أداره

= (ص٤٩٤) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٥٥٦) (٤/٤٣٠) ، والطبراني في « الكبير » (١١٢٤٣) (١١/١٢٣) ، ومختصرًا (١١٤١٦) (١١/١٧٨) ، (١١٥٦٠) (١١/٢٢٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٤١، ٥٤٢) و سكت عنه ، وقال الذهبي : « عيسى بن محمد القرشي ليس بمعتمد » ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٤٥) (١/٤٣٤) كلهم من طرق عن ابن عباس - رضي الله عنهما- .

وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » .

وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري ، أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (١٠٩٩) ، وإسناده ضعيف جدًا ، وفيه نكارة .

واتـركـه واقـصـد ربـهـا تـقـضـى ورب الـدار كـاره

ويقول الشاعر :

لا تـسـألـن بُـنـي آدم حـاجـة وسـل الـذي أبـوابـه لا تُـحـجـب
الـرب يـغـضـب إن تـركـت سؤالـه وبُـنـي آدم حـيـن يُـسـأل يـغـضـب

سل اللَّه تعالى وحده فإنه هو الذي يُسهلها وييسرها لك .

« **وإذا استعنت فاستعن باللَّه** » . كما أمرنا اللَّه أن نستعين به في قوله : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] « إياك » : أي : بك وحدك نستعين ولا نستعين بسواك .

« **الاستعانة** » : هي طلب العون .

أي : طلب الاستعانة باللَّه تعالى ، فيطلب منه أن يساعده ويعينه على أموره ، إذا عجزت عن أمر من الأمور فاللَّه هو الذي يعنيك ويقويك ويمدك بقوة منه وحده دون غيره من المخلوقات فإذا استعنت به أعانك وإذا سألته أعطاك الذي تسأله .

لا شك أن هذا هو الإخلاص وهو حقيقة التوحيد ألا يستعين العبد إلا بربه في أموره وفي حاجاته وفي ضرورياته ، ويعلم أنه هو الذي يملك الأمور وهو الذي يُيسر كل عسير وهو الذي يعطي من سأله وهو الذي يُغني من استغنى به وهو الذي يجيب من سأله ويعطيه كما في الحديث الذي في نزول اللَّه تعالى في آخر كل ليلة أنه يقول : « **هل من داع فأستجيب له ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه** »[1] . يتودد إلى عباده وهو غني عنهم وهم إليه فقراء ،

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب التهجد : باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥) (٣/ ٣٥-٣٦ - فتح) ، وفي كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : « يريدون أن يبدلوا ... » (٧٤٩٤) (١٣/ ٤٧٣ - فتح) ، وفي مواضع أخرى ، وفي « الأدب المفرد » (٧٥٣) (ص٢٦٤) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب صلاة المسافر : باب الترغيب في الدعاء ... (١٦٨) (١/ ٥١١) ، (١٧٠) (١/ ٥٢٢) - كلاهما - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

فإذا أنزل العبد حاجته باللَّه تعالى واعتمد عليه وتوكل عليه ووثق به فإنه ييسر له اليسرى ويجنبه العسرى ويغنيه عن خلقه ويجعل حاجته منه إليه وييسر له من يقضي حاجته ومن يسهل عليه كل ما استصعب عليه.

أما من تعلق بالمخلوقين وأنزل بهم حاجاته فإن حاجاته لا تقضى ولو حصل ما حصل بل يكله اللَّه إلى غيره كما في قوله - ﷺ - : «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»(١). والتعلق هنا يعم تعلق القلب وتعلق البدن- أي: من علق قلبه بمخلوق وكله اللَّه تعالى إلى ذلك المخلوق فإذا توكل العبد على اللَّه تعالى أعطاه ما طلبه كما في قوله - ﷺ - : «**لو أنكم توكلون على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(٢).

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الطب: باب ما جاء في كراهية التعليق (٢٠٧٢) (٤/ ٤٠٣)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣١٠، ٣٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢١٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٥٧٦) (٥/ ٣٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣٥١) - كلهم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أخيه عيسى قال: دخلت على عبد الله بن عُكيم أبي معبد الجهني أعوده، وبه حُمره - وهو داء يعتري الناس فيحمر موضعها، وقيل ورم من جنس الطواعين - فقلنا: ألا تعلق شيئًا؟ قال: الموت أقرب من ذلك، قال النبي - ﷺ - : «من تعلق شيئًا وكل إليه».

وذكر له الألباني في «غاية المرام» (٢٩٧) شاهدًا مرسلًا عن الحسن البصري، وآخر من حديث عقبة بن عامر وحسنه بالشواهد.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الزهد: باب في التوكل على الله (٢٣٤٤) (٤/ ٥٧٣)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في «سننه» كتاب الزهد: باب التوكل واليقين (٤١٦٤) (٢/ ١٣٩٤)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٠، ٥٢)، والطيالسي في «مسنده» (٥١) (ص١١)، (١٣٩) (ص٢١)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٠) (ص٣٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٤٧) (١/ ٢١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠) (٢/ ٥٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١٨) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٤، ١٤٤٥) (٢/ ٣١٩) - كلهم - من طريق عبد الله بن هبيرة، عن تميم =

فأخبر بأن التوكل على اللَّه تعالى يسهل للعبد كل عسير ومع ذلك فإن العبد مأمور بأن يفعل الأسباب التي ييسر اللَّه بها مطلبه ولا ينافي هذا توكله ولا ينافي ذلك سؤاله فأنت إذا احتجت وسألت اللَّه تعالى وفعلت من الأسباب ما تقدر عليه قضى اللَّه حاجتك وسخر لك من يساعدك ومن يعينك على قضاء حاجتك التي ألمت بك وأعانك على قضائها ويسرها لك بعد أن تفعل من الأسباب ما تقدر عليه مع توكلك على اللَّه تعالى ومعرفتك بأنه هو الذي يسهل كل عسير، لذلك يذكر اللَّه تعالى عباده بفضله عليهم مثل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

معلوم أنهم هم الذين يبذرون وهم الذين يحرثون وهم الذين يسقون لكن اللَّه تعالى هو الذي ينبته إذا شاء ويميته إذا شاء ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥].

فإذا توكلوا على اللَّه تعالى وفعلوا ما أمروا به ووثقوا بأن اللَّه تعالى هو الذي يساعدهم ويعينهم أنجح اللَّه مسعاهم وأعطاهم متمناهم، وهذا معنى قوله: «**إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه**».

عرفنا أن السؤال هو الطلب وهو الدعاء وقد كثرت الأدلة في الأمر بدعاء اللَّه تعالى وحده كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

«**ادعوه**»: -يعني: اسألوه واطلبوا حاجتكم منه.

أما قوله: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا

= الجيشاني عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - به.
وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»، وجود إسناده الأرناؤوط في «هامش ابن حبان».

بشيء قد كتبه اللَّه لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك » . وفي رواية : « **لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعك اللَّه به لم ينفعوك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرك اللَّه به لم يضروك »** . أي : لا يقدرون على أن يخالفوا ما قدر اللَّه تعالى لكن اللَّه تعالى قد يسلط الأشرار على الأخيار قضاءً منه وقدرًا وإذا علم العبد أن ما يقع به من المصائب ومن المحن ومن الأذى الذي يأتي إليه من الخلق أنه من اللَّه وحده لا من المخلوقين أنفسهم ، وثق باللَّه ووثق بأمره وبعطائه وعلم بأنه لا يصيبه شيء إلا بأمر اللَّه وبقدره ، فرضي وسلم هكذا يعتقد أن ما أصابه فهو مكتوب عليه لو اجتمعت الأمة كلها على أن ينفعوك ويرفعوا مكانك ويعطوك شيئًا واللَّه لم يقدره لم يقدروا عليه وذلك لأنهم مخلوقون والمخلوقون يتصرف فيهم الخالق فإن كثيرًا من الناس ولو كانوا ملوكًا أعلامًا ولو كانوا أثرياء قد يحاولون أن يرفعوا مكانة فلان وأن يعطوه وأن يوصلوا إليه كل خير ولكن إذا لم يقدره اللَّه تعالى فإنه لا يكون وإن وصلوا إلى شيء فإنه مما كتبه اللَّه تعالى ومما قدره على العبد فإذا وصلوا -مثلًا- إلى أنهم رفعوا مكانة هذا أو أعطوه أو منحوه أو أغنوه أو نحو ذلك فإن هذا مما كتبه اللَّه تعالى على العبد ، وكذلك لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليه ولو اجتمعوا على أن يقتلوه واللَّه ما قدر ذلك لم يقدروا فكم حاول كثير من الأعداء قتل فلان ولكن أنجاه اللَّه تعالى منهم وكم حاولوا سلب ماله ولكن حيل بينه وبينهم وحفظه اللَّه تعالى وكم حاولوا ضربه -مثلًا- أو إيذاءه أو إيصال الشر إليه فحفظه اللَّه حيث لم يقدرهم اللَّه عليه وإذا قدر -مثلًا- أنهم وصلوا إليه أو أوصلوا إليه شيئًا من الأذى فإن ذلك الذي أوصلوه هو بإذن اللَّه تعالى وبقضائه وبقدره .

واللَّه تعالى يسلط من يشاء على من يشاء وكل ذلك مكتوب ومقدر ليس منه مهرب ولا مفر فيرضى بذلك العبد ويسلم وإذا أصابته مصيبة علم بأن اللَّه تعالى

كتبها وأنه لو حاول أن يتخلص منها وبذل كل وسيلة فلن يجد متخلصا منها ولهذا يقول في هذا الحديث : « **واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك** » فإذا أصابتك مصيبة فلا تقل : هذا بسبب فلان وهو الذي أضرني وهو الذي أذاني وهو الذي أوصل إليّ الشر . أو نحو ذلك بل قل : هذا قضاء اللَّه وهذا قدره ، قدر اللَّه وما شاء فعل . وكذلك -أيضًا- إذا أصابتك نعمة أو أصابك خير أو حصلت على ربح أو على تجارة أو مال أو منفعة أو نحو ذلك فلا تنسبها إلى المخلوق ولا تقل : هو الذي أوصلها إلى وهو الذي أعطاني بل تقول : هذا من اللَّه هذا فضله وهذا محض عطائه ومنته . وإذا كان لأحد سبب واعترفت به فإن ذلك من شكرك للمعروف « **من لم يشكر الناس لم يشكر اللَّه** »[1] . فنقول : من اللَّه ثم من فلان . أو : لولا اللَّه ثم فلان ما حصل لي كذا وكذا .

وبكل حال فإن هذا دليل على أن الإنسان ليس له مفر ولا مهرب مما قدره اللَّه عليه وكتبه بل كل ما قدره فإنه حاصل عليه ولهذا يقول في آخر الحديث الرواية الأولى : « **رُفعت الأقلام وجفت الصحف** » ، أي : طويت الصحف ويبست والذي كتب فيها لا يمكن أن يغير ولا يمكن أن يزاد فالمكتوب لابد أن يقع ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام : ٥٩] .

فكل شيء مكتوب والمكتوب لا يمكن أن يتغير رفعت الأقلام التي كتبت بها المقادير انتهت كتابة المقدرات والكائنات فرفعت الأقلام ويبست وجفت الصحف

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب البر والصلة : باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (١٩٥٥) (٤/٣٣٩) ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٣٢، ٧٣) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٨٩٤) (ص٢٨١) - كلهم - من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد - رضي الله عنه - به .
وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » .

التي كتبت فيها تلك المكتوبات على ما فيها من الكتابة ، يبس المداد الذي فيها ولا يمكن أن يتغير .

إذًا فهذا ونحوه هو ما قدره اللَّه تعالى على العبد فيرضى بذلك ويسلم .

يقول في الرواية الأخرى : « **واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا** » .

في بعض الروايات وفي هذه الرواية يقول : « **احفظ اللَّه تجده أمامك ، تعرف إلى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة** » .

« **تعرف إلى اللَّه في الرخاء** » . أي : في السعة .

ما دمت في سعة وفي صحة وفي رفاهية فتعرف إلى اللَّه حتى إذا وقعت في شدة عرفك ونجاك من تلك الشدة ومن ذلك الكرب الذي وقعت فيه فإن العبد إذا كان يدعو اللَّه في حالة الرخاء فإنه ينجيه في الشدائد ويزيل ما وقع فيه .

ويقول : « واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا » .

« **النصر** » : هو نصر اللَّه تعالى مع الصبر .

من صبر على ما أصابه وسأل اللَّه تعالى أن ينصره فإن اللَّه ينصر من استنصره ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد : ٧] .

فعلى الإنسان أن يتحمل ويصبر على ما أصابه وأن يستعين باللَّه تعالى ويسأله أن يعينه وأن ينصره على ما ناوءه وعلى من عاداه حتى ينصره اللَّه نصرًا مبينًا كما وعد اللَّه بذلك نبيه ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح : ٣] فهذا النصر مع الصبر والصبر فيه الخير كله .

يقول في الرواية الأخرى : « **واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا** » .

أي : في صبرك على المكاره والشدائد والمحن خير كثير فتحمل واصبر حتى يثيبك اللَّه تعالى ويأجرك ويعظم لك الأجر .

« **والصبر مع النصر** » : -أي : من صبر فإن اللَّه يظفره بعدوه وينصره عليه .

« **والفرج** » : هو إزالة الكروب وإزالة الشدائد .

« **الفرج مع الكرب** » :إذا اشتملت على اليأس القلوب ، أتاك على قنوت منك وروح ، يمن به القريب المستجيب ، فإذا اشتدت الأمور واحتدت الكروب وعظم الأمر وعظمت المصيبة ولكن العبد واثق باللَّه ومعتمد عليه ومتوكل عليه فهنالك ينظرك اللَّه ويزيل ما أنت فيه من الشدة فكلما اشتدت بك الكربات وصبرت واحتسبت على هذه الكروب فإن اللَّه تعالى يزيلها ويفرجها ويبدل بعد الكرب فرجًا ويجعل لك من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ومن كل بلاء عافية بهذا الشرط وهو : الصبر والاحتساب .

كان كثير من السلف يفرحون بالشدائد فإذا جاءت أحدهم شدة كأن اشتد به المرض أو اشتد به الفقر أو اشتد به الهم والغم أو اشتد به الأذى من الناس أو اشتدت به الغموم التي تتوارد عليه أو ضاقت به الحيل أو ضاق بما هو عليه أو كثرت عليه الغرامات والديون والمطالب ونحوها فإنه يفرح بذلك ويقول : هذا أوان الفرج . هذا حين يقرب الفرج ، لأن الفرج مع الكرب كلما اشتد الكرب جاء الفرج بعده وكلما اشتد العسر جاء اليسر بعده لقوله : ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح : ٦] .

ورد في بعض الأحاديث : « **لن يغلب عسر يسرين** »[(١)] . يفسر بذلك قول اللَّه

(١) قال الحافظ في « الفتح » (٨/٥٨٢-٥٨٣) تعليقًا على ما علقه البخاري بصيغة الجزم عن ابن عتبة : « ولن يغلب عسر يسرين » : « روى هذا مرفوعًا موصولاً ومرسلًا ، وروي - أيضًا - موقوفًا : أما المرفوع : فأخرجه ابن مردويه من حديث جابر بإسناد ضعيف : « أوحي إلي أن مع العسر يسرًا ، أن مع العسر يسرًا ، ولن يغلب عسر يسرين » ، وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق من حديث أبي مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ- : « لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر إن مع اليسر يسرًا » وإسناده ضعيف . وأخرجه عبد بن حميد عن ابن مسعود - رضي الله عنه - بإسناد جيد من طريق قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله - ﷺ - بشر أصحابه بهذه الآية =

تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] وذلك لأن العسر في الآية معرف بالألف واللام فهو مفرد وأما اليسر فإنه منكر فهو يسر بعده يسر فلا يغلب العسر هذين اليسرين بل اليسران غالبان.

اللَّه أخبر بأن مع العسر يسرًا وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فإذا صبر العباد على ذلك بدل اللَّه ما هم فيه من العسر كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

فيثق العبد بأن اللَّه سيجعل له من العسر الذي هو فيه يسرًا وسهولة يفرج بها ما هو فيه من الكرب ومن الهم.

هذا مما يدل على عظم هذا الحديث وكثرة فوائد.

❁ ❁ ❁

= فقال: «لن يغلب عسر يسرين إن شاء اللَّه».

أما الموقوف: فأخرجه: مالك عن زيد بن أسلم عن أبي عن عمر - رضي الله عنه - أنه كتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه يقول: مهما ينزل بامرئ من عسر يجعل الله له بعدها فرجًا، وأنه لن يغلب عسر يسرين». وقال الحاكم: صح عن عمر وعلي - رضي الله عنهما- وهو في الموطأ عن عمر - رضي الله عنه - من طريق منقطع، وأخرجه عبد بن حميد عن ابن مسعود - رضي الله عنهم- . بإسناد جيد، وأخرجه الفراء بإسناد ضعيف عن ابن عباس - رضي الله عنه- »اهـ.

الحديث العشرون

الحياء من الإيمان

عن أبي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بن عمرو الأَنْصَارِيّ البَدْرِيّ - رضي اللهُ عنه - قال: قالَ رسُولُ اللّه ﷺ: «**إِنَّ مما أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبوةِ الأولى: إِذا لمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ**». رواه البخاري(١).

شرح الحديث:

هذا الحديث من جوامع الكلم الذي أوتيها النبي - ﷺ- وقد حكاه -أيضًا- عن الأنبياء قبله وذكر -أيضًا- أنه بقى مستعملًا في القرون كلها التي بعد النبيين فالأصل أنه من كلام النبيين الأولين ثم بقى مستعملًا في أبناءهم وأتباع أتباعهم واشتهر وانتشر حتى استعمله غيرهم من العرب ومن العجم وصار مثلًا يضرب في كل حين وعند كل مناسبة ولا شك أن اشتهاره وإقرارهم به واعترافهم بأحقيته واستعمالهم له واستشهادهم به دليل على أنه صحيح وعلى أنه موافق للعقول والأفهام.

يقول فيه: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب أحاديث الأنبياء: باب حدثنا أبو اليمان... (٣٤٨٣، ٣٤٨٤) (٦/ ٥٩٤، ٥٩٥ - فتح) وانظر: (٦١٢٠)، وفي «الأدب المفرد: (٥٩٧) (ص٢٠٩)، (١٣١٦) (ص٤٤٥) من طريق منصور عن ربعي بن حراش عن أبي مسعود البدري - رضي الله عنه - به.

« **أدرك الناس** » .- يعني : أهل ذلك الزمان الذي بعث فيه النبي - ﷺ- أي : وصل إليهم نقلًا لم يتغير وهو من كلام النبيين الأوليين » .من كلام البنوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . هكذا ورد هذا الحديث « **إذا لم تستح فاصنع ما شئت** » .

« **الحياء** » . ذكروا في تعريفه أنه خلق أدبي يحمل على فعل ما يجمل ويزين وعلى ترك ما يدنس ويشين . وهو من الأخلاق التي يتحلى بها الإنسان ويتجمل بها فهو من الآداب ومن الأخلاق التي هي حلية وزينة ولا شك أن الخلق الحسن يجلب للإنسان محاسن ولا شك أن الحياء من أفضل الأخلاق الحسنة وقد ورد فيه أحاديث كثيرة فورد أن النبي - ﷺ- قال : في حديث شعب الإيمان « **الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان** »[(١)] .

« **الشعبة** » . البعض- يعني : بعض من الإيمان وشعبة من شعب الإيمان التي يتكون منها .

فيدل على أن من ترك الحياء نقص إيمانه ، وفي الحديث أنه - ﷺ- مر على رجل يعظ أخاه في الحياء فقال : « **دعه فإن الحياء من الإيمان** »[(٢)] . -هذا الرجل

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب أمور الإيمان (٩) (١/٦٧ - فتح) ، وفي « الأدب المفرد » (٥٩٨) (ص٢٠٩) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان عدد شعب من الإيمان ... (٥٧، ٥٨) (١/٦٣) - كلاهما - من طريق أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه به - .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب الحياء من الإيمان (٢٤) (١/٩٣ - فتح) وانظر : (٦١١٨) ، وفي « الأدب المفرد » (٦٠٢) (ص٢١١) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان عدد شعب الإيمان (٥٩) (١/٦٣) - كلاهما - من طريق الزهري عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - .

كان ينكر على أخيه اتصافه بالحياء فبين له أن الحياء من الإيمان وكذلك -أيضًا- أنه - ﷺ- قال: **« الحياء خير كله »**[(١)]. وفي حديث آخر: **« الحياء لا يأتي إلا بخير »**[(٢)].

الحياء الذي مُدح لا يأتي إلا بخير والآثار والأحاديث فيه كثيرة وقد ذكرنا أن بعضهم عرف الحياء بهذا الخلق الذي يحمل على كل ما يجمل ويزين وترك كل ما يدنس ويشين ومع ذلك فإنهم بينوا كيف يكون الحياء:

أولًا: الحياء من اللّه تعالى:

ورد أنه - ﷺ- قال لبعض أصحابه: **« استحي من اللّه تعالى كما تستحي من رجلين من صالح عشيرتك لا يفارقانك »**[(٣)]. الإنسان يستحي من أكابر قومه أن يفعل عندهم أفعالًا يزدرى بها ويحتقر فأمره بأن يستحي من اللّه كما يستحي من آبائه ومن أعمامه ومن أخواله ومن أكابر قومه.

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب: باب الحياء (٦١١٧) (١٠/٥٣٧ - ٥٣٨ - فتح)، وفي « الأدب المفرد » (١٣١٢) (ص٤٤٤)، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان: باب بيان عدد الإيمان... (٦٠، ٦١) (١/٦٤) - كلاهما - من طرق عن عمران - رضي الله عنه - به.

(٢) صحيح: يشير إلى رواية أبي السوار العدوي عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - مرفوعًا: « الحياء لا يأتي إلا بخير ». وقد تقدم تخريجه عند البخاري ومسلم وغيرهما في التعليق السابق.

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧٨٩٧) قال في « مجمع الزوائد » (٦/١٤٨): فيه على بن زيد - وهو ضعيف، وأخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٩١) (ص٣٩)، والطبراني في « الكبير » (٥٥٣٩) (٦/٦٩) من طريق يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير - ولم يذكره الطبراني - عن سعيد بن يزيد - رضي الله عنهما - قال: إن رجلًا قال يا رسول الله أوصني. قال: « أوصيك أن تستحي الله كما تستحي رجلًا صالحًا من قومك »، وأخرجه البزار في « مسنده » (١٩٧٢ - كشف) من حديث أبي الزبير عن معاذ - رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال: « استحي من الله كما تستحي رجلًا ذا هيبة من أهلك ». قال الهيثمي (٨/٢٣): « وفيه ابن لهيعة وفيه لين وبقية رجاله ثقات ».

كذلك -أيضًا- في وصية بعض السلف أنه قال: «**استحي من الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك**». يعني: أن الحياء يحملك ألا يراك الله تعالى تفعل شيئًا مما نهاك عنه أو يفقدك في المواضع التي أمرك بها والأمثلة كثيرة فإذا كان الله تعالى نهاك عن أماكن الغناء والرقص واللهو واللعب فلا يراك الله في تلك الأماكن التي نهاك عنها كما تستحي أن يراك أبوك وإخوتك الأكابر أو أعمامك وأنت في أماكن اللهو ومع الرقاصين ومع اللعايين ونحوهم أو يفقدك حيث أمرك فالله تعالى أمرك بالصلوات في المساجد فاستحي أن يفقدك في صلاة من الصلوات بغير عذر واستحي أن يفقدك في حلقات العلم وحلقات الذكر التي أمرك بها في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] ونحو ذلك.

وكذلك -أيضًا- يكون الحياء عامًا حتى فيما يستحي منه أو من ذكره ومعلوم أن الإنسان العاقل يستحي أن يراه أشراف قومه وهو يفعل أفعالًا رذيلة دنيئة -مثلًا- الذي يأكل في السوق والناس يمرون عليه وهو من قوم لهم شرف ولهم مكانة ينتقد بذلك إلا أن يكون شيئًا يسيرًا كتفاحة أو نحوها لكن الذي يعتاد هذا ما يستحي من الناس ويقولون: «**من لم يستحِ من الناس لا يستحي من الله**»[1]. كذلك -أيضًا- الذي يمشي وهو كاشف بعض عورته فلو رأيت إنسانًا من ذوي الجاه ومن ذوي المهابة والمكانة يمشي في السوق وليس عليه إلا فانيلة قصيرة وتبان -سراويل بلا أكمام- وهو يجوب الأسواق لانتقدته وأنكرت عليه فإن هذه مشية رذيلة وعادة سيئة لا تليق بأمثاله تُسقط هيبته مقدرته وتقدح في عدالته ولا تقبل بها شهادة وهكذا من يخالف هذه العادات.

فالإنسان عليه أن يستحي من الله تعالى ويستحي من الناس ويكون حياءه

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧١٥٩) (٧/١٦١).

من اللَّه أشد من حيائه من الناس .

بعض الناس إذا أقبل إلى المسجد وانتهت الصلاة قبل أن يُصلى استحى من الناس ورجع وصلى في داره فما هذا بحياء من اللَّه هذا حياء من الناس تستحي أن يقولوا : الصلاة فاتته . أو نحو ذلك . الواجب عليه أن يكون حياؤه من اللَّه أشد من حيائه من الناس .

وهكذا -أيضًا- حياؤه أن يفعل شيئًا من الذنوب أو الجرائم أو نحوها والناس ينظرون ينبغي أن يكون حياؤه من اللَّه تعالى أشد إذا كان اللَّه تعالى حرم عليه محرمات فلا يفعلها والرب تعالى ينظر فلا يفعل -مثلًا- جريمة الزنا ولو لم يره أحد فإن اللَّه تعالى يراه ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] .

فإذا كان يستحي أن يقبل امرأة أجنبية والناس ينظرون فعليه أن يستحي من نظر اللَّه تعالى وكذلك يستحي أن يشرب مسكرًا والناس ينظرون إليه في بلاد تُحكم الشريعة يجب عليه أن يستحي من اللَّه قبل ذلك وهكذا -أيضًا- يستحي من اللَّه في كل الحالات التي تزدرى والتي تنكر عليه عادة وعليه الاستكثار من الطاعات وعليه المبادرة إلى الخيرات وعليه مراقبة اللَّه تعالى والخوف منه وبذلك يكون حقًا من الذين استحيوا من اللَّه تعالى حق الحياء وقد ورد في حديث - ﷺ- قال : « **استحيوا من اللَّه حق الحياء** » . قال : قلنا يا رسول اللَّه : إنا نستحي والحمد للَّه . قال : « **ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من اللَّه حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحي من اللَّه حق الحياء** »(١) .

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب صفة القيامة : باب حدثنا أبو حصين ... (٢٤٥٨) (٤/٦٣٧) ، وقال : « حسن غريب » ، وأحمد في « مسنده » (١/٣٨٧) ، وابن أبي الدنيا في=

فجعل هذه الصفات هي الحياء حقًا من اللّه تعالى ثم قد يقال : إن الحياء هو هيبة الناس وهذا ليس بصحيح فالذي يهاب الناس ليس بمستحي إذا كان إنسان يرى منكرًا فيقول : أستحي أن أقول إن هذا منكر لا ينبغي . فلا يسمى هذا حياء وكذلك الذي يترك المعروف ويترك الأفعال الطيبة حياءً من الناس -مثلًا- لا يجرأ أن يرفع صوته بذكر اللّه فإنه يسن أن الإنسان إذا دخل الأسواق التي يكثر فيها اللغط أن يجهر بالذكر وبالتهليل ولا يضره إذ التفت الناس إليه ونظروا إليه شذرًا وأنكروه فلا يستحي منهم فإن هذا يعتبر خجلًا وضعفًا وخورًا وليس هو الحياء .

والحاصل : أن قوله : « **إذا لم تستح فاصنع ما شئت** » . يبين أن الذي ليس في قلبه ووجهه حياء فإنه يتجرأ أن يفعل ما يشاء فتراه -مثلًا- يترك الصلاة ولا يستحي من اللّه ولا من الناس ولو كان الناس ينظرون إليه وتراه يتكلم بالكلام السيئ لا ويستحي من الناس ولا يستحي أن يشتم ولا أن يلعن ولا أن يسب ولا أن يقذف ؛ لأنه قد نزع من وجهه الحياء وتراه -مثلًا- يعتدي على الأعراض ويسفك الدماء بغير حق ليس معه حياء على ترك ذلك وتراه ينهب ويختلس ويخون وما أشبه ذلك ولا يخاف من اللّه ولا يستحي من اللّه ولا يستحي من عباده كذلك -أيضًا- تراه يفعل الأفعال الشنيعة ولا يستحي من اللّه ولا من الناس فإذا كان لا حياء معه رأيته ينام بين الناس ولو أبدى شيئًا من عورته وينام بين الجالسين ولا يستحي أن يحدث أمامهم -

---

= « الورع » (٥٩) (ص٦١) ، وفي « مكارم الأخلاق » (٩٠) (ص٣٩) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٥٠٤٧) (٤٦١/٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٢٣/٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي - كلهم - من طرق عن ابن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مُرة الهمداني عن ابن مسعود - رضي الله عنه - به .

وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠٢٩٠) (١٥٢/١٠) ، وفي « الصغير » (٤٩٤) (٢٩٨/١/١) من طريق آخر عن ابن مسعود - رضي الله عنه - به .

والحديث حسنه الألباني في « صحيح الترمذي » .

مثلًا- ولا يستحي أن يتبول قريبًا منهم ولا يستحي أن يبدي عورته ولو كانوا ينظرون إليه ولا يستحي أن يأكل في الأسواق وما أشبهها ولا يستحي أن يتكلم أمامهم بالكلام القبيح فليس عنده ما يمنعه.

هذا معنى قوله: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

وأما الذي يمنعه الحياء من قول الحق فمثل هذا لا يسمى مستحيًا بل يسمى ضعيف القلب فالذي عنده إيمان ينكر المنكر على الصغير والكبير وعلى القليل والكثير فإذا رأى من يفعل منكرًا فلا يقول: أستحي أن أنكر عليه وهو أكبر مني أو وهو أعلم مني أستحي أن أتكلم في هذا المجمع أنا أصغرهم وأنا أقلهم علمًا أو أقلهم رتبة أو منزلة. أو نحو ذلك، أستحي أن أرد على هؤلاء كلمة أخطأوا فيها أو ما أشبه ذلك لا يسمى حياء بل يسمى ضعفًا وخورًا كما في حديث ابن عمر قال النبي ﷺ: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإن مثلها مثل العبد المؤمن حدثوني ما هي؟**». فخاض الناس في شجر البوادي يقول ابن عمر: وقع في قلبي أنها النخلة واستحييت وكنت أصغر القوم. فأخبر ابن عمر أباه بعد ذلك فقال: لأن كنت قلتها أحب إليه من كذا وكذا[1]. كأنه يحب أن يكون ابنه جريئًا غير مستحي يقول الكلام ولو كان هناك من هو أولى بالكلام منه فلا يستحي أحد أن يقول كلمة الحق في المكان التي تناسب فيه ولو كان أصغر القوم ولو كان أقلهم معرفة أو مؤهلًا أو نحو ذلك وبذلك يظهر الحق ويستبين.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم: باب من رفع صوته بالعلم (٦١) (١/١٧٥ - فتح)، وفي «الأدب المفرد» (٣٦٠) (ص١٣٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب صفة المنافقين: باب مثل المؤمن مثل النخلة (٦٣) (٤/٢١٦٤ - ٢١٦٥) من طرق عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به.

الحديث الواحد والعشرون
قل آمنت باللّٰه ثم استقم

عن أبي عَمْرو ، وَقِيلَ : أبي عَمْرَةَ ، سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ – رضي اللهُ عنه – قَال : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللّٰه ، قُلْ لي في الإِسْلَامِ قَوْلًا ، لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ . قَال : « قُلْ : آمَنْتُ باللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » . رَواهُ مُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث الجامعة فإنه يجمع مع اختصاره وإيجازه معانٍ كثيرة .

هذا الرجل سؤاله يدل على فقه نفس ويدل على عمق معرفة يقول : (يا رسول اللّٰه ! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك) فما أجل هذا الفكر وأعمق هذا السؤال حيث طلب كلمات موجزة تنفعه ويحفظها وذلك لأنه يغلب عليه أنه أُمي و-أيضًا- أنه ليس من أهل البلاد ؛ لأنه من ثقيف . وثقيف إما من أهل الطائف وإما من أهل البوادي الذين حولها ويظهر أنه ما أسلم إلا بعد الفتح فأراد علمًا مختصرًا وكلامًا يعمل به ويقتصر عليه ولا يحتاج إلى تفاصيل فأوجز له هذه الوصية فقال : **« قل آمنت باللّٰه ثم استقم »**. اقتصر على هاتين الجملتين الإيمان والاستقامة .

ومعلوم أن السائل سفيان بن عبد اللّٰه -رضي اللّٰه عنه- كان عربيًا فصيحًا عالمًا بمعاني الكلمات والجمل يعرف ما تستلزمه هاتان الكلمتان فلم يطلب شرحها ولم

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب جامع أوصاف الإسلام (٦٢) (١/٦٥) ، من طرق عن سفيان بن عبد الله الثقفي – رضي الله عنه – به .

يطلب زيادة عليها ولا توسعًا فيها وعمل بها وعلم ما تستلزمه كل من الوصيتين : الإيمان والاستقامة .

ومعلوم أن الإيمان ليس مجرد كلمة أن يقول : أنا مؤمن أو آمنت باللَّه ، بل بين النبي ﷺ أن الإيمان يستلزم أعمالًا جمة فأخبر بأن الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللَّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق فجعل هذه كلها من شعب الإيمان أي : من الإيمان فكأنه عندما قال : « **قل آمنت باللَّه** » .- يعني : اعتقد الإيمان باللَّه واعرف ما تستلزمه هذه الكلمة « **آمنت باللَّه** » . أنها تستلزم قول : لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه وتستلزم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتستلزم الصوم والحج وتستلزم الأمر بالخير والجهاد في سبيل اللَّه والدعوة إلى اللَّه والبر والصلة وتستلزم الذكر والدعاء والابتهال إلى اللَّه والاستعانة به والخوف منه والرجاء له والتوكل عليه والاعتماد عليه وما أشبه ذلك فهي تستلزم أشياء كثيرة كما أنها -أيضًا- تستلزم ترك المحرمات ؛ لأن من آمن باللَّه أطاعه فالذي يؤمن باللَّه ربًا وإلهًا يحمله إيمانه أن يعبده حق عبادته وأن يدعوه بإخلاص وصدق ويقين يحمله إيمانه الصادق على أن يعتمد عليه وحده في كل أموره ويخافه ويرجوه يحمله إيمانه على أن يصبر على ما أصابه وعلى أن يتحمل المشقة التي قد تأتي عليه في أمور العبادات والطاعات وما أشبهها يحملها إيمانه على تجنب المحرمات فلا يقرب من المسكرات ولا يتعاطى شيئًا من المحرمات ولا يفعل الفواحش ولا يقترب منها ولا يعتدى على الخلق ولا يقتل ولا يسرق ولا يزني ولا ينتهك عرضًا ولا يفعل جرمًا من أي الجرائم والمحرمات ونحوها كل ذلك مما يستلزمه الإيمان ، ودليل ذلك أن اللَّه تعالى وصف المؤمنين بصفات تدل على أنهم لا يكونون حقًا مؤمنين إلا إذا عملوا بها فوصفهم بأنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال : ٢] فهذا من آثار الإيمان ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال : ٢] فهذا من آثار الإيمان ﴿وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] هذا -أيضًا- من آثار الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣].

وكذلك وصفهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥] هذا من آثار الإيمان.

فدلنا على أن الإيمان كلمة جامعة تستدعي أن أهلها إذا عملوا بها عملوا بكل خير وابتعدوا عن كل محذور وعن كل شر فصاروا بذلك أتقياء بررة.

وأما الوصية الثانية: وهي قوله «ثم استقم». فهي التي أمر اللَّه تعالى بها أمر بها نبيه وأمر بها المؤمنين قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢] هذا أمر موجه للنبي -ﷺ- ولا شك أن الخطاب له يعم الخطاب لأفراد أمته وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] الأمر هنا موجه للأمة استقيمي أيها الأمة وكذلك مدح أهل الاستقامة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] فما ذكروا من عملهم الذي استحقوا به الجنة إلا أنهم ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ وذلك أن قولهم ربنا اللَّه عقيدة- يعني: نعتقد أن ربنا هو اللَّه وهو بمنزلة آمنا باللَّه أو بمنزلة قل آمنت باللَّه ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يستدعي أنهم ثبتوا على هذه العقيدة واستمروا عليها فالاستقامة حقًّا هي الثبات والاستمرار وعدم الترك أو التواني أو الارتداد ونحوه؛ وذلك لأن المستقيم هو المستمر على الطاعة يقال: استقام فلان على الشريعة- يعني: سار عليها سيرًا سويًّا.

واللَّه تعالى وصف الطريق الذي عليه النبي ﷺ والمؤمنون بأنه المستقيم، وأمرنا أن نسأله قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«**مستقيمًا**». يعني: ليس فيه اعوجاج وأمرنا بأن نقول في صلاتنا: ﴿ٱهْدِنَا

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي: الذي ليس فيه اعوجاج ولا أية خلل بل هو مستمر مستقيم فكذلك يقال: إن الذين استقاموا هم الذين ثبتوا على الطاعة ولم يتزعزعوا.

ومعلوم أن هناك فتنا تعتري المؤمن فإذا كان إيمانه ضعيفًا انحرف وضل ولم يستقم ولم يستمر، بل رجع القهقرى كما كان؛ ولأجل ذلك ذم اللَّه هذه طريقتهم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١] وهذا نزل في أناس دخلوا في الإسلام كتجربة في أول الأمر من الأعراب وربما -أيضًا- من المنافقين دخلوا في الإسلام تجربة ونظرًا؛ فطائفة منهم أنعم اللَّه عليهم وستر عليهم فصحت أبدانهم وكثرت أموالهم وأولادهم ورزقهم حياة طيبة واطمأنوا في حياتهم واستمروا فيها ولم يجدوا نكدًا ولا عيشًا ضيقًا ولا غير ذلك فمدحوا الإسلام وقالوا: هذا دين طيب من حين دخلناه ونحن في صحة وفي نعمة ورخاء ورفاهية ونحن في عيش طيب وقد وسع علينا رزقنا المال والأولاد. وما أشبه ذلك فهؤلاء الذين ذكرهم اللَّه بقوله: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ وآخرون ابتلاهم اللَّه تعالى فأصيبوا بالفقر والفاقة وكذلك الخسران في التجارات وفي الحروث وفي النتاج والبهائم وكسدت بضاعتهم وأصابتهم خسارة شديدة وهذا ابتلاء من اللَّه تعالى وامتحان ليظهر من يثبت ومن لا يثبت فانقلبوا على أعقابهم وسبوا الإسلام وقالوا: منذ دخلناه ونحن في ضرر وفي جوع وفي جهد وفي مصائب وفي أمراض وعاهات وفي خسران تجارات. وما أشبه ذلك فهؤلاء الذين عنى بقوله: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ فالذين يثبتون على البلوى ويصبرون على الضراء ولا يتزعزع إيمانهم ولا يتحولون من الإيمان إلى الكفر ولا يشكون من صحة ما هم عليه بل يزيد إيمانهم ويقوى يقينهم هؤلاء هم أهل الاستقامة.

ودليل الطائفتين قصة الأحزاب نتأمل في قصتهم في سورة الأحزاب قال اللَّه تعالى : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ١٠، ١١] ابتلوا بهؤلاء الجيوش الذين أحدقوا بهم وأحاطوا بهم من كل جهة فذكر اللَّه مقالة ا لمنافقين الذين هم في شك من دينهم ولم يكونوا على يقين أنهم ترددوا في إيمانهم وقالوا : يعدنا محمد أنا سنفتح بلاد كسرى وقيصر ونحن الآن مضايقون لا يقدر أحدنا أن يقضي حاجته ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] هذه مقالتهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ إلى آخر ما ذكره عنه .

أما أهل الثبات والاستقامة فإنه ما زادهم إلا خيرًا قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فبكل حال : نعرف أن هؤلاء الذين لم يصبروا ليسوا بمستقيمين فالاستقامة هي الاستمرار على العمل فإذا وفقك اللَّه تعالى لطلب العلم فإن من الاستقامة أن تستمر على طلب العلم ولا تمل وإذا وفقك اللَّه -مثلًا- للعمل به وتعلميه فإن من الاستقامة أن تستمر على ذلك ولا تمل ولا تصخب وإذا وفقك اللَّه تعالى لمجالسة العلماء وأهل الخير فلا تزهد فيهم واستمر على ذلك فإنه من الاستقامة ، وكذلك إذا وفقك اللَّه لدعاء وأوراد تأتي بها في الصباح والمساء فلا تمل منها ولا تصخب بل استقم عليها واستمر عليها بقية حياتك ، وإذا وفقك اللَّه لقراءة ما تيسر من القرآن يوميًا أو أسبوعيًا أو نحو ذلك فحافظ على هذه القراءة واستمر عليها فإن ذلك علامة

الاستقامة، وكذلك إذا وفقك اللّٰه تعالى للمحافظة على الصلوات في الجماعة فالاستقامة المحافظة على ذلك، وإذا وفقك لصلاة النوافل والتقدم في المساجد فالاستقامة الدوام على ذلك والمحافظة عليه، وإذا وفقك لقيام ما تيسر من الليل والصلاة فيه فالاستقامة الاستمرار عليه، وإذا وفقك للصدقات وللصلة والبر وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وللدعوة إلى اللّٰه تعالى بأي نوع من أنواع الدعوة وبأي أسلوب وما أشبه ذلك فلا تنقطع عن هذه الأعمال الخيرية فإن هذا هو علامة الاستقامة وإذا استقمت فأبشر بالخير.

الذين استقاموا لهم ثواب عظيم فقد ذكر اللّٰه تعالى ثوابهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] ذكر اللّٰه في هذه الآيات عشرة أنواع من الجزاء:

الأول: قوله ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: عند قبض الأرواح تنزل عليهم تبشرهم ونزول الملائكة هنا هو نزول ملائكة الرحمة.

البشارة الثانية: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾.

الثالثة: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

الرابعة: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

الخامسة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

السادسة: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: وأولياؤكم في الآخرة.

السابعة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ يعني: في الجنة.

الثامنة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ يعني: ما تطلبون.

التاسعة: ﴿نُزُلًا﴾ يعني: ضيافة عند أول ما يأتون.

العاشرة: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ بشارة بالمغفرة والرحمة.

لا شك أن هذه الخصال تدل على ثواب هؤلاء وما ذكر من عملهم إلا أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فما أعظم الاستقامة وما أعظم الثبات على الإيمان .

۞ ۞ ۞

الحديث الثاني والعشرون
الاقتصار على الفرائض يدخل الجنة

عَنْ أبي عَبْدِ اللهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيِّ - رضي اللهُ عنهما - أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقال : أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ ، وَصُمْتُ رَمَضانَ ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ ، وَلَمْ أَزِدْ على ذِلكَ شَيْئًا ، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ ؟ قال : « نَعَمْ » . رَواهُ مُسْلِمٌ(١) .

وَمَعْنَى حَرَّمَتُ الحَرامَ : اجْتَنَبْتُهُ . وَمَعْنَى أَحْلَلْتُ الحَلالَ : فَعَلْتُهُ مُعْتَقِدًا حِلَّهُ .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث المجملة والتي يدخل في معانيها كلام كثير فإن هذا الرجل أراد بهذا السؤال أن يعرف حكم من عمل هذه الأعمال هل يدخل الجنة بهذا أم لا ؟

ومعلوم أنه لابد أولًا من تصديق اللَّه ورسوله والإقرار بأن اللَّه تعالى هو رب العالمين وهو إله الخلق أجمعين .

ومعلوم أنه لابد مع ذلك من عبادة اللَّه فما دام قد اعترف بأنه مربوب ومخلوق ومملوك فلابد أن يعبد ربه وخالقه ومليكه .

ومعلوم أنه لابد من التصديق بالأمور الغيبية التي أخبر اللَّه بها وأخبر بها رسوله - ﷺ- بمعنى : أنه يصدق بما جاء عن اللَّه تعالى من الأخبار ويتقبلها ويعتقد صحتها .

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة (١٦، ١٧، ١٨) (١/٤٤) من طرق عن جابر - رضي الله عنه - به .

ومعلوم -أيضًا- أن من جملة ما يصدق به من الأمور الغيبية وجود الجنة التي أعدها اللَّه تعالى دار كرامته يثيب بها أولياءه فهذا الرجل صدق اللَّه وصدق رسوله في أن هناك دار كرامة يدخلها أولياء اللَّه تعالى سماها اللَّه تعالى دار السلام وسماها دار المقامة وسماها جنات النعيم وسماها بالفردوس فاشتاقت لها نفس هذا الرجل وأحب أن يعرف العمل الذي يؤهله لدخول الجنة وينجيه من دخول النار أحب أن يعرف ذلك السبب فألقى هذا السؤال.

ومعلوم أنه إذا أقام الصلاة وآتى الزكاة وأحل الحلال وحرم الحرام فإن ذلك مسبوق بالاعتقاد ومسبوق بالعلم فلابد أنه إذا أقام الصلاة يكون عالمًا بأنها فريضة اللَّه وأنها عبادة يحبها اللَّه ويكون عالمًا بكيفيتها وبعدد ركعاتها وبأوقاتها وبما يقال فيها وبصفتها لابد أن يكون عارفًا بذلك.

كذلك -أيضًا- لابد أن يعرف أنها طاعة وقربة يحبها اللَّه تعالى فيحبها العبد؛ لأن اللَّه يحب من العبد أن يتقرب إليه بهذه الصلاة ونحوها من العبادات.

قوله: (أقمت الصلاة) يعني: أديتها كاملة واعتقدت أنها طاعة وعمل بر يحبها اللَّه.

وكذلك الزكوات والصدقات مسبوقة أيضًا باعتقاد أنها فريضة اللَّه وأنها قرينة الصلاة في كتاب اللَّه ومسبوق أداؤها أيضًا بالاعتقاد وهو أن يعتقد أن اللَّه تعالى فرضها وأنها حق على المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

قوله: «**أحللت الحلال وحرمت الحرام**» ذكر النووي في معنى قوله: «**أحللت الحلال**»: أن اعتقدت حله وأتيته، «**وحرمت الحرام**» يعني: تركته وابتعدت عنه واجتنبته كله.

الحلال: يدخل فيه كسب المال الحلال ويدخل فيه النكاح الحلال هذا أهم

شيء- يعني يكون الحلال في المكاسب المالية وفي النكاح ونحوه ومعناه أن يعرف ما هو الحلال من المكاسب فيقتصر عليه أو يحله لغيره والله تعالى قد أحل المكاسب الحلال قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فالمكاسب المباحة الحلال مثل: البيع المباخ الحلال وكذلك الحرف والصناعات والأعمال اليدوية التي هي كسب بهذه الصناعة أيضًا من الحلال من عملها اعتبر قد أحل الحلال ولو لم يعملها.

ومعنى ذلك أنه اعتقد أنها حلال وكذلك قوله: «**وحرمت الحرام**» حرمت يعني: امتنعت عنه أو تعلمت حرمته وأفتيت بها وحذرت من المحرمات ويدخل في ذلك ما إذا عرضت له المكاسب المحرمة فابتعد عنها فإن ذلك دليل على أنه قد حرم الحرام ولا شك أن هذا الوصف تطبيقه بتحليل الحلال وتحريم الحرام يصعب على كل فرد وعزيز عليه أن يبتعد عنه كل الابتعاد وقد تقدم لنا حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه- وفيه قوله - ﷺ-: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**». فإذا قلنا: مثلًا أن البيع حلال. فإنه تقع به صفة وحالة يصير بها حرامًا فقد ثبت أنه - ﷺ- قال: «**من غش فليس منا**». لما رأى صاحب بُرّ قد أخفى في أسفله الندى وقال أصابته السماء -يعني: المطر أدخل النبي - ﷺ- يده فنالت بللًا فجعل هذا غشًا وما أكثر الغش فالذي يستعملون الغش في البيع ما أحلوا الحلال كما ينبغي بل وقع في مكاسبهم شئ من الشبهات وشيء من المحرمات سواء كان الغش في المطعومات أو في الملبوسات والأكسية وما أشبهها أو في الأدوات والسيارات وما أشبهها مما يكثر فيها الغش.

إذًا فقوله: (أحللت الحلال) يعني: اقتصرت عليه وابتعدت عن غيره وتركت ما ينافيه مما ليس بحلال.

الاقتصار على الحلال عزيز على كثير من النفوس، وذلك لأن النفوس مجبولة على حب المال ثم يأتيها التساهل في بعض الصور فيزين لها أنها من المباحات ولا تتفكر في عاقبتها أو لما يلابسها من الشبهات وكذلك أيضًا من معنى أحللت الحلال يعني: اقتصرت عليه أي في باب الأنكحة ونحوها فإن النكاح فيه ما هو حلال ومنه ما هو حرام فالنكاح الذي تمت شروطه حلال كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] بعد أن ذكر المحرمات في النكاح وكذلك المحرم منه نكاح المحارم مثلًا وكذلك النكاح بلا ولي والنكاح بلا بينة والنكاح مع الإكراه ونحوه وبخس النساء حقوقهن -يعني: أخذ حق الزوجة بغير رضاها.

وأشنع من ذلك الوطء المحرم الذي هو الزنا فالسلامة من هذه الأشياء فيها صعوبة، فالذي يريد أن يحل الحلال يلقى صعوبة إلا من أعانه اللَّه تعالى ووفقه لأن يقتصر على الحل ويبتعد عن الحرام في النكاح ونحوه ويدخل في قوله: « **وأحللت الحلال وحرمت الحرام** ». المطاعم والمشارب فإن فيها ما هو حلال وما هو حرام فإذا كان في المكاسب حلال وحرام -يعني: في أخذ المالك فالكسب الحلال هو أخذ المال من حله والحرام أخذه من غير حله فما أخذ بالنهب فهو حرام وكذلك الأخذ بالاختلاس كأن يستغل غفلة صاحب المال فيأخذه ويخفيه وكذلك السرقة أخذ المال من حرزه بغير حق يعتبر أيضًا حرامًا وأشباه ذلك فالتوقي صعب على كثير من النفوس حيث أن الذي يريد الاقتصار على الحلال يزهد في كثير من المال مخافة أن يكون فيه شيء من الشبهات التي تقربه من الحرام، فاللَّه تعالى حرم المعاملات الربوية وورد الوعيد الشديد في الزجر عن الربا وعن الكسب به ووردت أدلة كثير تحذر منه وكذلك أيضًا تكاثرت الأدلة في النهي عن الغش في المعاملات والنهي عن أخذ الرشى وتسميتها سحتًا وقد ذم اللَّه تعالى من يأكل السحت ﴿سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾ [المائدة: ٤٢] ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ﴾ [المائدة: ٦٢] تحذيرًا لنا من عملهم.

وكذلك أيضًا من جملة تحريم الحرام: تحريم الخمور وما يتصل بها فإنها شراب تهواه النفوس وتلتذ به لحلاوته، ولكن اللَّه تعالى حرمه لعواقبه السيئة؛ لأنه يزيل العقل يسلب صاحبه العقل الذي هو ميزته فيهذي إذا سكر ويفعل أفعالًا شنيعة تلحقه بالمجانين فتحريمها تحريم شرعي فالذي يتجنبها يعتبر قد حرم الحرام وعمل بما أمر اللَّه تعالى به.

فالحاصل: أن هذا شرط ثقيل- يعني: بالأخص تحليل الحلال كله وتحريم الحرام كله، وإذا توفر للعبد العمل بهذا فإنه يرجى له أن يكون من أهل الجنة إن شاء اللَّه كما وعد في هذا الحديث.

❁ ❁ ❁

الحديث الثالث والعشرون

الإسراع في الخير

عن أبي مالكٍ الحارثِ بنِ عاصِمٍ الأَشْعَرِيِّ - رضي اللهُ عنه - قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الطُّهورُ شَطْرُ الإِيمانِ، والحمدُ لِلهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وسُبْحانَ اللَّهِ والحمدُ لِلهِ تَمْلآنِ - أو تَمْلأُ - ما بَيْنَ السَّماواتِ والأَرضِ، والصَّلاةُ نورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والْقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدو، فَبائعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُها أَو مُوبِقُها**». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

شرح الحديث:

هذا حديث جليل القدر مفيد جامع لهذه العلوم أورده مسلم رحمه اللَّه في أول كتاب الطهارة مما يدل على أنه فهم أن الطهور يراد به الطهارة الحسية التي هي طهارة الأعضاء بالماء فيقول: «**الطهور شطر الإيمان**». هكذا يروى ويرويه بعضهم: «**الطهور شطر الإيمان**». فالطهور هو التطهر، والطهور هو الماء الذي يتطهر به وإذا قيل: إن الطهور هو الطهور من السيئات -يعني: تطهير النفس من السيئات وتطهر القلب من الشكوك وتطهير الأعمال من الرياء ونحوه فإن هذا يكون طهورًا معنويًا والطهارة من الحدث الأكبر بالاغتسال والأصغر بالوضوء والطهور من الأنجاس والأقذار بتطهير الأواني وتطهير الثياب وتطهير الجسد وتطهير التراب وما

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الطهارة: باب فضل الوضوء (١) (١/٢٠٣) من طريق محمد بن شعيب بن شابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - به.

أشبه ذلك حتى لا يكون عليها نجاسة فهذا الطهور عمل صالح من عمل به وحافظ عليه فله أجر كبير جعله النبي - ﷺ - شطر الإيمان فإذا قلنا : أن المراد به الطهارة كلما أحدث تطهر ولا يأتي الصلاة إلا وهو متطهر ويحرص على أن يكون دائمًا على طهر يصلي به ويقرأ به ويمس به المصحف ويذكر ربه على طهر ويستقبل القبلة على طهر ونحو ذلك فإن ذلك دليل على اهتمامه بهذه الطهارة التي هي عبادة من العبادات ولم يكن في المشركين قبل الإسلام عبادة تسمى الطهارة -يعني : الوضوء الذي هو غسل الوجه وغسل اليدين ومسح الرأس وغسل الرجلين أو الاغتسال بالماء من الجنابة ونحو ذلك ما كان العرب والمشركون يعرفون ذلك بل كانوا يجامع أحدهم ولا يغتسل، ويحدث ولا يتوضأ ولا يعرفون الوضوء ولا يعرفون غسل النجاسات ولا غيرها من باب إزالة الأقذار والأوساخ وما أشبهها كذلك أيضًا كثير من الأديان كاليهودية والنصرانية والبوذية والهندوسية والشيوعية ونحوهم لا يعرفون أيضًا هذه الطهارة التي جاء بها الإسلام لأنها تعتبر من ميزات هذا الدين فميز دين الإسلام بأن أمر بهذه الطهارة الحسية التي هي طهارة وأي طهارة حث الإسلام على أن الإنسان يأتي الصلاة متطهرًا قال اللَّه تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان : ٤٨] ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال : ١١] فجعل هذا الماء طهورًا ينظف ويزيل الأخباث ويرفع الأحداث وما أشبهها من حافظ على هذه الطهارات فقد حفظ شطر دينه فليتق اللَّه في الشطر الآخر .

« **شطر الإيمان** » . يعني : نصف الإيمان كأنه اهتم بدينه فكان مما حافظ عليه هذه الطهارة فلا شك أنه إذا تطهر أتى بالعبادات أتى بالصلاة وهي من الشطر الثاني وأتى أيضًا بالصوم وأتى بالزكاة وبالقراءة وما أشبه ذلك فكان ذلك حاثًا وحافزًا له على أن يكمل طهارته ويكمل دينه الذي هو « **شطر الإيمان** » .

والشطر الثاني هو : الأعمال ذكر بعد ذلك فضل بعض من الأذكار

« والحمد للّٰه تملأ الميزان ، وسبحان اللّٰه والحمد للّٰه تملان –أو تملأ– ما بين السماء والأرض » . هذا فيه فضل هذه الكلمات ، (الحمد لله) هي الكلمة التي ابتدأ بها كتابة في أول سورة الفاتحة والحمد هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله ويقولون في تعريفه : أنه فعل يُنبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه مُنعمًا على الحامد وغيره .

اللّٰه تعالى يُحمد على كل حال فيحمد على أسمائه وصفاته ويحمد على أمره ونهيه وشرعه وقضائه وقدره ويحمد على آياته ومخلوقاته وبدائع مصنوعاته ويحمد على عذابه وثوابه ويحمد على تصرفاته الكونية في خلقه ويحمد على ما نصبه من الأدلة والبراهين على قدرته وعلى إلهيته ووحدانيته نحمد اللّٰه تعالى على ذلك كله كما أننا نحمده أيضًا على فضله على أن هدانا نقول : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] ونقول : الحمد للّٰه الذي أقبل بقلوبنا على طاعته ولم يشغلها بمعصيته والحمد اللّٰه الذي بصرنا بالحق ودلنا عليه ورزقنا الثبات عليه الحمد للّٰه الذي أحسن خلقنا وأحسن صورنا وجعلنا في أحسن تقويم الحمد للّٰه الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة الحمد للّٰه الذي يسر لنا أسباب الرزق وهيأ لنا الأسباب التي نتمكن فيها من البقاء في هذه الحياة يسر لنا المآكل والمشارب والأطعمة التي نعيش بها وتحيا بها أبداننا هذه الحياة نحمد اللّٰه أن أصح أجسامنا وأزال عنها العلل نحمد اللّٰه أن سخر لنا هذه المخلوقات ومنها الدواب التي ننتفع بها وسخر لنا هذه الأرض التي ننتفع بما عليها الحمد للّٰه على كل حال فهذه الكلمة يقول النبي – ﷺ– إنها تملأ الميزان .

« الحمد للّٰه تملأ الميزان » . يعني : بالحسنات فما أعظمها من كلمة حيث ذكر أن هذه الكلمة تملأ الميزان ولكن لابد أن الذي يقولها يعترف بمدلولها وبفائدتها يعترف بأن اللّٰه تعالى مستحق للحمد وحده ومستحق للثناء وحده وأنه

أهل لذلك وأنه أنعم على عباده يعني : المتقين ويسر لهم كل يسر وسهل لهم ما لم يسهله لغيرهم فيحمدونه ويثنون عليه ويشكرونه على نعمائه ، وهذه الكلمة ينبغي أن يكررها المسلم في كل حال فإن أصابته مصيبة قال : « **الحمد لله على كل حال** »[١] . وإن رأى مبتلى قال : « **الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً** »[٢] . سواء كان الابتلاء في البدن أو الابتلاء في المال أو الابتلاء في الدين وكذلك إذا تجددت له نعمة كما إذا رزقه الله ولدًا صالحًا أو رزقه مالًا حلالًا أو رزقه صحة في بدنه اعترف بذلك وقال : الحمد الله الذي رزقنا ذلك ويسره لنا .

ثم يقول : « **وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماء والأرض** » . التسبيح معناه : التنزيه فإذا قال الإنسان : سبحان الله فهو يعني : أنزه الله . ينزه الله ربه عما لا يليق به صفات النقص ينزه عما نزه نفسه عنه من النقائص فأنت تقول : سبحان الله يعني : أن الله تعالى مسبح ويعني منزه لا تأخذه سنة ولا نوم

---

(١) حسن : أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الأدب : باب فضل الحامدين (٣٨٠٣) (٢/ ١٢٥٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/١) وصححه على شرطهما ، - أخرجاه من طريق هشام بن خالد الأزرق عن الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن منصور بن عبد الرحمن عن أمه صفية عن عائشة - رضي الله عنها به - .
وقال البوصيري في « الزوائد » : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » .اهـ .
وحسنه الألباني في « صحيح ابن ماجه » .

(٢) حسن : أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الدعاء : باب ما يدعو به الرجل إذا نظر إلى أهل البلاء (٣٨٩٢) (٢/١٢٨١) . وحسنه الألباني في « صحيح ابن ماجه » .
وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب الدعوات : باب ما يقول العبد إذا مرض (٣٤٣١) (٥/ ٤٩٣) ، وقال : « حديث غريب » ، والطيالسي في « مسنده » (١٣) (ص٤) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٣٨) (ص٤٣) ، والحارث في « مسنده » (١٠٥٦) (٢/٩٥٦) - كلهم - من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن ابن عمر عن عمر - رضي الله عنهما - به .
وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » .

حي لا يموت لا تخفى عليه خافية لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض لا يمسه لغوب ولا تعب ولا نصب لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد تنزه اللّٰه عن مثل ذلك ننزه اللّٰه ونسبحه عن الشركاء وعن الأمثال وعن الأولاد وعن الآلهة الذين يستحقون مثل ما يستحق فإذا قال العبد : سبحان اللّٰه . وقصد بذلك تنزيه اللّٰه كانت هذه الكلمة تملأ ما بين السماء والأرض- يعني : ثوابها لو كانت أجرامًا لملأت ما بين السماء والأرض فما أعظمها من كلمة . كلمة سهلة يسيرة يقولها العبد في أي حالة . مع استحضاره لمدلولها فيثيبه اللّٰه عليها ثوابًا جزيلًا .

ثم يقول في هذا الحديث : « **والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء** » . فيه فضل هذه العبادات وفي رواية : « **والصيام ضياء ، والصلاة معروف** » أنها هذه العبادة التي أمر اللّٰه تعالى بها وتعبدنا بها وأحب من عبادة أن يكثروا منها وأن يتقربوا إليه بها سواء فرضًا أو نفلًا فرض اللّٰه الصلوات الخمس وأحب من العباد أن يتنفلوا بما زاد فيتنفلوا بصلوات قبل الفرائض أو بعدها ويتنفلوا بصلاة الليل ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] ويتنفل المسلم بصلاة وسط الضحى حين ترمض الفصال- يعني : صلاة الضحى ويتنفل أيضًا بصلوات لها أسباب كصلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء وصلاة العيدين وصلاة الاستخارة وركعتي الطواف وما أشبه ذلك .

فدل على ذلك أن الصلاة من أجل العبادات وأنها من أفضل القربات التي يتقرب بها العباد إلى اللّٰه .

لماذا كانت نورًا ؟ « **الصلاة نور** » . كثير من الناس إذا كانوا محافظين على هذه الصلاة ظهر النور واضحًا على وجوههم روي في بعض الآثار : « **من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه في النهار** »(١) . كأنهم أخذوا ذلك من العادة أن الإنسان الذي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الصلاة : باب ما جاء في قيام الليل (١٣٣٣) (١/٤٢٢) =

يواظب على التهجد في الليل ويكثر منه فإن اللَّه يرزقه بهاءًا ونورًا وضياءًا في وجهه تظهر عليه آثار هذه الحسنة الظاهرة فالصلاة من أحسن الحسنات ومن أفضلها بل كل الحسنات يكون لها أثر في وجوه أصحابها قال ابن مسعود -رضي اللَّه عنه- (إن للحسنة ضياءًا في الوجه ونورًا في القلب وقوة في الجسم وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس وإن للسيئة ظلمة في الوجه وسوادًا في القلب ووهنًا في الجسم وضنكًا في المعيشة وبغضًا في قلوب الناس) فذكر أن الحسنة يكون لها ضياء ونور في الوجه ونور في القلب فالصلاة من أحسن الحسنات فالذي يحافظ عليها يرزقه اللَّه تعالى نورًا ولو لم يكن ضياء كالشمس أو كالنجم أو كالكهرباء أو كالسراج لكن تظهر آثار هذه الحسنة على وجهه يظهر ذلك جليًا لمن يعرفه إذا رأيته شهدت له بالصلاح وبالخير وأحبه قلبك واطمأنت إليه نفسك وشهدت بأنه من أهل الصلاح محافظ على الصلوات ومواظب عليها ومحب لها ومكثر منها هذا سبب كون هذه الصلاة نورًا.

«**والصلاة نور، والصدقة برهان**». يدخل في الصدقة الزكوات والكفارات وصدقات التطوع وما أشبه ذلك، فهي الدليل القاطع بمعنى أن من أكثر من الصدقات وتقرب بها إلى اللَّه تعالى رزقه اللَّه علمًا وثبت حجته وقوى دليله على غيره

= والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤٠٨) (١/٢٥٢)، (٤٠٩ - ٤١١) (١/٢٥٣)، (٤١٢) (١/٢٥٤)، (٤١٥) (١/٢٥٦) (٤١٦) (١/٢٥٧)، (٤١٧) (١/٢٥٨) - أخرجاه من طرق عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر - رضي الله عنه - به.

والأعمش مدلس وقد عنعنه في جميع الطرق.

وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤١٣) (١/٢٥٥) من طريق أبي الزبير عن جابر - رضي الله عنه - به، وأبو الزبير مدلس وقد عنعنه.

وذكر له القضاعي في «مسنده» (٤١٤) (١/٢٥٦) شاهدًا من حديث أنس - رضي الله عنه-.

والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

ونصره على من خاصمه وكان له برهان يحتج به ويقوي به ما يقول وما يذهب إليه وما يستدل به .

معلوم أن الإنسان قد يبتلى بمن يشككه في دينه ومن يشككه في عباداته ومن يلقى عليه الشبهات فإذا كان معه براهين وأدلة ناصعة قوية قطع تلك الشبهات ورد على أهلها وضللهم وخطأ ما هم فيه وبين ضلالهم وبعدهم عن الصواب فكانت الصدقة سببًا أو من أكبر الأسباب في قوته وفي انتصاره على من ناوأه هكذا جعل النبي - ﷺ- الصدقة برهانًا .

« **والصبر ضياء** » . الضياء هو النور الجلي ويراد بالصبر هنا الصبر بجميع أنواعه فإن الصبر ثلاثة أقسام :

١- صبر على طاعة اللَّه .

٢- صبر على معصية اللَّه .

٣- صبر على أقدار اللَّه المؤلمة .

فالذي يجمع بينها يجعل اللَّه له ضياء إما ضياء حسيًا وإما ضياء معنويًا والضياء هو الضوء الذي يكون من آثار ا لأنوار نقول مثلًا : نحن الآن في ضوء هذه الكهرباء . واللَّه تعالى قد جعل الشمس ضياء والقمر نورًا فإضاءة الشمس في النهار مشاهدة ومحسوسة فنقول : إن الصبر ضياء لمن تحمله وحجة لمن صبر عليه ويلزمنا أن نتواصى بالصبر على أمر اللَّه ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] .

يوصي بعضنا بعضًا بالصبر فيقول : عليك بالصبر على الطاعة ولو كانت الطاعة ثقيلة عليك وبالصبر على صلاة الليل عليك بالصبر في المساجد فإذا جئت إلى المساجد فاصبر نفسك مع أهلا كما نبه اللَّه بقوله : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] أمره بأن يصبر مع أهل الخير- يعني : احبس نفسك مع الصالحين الذين إذا جلست معهم ذكروك ودعوك إلى ا للَّه

ورغبوك في الخير وحثوك على الطاعة زينوا لك كثرة الحسنات وحثوك على تعلم العلم النافع وعلى الأعمال الصالحة وحثوك على الإكثار من الحسنات والقربات وحذروك من المحرمات اصبر مع هؤلاء وأوص إخوانك بمثل هذا الأمر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] يعني: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر عن المعاصي لكون النفس قد تتفلت إلى المعصية وتشتهيها ولكن المؤمن يصبر نفسه ويمنعها عندما تنازعه إلى هذه الشهوات المحرمة فإذا حبس نفسه فإنه يعتبر من الصابرين الذين مدحهم اللّه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصبر بجميع أنواعه ضياء ونور يستضاء به في هذه الحياة « **والصبر ضياء** ».

ثم يقول - ﷺ - في هذا الحديث: « **والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمُعتقها أو موبقها** ». أخبر بأن القرآن حجة لك أو عليك وليس خاصًا بمن يقرأه أو من قرأه بل جميع الأمة المخاطبون بالقرآن مأمورون بأن يعملوا به ومأمورون بأن يتبعوه فمن اتبع تعاليم القرآن ومن اقتدى به ومن عمل بما فيه من الإشارات واعتبر به وتذكر وأحكمه وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه ووقف عند عجائبه وتدبره وتلاه حق تلاوته فإنه حجة له وأما من لم يعمل به بل كان معه القرآن أو لم يكن معه فنام عنه في الليل ولم يعمل به في النهار فإن القرآن حجة عليه وفي الحديث المشهور الذي فيه أنه يؤتى بالرجل قد حمل القرآن فينتصب القرآن له خصمًا -يعني: يخاصم عنه فيقول: يا رب حملته إياي فخير حامل عمل بأوامري وترك زواجري وحفظ حدودي. فلا يزال يقذف له الحجج حتى يقال شأنك به فلا يتركه حتى يدخله الجنة ويلبسه تاج الوقار ويؤتى بالرجل قد حمل القرآن ولم يعمل به فينتصب القرآن خصمًا له فيقول له: يا رب حملته إياي فشر حامل تعدى حدودي وارتكب زواجري وترك أوامري فلا يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال:

شأنك به فلا يتركه حتى يكبه في النار[١].

إذًا فالقرآن إما أن يكون خصمًا لك وإما أن يكون خصمًا عليك ويل لمن شفعاؤه خصماؤه والصور في يوم القيامة ينفخ.

« **كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها** ». كل الناس كل من خرج من بيته فإنه بائع نفسه فإما أن يعتق نفسه وإما أن يوبقها فإما أن يبيعها على اللّٰه تعالى ويربح ويعمل الحسنات ويعمل الأعمال الصالحة فيكون قد حرر نفسه. أو يوبقها ويهلكها بالسيئات والمخالفات.

❁ ❁ ❁

(١) لم أجده. ذكره ابن رجب في المجلس الثاني من وظائف رمضان.

الحديث الرابع والعشرون

تحريم الظلم

عن أبي ذَرٍّ الْغِفاريِّ – رضي اللهُ عنه – ، عن النبيِّ ﷺ فيما يَرْويهِ عن رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ أَنَّهُ قال : « **يا عِبادي ! إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وَ جعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا** .

يا عِبادي ! كُلُّكُمْ ضالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فاسْتَهدُوني أهْدِكُمْ .

يا عِبادي ! كُلُّكُمْ جائعٌ إلا مَنْ أطْعَمْتُهُ ، فاسْتَطْعِمُوني أُطْعِمْكُم .

يا عِبادي ! كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فاسْتكْسوني أكسُكُم .

يا عِبادي ! إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بالليْلِ والنَّهارِ ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعًا ، فاسْتَغْفِرُوني أُغْفِر لكُمْ .

يا عِبادي ! إنَّكُمْ لنْ تبْلغُوا ضَرّي فتَضُرُّوني ، ولن تبْلُغُوا نفْعي فَتَنْفعُوني .

يا عِبادي ! لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ مِنكُمْ ما زادَ ذلك في مُلْكي شَيئًا .

يا عِبادي ! لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَفْجرِ قَلْبِ وَاحدٍ مِنْكُمْ ما نَقصَ مِنْ مُلْكي شَيئًا .

يا عِبادي ! لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجنَّكُمْ قاموا في صَعِيدٍ ، فَسَأَلُوني ، فأَعْطَيْتُ كلَّ واحدٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ .

يا عِبادي ! إنَّما هي أعمَالكُمْ أُحصِيها لكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها ، فَمَنْ وَجَدَ خيْرًا

فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلك فَلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَهُ » . رَواهُ مُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث القدسية التي يحكيها النبي - ﷺ- عن ربه .

وهذه الأحاديث النبوية من كلام اللَّه تعالى ولكن قيل : إن المعنى من كلام اللَّه أوحاه اللَّه إليه وحيًا بالمعنى ، وأما التعبير واللفظ فإنه من صياغة النبي - ﷺ- وهذا يكون فارقًا بينها وبين القرآن ولأجل ذلك ليس لها حكم القرآن بمعنى أنه يجوز أن يقرأها الجنب ولا تصح الصلاة بقراءتها ولا يتعبد بتلاوتها كما يتعبد بتلاوة القرآن فهي أحاديث نبوية ولكنها من كلام اللَّه تعالى سواء باللفظ أو بالمعنى .

وأيضًا لم تنقل نقلًا متواترًا كما نقل القرآن وإنما نقلت نقل الأحاديث ونقل الآحاد ولا شك أنها ثابتة إذا كانت مروية بأسانيد صحيحة فهي مقطوع بصحتها ولو كانت من أخبار الآحاد فهذا الحديث اشتمل على عشر جمل :

فالجملة الأولى : في تحريم الظلم يقول : « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا ، فلا تظالموا** » . قد أخبر اللَّه تعالى بأنه لا يظلم أحدًا قال تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر : ٣١] .

فالظلم : هو وضع الشيء في غير موضعه يكون الظلم ببخس الحق والنقص منه أو بالزيادة فيه فالمعنى : أن اللَّه تعالى لا يظلم المحسنين فينقص من حسناتهم ولا يظلم المسيئين فيزيد في سيئاتهم كلاهما ظلم ولا شك أن اللَّه تعالى هو أعدل من

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم (٥٥) (٤/١٩٩٤ - ١٩٩٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٩٠) (ص١٧٢) من طرق عن أبي ذر رضي الله عنه به .

حكم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولا يحمل على أحد ذنب غيره ولا يمكن أن يبخس أحدًا شيئًا من حقه بل إنه تعالى يتفضل على عباده ومن ذلك أنه يضاعف الحسنات فالحسنة يضاعفها إلى أضعاف كثيرة قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال - ﷺ - في الحديث الآتي إن شاء الله تعالى: «**إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف**»(١). وكذلك في الحديث الآخر: «**كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**»(٢).

فهذا دليل على أنه يتفضل على عباده فكيف يقال إنه يظلم أحدًا؟! وكذلك أيضًا يتفضل عليهم فيعفو عن كثير من السيئات ولو يعاملهم بعدله لهلكوا كما في قوله - ﷺ -: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا**»(٣).

فإذًا الخلق بحاجة إلى فضلة فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها هذا ما يتعلق بقوله: «**حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**».

إذا كان الله تعالى لا يظلم أحدًا فكذلك أيضًا حرم الظلم بين العباد بمعنى: أنه

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان: باب إذا هم العبد بحسنة ... (٢٠٤) (١/١١٧) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الصوم: باب هل يقول إني صائم إذا شتم (١٩٠٤) (٤/١٤١ - فتح) وفي مواضع أخرى، ومسلم في «صحيحه» كتاب الصوم: باب فضل الصيام (١٦٣- ١٦٥) (٢/٨٠٧، ٨٠٨) - كلاهما - من طرق عن أبي صالح وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه- وله ألفاظ كثيرة متقاربة.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المرض: باب تمني المريض الموت (٥٦٧٣) (١٠/١٣٢، ١٣٣ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب صفة المنافقين: باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ... (٧٥) (٤/٢١٧٠) كلاهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

حرم على المسلم أن يظلم إخوته المسلمين بل حرم عليهم أن يظلم بعضهم بعضًا حتى ولو كان المظلوم كافرًا فعليه أن يعطي كل ذي حق حقه وأن يوفيهم ما لديه لهم وأن يعطيهم ما يستحقونه قبله .

لا شك أن الإنسان إذا أنصف من نفسه فإنه يعطي الحق كل من عنده له حق أيًّا كان ذلك الحق ويبتعد عن الظلم .

الظلم : يعم الظلم باللسان ، ويعم الظلم في المال ، ويعم الظلم في الأعراض ، ويعم الظلم في الدماء والأنفس كل ذلك قد يقع فيه ظلم فيقال : فلان ظلم أخاه فاغتابه وقدح في عرضه هذا ظلم محرم . ويقال : فلان ظلم أخاه في ماله فأخذ من ماله ما لا يستحقه وأخذ من ماله شيئًا بغير حق وأخفاه اختلاسًا أو سرقة أو تعديًا أو غصبا أو غصبًا بغير حق فيكون ظالمًا في المال . ويقال أيضًا : فلان ظلم أخاه فأراق دمه أو ضربه أو جرحه أو قطع طرفًا منه بغير حق يعتبر كل هذا من الظلم .

فالظالم هو المعتدي على غيره من المسلمين بغير حق بأن يتعامل معهم بما يكون فيه ضرر عليهم في شيء مما لهم فيه مصلحة .

لا شك أن هذا الظلم والعدوان على الأموال والأنفس والأعراض من كبائر الذنوب حتى عده النبي - ﷺ - كالكفر بقوله : « **لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض** »[1] . فعد الظلم بإراقة الدماء من الكفر ولما خطب في حجة الوداع قال : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا**

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب العلم : باب الإنصات للعلماء (١٢١) (١/٢٦٢ - فتح) ، وفي المغازي والفتن والديات ، ومسلم في « صحيحه » باب معنى قول النبي - ﷺ - : « لا ترجعوا بعدي كفارًا ... » (١٨) (١/٨١-٨٢) من طريق شعبه عن علي بن مدرك عن أبي زرعة بن عمرو عن جرير - رضي الله عنه - به .

وفي الباب : عن ابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبي بكرة - رضي الله عنهم - .

في شهركم هذا في بلدكم هذا »[١] . وكان في مكة في يوم العيد أخبر بأن اللّٰه تعالى حرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم -يعني : حرم أن يعتدي بعضهم على بعض ومع ذلك فقد أخبر بأن الظالم لا يسلم له ما ظلمه لا بد أن تقتص المظالم وأن يقتص للمظلوم من الظالم وأن يوفى كل ذي حق حقه حتى بين البهائم حتى قال - ﷺ- : **« لتؤدن الحقوق- يعني : المظالم- بين العباد حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء »**[٢] . فإذا كان هذا بين البهائم فكيف بين العباد .

ورد أيضًا أنه - ﷺ- قال : **« إن المفلس من يأتي من أمتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلومين فطرحت عليه ثم يطرح في النار »**[٣] .

---

(١) جزء من حديث خطبة الوداع أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب البيوع : باب في وضع الربا (٣٣٣٤) (٣/٢٤٢) ، والترمذي في « سننه » كتاب الرضاع : باب ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٣) (٣/٤٥٨) ، وانظر : (٣٠٨٧) ، وقال : حسن صحيح ، والنسائي في « الكبرى » (٩١٦٩) (٥/٣٧٢) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب النكاح : باب حق المرأة على الزوج (١٨٥١) (١/٥٩٤) ، وانظر : (٢٦٦٩، ٣٠٥٥) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٤٢٦، ٤٩٨) - كلهم من طريق سليمان بن عمرو بن الأحوص من حديث أبي بكرة ومن حديث جابر - رضي الله عنهما - .

وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » ، وحسنه في « صحيح الترمذي وابن ماجه » .

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم (٦٠) (٤/١٩٩٧) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٨٣) (ص٤٧) كلاهما من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

(٣) عن النبي - ﷺ - بلفظ : « يقتص الخلق بعضهم من بعض ، حتى الجماء من القرناء وحتى الذرة من الذرة » .

أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم (٥٩) (٤/١٩٩٧) من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

فجعل هذا جزاء الظالم أنها تؤخذ حسناته للمظلوم ؛ وذلك لأنه ليس في الآخرة إلا الحسنات حيث أن الحقوق المالية قد ذهبت فالقصاص يكون من الحسنات وهذا النوع لا يترك منه شيء .

ورد في حديث آخر في المسند أن - ﷺ- قال : « **الدواوين ثلاثة : ديوان لا يغفـره اللَّه وهو الشرك باللَّه** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] و[النساء: ١١٦] **وذلك لأن الشرك ظلم لأنه وضع للعبادة في غير موضعها ، وديوان لا يعبأ اللَّه به وهو ظلم الإنسان نفسه يعني : فيما بينه وبين نفسه ، وديوان لا يترك اللَّه منه شيئًا وهو ظلم العباد بعضهم لبعض القصاص لا محالة** »(١) .

يؤكد بذلك أن على الإنسان أن يتخلص من حقوق الناس قبل ألا يكون هناك إلا الحسنات قبل ألا يؤخذ إلا من الحسنات التي قدمها لآخرته فتكون من نصيب غيره .

لا شك أن الظلم الذي قال اللَّه في هذا الحديث : « **وجعلته بينكم محرمًا** » . يدخل في ظلم الشرك ويدخل فيه ظلم النفس ويدخل فيه أيضًا ظلم العباد فيما بينهم فإن الجميع محرم ولكن ظلم النفس قد يغفر اللَّه تعالى وقد يكفر بالاستغفار ، ومنه الظلم الذي ذكره اللَّه تعالى عن ذي النون في قوله تعالى : ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي : من الظالمين لنفسي .

---

(١) حسن لغيره : أخرجه أحمد في « مسنده » (٦/٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٥/٤) وصححه على شرطهما من طريق صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس عن عائشة - رضي الله عنها - به .
قال في « المجموع » (٣٤٨/١٠) : « رواه أحمد وفيه صدقة بن موسى وقد ضعفه الجمهور ... وبقية رجاله ثقات » .اهـ .
والحديث له شاهد عن أنس - رضي الله عنه - عن الطيالسي ، وأبي نعيم في « الحلية » .
وحسنه الألباني لغيره في « الصحيحة » (١٩٢٧) .

فالإنسان إذا عرف أنه ظلم نفسه فعليه أن يستغفر ومن الأدعية ذلك الدعاء الذي في التشهد آخر الصلاة الذي علمه النبي - ﷺ- لأبي بكر -رضي الله عنه- : « **اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم** »(١). يكثر الإنسان من هذا الدعاء .

وأما الخصلة الثانية :وهي قوله تعالى : « **يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم** » . فهي كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ ، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ والضلال هو الضياع والبعد عن الحق فالمعنى أن الخلق في ضلال تائهون بعيدون عن الصواب إلا من هداه اللَّه تعالى وبصرّه بالحق ورده إليه ردًا جميلًا فهم بأمس الحاجة إلى سؤال اللَّه تعالى أن يدلهم على الطريق السوي وأن يبصرهم بالحق والصواب فإن أسباب الضلال كثيرة حيث أن اللَّه قد سلط عليهم الشيطان الرجيم وهو الذي قال اللَّه عنه ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ وقد أضل خلقًا كثيرًا فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين وهكذا سلط عليهم الدنيا وزينتها فانخدع بها خلق كثير وأكبوا على شهواتها وملذاتها وأعرضوا عن الحق والهدى فهم في ريبهم يترددون فيلزم العباد أن يطلبوا من اللَّه أن يهديهم ويبصرهم بالحق والصواب كما أمرهم بطلب الهداية في سورة الفاتحه ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ مما يدل على شدة الحاجة منهم إلى هداية اللَّه تعالى لهم حتى لا يبقوا على هذا الضلال والبعد عن الصواب .

أما الخصلة الثالثة والرابعة :قوله : « **يا عبادي ! كلكم جائع إلا من أطعمته** ،

---

(١)أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الدعوات : باب الدعاء في الصلاة (٦٣٢٦) (١١/١٣٥- فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الدعوات : باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤٨) (٤/ ٢٠٧٨) - كلاهما من طريق الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه به - .

فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم». هذه الجمل تدل على أن الإنسان بحاجة إلى اللَّه تعالى وأنه لا يستغنى عن ربه طرفة عين وأن اللَّه تعالى يتفضل على عباده إذا طلبوا منه أن يعطيهم وأن يمنحهم فعليهم أن يلجئوا إليه.

معلوم أن اللَّه تعالى هو الذي يسهل الأرزاق وهو الذي يسهل الأسباب فالإنسان عاجز عن تحصيل شيء إلا بتيسير اللَّه تعالى وبتوفيقه له وبإمداده له فهو الذي يطعمه من جوع ويؤمنه من خوف كما في قول اللَّه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

فإذا عرف العباد شدة حاجتهم إلى اللَّه تعالى وعدم استغنائهم عنه رفعوا إليه أكف الضراعة وأكثروا من سؤاله وأظهروا الافتقار إليه كما في دعاء الاستسقاء يقولون: «**اللهم أنت الغني ونحن الفقراء**»(١). يعني: نحن نعترف بأنا فقراء في الذات وأنت الغني بالذات يتذكرون معنى قول اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

الفقر وصف ملازم للإنسان بالذات ولو ملك ما ملك من الدنيا ولو أعطى ما أعطي فإنه فقير بالذات على مقتضى هذه الآية ولا غنى له عن اللَّه تعالى طرفة عين

---

(١) هو جزء من حديث عائشة الطويل في الاستسقاء، وفيه قال النبي - ﷺ -: «**اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء إليك ....**».

حسن: أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الصلاة: باب رفع اليدين في الاستسقاء (١١٧٣) (١/ ٣٠٢، ٣٠٣)، والطحاوي في «معاني الآثار» (١/٣٢٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٩١) (٣/٢٧١)، (٢٨٦٠) (٧/١٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (١/٤٧٦) وصححه على شرطهما، والبيهقي في «الكبرى» (٣/٣٤٩) - كلهم من طريق خالد بن نزار عن القاسم بن مبرد، عن يونس، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - فذكرته بطوله. وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود»، والأرناؤوط في «هامش ابن حبان».

فاللَّه تعالى قادر على أن يسلبه ماله ويفقره فكم من أناس كانوا في ثروة وفي غنى وفي سعة رزق في أول السنة أو في أول الشهر وسلبوها في آخر الشهر ولم يبق معهم ما لهم فدل على أنهم فقراء.

إذًا فعليهم أن يظهروا الفاقة والفقر للَّه وأن يسألوه أن ييسر لهم الأسباب التي يعيشون بها يتذكرون أنهم جياع إلا إذا أطعمهم اللَّه تعالى ورزقهم ووفقهم وأنهم عراة إلا إذا كساهم اللَّه تعالى وأعطاهم ما يسترون به عوراتهم فلو شاء لسلبهم ما أعطاهم ولأصبحوا لا يملكون شيئًا.

فهذا تحقيق معنى هذه الجمل فلابد أن يتعبد العباد بأن يدعوا اللَّه تعالى ويتوسلوا إليه بصفاته وبأسمائه؛ لأنهم فقراء إليه بالذات كما في البيت المشهور:

فالفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

معنى قوله: «**فاستطعموني أطعمكم**». يعني: أمر بأن يسألوه أن يرزقهم وأن يطعمهم، ويسن أن الإنسان إذا أكل وشبع أن يحمد اللَّه ويقول: «**الحمد اللَّه الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة**». ولو كان الإنسان له حيل وله فطنة وله قوة وله إدراك وله معرفة بطرق الاكتساب فليس ذلك سببًا في حصول الغنى إلا إذا وفقه اللَّه تعالى وأعانه، يقول بعض الشعراء:

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أقطار السماء تعلقي
لكن من رزق الحجى حرم الغنى ضدان مفترقان أي تفرق

يعني: من كان ذا حجى يعني ذا عقل ورزانة فإنه يقنع بما آتاه اللَّه تعالى ويترك منافسة أهل الدنيا ويرضى بما يسر اللَّه له ومن كان كذلك فإن اللَّه يرزقه من حيث لا يحتسب إذا اتقى اللَّه وعمل بتقواه على حد قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وأما الخصلة الخامسة: وهي قوله تعالى: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل**

والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم. ففيها الحث على الاستغفار من الذنوب والخطايا وأن الإنسان لا يسلم من اقتراف الذنوب عمدًا وخطأً فهو بحاجة إلى سؤال اللَّه تعالى عفوه ومغفرته في كل وقت وقد روي في حديث مرفوع: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». أي أنه لا يسلم أحد إلا من شاء اللَّه من عمل سيئة وفعل خطيئة وسهو وغفلة وترك شيء من الواجبات وتساهل فيما أمر اللَّه به، وإذا كان كذلك فلابد من الاستغفار والتوبة كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ وقد ذكر اللَّه تعالى للاستغفار فوائد عاجلة وآجلة كما ذكر اللَّه تعالى عن هود في قوله تعالى ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وعن نوح عليه السلام في قوله تعالى ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

وفي الحديث: **«من لزم الاستغفار جعل اللَّه له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا»**. وقد أمر اللَّه تعالى نبيه بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وقال عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وكل ذلك دليل على فضل الاستغفار والحث عليه ولو لم يتذكر العبد ذنوبًا وخطايا فإنه لا يخلو من عمل سيئة أو غفلة أو خطيئة ولو من صغائر الذنوب فإنها مع الإصرار عليها تكون من الكبائر. ومعنى الاستغفار طلب الغفران الذي هو الستر والتغطية ومحو السيئات وإزالة أثرها والعفو عنها حتى لا يؤاخذ العبد عليها ولا يعاقب بسببها فاللَّه تعالى عفو يحب العفو وقد أخبر اللَّه تعالى عن مغفرته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وأمر به في هذا الحديث بقوله: **«فاستغفروني أغفر لكم»**. فعلينا كثرة الاستغفار كما أمرنا.

وأما عن الخصلة السادسة وهي قوله: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني». ففيها أن اللَّه تعالى هو القوي العزيز وأنه لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين بل هو النافع الضار وإنما كلف العباد بفعل الأوامر وترك النواهي لاختبارهم وامتحانهم ليظهر المطيع والعاصي مع أنه عليم بهم قبل أن يخلقهم وإنما كلفهم بهذه التكاليف وأمدهم بالقوى ومكن لهم وأقدرهم وأعطاهم العقول والأفهمام وأخبرهم بما خلقوا له بقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فإن أطاعوا وعملوا الصالحات وتركوا المحرمات فلهم الثواب والأجر الكبير في الدنيا والآخرة وإن عصوا وتمردوا وخرجوا عن أمر ربهم وعبدوا أهوائهم واتبعوا ما أسخط اللَّه فلهم العذاب عاجلًا وآجلًا ولا يظلم ربك أحدًا وأنه اللَّه عفو غفور.

وأما الخصلة السابعة :وهي قوله: **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئًا»**. فهي تدل على ما دلت عليه الجملة قبلها وأن عبادة الخلق يعود نفعها عليهم كما قال اللَّه تعالى ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقد أخبر اللَّه أنه غني عن عباده بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وبقوله ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وبقوله تعالى ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ فربنا تعالى غني عن عبادة الخلق؛ لأنه مالك الملك ورب السماوات والأرض وما بينهما فالخلق خلقه والأمر أمره بيده ملكوت كل شيء فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع فالخلق بحاجة شديدة إلى عطائه وفضله ولا غنى لهم عن ربهم طرفة عين، وفي ذلك دليل على أن العباد هم الذين يزاولون أعمالهم حسناتها وسيئاتها مع أن اللَّه تعالى يهدي من يشاء فضلًا منه ورحمة ويضل من يشاء عدلًا منه وحكمة ولكنه مكن لهم وأعطاهم من القوة

والقدرة ما يزاولون به أعمالهم وتنسب إليهم وعليها يثابون أو يعاقبون .

وأما الخصلة الثامنة : وهي قوله : « **يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا** » .
فهي كذلك تدل على غنى الرب تعالى عن عباده وعدم حاجته إلى عبادتهم وأن العصاة إنما يضرون أنفسهم فلو كفروا كلهم وعاندوا وبغوا وطغوا وتمردوا وخرجوا عن أمر ربهم ؛ لأنهم لا يضرون اللَّه تعالى ولا ينقص من ملكه شيئًا فله ملك السماوات والأرض وله الخلق والأمر وبيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله وإنما كلفهم ودعاهم إلى عبادته ليظهر من يطيع ويعصي كما قال ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي يظهر معلوم اللَّه فيهم وبين ظاهرًا عيانًا .

وأما الخصلة التاسعة : وهي قوله تعالى : « **يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر** » . ففيها دليل واضح على غنى الرب وسعة فضلة وأن خزائنه ملآى وفي الحديث المشهور قول النبي - ﷺ- « **يمين اللَّه ملآى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتهم ما أنفق منذ خلق السماوات والارض فإن لم يفض ما في يمينه** » . وفي ذلك ترغيب للعباد كلهم في سؤال ربهم حاجاتهم وحثهم على كثرة الدعاء ففي الحديث من لم يسأل اللَّه يغضب عليه فاللَّه تعالى هو القائم بأرزاق جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والطيور والحشرات كما قال اللَّه تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ وقال تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فاللَّه تعالى هو القائم بأرزاق جميع المخلوقات في البراري والبحار والقفار وقد ألهم كل حيوان كيف يحصل على رزقه وقوله « **ولا ينقص**

ذلك مما عند الله شيئًا » . فإن عطاءه كلام وعذابه كلام وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون فإذا أنزل العباد به حاجاتهم ورغبوا إليه في الفضل والعطاء فإنه سبحانه يجيب من دعاه ويعطي من سأله كما قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد أخبر في الحديث المذكور أن الخلق كلهم من الإنس والجن وجميع الحيوانات لو اجتمع أولهم وآخرهم وسألوا ربهم جميع ما يحتاجون في عاجل الأمر وآجله فأجابهم وأعطاهم ما تمنوه وما طلبوه فإن ذلك لا ينقص من ملكه شيئًا وقد مثل بنقص المخيط إذا غمس في البحر ومعلوم أن البحر لا يظهر فيه النقص لو اجتمع الخلق واغترفوا منه وشربوا وسقوا دوابهم وحرثوهم وأشجارهم وملئوا ما عندهم من الأواني والأدوات فكيف إذا غمس فيه المخيط الذي هو حديدة صغيرة ملساء تستعمل في خياطة الثياب والأكياس ونحوها فالمعنى أنه لا ينقص مما عند الله ما يعطيه خلق ولا ما يمنحه العباد فإن جميع ما في الكون فهو ملكه وخلق وما في أيدي العباد فهو عطاء منه وفضل فلو شاء سلبهم ما أعطاهم .

وأما الخصلة العاشرة : وهي قوله : « **يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » . ففيها دليل على أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددًا وأنه لا يغفل ولا يظلم عباده وإنما يجازي كلًّا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر فأعمال العباد مكتوبة عليهم قد علمها الله تعالى قبل أن يخلقهم ووكل بهم الكرام الكاتبين من الملائكة ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ، فإذا بعث العبد فإنه سيلقى عمله كما قال تعالى ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، فأعمال العباد محصاة عليهم الحسنات والسيئات مع أن الله تعالى قد أخبر بأن الحسنات يذهبن السيئات وأن من تاب إلى الله قبلت توبته ومحيت عنه خطاياه

أما من أصر على الخطايا والذنوب ومات على ذلك فإنه سيجد ذلك في سجل أعماله ولو كان قليلًا لقول اللّٰه تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .

فمثل بمثقال الذرة لصغرها وفي ذلك حث للعبد على فعل الخير ولو كان قليلًا والبعد عن الشر مهما صغر في النفس إذا علم أنه سوف يحاسب عليه فقد أخبر اللّٰه تعالى قد يجازيه في الدنيا ويوسع عليه بسبب أعماله الصالحة فيبوئه في الدنيا حسنة ويحيه حياة طيبة ويرزقه من حيث لا يحتسب ولا ينقص ذلك حظه في الآخرة بل يرفع مقامه ويعلى درجته ويؤتيه كتابه بيمينه ويدخله دار كرامته ويجد ما عمل محضرًا فعليه أن يحمد اللّٰه تعالى فهو الذي وفق وسدده وهداه وأقبل بقلبه على الطاعة وحفظه وحماه عن الكفر والبدع والمعاصي فيحمد ربه ويشكره في الدنيا والآخرة وأما الكافر والمبتدع والعاصي المصر على المعصية فقد يعذبه في الدنيا قبل الآخرة كما حصل لقوم نوح ومن بعدهم ولهم في الآخرة عذاب النار وقد يمهل لهم ويعطيهم ويوسع عليهم ويعجل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ويمهلهم حتى يظنوا أن ذلك دليل رضى اللّٰه عنهم فأخذهم على غرتهم وغفلتهم أخذ عزيز مقتدر أو يؤخر عذابهم إلى الدار الآخرة فيجدون سيئاتهم موفرة فيجازون عليها بعذاب النار فيرجعون على أنفسهم باللوم والتوبيخ ويقولون ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ولا ينفعهم لومهم ويقال لهم ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ نعوذ باللّٰه من الخذلان واللّٰه أعلم .

❁ ❁ ❁

الحديث الخامس والعشرون
ذهب أهل الدثور بالأجور

عن أبي ذَرٍّ - رضي اللهُ عنه - : أَنَّ ناسًا من أَصْحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، ذَهَب أَهْلُ الدُّثورِ بالأُجورِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُون بِفضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: «أَوَ ليسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إنَّ لَكُمْ بكلِّ تَسْبيحَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٍ بِالْمَعرُوفِ صَدَقَةً، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةً، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أجرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَها في حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟! فَكَذلِكَ إذَا وَضَعَها في الْحَلَالِ كانَ لَهُ أَجرٌ». رَواهُ مُسْلِمٌ(١).

شرح الحديث:

هذا حديث شريف فيه الحث على هذه الأعمال الخيرية والترغيب في الأذكار والترغيب في فضائل الأعمال وسببه ما سمعناه من أن فقراء الصحابة كانوا يحبون أن يتصدقوا ويرون أغنياء الصحابة يتصدقون بفضول أموالهم فاشتكوا إلى النبي - ﷺ- وقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور وبالنعيم المقيم وبجنات النعيم ذهبوا بها دوننا فقال: «وما ذاك؟» فقالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الزكاة: باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٥٣ - ١٠٠٦) (٢/ ٦٩٧، ٦٩٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٢٧) (ص٨٩) عن أبي ذر - رضي الله عنه - به.

ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق يشاركوننا في الأعمال البدنية التي نقدر عليها وينفردون بالأعمال المالية حيث أن عندهم فضل من الأموال فيتصدقون ونحن لا نقدر على الصدقة لأنا لا نملك مالًا نتصدق به ويشترون الأرقاء فيعتقونهم ونحن ليس عندنا ما نشتري به لنعتق ويحظون بأجر الصدقات التي قال النبي - ﷺ - فيها : « **والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار** »(١) وكذلك يحظون بالعتق الذي قال فيه : « **أن من أعتق مسلمًا أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار** »(٢) .

فكأن هذه الخصال لما فاتتهم أحبوا أن يكون لهم عوض منها أو بدلها فأرشدهم النبي - ﷺ - إلى أن هناك ما يقوم مقام الصدقة هناك الأذكار والأعمال الخيرية فإنها تعتبر صدقة وقد ثبت أنه - ﷺ - قال : « **كل معروف صدقة** »(٣)

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب الإيمان : باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) (٥/ ١١، ١٢) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الفتن : باب كف اللسان في الفتن (٣٩٧٣) (٢/ ١٢١٤، ١٢١٥) ، وأحمد في « مسنده » (٥/٢٣١) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١١٢) (ص٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٦٦) (٢٠/١٣٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٤) (١/٩٥) - كلهم من طريق معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - به .
وصححه الألباني في « صحيح الترمذي وابن ماجه » .
وأخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٢٤٨) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن شهر بن حوشب عن معاذ - رضي الله عنه - به .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب كفارات الأيمان : باب قوله تعالى :﴿ أو تحرير رقبة ﴾ (٦٧١٥) (١١/٦٠٧ - فتح) ، وفي كتاب العتق : باب في العتق وفضله (٢٥١٧) (٢/٦٠٧ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب العتق : باب فضل العتق (٢١- ٢٤)- كلاهما - من طريق سعيد بن مرجانة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .
وفي الباب : عن أبي موسى ، وعمرو بن عبسة ، وكعب بن مرة ، وعقبة بن عامر ، ومالك بن عمرو القشيري ، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر - رضي الله عنهم - وغيرهم .

(٣) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب : باب كل معروف صدقة (٦٠٢١) =

والمراد به كل عمل صالح يدخل في المعروف إذا عمل به الإنسان فإنه صدقة – أي : له أجر كأجر المتصدقين يثاب عليه ويحصل له الأجر العظيم فيدخل في ذلك الأذكار ، ومن المعروف : الأدعية والتلاوة والدعوة إلى اللَّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصائح والإرشاد والدلالة على الأعمال الخيرية كل هذه صدقة مُتعد نفعها فإنك مثلًا إذا أرشدت إنسانًا ضالًا ودللته على ما يرشده وينقذه من الضلالة فقد أحسنت إليه كأنك تصدقت عليه بهذه الصدقة التي صرفته بها عن منكر ودللته على المعروف وأوقعته في الخير وصرفته عن الشر فقد تصدقت عليه –يعني : أحسنت إليه إحسانًا جميلًا فهذا يقوم مقام الصدقة ، لكونه نفعًا لمسلم . كذلك أيضًا إذا رأيته يجهل حكمًا من الأحكام فبينت له هذا الحكم وكيفية العمل به فإن ذلك أيضًا من الصدقة فقد كان جاهلًا بمسألة فدللته على ما يعلمه فأحسنت إليه وعلمته حكمًا فذلك صدقة منك عليه وهكذا إذا رأيته على منكر فنهيته عن ذلك المنكر وحذرته منه وأقلع بسببك عنه وفعل المعروف وتاب وأناب إلى اللَّه وأصلح عمله بعد ما كان العمل سيئًا فإنك والحال هذه قد تصدقت عليه .

يعدل هذا صدقة المال أو يزيد عليها ؛ وذلك لأن الصدقة الحسية التي هي الصدقة بالمال تذهب وتستهلك هذه الصدقة كأن يشتري بها طعامًا أو يشتري بها كسوة أو نحو ذلك ثم تتلف وأما هذه الصدقة التي هي النصيحة والإرشاد والأمر بالمعروف والدلالة على الخير والتحذير من الشر والدعوة إلى التوبة من المحرمات فإنها باقية فإذا وفقه اللَّه تعالى وقبل هذه النصيحة بقيت معه وبقي يعملها وبقي لك أجرها ما دام يعمل بها فمن دل على خير فله مثل أجر فاعله ومن دعا إلى هدى كان

= (١٠/٤٦٢ – فتح) ، وفي «الأدب المفرد» (٢٢٤) (ص٨٨) ، (٣٠٤) (ص٣٢٩) عن جابر – رضي الله عنه – به .

وفي الباب : عن حذيفة بن اليمان ، وابن مسعود ، وعبد الله بن يزيد ، وأبي ذر – رضي الله عنهم– .

له مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا فهذه صدقة معنوية فقد دلهم النبي - ﷺ- على الأعمال التي تكون قائمة مقام الصدقة حيث ظنوا أن الصدقة خاصة بالمال فقال لهم: «**أوليس قد جعل اللَّه لكم ما تصدقون**». أي طلب منكم أشياء تتصدقون بها وليست مالًا فتصدقوا بها ولو كنتم فقراء ولو كنتم ممن يتصدق عليه بصفتكم فقراء وبالأخص المهاجرين الذين ليس لهم مال وليس لهم ما يأكلون منه إلا ما يعطون من الصدقات فبين - ﷺ- أن الصدقة بالنصح وبالدعوة إلى اللَّه تعالى تقوم مقام الصدقة بالمال فعدَّ من ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المعروف: هو كل ما تعرفه النفوس وتعلمه وتشهد بملاءمته وبحسنه.

المعروف: كل أمر يحبه اللَّه تعالى ويرضاه.

كل ما يدعو إليه الإسلام ويرغب فيه فإنه معروف -أي: مما يحبه اللَّه تعالى فإذا دعا الإنسان إلى اللَّه تعالى ونصح إخوانه الذين قد أخلوا بشيء من الطاعات. صدق عليه أنه تصدق عليهم مثل أمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر فكل منهما صدقة.

والمنكر: هو كل شيء تستنكره النفوس المطمئنة النفوس السليمة وتنفر منه وتستقبحه وتشهد بقبحه وببشاعته وبشناعته فإن هذه النفوس لا شك أنها تعرف الخير وتعرف الشر ولو كان هناك نفوس منتكسة تجعل المعروف منكرًا والمنكر معروفًا فلا عبرة بها وإنما العبرة بالنفوس المطمئنة.

فإن اللَّه تعالى ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه، وما نهى عن شيء فقال العقل السليم ليته أمر به، بل كل ما أمر اللَّه به فإنه خير وإحسان ومحبوب إلى اللَّه كيف كان وكل شيء نهى عنه فإنه قبيح ومستنكر فعلى هذا يقوم الإنسان بالأمر والنهي حتى يكون كأنه تصدق على إخوانه الذين أمرهم ونهاهم فهو صدقة أعظم من الصدقات بالمال.

كذلك أيضًا عد من الصدقة الأذكار قال : « **بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة** » . هذه الكلمات يسيرة سهلة خفيفة ليس في قولها صعوبة لا يسأم الإنسان ولا يتعب إذا سبح ولو سبح ألف تسبيحة أو ألف تكبيرة في المجلس لا يقول إني سئمت وتعبت ليست حركة اللسان مثل حركة الرأس وحركة اليد وحركة الرجل فإن الإنسان إذا سار على قدميه سيرًا متواصلًا -ساعة أو ساعتين- يحس بتعب ويحتاج إلى أن يريح نفسه وليس كذلك الكلام فلذلك أرشد إلى الصدقة بالذكر ، فنكثر من ذكر اللَّه تعالى تسبيح اللَّه تعالى وتنزيهه وتقديسه عن النقائص ، فأنت إذا قلت : سبحان اللَّه فالمعنى : أنزه اللَّه وأقدسه وأجله عن أن يكون له شريك أو يكون له ولي من الذل أو يكون له ولد أو والد أو يكون له كفؤ أو يكون له ند ، فأنت تنزه اللَّه تعالى عن كل نقص وعيب - هذا هو فائدة التسبيح .

وكذا التكبير إذا قلت :اللَّه أكبر فإن معناه تعظيم اللَّه تعالى على كل ما سواه ، فإنك تقول ذلك وتستحضر عظمة اللَّه فإذا قال الإنسان : اللَّه أكبر . فإنه يكبر اللَّه يعني : يعتقد أن اللَّه أكبر . من كل شيء - من كل مخلوق خلقه اللَّه وأوجده وأن كل المخلوقات صغيرة وحقيرة بالنسبة إلى عظمة الرب سبحانه وتعالى والكلام على ذلك له محل آخر ، فالإنسان إذا قال : اللَّه أكبر . واستحضر عظمة اللَّه تعالى وأنه أكبر من كل شيء صغرت عنده نفسه واحتقرها وازدراها واعتقد أن الرب هو الكبير المتعال والإنسان هو الصغير الذليل الحقير فعند ذلك يخضع ويتواضع ويذل لربه ويخشع له ويتذلل بين يديه وبهذا صار التسبيح والتكبير من الصدقات المعنوية .
وكذلك التحميد إذا قال : الحمد للَّه . وكذلك التهليل كل هذه من الأذكار التي يحبها اللَّه تعالى ويندب إليها وقد فسر بذلك قول اللَّه تعالى : ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم : ٧٦] فالمراد بالباقيات هي قول : سبحان اللَّه

والحمد للَّه واللَّه أكبر وقال النبي - ﷺ- : « **أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهو من القرآن : سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر** »[(١)] فجعلها أفضل الكلام بعد القرآن مع أنها من القرآن يعني : موجودة في القرآن فيكثر الإنسان من هذه الأذكار لتقوم مقام الصدقة ويؤجر على ذلك .

ثم ختم الحديث بقوله : « **وفي بضع أحدكم صدقة** » . يعني في وطئه لزوجته ليعف نفسه وليعف امرأته وليطلب الولد الصالح فإذا فعل ذلك فإنه يؤجر على ذلك ولذلك قالوا : (أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟) قال : « **أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر** » .

فإذا تزوج الإنسان يريد العفاف فإنه يثاب على ذلك وإذا أعف امرأته بوطئها حتى لا تنظر ولا تمتد إلى غيره ولا تبلغ بها الشهوة أن تفعل الفاحشة فإنه يثاب على ذلك وكذلك إذا كان قصده مثلًا أن يطلب ولدًا صالحًا كان مثابًا على ذلك ولذلك فسر قوله تعالى : ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

قيل : ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ يعني : بالاستمتاع بهن .

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي : اطلبوا ما كتب اللَّه لكم من الولد الصالح فإن ذلك مما يثاب عليه الإنسان .

هذا مضمون هذا الحديث وفيه فوائد كثيرة مذكورة في كتب الشروح .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الأدب : باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ، عن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - به .

الحديث السادس والعشرون

فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم وإعانتهم

عن أَبي هُرَيْرَةَ - رضي اللهُ عنه - قال : قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ : « **كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ : تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وتُعين الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عليها أو تَرْفَعُ لهُ متَاعَهُ صَدَقَةٌ ، والْكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقَةٌ ، وبكُلِّ خَطْوَةٍ تَمشِيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ ، وتُمِيطُ الأَذَى عنِ الطَّرِيق صَدَقَةٌ** » . رَواهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ(١) .

شرح الحديث :

وهذا من الأحاديث التي تحث على كثرة الأعمال الخيرية التي يتقرب بها إلى اللَّه تعالى لتكون شكرًا للَّه على ما أولاه وعلى ما أنعم به على الإنسان وقد ورد في بعض الأحاديث وأيد ذلك أيضًا كثير من الأطباء أن الإنسان فيه ثلاثمائة وستون سُلامى(٢) -أي : مفصل أو قريب من ذلك .

فإن مفاصل الإنسان كثيرة إذا نظرنا مثلًا إلى كل إصبع من هذه الأصابع فإن فيه

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الصلح : باب فضل الإصلاح بين الناس ... (٢٧٠٧) (٥/ ٣٦٤ - فتح) ، وانظر : (٢٨٩٠، ٢٩٨٩) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب بيان أن اسم الصدقة تقع على كل نوع من المعروف (٥٦) (٦٩٩/٢) ، - كلاهما - من طريق معمر عن همام عن أبي هريرة - رضي الله عنه - به .

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٥٤) من طريق زيد بن سلام عن أبي سلام عن عبد الله بن فروخ عن عائشة - رضي الله عنها - به .

ثلاثة مفاصل فيكون في الكف خمس عشرة مفصلًا وفي الكف الثاني مثلها والمرفق ومفصل المنكب ومفصل الكتف ومفاصل الظهر ومفاصل الأضلاع ومفاصل الرجلين وكذلك أيضًا مفاصل الرأس والرقبة وما أشبهها ، هذه المفاصل تسمى سلامى فيقول - ﷺ - : « **كل سلامى من الناس عليه صدقة** » . أي : واجب عليك أن تتصدق عن كل مفصل من مفاصلك في كل يوم بصدقة أي : أن تتصدق في كل يوم بثلاثمائة وستين صدقة شكرًا للَّه تعالى على أن أعطاك هذه المفاصل التي يتم بها تقلبك ، فإن الإنسان لو كان عظمًا واحدًا ما تصرف فلو لم تكن هذه المفاصل في يده وفي بدنه لما قبض ولما لوى يده ولما رفعها ولما هصر ظهره ولما ركع وسجد وقام وقعد فاللَّه تعالى جعل فيه هذه المفاصل وهي وشائج تربط العظم بالعظم وبها أعصاب خلقت فيه بحيث أن هذا العظم مرتبط بهذا العظم وبينهما هذا العصب الذي يشده والحكمة في ذلك أن يتمكن من القبض ومن الفك ومن الأخذ ومن الإعطاء ومن التصرف ومن التنقل في حاجته ومن القعود ومن القيام ومن العمل الذي يريده بدون أن يكون عليه كلفة أو مشقة .

لا شك أن هذه نعمة عظيمة ، حيث خلقه على هذا الخلق أخبر بذلك في قوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] أي أحسن خلقه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار : ٧، ٨] .

فإذا تأمل الإنسان خلقته وما خلق عليه وما أعطاه اللَّه تعالى من هذه الأعصاب ومن هذه الأعظم ومن هذه المفاصل عرف أن ربه قد أحسن خلقه وكمله فما عليه إلا أن يقوم بحق اللَّه ، وأن يؤدي شكر هذه النعم فلذلك أخبر - ﷺ - بأن ذلك يتوقف على أن يتصدق عن هذه المفاصل عن كل مفصل صدقة فظن الصحابة أن الصدقة خاصة بالمال وهي أن ينفق من ماله كل يوم ثلاثمائة وستين صدقة فاستثقلوا

ذلك فليس كل أحد منهم يجد ما يتصدق به بقدر ثلاثمائة وستين أو قريب منها فأخبرهم بأن الأعمال الخيرية تعتبر صدقة .

ورد في هذا الحديث أمثلة قاصرة وأمثلة متعدية .

فالأمثلة القاصرة : الخطوات بكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة منك على نفس وهذه خير كثير يعني : لو حسب الإنسان خطواته إلى المسجد ، كل يوم بينه وبين المسجد مثلًا مائة خطوة أو أكثر أو أقل كانت هذه الخطوات من بيته إلى باب المسجد تحسب له صدقة .

وكذلك الصدقات المتعدية يقول : « **تعدل بين اثنين صدقة** » . إذا رأيتهما متنازعين فأصلحت بينهما فإنها صدقة ولم تكن صدقة مالية فإذا كان بينهما نزاع وخصومة فأصلحت بينهما وجمعت ما بينهما من الخلاف كان هذا فيه أجر كبير فعد هذا الإصلاح والعدل بين الاثنين صدقة .

كذلك من المتعدي أيضًا : إعانة الإنسان على متاعه تعينه على دابته فترفع عليها متاعه أو تحمله عليها صدقة .

الدابة : هي المركوبة التي كانوا يركبونها من الإبل أو من الحمر أو من الخيل كانوا يتنقلون عليها من بلد إلى بلد فإذا رأيت إنسانًا مثلًا استعصت عليه دابته فأمسكتها له كان في ذلك منفعة له فلك أجر المتصدق ، وإذا رأيته لا يستطيع أن يركب عليها لارتفاعها فحملته حتى ركب عليها كانت هذه منفعة وكان لك أجر المتصدق ، وإذا رأيته عاجزًا عن أن يرفع متاعه على دابته فرفعته عليها فقد أحسنت إليه فيكون ذلك أيضًا صدقة منك عليه ويلحق بذلك أيضًا المراكب الجديدة مثل البواخر والقطارات والسيارات والطائرات وما أشبهها لو رأيت إنسانًا متعطلًا وأصلحت سيارته معه كان ذلك صدقة منك أو لو رأيته عاجزًا عن إصلاحها أو أنه قد وقع في مشكلة ولا يستطيع التخلص منها فخلصته من هذه المشكلة أو من هذه

الأزمة التي وقع فيها أو معه متاع يحتاج إلى من يرفعه إلى داخل سيارته فرفعته عليها أو أنزلته منها وهو عاجز عن إنزاله ساعدته على مثل ذلك اعتبر هذا صدقة منك على أخيك المسلم ، فالمسلم يحب للمسلمين ما يحبه لنفسه . فمعنى هذا : أنك إذا رأيت أخًا لك مسلمًا وقد وقع في مشكلة وقد تعسرت عليه أموره فإن عليك أن تحرص كل الحرص على أن تخلصه مما وقع فيه وعلى أن تزيل ما فيه من الأزمات والشدائد سواءً كان وحده أو مع غيره فذلك التخليص يعتبر بمنزلة المال الذي تدفعه له عند الحاجة إليه ، بل يكون أحب إليه من المال فقد يكون معه مال ولكنه لم ينفعه فأنت نفعته نفعًا بدنيًا فهو أفضل عنده حيث أنك ساعدته على ما هو فيه من الشدائد .

وقد ورد أيضًا التخليص في مثل ذلك كقوله - ﷺ- : « **من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر اللَّه عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه في الدنيا والآخرة** »(١) . وغير ذلك من الأحاديث .

فهذه مساعدة المسلم لإخوته يعتبر ذلك من الصدقة يقوم مقام الصدقة بالمال .

ثم من النفع المتعدي أيضًا الذي هو ديني محض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول في الحديث السابق : « **وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة** » .

المعروف : كل ما تعرفه النفس الطيبة والنفوس المستقيمة أو القلوب المستقيمة

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب المظالم : باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢) (٥/١١٦ - فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة : باب تحريم الظلم (٥٨) (٤/١٩٩٦) - كلاهما - من طريق الليث عن عقيل عن الزهري عن سالم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به .

وتشهد بملاءمته وبحسنه ولا شك أن هذا يعتبر صدقة أي : يعتبر معروفًا ولا شك أيضًا أن كل ما أمر اللَّه تعالى به وحث عليه فإنه يعتبر صدقة ويعتبر الأمر به كأنه صدقة كأن الذي يدل على الخير ويرشد إليه قد أحسن إلى أولئك الذين أرشدهم ودلهم وهداهم وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وحثهم على الخير ورغبهم فيه فقد تصدق عليهم صدقة معنوية ، فالأمر بالمعروف الذي يحبه اللَّه تعالى والدلالة عليه والنصيحة يعتبر قائمًا مقام الصدقة وكذلك النهي عن المنكر صدقة أيضًا .

فالمنكر ، هو المعاصي التي نهى اللَّه تعالى عنها وسميت منكرًا ؛ لأن النفوس الأبية والقلوب ا لزكية العارفة والفطر السلمية تنكرها وتشهد بفظاعتها وبنكارتها فهي من المنكر فإذا نهيت أخاك عن منكر اقترفه أو رأيته يفعله وحذرته ونصحته وبينت له عاقبة السيئة والمعصية وسوء منقلبه إذا أصر عليها كان هذا صدقة منك على أخيك أحسنت إليه إحسانًا قويًا- أي : دللته على ما فيه منفعة له .

لا شك أن هذا من الصدقة فعرف بذلك أن أنواع الصدقة المعنوية كثيرة فإذا عجز الإنسان عن الصدقة بالمال أمكنه أن يتصدق بغير المال وأمكنه أن يتصدق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبتفريج الكربات وبالدلالة على الخيرات وبأداء العبادات التي يحبها اللَّه تعالى منه ويرغب فيها فيكون ذلك منه صدقة على نفسه وصدقة على بني جنسه من المسلمين ففيه الحث على شُكر نعم اللَّه تعالى حيث أنعم على الإنسان بهذا الخلق الحسن فيشكر اللَّه على هذا الخلق الحسن فلذلك أرشد أن من الشكر الصدقة التي تقابل هذه الأعضاء .

« كل سلامى من الناس عليه صدقة » . شكرًا للَّه تعالى على أن أعطاه هذا الخلق الحسن وفصل خلقه هذا التفصيل وجعل فيه هذه السلامى وهذه المفاصل فيتصدق بقدرها في كل يوم تطلع فيه الشمس فإذا لم يفعل ذلك اعتبر قد أخل بما أوجب اللَّه عليه إذا مضى عليه ويوم واحد وهو ما فعل شيئًا من ذلك ما أمر بمعروف

ولا نهى عن منكر ولا أصلح بين اثنين ولا أعان مسلمًا مثلًا على شيء من متاعه ولا خطى إلى المسجد خطوات ولا أحسن إلى نفسه ولا أحسن إلى غيره فماذا تكون عاقبته؟ يقال: إنه ما شكر في هذا اليوم نعمة اللَّه فالنبي - ﷺ- أخبر بأن الشكر يتجدد في كل يوم ولذلك قال: «**كل يوم تطلع فيه الشمس**». ليبين أنه ليس اليوم الزمان بل اليوم هو الليل والنهار الذي هو أربع وعشرون ساعة أي: من طلوع الشمس إلى طلوعها هذا اليوم هو الذي عليه أن يأتي بها شكرًا للَّه تعالى على هذه النعم وأن يتصدق بقدر هذه الأعضاء وهذه المفاصل فعلى الإنسان أن يكثر من الأعمال الخيرية.

ورد في بعض الروايات في نفس المتن يقول: «**ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما ضحى**». ويعني: زائدة عن الفرائض.

صلاة الضحى في وقت غفلة الناس تعتبر عملًا صالحًا حيث أن أكثر الناس في هذا الوقت غافلون في حرفهم وفي دنياهم فإذا وفق اللَّه العبد وصلى ركعتين في هذا الوقت فقد شكر نعمة اللَّه تعالى وقد أدى حقوق هذه النعم التي هي هذه المفاصل والأوصال.

وقد عد في هذا الحديث الكلمة الطيبة من الصدقة والمراد كل كلمة حسنة كنصيحة وإرشاد وتوجيه وجواب حسن، وذلك أن الإنسان إذا صدرت منه كلمات طيبة لإخوانه عند المقابلة واللقى كالتحية والترحيب وإظهار الفرح والسرور وما يدل على المودة والمحبة كان ذلك سببًا في ثبات الحب والخير بين المسلم وإخوته ودوام الصحبة والتعاون على البر والتقوى.

وهكذا عد من الصدقة أن تميط الأذى عن الطريق والمراد بالأذى كل قذر وشين وكل القمامات والزبالات والنفايات وما يعوق المشاة من الحجارة والشوك ونحوه وقد عده النبي - ﷺ- من شعب الإيمان فهي من الصدقة.

الحديث السابع والعشرون
البر وحسن الخُلُق

عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ - رضي اللهُ عنه - عن النَّبي ﷺ قَالَ: « **الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حاكَ في نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** ». رَواهُ مُسْلِمٌ.

وعن وَابصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ - رضي اللهُ عنه - قالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: « **جِئْتَ تَسأَلُ عَنِ الْبِرِّ؟** ». قُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: « **اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْب، وَالإِثْمُ مَا حاكَ في النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ** ».

حَدِيثٌ حَسَنٌ رُوِيْنَاهُ في مُسْنَدَي الإِمامَيْنِ: أَحمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَالدَّارِميِّ بإِسْنَادٍ حَسَنٍ[1].

شرح الحديث:

هذان حديثان موضوعهما في البر في تفسير البر وفي تفسير الإثم وذلك أن الإنسان يحتاج إلى معرفة البر والإثم؛ لأن اللّٰه تعالى أمر بالتعاون على الأول ونهى

(١) حديث النواس: أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة: باب تفسير البر والإثم (١٤) (١٩٨٠/٤)، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٥) (ص١١٠)، (٣٠٢) (ص١١٣) - كلاهما من طريق يحيى بن جابر القاضي عن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - به.
وحديث وابصة بن معبد: أخرجه الدارمي في « سننه » (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وأحمد في « مسنده » (٢٢٨/٤)، وأبو يعلى في « مسنده » (١٥٨٦، ١٥٨٧) (١٦٠/٣ - ١٦٢)، والطبراني في « الكبير » (٤٠٣) (١٤٨/٢٢) - كلهم من طريق حماد بن سلمة عن أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن وابصة بن معبد - رضي الله عنه - به. =

عن التعاون على الثاني قال الله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى عن المنافقين: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المجادلة: ٨]، ثم قال للمؤمنين ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩] فاحتيج إلى معرفة البر ما هو فإن كلمة البر مشتقة من العمل المبرور الذي يثاب عليه صاحبه ويسمى العمل به برًا ويسمى أهله أبرار وهم أهل السعادة ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣].

والبر إيصال الخير لمستحقيه كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] تبروهم: يعني بالإحسان وإيصال الخير إليهم.

ومنه أيضًا سمي البر بالأبوين كما في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]، وفي قوله تعالى عن يحيى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤]- أي: بارٌ بهما ومسحن لصحبتهما وقد كان النبي - ﷺ- يوصي بالبر بالوالدين الذي هو إحسانك إليهما وقيامك بحقهما وعملك بما فيه راحتهما وينهى عن ضد ذلك وهو العقوق فيقال: هذا برٌ بوالديه وهذا عاق لوالديه. يتقابل البر والعقوق في حق الأبوين.

أما من حيث العموم، فالبر كلمة عامة تدخل فيها الأعمال الصالحة، فيدخل فيها العمل القولي والعمل البدني والعمل المالي والعمل القلبي ونحو ذلك، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] هذا يتعلق بالعقيدة -يعني: أركان الإيمان فإن تحقيقها من البر ثم يقول: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ

= قال في «مجمع الزوائد» (١/١٧٥): «رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أيوب بن عبد الله بن مكرز، قال ابن عدي: لا يتابع على حديثه، ووثقه ابن حبان) .اهـ.

وأخرجه أحمد (٤/٢٢٧) من طريق آخر فيه أبو عبد الرحمن السلمي قال في «المجمع» (١/ ١٧٥): «رواه أحمد والبزار، وفيه أبو عبد الرحمن السلمي، وقال البزار: الأسدي، وعنه معاوية بن صالح، ولم أجد من ترجمه»اهـ.

عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] هذا عمل مالي- يعني: أنفق المال وهو صحيح شحيح يحب المال ويأمل الغنى ويخشى الفقر وأعطاه لهؤلاء ذوي القربى واليتامى إلى آخره فدل على أن هذه الصدقات والتبرعات من البر.

ثم قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] هذه أيضًا عمل بدني وعمل مالي فيدل على أن قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يراد به الصدقات والتبرعات غير الزكاة، ولذا عطف الزكاة على إيتاء المال ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يعني: تصدق به ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني: أخرجها طيبة بها نفسه ثم قال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧] أي من البر: الوفاء بالعهد الذي هو ضد الخلف ثم قال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي من البر أيضًا: الصبر على البأساء والصبر على الضراء، والمراد بالصبر حين البأس: الثبات عند القتال وعدم التزعزع وعدم الانهزام وعدم الإدبار، كل هذه الخصال جعلها الله تعالى من البر وهي أيضًا من التقوى ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكلمة البر تدخل فيها أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن والأعمال المالية؛ لأنها دليل الصدق لأن البر في الأصل هو الصدق كما ورد في الحديث قوله - ﷺ -: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١). فإذا

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٤) (ص٢٥٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨٢، ٨٨٣)، وابن ماجه في «سننه» كتاب الدعاء: باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩) (١٢٦٥/٢)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣، ٥، ٧، ٨)، والطيالسي في «مسنده» (٥) (ص٣)، والحميدي في «مسنده» (٢، ٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٣٤) (١٣/ ٤٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٢٢) (١١٢/١) - كلهم - من طريق أوسط بن إسماعيل =

صدق الإنسان وصف بأنه بر- يعني : صادق في قوله وفي كلامه ليس يردد فيه قولًا كاذبًا ولا يقول فيه خلاف ما يفعله أو ما يعتقده .

وأما هذا الحديث ، فإنه أفاد أن البر والإثم أمران يتعلقان بالقلب ؛ وذلك لأن الإنسان قد يتردد في الشيء ويتوقف في حكمه ولا يتبين له أحقية هذا القول ولا صحته إلا بعد تثبت ، فأخبره بأن الإنسان إذا كان يطمئن إلى الشيء ويميل إليه قلبه ويركن إليه ، فإنه من البر ، وإذا كانت نفسه تأنف منه وتستنكره وتستوحش أن تفعله ، فإنه من الإثم أو ما يلحق بالإثم ، فيتجنب ما نفرت منه نفسه وكرهته ولا يغتر بكثرة مَن يفعله ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، [ولكن هذا خاص بمن عنده علم بمجملات الأشياء وبظهور الأدلة وبأصل الحلال وبأصل الحرام] فيعرف أن هذا من الحلال الواضح ، وأن هذا تنفر منه النفس ، وأنه من المشتبه ولا تطمئن إليه النفس ؛ فلأجل ذلك يتوقف في صحته هل أفعله أم لا أفعله ؟ هل آخذه أم لا آخذه ؟ فإذا ترددت نفسك في شيء ، فإياك أن تتقحم فيه ، وأن تعمله وأنت متوقف فيه ونفسك غير مطمئنة إليه ، بل الأولى لك أن تتورع عنه وتتركه ويكون ذلك من المتشابهات التي قال فيها النبي - ﷺ- : « **فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام** »[(١)] .

ويكون ذلك مثلًا : في الأموال ، وفي المكاسب ، وفي المعاملات ، فقد يأتيك بعض المال من جهة ونفسك مشمئزة من هذا المال ولا تركن إليه ، تخشى أن يكون عليك فيه شيء من التبعة ، ومن الإثم ؛ فلذلك يقول « **الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » ، و« **الإثم ما حاك في النفس وتردد في**

= عن أبي بكر رضي الله عنه به . وأخرجه أحمد في « مسنده » (١/ ٨، ١١) من طريق آخر عن أبي بكر - رضي الله عنه - به .

(١) تقدم .

الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . فإذا جاء شيء من المال مثلًا ، فاطمأنت نفسك إليه واطمئن إليه قلبك ، ولم يكن في قلبك شيء من التردد ولا شيء من التوقف فيه ، بل أنت واثق بأنه حلال كما لو كسبت كسبًا طيبًا بيدك ، أو بعملك وعرق جبينك ، أو من جهة مباحة حلال ليس فيها شبهة وليس فيها شيء من الشك واطمأنت إليه نفسك واطمأن إليه قلبك ؛ فهذا من البر ، فلك أن تنتفع به .

وأما إذا توقفت نفسك منه ونفر قلبك أن يأخذه وأن يستمتع به ، وإذا استوحشت منه وكرهت مثلًا أن يطلع عليه الناس ، وأنت تأخذه أو تنتفع به أو تأكله ؛ فإن الأولى لك التورع عنه والبعد عنه مخافة أن تقع في حرام وأنت لا تشعر مخافة أن يكون إثمًا ، والإثم قد حرمه اللّه من جملة المحرمات في قول اللّه تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ . [الأعراف : ٣٣] أي : كل ما يحصل به عقوبة ويأثم صاحبه ؛ فإنه من المحرمات هذا بالنسبة للأموال فقد يكون منها بر وإثم ، سواء عطايا أو هدايا أو معاملات ، أو ما أشبه ذلك كأن يعطي الإنسان مالًا يشك في حلِّه عند ذلك الذي أعطاه ، فتنفر منه نفسه وتتوقف في استحلاله فيتورع عنه ، وكذلك أيضًا قد يعطي مالًا فتطمئن إليه نفسه وتأنس به ، فلا يكون عنده ريب في حله .

وكثيرًا ما يتورع الإنسان ثم قد يفتيه بعض المتساهلين بأن هذا المال لا يحتاج إلى تورع ، وقد طابت به نفس صاحبه ، وقد بذله لك ، وقد حصل لك بعمل عملته ، وأنت ممن يستحق ولك حق في هذا المال وما أشبه ذلك ، فيفتيه أكثر من واحد ، ولكن تبقى نفسه متوقفة ، فلذلك يقول في هذا الحديث : « **والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك** » . فهؤلاء الذين أفتوك قد يكونون من المتساهلين ، وقد يكونون أيضًا يقصدون نفعك والتخفيف عنك ، والإفتاء لك بما تحبه وبما ينفعك ، ولكن تبقى النفس مترددة ، فإذا كان في النفس

تردد ؛ فإن هذا دليل على أن فيه شبهة فليس بمباح غاية الإباحة .

وكذلك أيضًا الحِرَف والأعمال قد يكون فيها شيء من الدناءة ، ويكره الإنسان أن يراه أحد وهو يحترف بها ، أو وهو يعملها ؛ فإذن تكون من الإثم ولهذا قال : « **والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » ؛ كرهت أن يراك الناس ، أو يطلع عليك أحد وأنت على هذه الحرفة ، أو على هذا العمل ، أو على هذا الكسب ، أو ما أشبه ذلك فاعلم أن هذا من الإثم ولو أفتاك فيه مَن أفتاك فنحن نشاهد مثلًا : أن الكثير من العصاة الذين يفعلون المعصية يفعلونها في خفية ؛ فمثلًا : شارب الدخان غالبًا يخشى أن يراه أبوه ، أو يراه مشايخه ، أو يراه جلساؤه ، فلذلك يستخفي ، ويكره أن يطلع عليه الناس ، وكذلك مَن يتعاطى الخمر أو المخدرات أو ما أشبهها ، يكره أن يطلع عليه الناس ، ومع ذلك قد يجد من يشجعه من زملائه أو أشباهه فيفتيه هذا ويفتيه هذا ممن يحبون أن ينتشر الفحش والتفحش وما أشبه ذلك ، فإذن هذا من الإثم ولو أفتى فيه من أفتى ، وكذلك مثلًا المرأة التي يغلب عليها الصلاح والتدين قد يفتيها بعض الرجال ، وبعض المفتين بأن الوجه ليس بعورة ، وبأنه يجوز لها كشفه أمام الرجال ، وقد يكثر الذين يفتون ، ولكن تبقى نفسها متوقفة ، ويبقى في قلبها شيء من الورع ومن الخوف ، فلا تطمئن إلى هذه الفتوى ، ويكون في النفس شيء يتردد ، فيعرف بذلك أن هذه الفتاوى خاطئة ، ولهذا قال : « **وإن أفتاك الناس وأفتوك** » .

وعلى كل حال : الإثم ، كما ذكرنا ، هو ما يحصل به عقوبة على العمل كالذي يحصل لمن عمله عقوبة وجرم عذاب دنيوي وأخروي ، فيدخل فيه جميع المعاصي ، ولهذا ذكر اللَّه تعالى أن الخمر والميسر إثمًا في قوله تعالى : ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] .

وهذا دليل على أن الإثم إذا كان أكبر من المنفعة في الشيء ، فهو محرم حيث

ذكر أن فيهما إثم يعني : فيها ذنب ، وكذلك مثلًا : أكل الحرام فيه إثم مثل : المال الحرام ويسمى سحتًا ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ [المائدة : ٦٢] . ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة : ٦٣] .

أي : المال الحرام بجميع أنواعه ، وكذلك الاعتداء على الأعراض والتفكه بها بما يسمى غيبة واغتيابًا للناس كل ذلك أيضًا داخل في الإثم فعلى المسلم أن يتجنب الآثام التي يحصل بتعاطيها ذنب وعقوبة ، ولو رأى من يفعلها ولو أفتاه من أفتاه ما دام أن نفسه لم تطمئن إليها ، وما دام أن الأصل فيها المنع فيتجنبها ، وأما إذا اطمأنت نفسه إلى شيء من الأعمال أو من الأموال ولم يبق عنده شبهة فهو من المباح ، وهو من البر الذي أباحه الله .

* * *

الحديث الثامن والعشرون

وجوب لزوم السنة

عن أبي نَجيحٍ الْعِرْباضِ بنِ سارِيَةَ - رضي اللهُ عنه - قال: وَعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنها القُلُوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيُونُ، فَقُلْنا: يا رسول اللهِ، كأنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فأَوْصِنا. قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإن تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثاتِ الأُمُورِ، فإنَّ كلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رَواه أبو داودَ وَالتِّرمِذِيُّ وَقالَ: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»[1].

شرح الحديث:

هذا من الأحاديث الجامعة التي تلقاها الصحابة رضوان اللّه عليهم عن النبي - ﷺ- وحفظوها، لأن فيها وصية وموعظة ففهموا كأنه توديع، وقبل هذا الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) (٤/٢٠٠)، والترمذي في «سننه» كتاب العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنة .... (٢٦٧٦) (٥/٤٤)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة في «سننه» المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين... (٤٢ - ٤٣، ٤٤) (١، ١٦، ١٧)، والدارمي في «سننه» (١/٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٤/١٢٦، ١٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٦١٧) (١٨/٢٤٥)، (٦١٩) (١٨/٢٤٧)، وفي «الأوسط» (٦٦) (١/٧٨)، وفي «مسند الشاميين» (٧٨٦) (١/٤٤٦)، (٦٩٧) (١/٤٠٢)، (١١٨٠) (٢/١٩٧)، (١٣٧٩) (٢/٢٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/٩٥-٩٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١١٤) - كلهم - من طرق عن العرباض - رضي الله عنه - به.

ذكر أنه وعظهم موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون- يعني : ارتجفت القلوب من تلك الموعظة ، وذرفت وبكت العيون ودمعت ؛ وذلك لموقع تلك الموعظة . فهي موعظة تتعلق بتذكيرهم بالآخرة ، وبالموت وما بعده ، وتذكيرهم بالجنة وأعمالها ، والأعمال التي يستحق بها الجنة ، وتذكيرهم بنعيمها وما فيها من السرور والحبور ، وما فيها من الأشجار والأنهار والثمار ، وما فيها من الخيرات والحور الحسان وما أشبه ذلك ، فإن ذلك مما توجل منه القلوب وتذرف منه العيون ، وقد تكون تلك الموعظة فيما يتعلق بالموت وعذاب القبر وما يتصل به ، وكون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، وما يحصل فيه من الفتنة والاختبار عند دفنه فيه ، وقد يكون في ذلك الوعظ تخويف بما يكون في يوم القيامة من الفزع والخوف والذعر ، وطول الموقف في ذلك اليوم وشدته ، وكذلك طول الحساب- يعني : طول وقت الحساب وما يتصل به وكذلك يمكن أنه - ﷺ- ذكرهم بما يكون في الموقف من الحساب والجزاء على الأعمال ونصب الموازين ، ومن تثقل موازينه ومن تخف موازينه ، وكذلك أيضًا هول الصراط وسلوكه ، ومن ينجو عليه ومن يعبره ومن لا يعبره ، وكذلك أيضًا عذاب النار وما فيها من الأنكال والأغلال وما يذوقه المعذبون فيها .

لا شك أن هذا كله إذا استحضره العبد وجل قلبه ، وذرفت عيناه وخاف اللَّه تعالى وارتجف فؤاده ، واستحضر ما وعظ به ، وهكذا كانت حاله - ﷺ- في مجالسه أنه يتخول أصحابه بالموعظة ، وأنه يذكرهم بما يكون حافزًا لهم على الأعمال الصالحة ، ولما وعظهم تلك الموعظة البليغة عرفوا أنها موعظة مودع ، فقالوا : كأنها موعظة مودع .

المودع : هو الذي يفارق قومه فراقًا مستمرًا بالموت ونحوه .

وعادة الإنسان إذا أراد أن يسافر سفرًا طويلًا قد يستمر به أو يموت ولا يرجع إلى

قومه ولا إلى أصحابه ، أن يودعهم وأن يوصيَهم ، وأن يعظهم ويذكرهم فيقول : إنني سوف أفارقكم فأستودع اللَّه دينكم وأماناتكم ، وخواتيم أعمالكم ، وإني أوصيكم بكذا أو أوصيكم بكذا وكذا ، فالصحابة رضوان اللَّه عليهم لما رأوا أو سمعوا تلك الموعظة البليغة استنبطوا أنه - ﷺ - قد قرب فراقه لهم ، وأن هذا في آخر حياته وأنه أوشك أن يفارقهم ، حيث أوصاهم بهذه الوصايا ووعظهم بهذه الموعظة ، فلا بد عند ذلك أن يزودهم بوصية يحفظونها ، وتكون معهم في بقية حياتهم ينتفعون بها ويعملون بها ويطبقونها ، فقالوا : يا رسول اللَّه ، كأنها موعظة مودع . أي : هذه الموعظة شبيهة بموعظة المفارق المودع لأصحابه ، فأوصنا واعهد إلينا عهدًا نحفظه ونتمسك به ونعمل به ، ويكون سببًا في نجاتنا ، وهكذا ينبغي لكل إنسان أن يودع أهله ويودع أصحابه بوصية نافعة ، سواء كانت مكتوبة أو مسموعة عند فراقه لهم ، سواء كان فراق سفر طويل أو فراق مرض - يعني : يخشى من الموت - أن يوصي أصحابه وأولاده وأهله بوصية نافعة تكون معهم ، مستحضرين لها يعملون بها ، ويكون العمل بها سببًا في نجاتهم وسببًا في سعادتهم وذلك لأن المفارق عادة يحرص على توزيع أصحابه بخير ما يعلمه لهم ، ويزودهم بأحسن ما يقدر عليه وما يستطيع أن يزودهم به ، فإذا فعل ذلك فإنه يعتبر قد نصحهم وأدى إليهم النصيحة الكاملة ، هذا ما استنبط من قولهم : كأنها موعظة مودع فأوصنا .

ثم إنه - ﷺ - أوصاهم بهذه الوصية العظيمة ، أوصاهم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة .

تقوى اللَّه كلمة جامعة ، يدخل فيها فعل الخيرات وترك المحرمات ، واشتقاقها من التوقي .

تقوى اللَّه أي : توقي سخطه وتوقي عذابه ، وأن يجعل العبد بينه وبين سخط اللَّه وقاية وحاجزًا منيعًا ، فإذا كان كذلك فإنه ممن اتقى اللَّه ، وقد أوصى اللَّه تعالى بهذه

التقوى عباده كلهم فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. فتعتبر التقوى وصية اللَّه للأولين والآخرين، وتعتبر وصية النبي - ﷺ - لأمته في هذا الحديث «**أوصيكم بتقوى اللَّه**». وكذلك أيضًا في أحاديث أُخر، كقوله في حديث معاذ: «**اتق اللَّه حيثما كنت**». أي في كل حالاتك اتق اللَّه فإذا قلت: إنني من المتقين. فالجواب أن يقال: إن للتقوى علامات وآثار يعرف بها صاحبها فالذي يدعي دعوى لابد أن يظهر عليه أثرها، والدعاوى إن لم يقم عليها بينات أربابها فأدعياء، فأين آثار التقوى، فإن من آثارها تجنب المحرمات والبعد عن المكروهات، والتقرب إلى اللَّه بالصالحات، والإكثار من الحسنات والأعمال الصالحة، وكل ذلك من تقوى اللَّه تعالى.

كأنه يقول: أخشى عذاب اللَّه، كيف أنجو من عذابه؟ لا أنجو من عذابه إلا بطاعته لا أنجو من عذابه وسخطه إلا بأن أفعل ما أمرني به وأمتثل ما أرشدني إليه، وأبتعد عما حرمه علي، وأفعل ما أقدر عليه من القربات والحسنات والطاعات حتى أكون ممن اتقى اللَّه تعالى، وكذلك أترك المحرمات التي توجب سخط اللَّه وعقوبته وتوجب عذابه وتوجب مقته لعبده.

فالذي يعمل الحسنات ويترك السيئات، ولا يجاهر ربه بكبائر الذنوب، لا شك أن هذا أو نحوه كله داخل في تقوى اللَّه، فمن اتقى اللَّه حق تقاته فإنه من أهل السعادة والخير، ولأجل ذلك ذكر اللَّه ثواب المتقين، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

هذه الجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، هذا بيان أثر هذه التقوى التي بدأ بها: «**أوصيكم بتقوى اللَّه**».

الوصية الثانية: السمع والطاعة:

قال: «**والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد**». أوصاهم بأن يسمعوا

ويطيعوا لمن ولاه الله عليهم ، ولو كان عبدًا حبشيًا كما في بعض الروايات : « **وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة** »(١) . الزبيب معروف والعادة أن يكون لونه أسود أي كأن رأسه زبيبة سوداء ، وفي رواية : « **عبد حبشي مجدع الأطراف** » .

يقول العلماء : العادة أن العبد المملوك لا يكون واليًا لأنه مملوك لسيده ، ولكنه مثل بذلك على كل تقدير ، أي لو قدر أن هذا العبد المملوك صار واليًا عليكم وقادكم بكتاب الله ، فإن عليكم السمع والطاعة ، وما ذاك إلا أن العصيان لولي الأمر فيه مفسدة كبيرة وفيه إثم عظيم ، وفيه أيضًا فتنة وعذاب ، حيث إنه متى عصى هذا الوالي وخرج عن طاعته فإنه ولابد أن يبطش به ، ثم إذا كان الذين عصوا جماعة فلا بد أنهم يحدثون قتالًا بينهم وبين ولاة الأمر ، ويكون من آثار هذه المخالفة وهذا العصيان أنهم يبقون مطرودين ومبعدين ، وأنهم يحرمون أنفسهم ويحرمون إخوانهم أثر الأمن والطمأنينة ، وآثار الحياة الطيبة في بلادهم ، فلا يبقون مطمئنين في بلادهم ، هذا إذا لم يقض عليهم .

وبكل حال فقد ورد عنه - ﷺ- أحاديث كثيرة تحث على السمع والطاعة لولاة الأمور ، وتبين أنهم تجب طاعتهم ولو حصل منهم ما حصل ، ففي الحديث عنه - ﷺ- أنه قال لأبي ذر أو لحذيفة : « **اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك** »(٢). وأوصاهم وأخذ عليهم العهد ، أن يسمعوا ويطيعوا في المنشط والمكره والأثرة(٣)، ولو استأثر عليكم ولو أوذيتم ولو حصل لكم بعض النقص أو الخلل ، فاصبروا واسمعوا وأطيعوا ، وقيد ذلك أيضًا بأن يكون السمع والطاعة في المعروف ،

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث .

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإمارة : باب ملازمة جماعة المسلمين ... (٥١، ٥٢) (٣/ ١٤٧٥، ١٤٧٦) من حديث حذيفة - رضي الله عنه - .

(٣) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الحج : باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ... (٣١١، ٣١٢) (٢/ ٩٤٤) ، من طريق يحيى بن حصين .

فقد ثبت أن النبي - ﷺ- أرسل جماعة في غزو، وأمر عليهم عبد الله بن حذافة، وأمرهم أن يطيعوه وأخذ عليهم ذلك، ثم إنه غضب عليهم فأوقد نارًا وقال: ادخلوها فهم بعضهم أن يدخلها وقالوا: إن النبي - ﷺ- أمرنا بأن نطيعه. وتوقف آخرون وقالوا: ما دخلنا في الإسلام إلا هربًا من النار فكيف ندخلها؟! فلما أخبر النبي - ﷺ- قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»(١).

فمثل هذه الطاعة العمياء ليست طاعة، لأنها تعذيب لم يأمر اللّه به ولا يرضاه، وكذلك أيضًا إذا أمر ذلك الأمير بمعصية للّه تعالى فلا يجوز طاعته لقوله - ﷺ- : «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(٢).

فكل هذا دليل على أن طاعة ولاة الأمور واجبة إلا ما استثني، والأمير الذي ذكر في هذا: «**وإن تأمر عليكم عبد**».- يعني: إذا كان واليًا أو أميرًا، سواء كانت إمارته عامة أو خاصة - إذا كان أميرًا على جماعة ولو قليلة كأهل بلدة أو أسرة أو قبيلة وقد ولي عليهم من قبل ولاة الأمور - فإنهم لا يخرجون عليه ولا يخالفونه ولا يعصونه إذا أمر بما فيه مصلحة ولو لم تظهر تلك المصلحة لأفرادهم - بل يطيعونه ولا يخالفونه.

ومعلوم أيضًا أن في السمع والطاعة لولاة الأمور خيرًا كثيرًا، وما ذاك إلا أن بهم

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المغازي: باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي (٤٣٤٠) (٧/٦٥٥ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء... (٣٩، ٤٠)، - كلاهما - من طريق سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن عن علي - رضي الله عنه - .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/٤٣٢)، (٥/ ٦٦، ٦٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٠١٧) (٢/٢٦٢)، والطبراني في «الكبير» (٤٣٤) (١/١٨٤)، (٣١٥٩) (٣/٢١١) - كلهم - من طريق عمران بن حصين عن الحكم بن عمرو الغفاري - رضي الله عنهم - به، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» وله شواهد من حديث علي وقد تقدم، وابن مسعود وعمران بن حصين - رضي الله عنهم- .

تأمن البلاد ، ويؤخذ الحق لمستحقه ، وينتصر من الظالم للمظلوم ، ويقطع دابر قطاع الطريق ، الذين يفسدون في الأرض عندما يخافون من أن يأخذوا أو يقتلوا ؛ لأن قوة الدولة وقوة الولاة أعظم من قوتهم ، وبذلك يأمن أهل البلاد في أسفارهم وفي دورهم وفي أماكنهم وفي أسواقهم- هذا هو السبب في الأمر بالسمع والطاعة لولاة أمرونا : « **وإن تأمر عليكم عبد** » . فكل هذا حث على أن يكون الإنسان من أهل الخير ومن أهل السمع والطاعة الذين يعبدون اللّٰه بما أمر اللّٰه به ويطيعونه سبحانه ، ويطيعون من ولاه اللّٰه أمرهم .

ثم قال النبي - ﷺ- : « **فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا** » هذا الاختلاف قد وقع ، وهذا الاختلاف الذي أشار إليه اختلاف في العقائد ، واختلاف في الفروع ، ولكن المهم هو الاختلاف في العقائد ، لقد أخبر - ﷺ- بوجود الاختلاف ، ثم إن ذلك وقع كما أخبر لم يتأخر ما أخبر به فقد وقع أولًا اختلاف على الخليفة الراشد عثمان -رضي اللّٰه عنه- حيث ثار عليه بعض الثوار حين حاولوا خلعه ، ثم آل الأمر إلى أن قتلوه -رضي اللّٰه عنه- فهذا أول الاختلاف . كذلك وقع اختلاف بعده أدى إلى قتال طويل ووقعات كثيرة بين المسلمين ، كذلك ما وقع اختلاف بين المسلمين وبين من خرجوا عن الطاعة وسموا بالخوارج فقد حصل بينهم اختلاف وقتال وفتن عظيمة ، كذلك أيضًا اختلاف في العقائد حيث خرجت هذه الطائفة الذين هم الخوارج فخالفوا أهل السنة ، وخرج أيضًا مبتدعة سموا بالقدرية وخالفوا أهل السنة ، وخرج أيضًا مبتدعة سموا بالمعتزلة وخالفوا أهل السنة ، وخرج مبتدعة نفوا صفات اللّٰه تعالى وسموا بالمعطلة والجهمية ، وخرج من سموا بالجبرية ومن سموا بالمرجئة وغيرهم ، وخرجت الرافضة الذين كفروا الصحابة وطعنوا في خلافة الخلفاء الراشدين ونحوهم .

لا شك أن هذا من الاختلاف الذي أشار إليه النبي - ﷺ- وكأنه يحث على

اجتماع المسلمين ، فقد وردت أحاديث كثيرة في حثه على لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ، فإذا لم يكن لهم إمام أو حصل خلاف في من يستحق الإمامة ، فإن الإنسان يعتزل تلك الفرق وينفرد في منزلة ويعبد ربه أو يبتعد عن تلك المجتمعات .

ثبت عنه - ﷺ- أنه قال : « **يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن** »[1] . دل على أنه خشى على أمته من الفتن ، وهذه الفتن فتن شبهات وفتن شهوات ، وكلها أيضًا من الاختلاف الذي أخبر به ﷺ : « **فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا** » .

ويعم أيضًا الاختلاف في الفروع ، الذي يؤدي بأهله إلى التعصب الشديد للمذهب والتعصب للأئمة والتعصب للمبتدعين تعصبًا يخرج المتعصب عن الاستقامة ويوقعه في الضلال وفي رد الأدلة الصريحة ، وفي العمل بالأقوال التي تخلو عن أن يكون عليها دليل ، كل ذلك من الاختلاف الذي حذر منه النبي - ﷺ- وبين الخطر الذي يكمن فيه « **فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا** » .

وما المخرج من هذا الاختلاف ؟ سواء كان اختلافا في العقائد أو في الفروع أو في الاتباع والمتبوعين ؟

المخرج ما أرشد إليه بقوله ﷺ : « **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين** » . كلمة (عليكم) أمر بالالتزام مثل قوله تعالى : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة : ١٠٥] أي : الزموا أنفسكم وأصلحوا أحوالكم .

« **فعليكم بسنتي** » : الزموها وتمسكوا بها واعملوا بها .

وسنته - ﷺ- هي شرعيته وطريقته التي كان عليها والتي بلغها والتي كان

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب من الدين الفرار من الفتن (١٩) (١/٨٧ - فتح) وفي كتاب الفتن : باب التغرب في الفتن (٧٠٨٨) (١٣/٤٤ - فتح) ، من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبي سعيد رضي الله عنه به .

يحث على التمسك بها ، وهي شريعة الإسلام شريعة اللّٰه التي هي أفضل الشرائع ، هي سنة النبي - ﷺ- المأخوذة من أقواله وأفعاله وتقريراته للأعمال التي تعمل بحضرته . « **فعليكم بسنتي** » . أي : تمسكوا بها ، وقد روي في بعض الأحاديث : « **المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد** »(١) . وأخبر بأن الذي يعمل في آخر الزمان عند كثرة الفتن له أجر خمسين يعملون مثل عمله(٢) .

فالتمسك بالسنة هو العمل بها ولو خالف ذلك من خالفه ، ولابد أن الذي يعمل بالسنة - حق العمل - سيوجد من يمقته ومن يحتقره ومن يخذله كما هو موجود

---

(١) ضعيف : أخرجه الطبراني في « الأوسط » ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٠) من طريق الطبراني عن محمد بن أحمد بن أبي خيثمة عن محمد بن صالح عن عبد المجيد بن عبد العزيز عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه .
قال في « المجموع » (١/ ١٧٢) : (رواه الطبراني في « الأوسط » وفيه محمد بن صالح العدوي ولم أر من ترجمه وبقية رجاله ثقات .
وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٣٢٧) .
وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (٤٦٠) (٢/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعًا بلفظ : « من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد » .

(٢) يشير إلى حديث أبي ثعلبة الخشني وفيه أنه - ﷺ - قال : « ... فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم » .
أخرجه البخاري في « خلق أفعال العباد » (١٥٥) ، وأبو داود في « سننه » كتاب الملاحم : باب الأمر والنهي (٤٣٤١) (٤/ ١٢١) ، والترمذي في « سننه » كتاب تفسير القرآن : باب من سورة المائدة (٣٠٥٨) (٢/ ١٠١٦، ١٠١٧) ، وابن حبان في صحيحه (٣٨٥) (٥/ ٢٥٧) وقال : (حسن غريب) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب المناسك : باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٨) (٢/ ١٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٥٨٧) (٢٢/ ٢٢٠) ، وفي « مسند الشاميين » (٧٥٣) (١/ ٤٢٨) ، والحاكم في « المستدرك » وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي ، والبيهقي في « الكبرى » (١٠/ ٩٢) ، كلهم من طريق عتبة بن أبي حكيم عن عمه عمرو بن جارية اللخمي ، ووقع عند ابن ماجه : عن عمه عن عمرو بن جارية عن أبي أمية الشعباني عن أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - به .

في هذه الأزمنة مع الذي يتمسك مثلًا بإعفاء اللحية يلقب بالألقاب الشنيعة ، أو يقال هذا متأخر وهذا متخلف وهذا متعنت وهذا رجعي وهذا متزمت وهذا غالٍ ، وهذا ... مع أنه عمل بالسنة النبوية .

« **فعليكم بسنتي** » . أي : الزموها وتمسكوا بها ولو أبغضكم من أبغضكم ولو خالفكم من خالفكم .

والذي يتمسك مثلًا بالسنة في المحافظة على الصلوات وفي حضور صلاة الجماعة قد يمقته بعض هؤلاء المبتدعة والعصاة ونحوهم ، وقد يعيرونه بالتأخر والتخلف والرجعية وما أشبهها ، وكذلك أيضًا الذي يتمسك بالسنة في ترك المعاصي فلا يستمع إلى الأغاني والملاهي وما أشبهها ولا ينظر إلى الصور ولا إلى الأفلام الفاتنة وما أشبهها يعدونه أيضًا متزمتًا ومتشددًا وما أشبه ذلك .

وإذًا فهذا دليل على أن التمسك بالسنة يلقى صاحبه بعضًا من الأذى ومن المخالفات ، ومع ذلك فإن عليه أن يصبر على كيد هؤلاء المخالفين وعلى نبزهم ؛ لأنه لا يضره كيدهم ولا عملهم فلا يضر السحاب نبح الكلاب .

حتى قال ﷺ : « **عضوا عليها بالنواجذ** » . أي : الزموها بأيديكم لزومًا قويًّا وإن خفتم أن تتفلت منكم فعضوا عليها بالنواجذ ؛ وهي : أقاصي الأسنان من شدة التمسك بها ، وشبهها بحبل متدلٍّ يتمسك به الإنسان حتى يصعد به ويحصل به على رضا ربه ويخشى أن يتفلت منه قال تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] شبه شرع اللَّه تعالى بأنه حبل متين قوي من تمسك به ، فإنه لن ينقطع به ومن تركه أو تمسك بغيره فإنه يضل ويضيع ويشقى .

« **عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** » . تحذير منه - ﷺ- وإخبار بأن المحدثات التي ستحدث والاختلاف في قوله : « **فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا** » . أن من ذلك مخالفات للسنة .

والسنة : هي الشريعة المحمدية وما سواها فإنه بدعة ومحدثات في الدين فكل محدثة بدعة .

والمحدثات : هي التي يضيفها بعض من أحدثها ، ويضمها إلى الإسلام ، ويجعلها من جملة الشريعة ، ويعمل بها وينسبها إلى اللَّه مع أنها ليست من شريعته ؛ سواء كانت في العقائد أو في الأعمال أخبر - ﷺ- بأنها بدع وبأن كل بدعة ضلالة ، وفي رواية : « **وكل ضلالة في النار** » . وهو تحذير بعد تحذير « **كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار** » . يعم ذلك المحدثات في العقائد التي لا أصل لها في الشرع ، فإننا مثلًا نسأل المعطلة الذين ينكرون صفات اللَّه تعالى ونقول : طريقتكم هذه بدعة وكل بدعة ضلالة فما دليلكم فيها ؟ وما الأصل الذي تمسكتم به ؟ فلا يوجد لهم دليل ، فيستفاد أنها بدعة وأنها من أكبر البدع ، ويقال مثلًا للرافضة طريقتكم هذه وهي طعنكم في كتاب اللَّه وطعنكم في أصحاب رسوله بدعة ما دليلكم فيها ؟ أنتم تنكرون فضائل الصحابة التي ذكرها اللَّه تعالى ، وليس لكم دليل فقولكم محدث ، وطريقتكم مبتدعة ، نقول كذلك للجبرية وللقدرية وللخوارج وللمعتزلة ولسائر أنواع المبتدعة أن طرقهم محدثة ، وأنه لا أصل لها في الشرع ؛ فتكون من البدع وتكون مما أحدثوه . وسبق قوله - ﷺ- : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » .

كذلك أيضًا المحدثات في الشريعة من العبادات التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان ولا دليل فإنها محدثات لا أصل لها ، فعلى العارف بها أن يبتعد عنها إذا عرف أنها بدعة ابتعد عنها وحذر منها تحذيرًا بليغًا ، وبهذه المناسبة نقول : إن هناك بدعًا عملية في شهر رجب الذي خص بكثير من أنواع البدع ؛ إما قبل الإسلام وإما بعد الإسلام ؛ فمن ذلك صلاة الرغائب بدعة وكل بدعة ضلالة ولعل أكثر أهل الجزيرة لا يعرفونها ، ولكن هي معروفة في كثير من البلاد الخارجية في دول

إسلامية ، وهي إحياء أول ليلة جمعة من شهر رجب يحيونها كلها ، وهذه البدعة حدثت في القرن الرابع ، ذكروا أن رجلًا حسن الصوت جاء إلى قرية في الشام وصلى في مسجد من المساجد ، فصلى خلفه في أول ليلة جمعة من رجب جماعة لحسن صوته ، واستمر في صلاته إلى أن انتهى من الليل فقام الليل كله فلما كان في العام القابل وجاء أول ليلة من ذلك الشهر جاء إلى ذلك المسجد فصلى فيه ، فالتف حوله جماعة أكثر مما كانوا قبل ، ثم جاء في السنة الثالثة فزادوا ، ثم استمر يجيء في كل سنة على ذلك أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولما رأوا صلاته هذه قلده أهل المساجد الأخرى في تلك السنة فصاروا يصلون تلك الصلاة في مساجدهم ، ثم انتشرت في البلاد الأخرى في بلاد الشام كله ، ثم انتقلت أيضًا إلى بلاد مصر ، ثم إلى كثير من البلاد وأصبحت بدعة يعتقد أنها سنة فإذا نهى عنها قالوا أتنهوننا عن الصلاة أما تذكرون قول اللّه تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق : ٩، ١٠] ماذا نفعل ؟ ! نحن نصلي ، فإذا قالوا لك ذلك فقل : لماذا خصصتم هذه الليلة ؟ لماذا لم تصلوا الليلة التي قبلها والتي بعدها وليال الشهر وليال بقية الأشهر ما دليلكم ؟ هذا التخصيص هو الذي ننهاكم عنه ، نقول : لا تخصوا ليلة ليس لتخصيصها دليل ، اعملوا بما ورد أحيوا الليالي كلها كما أمركم اللّٰه وأما تخصيصكم لهذا فإنه بدعة محدثة .

ومن البدع أيضًا في شهر رجب إحياء ليلة سبع وعشرين من شهر رجب ، يعتقد كثير من المتعلمين أنها ليلة الإسراء التي أسري فيها بالنبي - ﷺ- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء ، ويقولون بأنها في شهر رجب ثم يخصصونها بأنها ليلة سبع وعشرين ، ثم يخصون تلك الليلة أيضًا بإحياء ، وبقراءة بعض الأحاديث التي في الإسراء ، ثم يخيل إليهم أو يزين لهم أن الرسول - ﷺ- يحضرهم ؛ لأنهم يقرءون قصته في الإسراء فيجتمعون في كثير من البلاد في

هذه الليلة ويحيونها، وقد ذكر العلماء أنه لم يثبت الدليل الصحيح في تعيين ليلة الإسراء، ولم يثبت أنها في رجب ولا في شعبان ولا في رمضان ولا في شوال ولا في أي شهر، بل لم ينقل تعيينها، ولعل السبب أن الرسول - ﷺ- لم يخصها باجتهاد ولم يذكرها للعباد حتى يجتهدوا في السنة كلها ولا يخصوا ليلة من الليالي، ولو قدر مثلًا أنه في هذا الشهر وأنها ليلة سبع وعشرين فتخصيصها أيضًا لا دليل عليه ليس هناك دليل يخصها لعدم الدليل الثابت المنقول أنه - ﷺ- أحياها أو رغب في إحيائها أو أمر بذلك.

كذلك أيضًا كان أهل الجاهلية يذبحون في شهر رجب ذبيحة يسمونها «**عتيرة**» في أوله أو في وسطه، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك فثبت في الصحيح قوله - ﷺ- : «**لا فرع ولا عتيرة**»(1). أي: لا شرعية للفرع الذي هو ذبح أول ولد الناقة، ولا شرعية ولا أهمية للعتيرة التي هي ذبيحة رجب فهي تعتبر بدعة ولو بقيت فقد يعمل بها كثير ويذكرون لها دليلًا ولكنه ليس بدليل صريح ولا صحيح.

وأما تخصيص رجب بالعمرة فيه فقد روي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه ذكر أن النبي - ﷺ- اعتمر في رجب فأنكرت عليه عائشة -رضي الله عنها- وهو يسمع وسكت ولم يرد عليها وقالت: (رحم الله أبا عبد الرحمن ما اعتمر النبي - ﷺ- إلا وهو معه وما اعتمر في رجب قط)(2) وحقق ذلك -أيضًا- ابن القيم رحمه الله، وبين أنه - ﷺ- لم يعتمر في رجب، وأن أسفاره كلها محفوظة، وعمره كلها معروفة؛ عمرة في ذي القعدة وهي عمرة الحديبية، وعمرة في ذي

---

(1) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب العقيقة: باب العتيرة (٥٤٧٣، ٥٤٧٤) (٩/٥١٠ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الأضاحي: باب الفرع والعتيرة (٣٨) (٣/١٥٦٤) كلاهما من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

(2) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج: باب بيان عدد عمر النبي - ﷺ- (٢١٩، ٢٢٠) (٢/٩١٦، ٩١٧)، من طريق عروة بن الزبير عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به.

القعدة بعدها وهي عمرة القضية، وعمرة في ذي القعدة -أيضًا- وهي عمرة الجعرانة في سنة ثمان، وعمرة مع حجته، وأما كونه اعتمر في رجب فلم يثبت ذلك أبدًا، هكذا قرر ذلك ابن القيم، ولكن الصحابة قد ذكر عن اثنين أو ثلاثة منهم أنهم كانوا يعتمرون في رجب، ولعل ذلك من باب المصادفة أو من باب التسهيل أي أنه ما تيسر لهم إلا أن يعتمروا في شهر رجب؛ فاعتقد كثير من الناس أن رجب شهر العمرة؛ فتجدهم يتوافدون من أماكن بعيدة لعمرة رجب ويسمونها الرجبية، نقول: إنه لا أصل لها، ومن أراد التحقيق فيرجع إلى كلام ابن القيم في «**زاد المعاد**». في عمرة النبي - ﷺ- .

وبكل حال البدع والمحدثات تقدح في الدين وتقدح في التوحيد وباجتنابها يكمل التوحيد.

۞ ۞ ۞

الحديث التاسع والعشرون
ما يدخل الجنة

عن معاذ بن جبل - رضي اللهُ عنه - قال : قلت : يا رسول اللَّه ، أخبرني بعمل يدخلني الجنَة ويُبَاعِدُني عن النار . قال : « **لقد سألتَ عن عظيم ، وإنه ليسيرٌ على من يَسَّرَهُ اللهُ تعالى عليه : تَعْبُدُ اللّه لا تُشركُ به شيئًا ، وتُقيمُ الصلاة ، وتُؤتي الزكاةَ ، وتصومُ رمضانَ ، وتَحجُ البيتَ** » .ثم قال : « **ألا أَدُلُّكَ على أبْوَابِ الخير ؟ :الصومُ جُنَّةٌ ، والصدقةُ تُطفيء الخطيئة كما يُطفيء الماءُ النارَ ، وصلاة الرجل في جوف الليل** ، ثم تلا : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ ، حتى بلَغَ : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٦ - ١٧]

ثم قال : « **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِروة سَنَامِهِ ؟ قلت : بلى يا رسول اللّه . قال** : « **رأس الأمر الإسلامُ ، وعَمُوده الصلاةُ ، وذِروة سَنَامه الجهاد** » .

ثم قال : « **ألا أخبرك بِمِلاكَ ذلك كلِّهِ** » ؟ فقلت بلى يا رسول اللّه ، فأخذ بلسانه وقال : « **كفَّ عليك هذا** » .قلت : يا نبي اللّه ، وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ ! فقال : « **ثَكِلَتكَ أمُّكَ ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم - أو قال** : « **على مناخِرِهم - إلا حصائد ألسنتهم** » . رَواه التِّرمِذِيُّ وَقالَ : « **حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ** »[١] .

شرح الحديث :

هذا حديث جامع لخصال الخير سببه هذا السؤال الذي يحبه كل أحد ويتمناه ، ويحب أن يسأل عنه كل فرد من المسلمين إذا قيل : ماذا تتمنى ؟ يقول : أتمنى

(١) سبق تخريجه .

العمل الذي يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، أحب أن أعمل العمل الذي يقربني من رضا اللَّه ويبعدني من سخطه ، وإذا قيل له : اسأل . يقول : أسألك الجنة وأعوذ بك من النار . وفي الحديث المشهور أن أعرابيًا سأل أو قال له النبي - ﷺ- : « **ماذا تقول** » . فقال : أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ولكني أسأل اللَّه الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي - ﷺ- : « **حولها ندندن** » . وفي رواية : « **وهل تكون دندنتي ودندنة معاذ إلا بسؤال الجنة والاستعاذة من النار** »[1] . فمعاذ -رضي اللَّه عنه- يقول : (أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) ولا شك أنهما متلازمان ؛ فإن من دخل الجنة سلم من النار ، ومن أعاذه اللَّه من النار فإنه من أهل الجنة ، فليس هناك في الآخرة إلا دار الجنة ودار النار .

روي أن أبا بكر -رضي اللَّه عنه- أنشد أو نظم قوله :

الموت باب وكل الناس داخله   يا ليت شعري بعد الباب ما الدار

وبعد موته ذكر هذا لعمر -رضي اللَّه عنه- فضم إليه بيتًا آخر وقال :

الدار جنة عدنٍ إن عملت بما   يرضي الإله وإن خالفت فالنار

أي : ليس هناك إلا داران ؛ دار جنة ودار نار ، فالذي يعمل بعمل أهل الجنة

---

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الصلاة : باب ما يقال بعد التشهد والصلاة على النبي ﷺ (٩١٠)(١/٢٩٥) ، وفي كتاب الدعاء : باب الجوامع من الدعاء (٣٨٤٧)(٢/١٢٦٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٦٨) (٣/١٤٩) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٥، ٧) (١/٣٥٨) كلهم من طريق جرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به .
وأخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الصلاة : باب في تخفيف الصلاة (٧٩٢) (١/٢٠٨) ، وأحمد في « مسنده » (٣/٤٧٤) كلاهما من طريق زائدة عن سليمان الأعمش عن أبي صالح عن بعض أصحاب النبي - ﷺ - .
وفي الزوائد : (إسناده صحيح رجاله ثقات) ا . هـ .
وصححه الألباني في « صحيح أبي داود وابن ماجه » ، وصحح إسناده الأرناؤوط على شرط مسلم في « هامش ابن حبان » .

يسلم من النار ويبعده اللَّه تعالى عنها ، فإذا استعذت باللَّه من النار وقلت : اللهم إني أعوذ بك من النار اللهم إني أستجير بك من النار ثم نظرت إلى الأعمال التي تقرب من النار فابتعدت عنها ؛ فإنك بذلك تقرب من الجنة ، وإذا سألت اللَّه الأعمال الصالحة التي تقرب من الجنة ؛ فإنك بذلك تبعد عن النار ، وقد ورد مع ذلك دعاء صريح في ذلك مثل الدعاء الذي فيه : « **اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وما يقرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل** »(١). فهذا سؤال للجنة واستعاذة من النار ، كذلك ورد أيضًا في الدعاء : « **اللهم إني أسألك رضاك والجنة وأعوذ بك من سخطك والنار** »(٢). وفي الحديث : « **لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة** »(٣). أي : ولا استعاذة بوجه اللَّه إلا من النار.

وإذا عرف ذلك فإن هناك أعمال تقرب من النار ، وهناك أعمال تقرب من الجنة ، والأعمال التي تقرب من النار لا شك أنها تبعد عن الجنة ، والأعمال التي تقرب من الجنة لا شك أنها تبعد عن النار ، فإذا حافظ الإنسان على الصلوات ، وعلى تقوى اللَّه وذكره وشكره ، وأدام طاعته وأجله ودعاه ، وأدى حقوقه البدنية وحقوقه المالية وحقوقه الكونية ، وحافظ على ذلك - فإن ذلك مما يؤهله لدخول الجنة ، ولا شك أن هذه الأعمال الصالحة تكون أيضًا وقاية وحاجزًا له عن الأعمال

---

(١) أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الصلاة : باب الدعاء (١٤٨٠) (٢/٧٧) ، وأحمد في « مسنده » (١/ ١٧٢ ، ١٨٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٧١٥) (٢/٧١) من طريق ابن سعد عن أبيه رضي الله عنه به.

(٢) ورد بلفظ : « من قال بعد صلاة الصبح : اللهم ... سبعًا ... إلخ » وفيه محمد بن حمير ، وذكره ابن الجوزي في « الموضوعات ».

(٣) ضعيف : أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الزكاة : باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (١٦٧١) (٢/١٣١) من حديث جابر - رضي الله عنه- ، وضعفه الألباني في « ضعيف أبي داود ».

السيئة التي تسبب دخوله في النار فيقال -مثلًا- من حافظ على الصلاة فلابد أنها تؤثر فيه وتحميه عن المحرمات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ويقال كذلك أيضًا الأعمال الصالحة تحفظ صاحبها عن المعاصي فقد ورد في بعض الأحاديث أن الملكين يأتيان الرجل بعد ما يدفن في قبره يأتيه ملك العذاب مثلًا من قبل رأسه فيقال: حفظ رأسه بالصيام، ويأتيه من قبل رجليه فيقال: حفظ رجليه بالقيام، ثم يقال: حفظ نفسه فحفظه اللَّه لما عمل أعمالًا صالحة كانت سبب وقايته من النار، ولا شك أن كل أحد بحاجة لأن يعرف الأعمال الصالحة التي تقربه من الجنة وتباعده عن النار؛ فمعاذ -رضي اللَّه عنه- اهتم فقال: (يا رسول اللَّه أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) فهذا السؤال يلفت الأنظار؛ فلذلك قال النبي -ﷺ-: « **لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره اللَّه تعالى عليه** ». سألت عن عظيم الذي يعمل به ويحققه قليل من الناس، ولكن من أعانه اللَّه تعالى عليه ووفقه وجاهد نفسه وقوي عليها وقوى على أعدائه من الشياطين فإنه بذلك يسلم أو يقوى على فعل هذا الأمر؛ فيفعل الطاعات التي تقربه من دخول الجنة، ويسلم من المعاصي التي تؤهله لدخول النار فيقرب من الجنة ويبتعد عن النار.

ثم إنه يسر ذلك فذكر له أركان الإسلام، وقد تقدمت في حديث عبد الله بن عمر رضي اللَّه عنهما: « **بني الإسلام على خمس** ». ولكنه ذكرها هنا بالمعنى فذكر الركن الأول بقوله: « **تعبد اللَّه لا تشرك به شيئًا** ». وهذا هو أهم أركان الإسلام وأساسها، وهو التوحيد الذي هو إفراد اللَّه تعالى بالعبادة، فمن حقق التوحيد دخل في الإسلام، ثم بعد ذلك يطالب ببقية أركانه فقال: « **تعبد اللَّه** ». أي: تخلص له العبادة، تصرف له جميع أنواع العبادة ولا تصرف منها شيئًا لغيره، ومعلوم أن عبادة اللَّه لا تكون إلا باتباع رسوله -ﷺ- فإذا قال: كيف أعبد اللَّه؟

قيل له : العبادة ما بينها اللّه تعالى في كتابه وما بينها رسوله - ﷺ- في سنته ، فهذه هي حقيقة العبادة ، وإذا قال : كيف أتقي الشرك ؟ قيل له : الأعمال السيئة التي هي شرك والتي حرمها اللّه تعالى وأخبر بأنها شرك عليك أن تتجنبها ، والأعمال التي هي للّه تعالى لا تصرفها لغير اللّه بل اجعلها كلها خالصة له حتى تسلم من الشرك . أما الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها من أركان الإسلام ودعائمه فلا شك أيضًا أنها أسس الأعمال ، وقد شبهت بأركان البناء التي يعتمد عليها فإنه لا يعتمد سقف الإسلام إلا على عمد يعتمد عليها ، فمثلًا سقف المسجد على العمد التي في وسطه ، وعلى الحيطان التي في جوانبه فإذا سقطت مثلًا هذه العمد سقط السقف ، وإذا سقط أحد الأركان أو أحد الجوانب لم ينتفع به بل يصير يدخله اللصوص وتدخله الكلاب وتدخله الحشرات ؛ فلا يكون محصنًا حتى تتم ، فأركان الإسلام التي هي : الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وكذلك بقية مكملاته هي بمنزلة أركان البناء ، وتفسر بأنها جوانبه القوية التي يعتمدها فهذا هو الأصل أن من حافظ على أركان الإسلام يستحق دخول الجنة والبعد عن النار بفضل اللّه تعالى ، ونعلم أن هذه الأركان لها مكملات ولها توابع فإن من حافظ عليها لزمه أن يترك المعاصي وإلا فإنه لا يزداد إلا بعدًا إذا كانت صلاته وصومه لا يفيدانه ولا يحميانه ولا يحفظان عليه جوارحه ؛ لا يحفظ بصره ولا يحفظ سمعه ولا يحفظ لسانه ولا يحفظ يديه ولا رجليه ولا يحفظ بطنه ولا يحفظ رأسه فماذا استفاد من صلاته وماذا استفاد من صيامه وماذا استفاد من قيامه ؟ لا يستفيد إلا إذا أثرت فيه هذه العبادات وحفظته وحفظت جوارحه وحفظت قلبه وحفظت جميع حواسه عن المنكرات وبذلك يصدق عليه أنه من الذين حفظوا اللّه تعالى وحفظهم وحفظ عليهم أعمالهم .

هذا الحديث فيه أربع جمل :

الجملة الأولى : هي التي تسبب دخول الجنة والبعد عن النار وفسرها بأركان

الإسلام الخمسة، ومعناه أن من أراد أن يعمل العمل الذي يدخله الجنة ويبعده من النار فإنه يعبد الله ولا يشرك به شيئًا ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت- هذه هي أركان الإسلام.

الجملة الثانية: سماها أبواب الخير ويريد بها نوافل العبادة، والنوافل هي التي من جنس الفرائض التي تقدمت فقد ذكر في الجملة الأولى الصوم والزكاة، ثم ذكرها في الجملة الثانية وسماها أبواب الخير ولكنه قصد بذلك التطوعات والنوافل فقال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل**» .، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

ثم أخبر بجملة ثالثة وهي: إخباره بالإسلام وبرأس الأمر وبذروة سنام الأمر، «**رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد**».

ثم أخبره في الجملة الرابعة بما يحفظ به نفسه عن السيئات التي يتساهل بها، فأمره بأن يكف عليه لسانه أي أن يمسك لسانه حتى لا يوقعه لسانه فيما لا تحمد عاقبته، إذا عرف الإنسان أن لله تعالى فرائض فإنه هذه الفرائض قد يقع فيها نقص وخلل فيحتاج أن يكملها بالنوافل؛ فالفرائض مثلًا الصيام فالصيام فريضة أي صيام رمضان إذا كان صيام رمضان فريضة فإن هناك صيام يعتبر تطوعًا على العبد أن يكثر منه حتى يحفظ نفسه وحتى يكمل النقص والخلل الذي في فرضه.

قوله: «**الصوم جنه**». الجنة: هو الحصن والحرز الذي يُتحفظ به يتحفظ المرء عما يضره مثل جنته من العدو والمقاتل في القتال يلبس على جسده جُنة على رأسه ما يسمى بالمغفر وعلى جسده ما يسمى بالجوشن ويسمى ذلك جنة يعني: حراسة وحماية على نفسه من وقع السلاح، فإذا كان الإنسان بحاجة إلى جنة من

السلاح فإنه أيضًا بحاجة إلى جنة من الأعداء الذين هم أعداء معينون ، يحفظ بها نفسه ويحفظ بالصيام مثلًا وبسائر الأعمال نفسه من الشيطان تكون هذه الأعمال الصالحة حرزًا له وحفاظًا عليه ومحصنة له عن وسوسة الشياطين ، وكذلك عن حديث النفس الذي يكون حديثًا خاليًا من الخير وكذلك عن شهوات الدنيا وملاهيها وما أشبه ذلك فيكون الصوم جنة أي : حافظًا لصاحبه حتى لا يقع في المعاصي ولا يقع في شيء من المخالفات التي تقدح في دينه .

ثم قال : « والصدقة تطفئ الخطية كما يطفئ الماء النار » . شبه بشيء محسوس ، فالخطيئة كأنها تحرق القلب فجعل الأعمال الصالحة تطفئ حرارة الخطايا على القلب وعلى النفس ، وإن كانت تلك الحرارة معنوية وتطفئ أثر الخطايا على الإنسان ؛ لأن الخطايا إذا اجتمعت على العبد أهلكته فإذا أكثر من الصدقات فإن هذه الصدقات تصير سببًا في إطفاء أثر هذا الذنب وهذه الخطايا كما يطفيء الماء النار ، وهكذا أرشد أن الخطيئة لها حرارة وأن تلك الحرارة تنطفيء بهذا الأمر الذي هو الصدقة ، وليس ذلك وحده بل الصلاة أيضًا تطفيء حرارة الخطايا والأذكار تطفيء حرارة الخطايا والصوم والحج والقراءة والأدعية وما أشبهها كلها تطفيء حرارة الخطايا ، ولكن إذا كثرت الخطايا وتمكنت صعب إطفاء حرارتها فلا بد أن يكثر من الحسنات لتكون مطفئة لحرارة الذنوب ، وسبب تخصيص الصدقة لأن الصدقة تدل على صدق صاحبها لأنه أخرج المال الذي كان محبوبًا عند قلبه وتصدق به ، وهو دليل على تصديقه وعد اللّه تعالى فيكون ذلك سببًا في محو الذنوب وإزالة آثارها .

ثم قال : « وصلاة الرجل في جوف الليل » . أي : أن صلاة الرجل تطوعًا في جوف الليل تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار ، وخصص جوف الليل ؛ لأن الناس في ذلك الوقت قد هجعوا أو ناموا والتذوا بفرشهم واطمأنوا في دورهم وفي

منامهم، وهذا المجتهد ترك نومه الذي تهواه نفسه وتلتذ به وترك فراشه الوطيء اللذيذ اللين وقام يتهجد في جوف الليل عندما تهدأ الحركات وتسكن الأصوات وينام العباد ولا يبقى أحد مستيقظًا إلا من هو مثله قد اشتغل بالتهجد، فصلاة الرجل في جوف الليل- يعني: في وسط الليل أو في نصفه الأخير هذه تطفيء الخطايا قال اللَّه تعالى في وصف عباده: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥، ١٦، ١٧] وصفهم بأنهم المؤمنون حقًا، ووصفهم بأنهم إذا تليت عليهم آيات اللَّه تعالى سجدوا أي بادروا بالسجود طوعًا للَّه تعالى واختيارًا، وسبحوا بحمد ربهم في حال سجودهم واستغفروا، ولم يتكبروا عن عباده اللَّه وهم لا يستكبرون.

وأخبر بعد ذلك أنه تتجافى جنوبهم عن المضاجع أي: لا يطمئنون في الليل على فرشهم، بل يتقلب أحدهم إذا اضطجع على فراشة انقلب من جنب إلى جنب ثم لم يهنأ بالنوم فيقوم ويبادر إلى الصلاة بعضهم يقوم فيقول: كلما تذكرت حر النار لم يهنني النوم فيقوم ويصلي. وبعضهم يقول: كلما قرأت آية من آيات اللَّه نظرت فيها وتفكرت فيها فطار نومي. حتى يقول بعضهم:

منع القران بوعده ووعيده مقل العيون بليلها لا تهجع
فهموا عن الملك العظيم كلامه فهمًا تذل له الرقاب وتخضع

يعني: أنه إذا تأمل القرآن طار نومه فقام يتهجد.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: تتقلب في المضاجع.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾أي: في صلاتهم وتهجدهم، «**خوفًا وطمعًا**» أي: خوفًا من اللَّه تعالى أن يعاقبهم وطمعًا في ثوابه ورجاءً للأجر الذي وعدهم به.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فجمعوا بين التسبيح وبين السجود وبين ترك الاستكبار وبين قيام الليل وتجافي الجنب عن المضاجع وبين الخوف وبين الطمع وبين الإنفاق ، هذه كلها خصال جمعوها ثم ذكر ثوابهم بقوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي : مما تقر به الأعين وتلتذ به قال تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف : ٧١] .

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فهذه الثلاث جعلها النبي - ﷺ - أبواب الخير .

ثم بعد ذلك قال : « **ألا أخبرك برأس الأمر . رأس الأمر : الإسلام ، يعني : تحقيق الإسلام هو رأس الأمر الذي جاءت به الرسل .**

« **وعموده : الصلاة** » . بمنزلة عمود الخيمة ، فالخيمة لا ينتفع بها إلا إذا كان في وسطها عمود يرفعها حتى يُنتفع بها وإلا فإنها تسقط ، وذلك دليل على أهميتها وآكديتها .

« **وذروة سنامه الجهاد** » . الذروة : هي أعلى الشيء والسنام : يوجد في الإبل وهو أعلى شيء في ظهر الإبل ، وكلما سمنت عظم سنامها ويجتمع فيه الشحم فذروته الوبر الذي في أعلاه .

ومعناه : أن أعلى أمور الدين الجهاد في سبيل الله ، المراد به قتال الكفار لأجل كفرهم ، جعله أعلى شيء في أمور المسلمين وأرفع وما ذاك إلا أن به يقوى الدين وبه تقوى كلمة الله وترتفع وبه يعتز أهل الإسلام ويذل الكفر وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وينتصر المسلمون إذا جاهدوا في سبيل الله وينصرهم الله تعالى ، فأما إذا تركوا الجهاد فإن العدو يطمع فيهم ، ولذلك ورد في الحديث : « **يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها** » . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « **أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولكن تنزع المهابة من قلوب أعدائكم ويلقى في قلوبكم الوهن** » . قالوا : وما

الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهة الموت**»[1]. فهذا في غير هذه الأزمنة، أما هذه الأزمنة فنرى الجهاد قد توقف في كثير من البلاد وكلما قام المجاهدون في دولة من الدول نصرهم اللَّه وأعزهم وأيدهم إذا صدقوا، ولكن بعد ذلك يتوقفون.

فالمسلمون عليهم أن يحرصوا على أن يحققوا هذا الركن الذي هو الجهاد في سبيل اللَّه تعالى.

كذلك يقول في هذا الحديث: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**». ثم قال: «**كف عليك هذا**». يعني: لسانك. فقال معاذ: (يا نبي اللَّه وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟) فقال: «**ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم**». أفاد بأن الكلام الكثير يكون سببًا في العذاب ويكب صاحبه على وجهه في النار والعياذ باللَّه؛ لأن الكلمات خفيفة على اللسان، والكلام سهل ولكن منه ما هو خير وما هو شر، ولذلك ورد في الحديث قوله - ﷺ- : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه لا يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب اللَّه بها رضاه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار- وفي رواية سبعين خريفًا-**»[2].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الملاحم: باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧) (٤/١٠٨)، وأحمد في «مسنده» (٥/٢٧٨)، والطيالسي في «مسنده» (٩٩٢) (ص١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (١٤٥٢) (٢/١٠٢) وفي «مسند الشاميين» (٦٠٠) (١/ ٣٤٤) كلهم من طرق عن ثوبان رضي الله عنه به.
وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الرقاق: باب حفظ اللسان (٦٤٧٧) (١١/٣١٤ - فتح)، وفي كتاب الرقاق: باب حفظ اللسان (٦٤٧٨) (١١/ ٣١٤، ٣١٥ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الزهد والرقاق: باب التكلم بالكلمة يهوى بها في النار (٤٩، ٥٠) (٤/ ٢٢٩٠) كلاهما من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

كلمة واحدة لا يلقي لها بالًا ولا يظن أنها تؤثر هذا الأثر- هذا تأثيرها في الآخرة ، وقد تؤثر أيضًا في الدنيا فتكون كفرًا أو تكون ردة أو نحو ذلك ويكون كلام عقوبته القتل حتى يقول بعضهم :

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس بموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه وعثرته بالرجل تبرى على مهل

إذا عثر برجله فإنه وإن تألم قليلًا فإنه يبرأ قليلًا ، ولكن عثرته بلسانه لا تبرأ ، ربما أنها تكون كفرًا يسبب قتله ، أو يكون مثلًا طعنًا في إنسان فيغار ذلك الذي طعن فيه فيقتل ذلك القائل بسبب تلك العثرة أو بسبب تلك الكلمة .

ومعلوم أن اللَّه تعالى منّ على الإنسان بأن علمه هذا النطق الذي هو الكلام وهو نعمة عظيمة ولذلك يقال :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ويقال :

إنما الفتى أي : الإنسان بأصغريه قلبه ولسانه .

قال الراجز :

فإنما المرء بأصغريه ليس برجليه ولا يديه
لسانه وقلبه المركب في صدره وذاك خلق عجب

ولكن هذا اللسان إما أن يكتسب به خير وعمل بر ، وإما أن يوقعه في إثم وسوء فيندم حين لا ينفعه الندم ؛ فلذلك قال - ﷺ - : « **وهل يكب الناس في النار على وجوههم- أو قال : على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم** » .

ويقول الشاعر :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

فالإنسان يزن الكلام من قبل أن ينطق به .

وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ثرثارة في كل ناد يخطب

وعلى كل حال ، هذه وصايا من النبي - ﷺ- وتعليمات شاقة ، فعلى الإنسان المسلم أن يتمثل بها حتى يكون من أهل الخير والصلاح وحتى يبعده اللَّه من النار ويقربه من الجنة .

۞ ۞ ۞

الحديث الثلاثون
حقوق اللَّه تعالى

عن أبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنيِّ جُرْثُومِ بن ناشِرٍ - رضي اللهُ عنه - ، عن رسول اللهِ ﷺ قال : « **إن اللَّه تعالى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوها ، وحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوها ، وحَرَّمَ أشْياءَ فَلا تَنْتَهِكُوها ، وسَكَتَ عَنْ أشيَاءَ - رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيانٍ - فلا تَبْحَثُوا عنها** » . حَديثٌ حَسَنٌ ، رَواه الدَّارَقُطْنيّ وغيرُه[١] .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث الجامعة التي أجملت فيها هذه الجمل وبين حكمها ، ذكر فيه أربع جمل :

الجملة الأولى : في الفرائض .

الجملة الثانية : في الحدود .

الجملة الثالثة : في المحرمات .

الجملة الرابعة : في المعفو عنه .

ويراد بالفرائض الواجبات التي أوجبها اللَّه تعالى عمومًا وأدلتها شرعية ، سواء

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥٨٩) (٢٢/٢٢١) ، والدراقطني في « سننه » (٤٢) (٤/١٨٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/١١٥) وصححه ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/١٧) ، والبيهقي في « الكبرى » (١٠/ ١٢، ١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/٣) كلهم من طريق داود بن أبي هند عن مكحول عن أبي ثعلبه رضي الله عنهم .
وأخرجه البيهقي في « الكبرى » (١٠/١٢) موقوفًا على أبي ثعلبة .

آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، فإن هذه الفرائض التي فرضها اللَّه تعالى أوجب على العباد فعلها وأمرهم بها وكلفهم بأن يفعلوها وبأن يحافظوا عليها، وأمرهم بها أمرًا محتمًا مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [النور: ٥٦] أمر صريح بفعل هذه العبادتين فلا يتم الامتثال إلا بالفعل الكامل.

إقامتها معناها: إتيانك بكل ما طلب منك فيها لتكون قائمة، يعني: ظاهرة، كاملة تامة.

إيتاء الزكاة: يعني إخراجها وإيصالها إلى مستحقيها.

وكذلك ما أمر اللَّه تعالى به من الفرائض الأخرى مثل قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٥] يعني: أوجب اللَّه الصيام على العباد على من يقدر عليه ومن كلف به، وكذلك أوجب القتال عندما تقوم أسبابه ويكون واجبًا، وكذلك قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] دليل على وجوبهما، وأن اللَّه فرض كلًّا منهما فريضة، وكذلك قوله تعالى في الواجبات التي أوجبها- أصلها: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وكذلك قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]. فالعبادة من الواجبات التي أوجبها اللَّه والواجبات كثيرة وتسمى فرائض وتسمى واجبات، يعني: حتمية فرضها اللَّه تعالى وأمر بها وحتمها على العباد، فعلينا في هذه الفرائض المواظبة عليها وأداؤها كما أمرنا ونهينا عن إضاعتها. يقول في هذا الحديث: «**إن اللَّه تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها**». وقد ذم اللَّه تعالى الذين يضيعونها وتوعدهم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] وعيد شديد ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ هذا فيمن أضاعوا الصلاة، وفي الحديث أيضًا الحث على الصلاة وبيان أن من حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ضيعها- يعني: أهملها.

فالحاصل : أن إضاعة العبادات هو تركها ، فلا تضيعوا هذه الفرائض أي : لا تتركوها ولا تهملوها ولا تخلفوا عنها فيدخل في إضاعتها تأخيرها عن وقتها ويعبر عنها بالسهو قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون : ٤، ٥] .

يقول بعض السلف : (أما إنهم لم يتركوها ولو تركوها لكانوا كفارًا ، ولكن أخروها عن وقتها) .

فجعل ذلك سهوًا وتوعد عليه بويل ، وهو العذاب الشديد ، فهذا من الإضاعة ، وكذلك من الإضاعة إضاعة الجماعة يعني : ترك جماعتها والصلاة في البيوت ونحوها فإن هذا إضاعة لها وإهمال لما شرع فيها من المكملات ، وكذلك من الإضاعة لها إضاعة الطمأنينة فيها فإنا مأمورون بالخشوع فيها والخضوع ، فإذا فات ذلك الخشوع فإنك تقول لمن لم يخشع في صلاته ولم يطمئن فيها تقول : هذا ممن أضاع صلاته حري أن لا تقبل منه أو تقبل منه إلا بعض منها ؛ لكونه أهمل وأضاع ما أمر اللَّه به وما حث عليه النبي - ﷺ - وهكذا يقال في بقية الفرائض أن إضاعتها إما تركها ، وإما التقصير فيها والنقص ، وإما عدم العناية بها ، وعدم الاهتمام بها ، وإما فعلها على غير ما أمرنا به ومخالفة السنن التي فيها والواجبات والمكملات وما أشبهها ، سواء العبادات الفعلية كالصلاة والصوم ، أو المالية كالزكاة ، أو المالية البدنية كالحج والجهاد أو ما أشبهها ، أو الاعتقادية كالتوحيد ونحوه ، أو المتعدية كالبر والصلة ، أو المتعلقة بالغير كالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ما أشبه ذلك .

ثم يقول : « **وحد حدودًا فلا تعتدوها** » . مثل قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق : ١] ، وقوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة : ١٨٧] .

فحدود اللَّه تعالى هي الأوامر التي حدد لها حدودًا وجعل العبد يقتصر على ما حد له ، ففي سورة الطلاق يقول : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ إشارة إلى كيفية الطلاق جعله من حدود اللَّه وهو الطلاق للعدة ؛ فيقال مثلًا لمن طلق لغير العدة قد تعديت حدود اللَّه ، ولمن طلق أكثر من مرة واحدة أو طلق في زمن الحيض أو طلق في طهر وقع فيه جماع أو طلق امرأته طلاق سنة ثم أخرجها من بيته - فإن هذا كله يعتبر مخالفة لحدود اللَّه وتعديًا لها لأن اللَّه تعالى قال : ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق : ١] ثم قال : ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾ [الطلاق : ١] يعني : احفظوا مبدأ العدة ومدتها ثم قال : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق : ١] ، فالذي يطلقها ويخرجها وهي في العدة قد تعدى ، والذي مثلًا يطلقها لغير العدة كالطلاق في الحيض ونحوه قد تعدى ، والذي لا يحصي العدة يعني : مثلًا تزوجها قبل أن تنتهي عدتها يعتبر ذلك تعدي ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، فيقال لمن طلق ثلاثًا إنك قد تعديت ، ويقال لمن يمسك بمعروف ولم يفارق بإحسان أنه قد تعدى وأشباه ذلك ، وكذلك أحكام الصيام لما ذكر اللَّه تعالى أحكام الصيام .

قال بعد ذلك : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ﴾ [البقرة : ١٨٧] فمثلًا حرم اللَّه تعالى الوطء في الصيام وأباحه في الليل فيقال لمن جامع في نهار رمضان قد تعديت حدود اللَّه ، ويقال لمن وطئ وهو معتكف قد تعديت حدود اللَّه قد فعلت ما حرمه اللَّه عليك وما حذرك اللَّه عنه ، وكذلك أيضًا في سورة المجادلة بعد ما بين اللَّه تعالى حكم الظهار وأنه منكر وزور ، وبين أيضًا كفارة ذلك قال بعد ذلك : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة : ٤] فبين أن هذه حدود حددها اللَّه .

ولا شك أيضًا أن من حدود اللَّه العقوبات التي رتبها على المعاصي فإنه ما شرعها إلا لأجل الزجر عن المحرمات فحد اللَّه حدًّا للزنا وهو الجلد مائة جلدة وبُين

في الحديث أن هذا إذا كان الزاني بكرًا ، يعني : لم يسبق أن تزوج وكذلك أيضًا حدًّا للسارق وهو قطع يده وبين أن هذا إذا تم النصاب فمن تعدى ذلك فإنه يعتبر قد تعدى حدود اللَّه ، يعني : من أخفى السرقة يعتبر قد تعدى حدود اللَّه ، ومن زنا وأخفى الزنا مثلًا واستمر عليه يعتبر قد تعدى حدود اللَّه ، ومن عاقبه بأكثر مما يستحق يعتبر قد تعدى حدود اللَّه ، وكذلك إهمال هذه الحدود وإضاعتها يعتبر أيضًا تعديًا لحدود اللَّه وإهمالًا يعني ترك إقامتها فإن اللَّه تعالى شرع هذه الحدود زجرًا عن المعاصي ، والمحرمات شرعت لأجل أن ينزجر العباد فلا يفعلوا ما حرم اللَّه تعالى ، فإذا أهملت حصل الفساد ، أي إذا لم تقم حدود الزنا لم يرجم الزاني أو لم يجلد ولم تقطع يد السارق ولم يؤخذ منه ما سرقه ، وكذلك أيضًا لم يجلد القاذف ولا شارب الخمر ولم يقتل القاتل ولم يقتل الساحر ونحوه فإن ترك هؤلاء يعتبر تعديًا لحدود اللَّه ، فالتعدي يدخل فيه المجاوزة بأن يزاد في الحد عما حدده اللَّه وقدره ، ويدخل فيه التساهل فيكون تساهلًا وإضاعة لحدود اللَّه تعالى ، وقد ورد الترغيب في إقامتها حتى قال في بعض الأحاديث : **« لحد يقام في الأرض خير من أن يمطروا أربعين صباحًا »**(1) . وذلك لأن اللَّه تعالى إذا أقاموا حدوده رحمهم وبارك لهم وأعطاهم

---

(١) أخرجه النسائي في « سننه » كتاب قطع السارق : باب الترغيب في إقامة الحد (٨/٧٥) ، وفي « الكبرى » (٧٣٩١) (٤/٣٣٥) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الحدود : باب النفث في الرقية (٢٥٣٨) (٢/٨٤٨) ، وأحمد في « مسنده » (٢/ ٣٦٢، ٤٠٢) ، وابن الجارود في « المنتقى » (٨٠١) (ص٢٠٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦١١١) (١٠/٤٩٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٣٩٨) (١٠/٣٤٤) كلهم من طريق عبد الله بن المبارك عن عيسى بن يزيد عن جرير بن يزيد عن أبي زرعة بن عمرو - ولم يذكر ابن الجارود أبا زرعة - عن أبي هريرة رضي الله عنه به .
وأخرجه الطبراني في « الصغير » (٩٦٦) (٢/١٦٦) من طريق آخر عن جرير بن يزيد به ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٣٩٧) (١٠/٢٤٣) من طريق آخر عن أبي زرعه رضي الله عنه به .
وأخرجه النسائي في « سننه » (٨/٧٦) ، وفي « الكبرى » (٧٣٩٢) (٤/٣٣٥) موقوفًا على أبي هريرة - رضي الله عنه - به . =

ومنحهم ، فإذا أهملت الحدود خيف أن تنزل العقوبات بكثرة المعاصي .

فالحاصل : أن حدود اللَّه تعالى يجب المحافظة عليها ؛ فلذلك قال : « **وحد حدودًا فلا تعتدوها** » .

الجملة الثالثة : يقول : « **وحرم أشياء فلا تنتهكوها** » . المحرمات معروفة يعني : أن اللَّه تعالى حرم هذه المحرمات لحكمة عظيمة ، فتناول هذه المحرمات يعتبر انتهاكًا لحرمات اللَّه تعالى ، ويعتبر فعلًا للجرائم التي تسبب المفاسد والآثام ، ويعتبر أيضًا انتهاكًا لحرمات المسلمين وتعديًا ، فحرم اللَّه قتل المسلم يعني : إراقة دمه وجعل ذلك ذنبًا كبيرًا كما حرم الشرك وكما حرم السحر وكما حرم أكل المال بالباطل وكما حرم أكل مال اليتيم وحرم الربا وحرم الزنا ومقدمات الزنا وأسبابه وحرم الغناء ولهو الحديث ونحوه ، وكذلك حرم الظلم والقذف والعيب والسب والشتم وما أشبه ذلك مما فيه ضرر على الإنسان ، وكذلك حرم التعدي على حرمات المسلمين والإثم والبغي وأجمل ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] فإن هذا تحريم عام مجمل لهذه المحرمات ، وكذلك قوله تعالى : ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام : ١٥١] إلى آخر الآيات .

فالحاصل : أن الواجب على المسلمين أن يحفظوا أنفسهم فلا ينتهكوا شيئًا مما حرم اللَّه تعالى ؛ ليكونوا بذلك ممن حافظ على محارم اللَّه ، ولا شك أن المحرمات التي حرمها اللَّه ما حرمها إلا لحكمة ؛ فتارة ينص على التحريم كقوله تعالى :

= والحديث حسنه الألباني في « صحيح ابن ماجه » .

وأخرجه النسائي في « سننه » بلفظ : « ثلاثين » وقال الألباني في « صحيح النسائي » حسن بلفظ « أربعين » .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣] فإن هذا تحريم في المأكولات، وتارة في الأنكحة كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخر الآيات، وتارة في المعاملات كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] يعني: في المعاملات وما أشبهها، وأحيانًا يكون التحريم في جملة النصوص كقوله - ﷺ - : «**إن اللَّه حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعًا وهات**»(١). يعني: هذا من جملة ما حرمه اللَّه تعالى وإن لم يكن تفصيله واردًا في القرآن ولكن قد توجد بعض أدلته.

أما قوله - ﷺ - : «**وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**». فورد أيضًا في حديث أن ما سكت عنه اللَّه فهو عفو وأن المسلم عليه أن يمتثل الأمر الذي أمر اللَّه به وعليه أن يفعله على ما فهمه دون أن يسأل؛ ويتقعر في السؤال؛ فإنه قد يفصل له فيكون في التفصيل شيء من التشديد، وقد ورد في الحديث قال - ﷺ - : «**ذروني ما تركتم**». يعني: لا تبحثوا عن الأشياء التي تركتها «**فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»(٢). ودل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة: ١٠١] فما سكت عنه فإنه عفو، فالمجملات التي وردت في الكتاب والسنة نأخذها على إجمالها، وأما التفاصيل فنعمل بها على ما فهمنا ونعرف أن ما لم ينص عليه فالأصل فيه العفو واللَّه أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الاعتصام: باب الاقتداء بسنة رسول الله - ﷺ - ... (٨٢٨٨) (١٣/٢٦٤ - فتح)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل: باب توقيره - ﷺ - ... (١٣١) (٤/ ١٨٣٠، ١٨٣١)، من طريق أبي هريرة - رضي الله عنه - به.

الحديث الواحد والثلاثون
الزهد الحقيقي

عن أبي العَبَّاسِ سَهْلِ بن سعْدِ السَّاعِدِيِّ - رضي اللهُ عنه - قال : جاء رَجُلٌ إلى النَّبِّي ﷺ فقال : يا رسوَل اللهِ ، دُلَّني على عَمَلٍ إذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّني اللهُ وأَحَبَّني النَّاسُ . فقال : « **ازْهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ اللهُ ، وازْهَدْ فيما عِنْدَ النَّاس يُحِبَّكَ النَّاسُ** » . حَديثٌ حَسَنٌ ، رواه ابنُ ماجَه وغَيْرُهُ بأسانيدَ حَسَنة(١) .

شرح الحديث :

لا شك أن الإنسان العادي يتمنى أن يكون محبوبًا عند الناس فيما بينهم يعني : محبوبًا عند قرنائه وعند جيرانه وعند أقاربه وعند من يعرفه أن يكون محبوبًا عندهم ، ولكن أعظم من ذلك وأولى أن يكون محبوبًا عند اللَّه ، فلذلك يقال له افعل الأسباب التي تجعلك من أحباب اللَّه أولًا ثم بعد ذلك تحبب إلى الناس بما تقدر عليه حتى تكون محبوبًا عند الناس ، فأما محبة اللَّه تعالى فلها أسباب كثيرة فإذا قيل متى يكون الإنسان من أحباب اللَّه ؟ نقول : إذا عمل بطاعته ، وإذا تقرب إليه بما يحبه ، وإذا قنع وابتعد عن المحرمات والمعاصي فإن اللَّه تعالى يحب أولياءه ، وقد أخبر اللَّه تعالى بالذين يحبهم مثل قول اللَّه تعالى : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ٧٦] ﴿إِنَّ

(١) أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الزهد : باب الزهد في الدنيا (٤١٠٢) (١٣٧٣/٢ - ١٣٧٤) ، والطبراني في « الكبير » (٥٩٧٢) (١٩٣/٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٣١٣/٤) وصححه على شرطهما وتعقبه الذهبي فقال : (خالد بن عمرو القرشي وضّاع) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٦٤٣) (٣٧٣/١) كلهم من طرق عن خالد بن عمرو القرشي عن سفيان الثوري عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه به .

ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] وغير ذلك من الآيات التي أخبر فيها بمن يحبهم اللَّه، ومن ذلك اتباع النبي - ﷺ - فإنه سبب من أسباب محبة اللَّه للعبد ودليله قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل اتباع الرسول - ﷺ - سببًا لحصول محبة اللَّه للعبد، وكذلك أيضًا طاعته سبحانه سببًا لمحبته دليل ذلك قوله في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»(١) فجعل أيضًا التقرب إلى اللَّه بنوافل العبادة سببًا لمحبة اللَّه له.

هذه أسباب كثيرة تحصل بها محبة اللَّه تعالى للعبد.

وأما في هذا الحديث فاقتصر على الزهادة في الدنيا: «**ازهد في الدنيا يحبك اللَّه**». ولعل السبب أن الانشغال بالدنيا يشغل عن الآخرة ويشغل عن الطاعات ويشغل عن القربات ويلهي الإنسان عن ما يحبه اللَّه منه وما يأمره به العبد المنشغل بهذه المباحات وبهذه المشتهيات لا يكون غالبًا متفرغًا للطاعة ولا للعبادة بل ينسى الآخرة وينسى العمل لها إلا ما شاء اللَّه، ولا شك أن المراد بالدنيا هنا زينتها وشهواتها وملاهيها ومتاعها الفاني، ليس المراد بها الأيام والليالي لأنها مسخرة فالأيام والليالي مخلوقة مسخرة وسائرة بما فيها، فإذا ورد ذم الدنيا فإنه لا ينصب على الأيام والليالي ولكن ينصب على اللهو وعلى المتاع الذي يشغل عن الآخرة، ينصب على الشهوات وعلى زخرف الدنيا وعلى الأموال الشاغلة، وعلى الحطام الفاني الذي تكالب عليه الناس في هذه الحياة والذي يكبون على جمعه وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الرقاق: باب التواضع (٦٥٠٢) (١١/٣٤٨ - ٣٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

التفاني فيه حتى ينشغلوا به عن ما أمامهم فينسون الآخرة ولا يعتبرون بتقلب الدنيا ولا تقلب أحوالها ، وقد كان الأولون يتعظون إذا وعظوا بشيء من هذه الحوادث التي تحدث ويشاهدونها ، ذكر أن الخليفة الرشيد كان قافلًا مرة من الحج فلما كان في ليلة من الليالي مر على إنسان من الزهاد فقال ذلك الزاهد والخليفة يسمع :

هب الدنيا تواتيكا أليس الموت يأتيكا
فما تصنع بذي الدنيا وظل الميل يكفيكا
ألا يا طالب الدنيا دع الدنيا لتأتيكا
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكا

سمع هارون هذه الأبيات فوقعت في قلبه فأغمي عليه حتى بقي مدة وهو يبكي من شدة تأثره ، بهذه الأبيات التي فيها تذكير بأحوال الدنيا ، ولما أفاق طلب ذلك العالم أو الزاهد فلم يجده ، هكذا تقع المواعظ من أهل القلوب الحية يُذكرون بتقلب الدنيا وبتقلب أحوالها وفي ذلك يقول أيضًا الحريري في أبيات له في المقامات :

إياك والدنيا الدنية إنها شرك الردى ومجامع الأخطار
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدًا بُعدًا لها من دار
آفاتها لا تنقضي وأسيرها لا يفتدي بجلائل الأقدار
قلبت له ظهر المجن وأولغت فيه المُدي ونزت لأخذ الثار

فوصفها بأنها كثيرة التقلب ، وأن أسيرها لا يفتدى بجلائل الأقدار ، وأنها قلبت له ظهر المجن ، وأولغت فيه المدي التي هي السكاكين ، ونزت لأخذ الثار وكثيرًا ما نسمع من ذم هذه الحياة ويراد بها ذم المتاع الذي عليها مثل قول ذلك الأندلسي :

سجنت بها وأنت لها محب فكيف تحب ما بها سجنت
وتطعمك الطعام وعن قليل ستطعم منك ما منها طعمت

وفي أبيات مشهورة لابن مشرف يقول :

وإياك والدنيا الدنية إنها هي السحر في تخييله وافترائه
فمن أكرمت يومًا أهانته في غدٍ ومن أضحكت قد آذنت ببكائه

ومشهور أيضًا ذلك الجاهلي الذي فارقه ابنه فيقول فيها :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجوار

وعلى كل حال فإن الزهادة في الدنيا معناها : عدم الركون إلى شهواتها وملذاتها ، وعدم الانخداع بزخرفها وما فيها ، والاشتغال في هذه الحياة بالدار الآخرة وما يقرب إليها والرضا من الدنيا بمتاع ، فإنما هي متاع مثل ما وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الحديد : ٢٠] ثم قال : ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد : ٢٠] .

الزاهد في الدنيا ليس معناه أن يترك تطلبها أصلًا ويموت جوعًا ، وليس معناه أن ينقطع عن طلب المعيشة دائمًا ويترهبن ويجلس في المسجد ولا يتطلب شيئًا ولا يطلبه ، بل معناه عدم الركون إلى الشهوات التي تشغله عن الآخرة ، وإلا فهو مأمور بأن يطلب المعيشة التي يعيش بها في حياته ويقطع بها هذه الأيام ، مأمور بأن يطلب منها ما يقيم أوده ولا يقول إنني أتوكل على الله وأجلس في المسجد وألتمس ما يأتينى من الرزق ومن المتاع وما أشبه ذلك كما روى عن عمر -رضي الله عنه- أنه دخل مرة في المسجد في الضحى فإذا أناس جلوس من حين أصبحوا إلى أن انتصف الضحى فقال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . فقال : بل أنتم الآكلون يعني :

أنكم تريدون أن الناس يأتونكم بما عندهم من الأطعمة ليؤكلوكم ، اخرجوا واطلبوا الرزق ولا يكن ذلك صادًّا لكم عن الأعمال التي أمركم اللَّه بها .

فالحاصل :أن الذين ينافسون في الدنيا لا شك أنهم خاسرون ؛ وذلك لأنهم جعلوها أكبر ما يهتمون به فصاروا يتكاثرون في جميع الحطام ، ويتكاثرون في رفع المباني ، ويتكاثرون في كثرة الممتلكات ، ويتكاثرون في أنواع الأطعمة والأشربة التي ينوعونها والتي يتنعمون بها ، ويتكاثرون في المراكب وغيرها فصار هذا التكاثر شاغلًا لهم عن التفكر في الأعمال الصالحة ، ولا شك أن من انهمك في المباحات وأكثر من تناولها وأكثر من إعطاء النفس ما تتمنى من الشهوات ونحوها شغلته عن الآخرة وشغلته عما هو مخلوق له وما هو مأمور به ، فأما إذا كان الإنسان يطلب الدنيا من طرق مباحة ، ويجمعها ويستعين بها على طاعة اللَّه ، ويخرج حقوقها فإن هذا نعم المال الذي ينتفع به وقد ورد في الحديث : « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** »[(١)]. ولما قال النبي – ﷺ- : « **إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج اللَّه لكم من زهرة الدنيا ، فقال رجل : يا رسول اللَّه وهل يأتي الخير بالشر ؟ فقال : « أوخير هو ؟ إن الخير لا يأتي إلا بخير وإن مما ينبت الربيع ما يقتبل حبطًا أو يلم ، وإن هذه الدنيا خضرة حلوة فمن أخذها بحقها وصرفها في حقها فنعم المال ، ومن أخذها بغير حقها كان كالذي يأكل ولا يشبع** »[(٢)] ضرب مثلًا بما

(١) إسناده قوي : أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٩) (ص١١٢) ، وأحمد في « مسنده » (٤/ ١٩٧، ٢٠٢) ، وفي « فضائل الصحابة » (١٧٤٥) (٢/٩١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١١) (٨/٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٢) وصححه على شرط مسلم ، – كلهم – من طريق موسى بن علي عن أبي عن عمرو بن العاص رضي الله عنهم به .

وقوى الأرناؤوط إسناده في هامش ابن حبان .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا ... (٦٤٢٧) (١١/ ٢٤٨ – فتح) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الزكاة : باب ما يخرج من زهرة الدنيا (١٢١: ١٢٣) (٢/ ٧٢٧: ٧٢٩) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ينبت الربيع فإن كثيرًا من البهائم من الغنم أو من الإبل أو الحمر أو من الخيل إذا جاء الربيع وأزهرت الأرض وأنبتت النبات الحلو أخذت ترعى وتكثر من الرعي وتكثر من أكل الخضرة وهذا النبات الخضر الذي هو لذيذ في مذاقها ولا تزال تتناوله وتستكثر منه إلى أن يقتلها حبطًا يعني : تخمة أو يلم بها فمثل بذلك الذي يسعى ويلهث وراء جمع الدنيا ويكثر من جمعها وينسى حقوق اللَّه فيها وينسى ما أمر اللَّه به ويتغافل بهذا اللهث وبهذا الجمع عن المساجد وعن عمارتها بالطاعة وعن الصلوات وعن التهجد وعن النفقات في الخير ولا يزال يستكثر من جمعها إلى أن ينسى ربه وينسى معاده فيأتيه الموت وهو في غاية من التفريط والإهمال وربما كان ذلك فتنة له كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن : ١٥] وأخبر أيضًا بأنها شاغلة أي : تشغلهم عما هو أهم منها ؛ فبذلك يعرف أن كونه - ﷺ- رغب في الزهادة في الدنيا رجاء أن يكون الإنسان محبوبًا عند اللَّه ، وأن مراده بذلك أن لا يجمع ما يشغله عن الآخرة ومع ذلك يؤدي حقوق اللَّه ويقوم بواجباته ، ولا يجعل الدنيا أكبر همه ولا ينسى آخرته ولا ينسى معاده ، ويستكثر من الأعمال الصالحة ويقدمها لآخرته ، ويجعل الدنيا مزرعة للآخر فبذلك يكون من أحباب اللَّه تعالى .

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة التي ذكر أن عليها مدار الإسلام والتي هي أربعة ، كل حديث يقولون إن هذا الحديث ربع الإسلام أو ربع علوم الإسلام ونظمها بعضهم بقوله :

عمدة الدين عندنا كلمات   أربع من كلام خير البرية
اتق الشبهات وازهد   ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية

عمدة الدين أي : العمدة في الإسلام على كلمات أربع من كلام خير البرية ، أربع كلمات يعني : أربعة أحاديث أو أربع جمل ، اتق الشبهات يعني : حديث النعمان والذي فيه : « **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه** » .، وازهد

يعني : حديث سهل هذا الذي فيه : « **ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس** » ، ودع ما ليس يعنيك يريد حديث الحسن بن علي : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » . وقد يريد أيضًا قوله - ﷺ- : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** » ، والرابع قوله : واعملن بنية أي حديث : « **إنما الأعمال بالنيات** » .

فهذا الحديث هو أحدها اشتمل على سؤال وجواب ، فالسائل يقول : أريد عملًا إذا عملته أحبني اللَّه تعالى وأحبني الناس ؟

لا شك أن محبة اللَّه تعالى إنما تحصل بطاعته ، بمعنى أنه يحب المتقين ويحب المطيعين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب المحسنين كما أخبر بذلك في كتابه ، فأجابه في ذلك أن اعمل بالأمور التي يحب اللَّه تعالى أهلها حتى تكون محبوبًا عند اللَّه ؛ فإنك إذا حافظت على عبادة اللَّه وحافظت على التقوى وعلى الإحسان وعلى الخصال التي يحبها اللَّه تعالى فإن اللَّه تعالى يحبك ، وسوف يأتي الحديث الذي فيه قول اللَّه : « **ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه** » . فإذا قيل : متى أحصل على العمل الذي يحبه اللَّه والذي يحبني اللَّه له ؟ فالجواب : أن نقول حافظ على فرائض اللَّه وأكثر من نوافله التي شرعها والتي أحبها أهلها ، ومن جملة ذلك : الزهد في الدنيا وهي ضرة الآخرة فمن أحب الدنيا فإنه بلا شك سيضر بالآخرة وأما من أحب الآخرة فإنه يزهد في أمور الدنيا يزهد في زينتها وفي زخرفها فلا ينخدع بما فيها ويشمر للآخرة ويعمل لها عملها العمل الذي يوصله إلى رضا اللَّه تعالى وإلى أن يكون محبوبًا عند اللَّه هذا هو القول الصحيح في أن محبة اللَّه تعالى للعبد تحصل إذا حافظ على أمور الآخرة وابتعد عن أمور الدنيا التي تكون مشغلة عن القربات ، وملهية عن الصالحات فمتى كان كذلك فإنه يصير محبوبًا عند اللَّه تعالى وقد روي في الحديث : « **من أحب دنياه أضر بآخرته ومن**

أحب آخرته أضر بدنياه »[(١)] فآثر ما يبقى على ما يفنى ، فالذي يبقى هو الآخرة ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ والذي يفنى هو الدنيا . آثروا الآخرة يعني : قدموها وأحبوها وازهدوا في الدنيا واقتصروا من الدنيا على ما يوصلكم إلى رضا الله تعالى ، ورد أيضًا في بعض الآثار : « **ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فإن بدأت بنصيبك من الدنيا فاتك نصيبك من الآخرة وإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظامًا** »[(٢)] .

ومعنى ذلك أن الإنسان لا بد له من أن يحصل على شيء من متاع الدنيا يحصل على قوت وعلى غذاء وعلى متاع يتمتع به في حياته ، ولكن حاجته إلى العمل الأخروي أولى وأشد فالذي يقدم الدنيا ، ويكب عليها ، ويجعلها شغله الشاغل لا شك أنه تفوته الآخرة ويفوته نصيبه من الآخرة الذي هو السعادة أما الذي يجعل شغله الشاغل في هذه الحياة للآخرة يهتم بالأعمال الصالحة التي يحبها الله والتي تكون سببًا في نجاته وسببًا في سعادته يهتم بأمور آخرته ويعمل لها فإن الله تعالى يسهل أمره ، ورد أيضًا في حديث : « **من كانت الدنيا أكبر همه فرق الله شمله وشتت أمره وجعل فقره بين عينيه ولا يأتيه من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت**

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٤١٢/٤) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٥٦٨) (ص١٩٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠٩) (٤٨٦/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٠٨/٤) وصححه على شرطهما ، وتعقبه الذهبي فقال : (فيه انقطاع) ، (٣١٩/٤) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٤١٨) (٢٥٨/١) ، والبيهقي في « الكبرى » (٣٧٠/٣) كلهم من طريق عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبي موسى رضي الله عنه به .
وقال الهيثمي في « المجموع » (٢٤٩/١٠) : (رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات) . اهـ .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٤٩) (٣٥/٢٠) بسنده عن محمد بن سيرين قال : أتى رجل معاذًا ومعه أصحابه يسلمون عليه ، ويودعونه ، فقال : إني موصيك بأمرين إن حفظتهما حفظت ، إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا حتى تنتظمه لك انتظامًا تزول به معك أينما زلت .

الآخرة أكبر همه جمع اللَّه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة »(١) يعني : ييسر اللَّه له كما أخبر اللَّه تعالى بأنه يعطي من عمل الخير ويحيه الحياة الطيبة لقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ [النحل : ٩٧] مجرد أنك تعمل الأعمال الصالحة ، وأنك تحقق إيمانك وتصحح عقيدتك ، وأنك تهتم بآخرتك – فإن لك البشرى بالحياة الطيبة حياة سعادة وطمأنينة قلب وراحة بدن وقوة بدن وسعة في الرزق وجميع ما تتمناه يأتي إليك ولا ترى في دنياك مكدرات ولا همومًا ولا غمومًا ولا أحزانًا ؛ فيثق العبد بأنه لو صرف عنه شيء من متاع الدنيا فليس دليلًا على شقائه ، وكثير من الذين ابتلوا بالفقر وابتلوا بالجوع وبالجهد وبضيق الحال يسبون حياتهم ويدعون أنهم أشقياء وأن حياتهم حياة تعس وحياة شقاء وحياة تعب ونصب فيسلط لسانه على حياته قائلًا : أنا حياتي تعيسة أنا الشقي في هذه الدنيا أنا البائس أنا ... أنا ... ولو أنه أصلح عمله لرزقه اللَّه تعالى قرة العين وسعة البال وآتاه ما يقتات به ، ثم نقول لا تنخدع بمن وسعت عليه الدنيا وكثرت عنده زينتها وأموالها فليس ذلك دليلًا على سعادته ؛ فقد ورد في الحديث : « **إن اللَّه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب** »(٢) فمن أحب اللَّه تعالى أعطاه الدين .

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب صفة القيامة : باب منه (٢٤٦٥) (٦٤٢/٤) ، والحارث في « مسنده » (١٠٩٢) (٩٨٢/٢) – أخرجاه – من طريق الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه .
وله شاهد من حديث زيد بن ثابت عند الطبراني في « الكبير » (٤٨٩١) (١٤٣/٥) .
وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » .

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٥) (ص١٥٤) ، وأحمد في « مسنده » (٣٨٧/١) ، والطبراني في « الكبير » (٨٩٩٠) (٢٠٣/٩) ، والحاكم في « المستدرك » في عدة مواضع وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي من طريق مرة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه به .

أما الشق الآخر وهو قوله : « **وازهد فيما عند الناس يحبك الناس** » . فهو إرشاد إلى الخصلة التي يكون بها الناس متحابين فيما بينهم ؛ فالعادة أن الإنسان يكون شحيحًا بما في يديه فإذا أكثرت التردد عليه وأكثرت سؤاله وقلت أعطني إني بحاجة ، ثم أتيته وطلبت منه ثم طلبت منه ثالثة ورابعة فإنه بلا شك سيمل منك ويسأم ويبغضك وتتكدر نفسه عليك ؛ حيث إنك أكثرت الإلحاح عليه أما إذا لم تطلب شيئًا من ماله وزهدت فيما عنده وتركت ماله له وتقللت وتقشفت وصبرت على ما أنت عليه في هذه الحياة فإنه سيقربك ويحبك ويكرمك ويمدحك ويثني عليك ، وبمثل هذا تكون مكرمًا محبوبًا عند الناس هذا هو الغالب ، ولا شك أن دنيا الناس وأموالهم غالية عندهم ثمينة في نفوسهم فإذا أكثرت في الإلحاح في الطلب عليهم فقد زاحمتهم فيما عندهم فتكون شبه عدو لهم فيحقد أحدهم عليك ويتكلم بسبك وعيبك ونحو ذلك . وقد اشتهر عن السلف -رحمهم الله- الحرص على التقشف وعلى التقلل مما عند الناس يقول الشاعر :

كن زاهدًا فيما حوت أيدي الورى   تضحى إلى كل الأنام حبيبًا
أو ما ترى الخطاف حرم زادهم   فغدا رئيسًا في الجحور قريبًا

الخطاف الطائر الذي يكون في البيوت ، والعادة أنه لا يأكل من حبوب الناس ولا يأكل مما في بيوتهم ليس مثل العصافير ونحوها التي تؤذيهم وتأكل من أشجارهم ، فالناس لا يتعرضون للخطاف فمثل به في هذا البيت واشتهر عن الشافعي -رحمه الله- الأبيات التي في ذم الدنيا :

فمن يذق الدنيا فإني طعمتها   وسيق إلينا عذبها وعذابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة   عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلمًا لأهلها   وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فدع عنك فضلات الأمور فإنها   حرام على نفس التقي ارتكابها

فقوله : ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها يمثل ما عند الناس من المتاع ومن المال ونحوه أن فيه عذب وعذاب فجرب ذلك كله فمثل الدنيا بهذا المثال : (وما هي إلا جيفة مستحيلة) أي قد أتى عليها مدة طويلة حتى خاست وظهرت رائحتها فاجتذبت تلك الجيفة الكلاب ، جاءت إليها من كل جهة تجتذبها هذه الرائحة (عليها كلاب هممن اجتذابها) (فإن تجتنبها كنت سلمًا) أي مسالمًا (لأهلها) (وإن تجتذبها نازعتك كلابها) .

روي عن كعب الأحبار أنه سئل مرة قيل له : ما الذي يذهب العلم من الصدور ؟ فقال : (يذهبه الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحاجات من الناس) [1] صدق في أن هذه الأشياء تكون في القلب ركيزة بحيث إن صاحبها يكون مهتمًّا بها فيغفل عما عنده من العلم وينسى العلم الذي قد حفظه ويذهب من ذاكرته كثير من الأدلة فلا يبقى مهتمًّا إلا بما فيه الطمع وهو كون الإنسان طامعًا فيما لا يستحقه يحمله الطمع على أن يتجرأ على كل شيء ليس حقًّا له وليس من أهله .

شره النفس : يعني : امتدادها إلى شيء ليس من حقها .

تطلب الحاجات : كثرة التطلب سواءً السؤال أو الاستعارة أو القرض أو ما أشبه ذلك كونه دائمًا يقول : يا فلان أقرضني فإني بحاجة يا فلان تصدق علي فإني وإني يا فلان أعطني فإني قد أصبت بكذا وكذا ، أعرني عارية فإني بحاجة أو ما أشبه ذلك ، فكثرة تطلبه تسبب نسيان المعلومات التي في ذاكرته ثم تسبب أن الناس يمقتونه بحيث إنه متى جاءهم مرة ثانية أغلقوا الأبواب دونه وتستروا منه وأبغضوه وحذروا منه ونحو ذلك فإذا أردت أن تكون مقربًا عند الناس فدع دنياهم لهم وازهد

---

(١) أخرجه الدارمي في « سننه » مختصرًا (١/١٤٤) وجعل السائل عمر ، والمزي في « تهذيب الكمال » من طريق آخر (٤٩٨٠) (١٨٩/٢٤) وجعل السائل عبد الله بن سلام في وجود عمر رضي الله عنهما .

فيما في أيديهم من أمتعتهم وأموالهم .

اقنع بما ترزق يا ذا الفتى فليس ينسى ربنا نملة
إن أقبل الدهر فقم قائمًا وإن تولى مدبرًا نم له

اعلم بأنه سيأتيك رزقك الذي قدر لك ، وسوف يأتيك ما كتب اللّٰه لك ، فكونك تلح في الطلب وتكثر الإلحاح وتطلب الناس وتسألهم وتضايقهم وتكثر من إظهار الفقر والحاجة أمامهم حتى يحتقروك ويبغضوك وينفروا منك فإن هذا مما يسلبك الهيبة ؛ فالإنسان يحب أن يكون مهابًا وأن يكون عزيز النفس وأن يكون رفيعها وكفى بالمرء إثمًا أن يذل نفسه وأن يحقرها وأن يكون دنيء الهمة ؛ فعليك أن تعمل مثل ما يعمل أهل الهيبة وذلك أن تطلب من الدنيا ما تسد به حاجتك وخلتك وأن تستغني عن ما عند الناس ، وأن تحرص كل الحرص على أن تتعفف بأن تكتفي حين تجد الكفاية والرزق الذي يسد حاجتك عن أن تضعف نفسك أمام الناس ، هذا هو السبب في عظم هذه الوصية .

❁ ❁ ❁

الحديث الثاني والثلاثون
لا ضرر ولا ضرار

عن أبي سَعِيدِ سَعْدِ بن سِنَانِ الخُدْرِي - رضي اللهُ عنه - : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ » .

حديث حسن رواه ابن ماجة والدارقطني وغيرهما مسندا ورواه مالك في الموطإ مرسلا عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم فأسقط أبا سعيد وله طرق يقوي بعضها بعضا[1] .

شرح الحديث :

قال - ﷺ- : « **لا ضرر ولا ضرار** » . كلمتان اختصر فيهما أشياء كثيرة ، نفي الضرر ونفي الإضرار ، المعنى : لا يجوز لأحد أن يتعمد ضررًا بأخيه ولا أن يضار أحدًا .

---

(١) صحيح لغيره : أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الأحكام : باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (٢٣٤١) (٢/٧٨٤) ، وأحمد في « مسنده » (١/٣١٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٥٢٠) (٤/ ٣٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (١١٥٧٦) (١١/٢٢٨) ، (١١٨٠٦) (١١/٣٠٢) ، والدارقطني في « سننه » (٨٤) (٤/٢٢٨) كلهم من طرق عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه .
وأخرجه مالك في « الموطأ » (٢/٧٤٥) ، والشافعي في « مسنده » (ص٢٢٤) ، والبيهقي في « الكبرى » (٦/ ٦٩، ١٥٧) ، (١٠/١٣٣) كلهم من طريق عمرو بن يحيى المازني عن أبيه مرفوعًا ، وهو مرسل .
والحديث له شواهد عن عبادة بن الصامت وعن أبي هريرة ، وجابر بن عبد اللّٰه ، وعائشة وثعلبة بن أبي مالك - رضي الله عنهم جميعًا - وغيرهم .
وصححه الألباني لغيره في « صحيح ابن ماجة » .

الضرر والضرار: قيل إنهما بمعنى واحد. وقيل: إن كلًّا منهما له معنى ولا شك أن الضرر أعم؛ وذلك لأنه يدخل فيه كل ما يضر الإنسان سواء أن يضر نفسه أو يضر أحدًا من المسلمين في بدنه أو في عرضه أو دنيه أو في ماله أو في محارمه بغير حق وقد نهى اللَّه تعالى عن جنس ذلك كقوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فهذا مما لا يجوز بمعنى: أنه لا يجوز أن الوالد يضر الأم فيأخذ ولدها ويضرها بفراقة وبتفريقه بينها وبينه فإن هذا ضرر عليها ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ كذلك أيضًا الأم ليس لها أن تظلم زوجها إذا طلقها وتأخذ أولاده وتفرق بينه وبينهم فتضره بالتفريق الذي عليه في ضرر.

كذلك أيضًا نفى اللَّه ذلك في قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] سواء كان الكاتب فاعلًا أو نائب فاعل، وكذلك الشهيد، بمعنى: لا يجوز للكاتب أن يضر أحدًا ولا يضره أحد وكذلك الشهيد لا يجوز أن يضره أحد ولا يضر أحدًا فجعل محتملًا أن يكون فاعلًا أو نائب فاعل، ثم هذا الحديث يدخل فيه جميع أنواع الضرر أي أنه لا يجوز للمسلم أن يتعمد أي ضرر على إخوانه المسلمين، ويدخل في ذلك الضرر في الأرزاق وقد ثبت أنه - ﷺ- قال: «**لا يحتكر إلا خاطئ**»(١). وذلك لأنه ضرر وصورة ذلك إذا كان الإنسان عنده طعام والناس بحاجة إليه فاحتبسه حتى يرتفع ثمنه ثم باعه عليهم بأضعاف قيمته فإن هذا الاحتكار الذي حرم. «**لا يحتكر إلا خاطئ**». ففيه ضرر على المسلمين؛ حيث يلحقهم أذى، وضرر الجوع، ثم كذلك ضرر ارتفاع القيمة والسلع، فهذا داخل في (لا ضرر) أي: لا يضر مسلم إخوانه المسلمين كذلك أيضًا لا يضرهم في جواره إذا كان الإنسان له جيران فليس له أن يضر الجيران برفع صوت مزمار أو غناء أو نحو

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة: باب تحريم الاحتكار في الأقوات (١٢٩، ١٣٠) (١٢٢٧/٣ - ١٢٢٨) من طريق سعيد بن المسيب عن معمر بن عبد الله - رضي الله عنه - به

ذلك بحيث يضارهم برفع هذه الأصوات ونحوها ، فإن هذا فيه ضرر على المسلم ، والضرر يزال ، كذلك أيضًا الضرر في المعاملات المحرمة مطلقًا حرمت في أدلة خاصة ومع ذلك فإنها داخلة في هذا الحديث لا شك مثلًا أن كل من كان عنده أعمال تهم المسلمين فواجب عليه أن يسهل أمرهم ولا يشق عليهم ولا يكلفهم فإن فعل فإنه قد ضارهم ، وقد ورد في الحديث قوله - ﷺ - : « **من ضار مسلمًا ضره الله ومن شاق مسلمًا شق الله عليه** »[(١)].

نذكر لذلك أمثلة وهي كثيرة ؛ فإذا كان عندك مثلًا شهادة فلا يجوز لك أن تكتمها ؛ فإن في ذلك ضررًا على صاحبها متى عرفت أنه يضيع حقه إذا لم تشهد معه وكذلك لا يجوز لك أن تطلب شيئًا يشق عليه أو تتأخر عن الإتيان ؛ فإن في ذلك ضرر على المسلم ، كذلك إذا كنت موظفًا مثلًا وعندك أوراق للمراجعين الذين يأتون من أماكن بعيدة فلا يجوز لك أن تحبسها وأن تشتغل بحاجات نفسك فيتضررون بتأخير أعمالهم وباحتباسهم وبتأخير مصالحهم التي يرجونها ، فالذي يؤخر هذه الأوراق ونحوها يعتبر قد ضار المسلمين وشق عليهم فيدخل ذلك في هذا الحديث ، وكذلك مثلًا الذي يعالج الناس كالأطباء الذين يعالجون الناس في وظائف حكومية ليس لأحدهم أن يضرهم فيشتغل في حاجات نفسه ويتركهم ينتظرون أو يأتون مرارًا ولا يجدون من يتقبلهم لا شك أيضًا أن هذا مضارة بهم

---

(١) حسن :أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الأقضية : باب من القضاء (٣٦٣٥) (٣/٣١٤) ، والترمذي في « سننه » كتاب البر والصلة : باب ما جاء في الخيانة والغش (١٩٤٠) (٤/٣٣٢) وقال : (حسن غريب) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الأحكام : باب من بنى في حقه ما يضر جاره (٢٣٤٢) (٢/ ٨٧٤، ٨٧٥) ، والطبراني في « الكبير » (٨٢٩، ٨٣٠) ، والبيهقي في « الكبرى » (٦/٧٠) - كلهم من طريق الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان عن لؤلؤة عن أبي صرمة الأنصاري - رضي الله عنه - به .
وحسنه الألباني في « صحيح أبي داود والترمذي وابن ماجه » .

وربما كان ضررهم أشد لأن الغالب أنهم مصابون بأمراض يشق عليهم التحمل والتصبر فيكون هذا ضررًا من هذا الإنسان الذي ولاه اللَّه أو تولى أمرًا يهم المسلمين، وهكذا أيضًا من المضار الغش في المعاملات لا شك أنه ضرر إذا غش إنسانًا فباعه شيئًا لا يساوي الثمن الذي بذله بأن خدعه فمدح السلعة ورفع من قيمتها وحلف بأنها تساوي كذا وكذا أو أخفى عليه ما فيها من العيوب وما فيها من النقص ونحو ذلك فيتضرر الذي يستعملها أو الذي يتعاطاها فيكون هذا ضررًا على المسلمين فيدخل في هذا النهي، وكذلك الذين يأخذون الرشى مقابل أعمال يعملونها وقد يضرون بها من ولاهم سواءً العامل الذي يوكل في شراء سلعةٍ ويتفق مع البائع على زيادة في الثمن فيضر الشركة التي وكلته أو المؤسسة وينفع نفسه وينفع صاحب السلعة فيزيد في السلعة ويقول الشركة أو المؤسسة تقبله بكذا أو كذا فيأخذ مها ما لا يستحق ولو كانت الشركة لا تتضرر ظاهرًا ولكن لا شك أن هذا ضرر واضح على غيره ومصلحة لنفسه أخذ بها ما لا يستحق، وهكذا أيضًا العمال الذين يعملون أعمالًا يتقبلونها ومع ذلك لا ينصحون فيها فيضرون غيرهم أيًّا كانت تلك الحرف وتلك الأعمال في بناء مثلًا يتأخرون فيضرون صاحب البناء أو يقدمون غيره عليه فتتأخر أعماله مدة طويلة في انتظارهم وهم يعملون عند غيره لا شك أن هذا ضرر، وكذلك أيضًا العمال الذين يسمون ويعرفون بالأجير المشترك وهو الذي يعمل لهذا ولهذا كخياط وغسال وخراز وحداد ومن أشبههم لا شك أنه إذا تقبل عملًا فإن عليه أن ينجزه ولا يجوز له أن يضار بصاحبه فيؤخر صاحب الثوب مثلًا أو صاحب الحذاء ويقول انتظر وهو يعلم أنه يقدم عليه غيره ممن بذل له مصلحة كل ذلك لا شك أنه مضارة فيدخل في هذا الحديث: «**لا ضرر ولا ضرار**».

ويدخل في الضرر أيضًا المضارة من الجانبين فيدخل في ذلك الضرر الحسي مثل نهب الأموال واختلاسها والسرقة وجحد الديون والمماطلة إذا كان عليه دين

وهو يقدر على أن يسدده ولكنه أخر الوفاء به ويسمى هذا مماطلًا فيتضرر صاحبه، وكذلك أيضًا الذين يقيمون الدعاوى وهم يعلمون أن الحق ليس لهم فيضرون بصاحب الحق ويترافعون معه إلى المحاكم وتطول مدة انتظار صاحب الحق لحقه فيتضرر لا شك أن هذا من الإضرار نعرف بذلك أنه - ﷺ- نهى عن كل شيء يضر مسلمًا ويلحق به ضيم أو مشقة أو نحو ذلك.

ويدخل في ذلك أيضًا مضار الزوجين؛ فالزوج لا يجوز له أن يضار زوجته بمعنى: أنه قد يكرهها ويسيء صحبتها ويسيء معاملته معها ويهجرها، وربما يضربها ويؤذيها، ويقصد بذلك أن تفتدي أي: تدفع له مالًا حتى يفارقها فهو الذي كرهها وكره صحبتها، ومع ذلك عمل هذا العمل حتى تفتدي منه- لا شك أن مثل هذا ضرر منه لا يجوز، وكذلك أيضًا الزوجة إذا كرهت الزوج بدون سبب أو بسبب ولم يكن هناك نقص في عمله، فتسيء صحبته وتهجره وتضاره وتتمنع من طواعيتها له وتتمنع من أداء حقه عليها وتسب وتتكلم وتخرج من بيته بدون إذنه مثلًا ولا تربي أولاده ولا تنصح له هذا أيضًا من المضارة له ضررًا يدخل عليه أو يتأذى به، كما إذا طالبت الفرقة والخروج من بيته؛ لأن الزوجة إذا نفرت منه ولم تقبله هجرها وتركها معلقة مدة طويلة وهو يعرف أنها لا تريده أبدًا فإن تركها مدة سنتين أو ثلاث سنوات أو خمس سنوات بدون زوج وهي لا ترغبه فإن هذا يعتبر إضرارًا بها ومشقة عليها فيحرم عليه المكث والبقاء على هذا الضرر، بل عليه أن يعمل بقول اللَّه تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] ولا يجوز له إمساكها ضرارًا كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١] فإن هذا ضرر عليها وكذلك أيضًا يدخل في ذلك الضرر الديني وهذا يعم جميع الناس بمعنى أن الإنسان إذا رأى إنسانًا متضررًا في دينه؛ إما لأنه جاهل أو عاص ولكنه ممن يتأثر بالنصيحة فلا يجوز

هجرانه وتركه دون أن يبين له ، بل عليه أن ينصحه ويبين له ويأمره بالخير ويدله عليه ويحذره من المعاصي ويحذره من الشرور كلها ، وبذلك يكون مزيلًا لضرر معنوي يقدر على إزالته وكذلك أيضًا السعي في تخفيف الأضرار الحسية عن المسلمين .

مثال ذلك : إذا عرفت أن أخًا لك مريض تضرر لطول مرضه وأنت قادر على التسبب في علاجه وتخفيف الألم الذي أصابه وهو غير قادر على ذلك فإن تركك له يلاقي الآلام ويلاقي المشقة ويتعب في ملاقاة هذا المرض الشديد وأنت عندك استطاعة على أن تسعى في علاجه أو سبب عند من يتولى علاجه ويخفف ذلك فإن تركك له يعتبر إبقاء للضرر الحسي ، على المسلم ، والمسلم لا يجوز له أن يضر أخاه ، ولا أن يرضى بضرره ، هذه أمثلة والأمثلة كثيرة والإنسان يعلم هذه القاعدة فيسعى في تخفيف الضرر عن المسلمين وفي منع أي ضرر عن كل مسلم ليكون بذلك صادقًا في نصيحته لإخوانه .

* * *

الحديث الثالث والثلاثون
البينة على المدعي واليمين على من أنكر

عن ابن عَبَّاسٍ – رضي اللهُ عنهما – : أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « **لو يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لادَّعَى رِجَالٌ أموالَ قَوْمٍ ودِماءَهُمْ لَكِنِ البَيِّنَةُ على المُدَّعِي والْيَمِينُ على من أَنْكَرَ** » . حديث حسَنٌ ، رَوَاهُ الْبَيْهقي وغيرُهُ هكذا ، وبَعْضُهُ في الصحِيحَين[1] .

شرح الحديث :

الإمام النووي –رحمه الله– في هذه الأحاديث التزم أن يذكر الأحاديث الجامعة التي تعد قواعد مفيدة يستفيد منها الناس فوائد كثيرة سواء كانت تتعلق بالأعمال أو تتعلق بالعقائد أو تتعلق بالأحكام أو تتعلق بالمواعظ والإرشادات أو غيرها وتسمى جوامع الكلم ، وقد روي أنه – ﷺ– قال : « **أوتيت جوامع الكلم وخواتمه وفواتحه واختصر لي الكلام اختصارًا** » . كما ذكره ابن رجب في أول شرحه (جامع العلوم والحكم) بعدة ألفاظ وروايات . ولأجل ذلك كانت هذه الأحاديث تحتاج إلى توسع في الشروح ، وممن توسع في شرحها ابن رجب –رحمه الله– وقد أضاف إليها ثمانية أحاديث فتمت خمسين حديثًا من جوامع الكلم ، ومنها هذا الحديث ويعد قاعدة كاملة فيما يتعلق بالقضاء يحتاج إليه القاضي ليعمل

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الأقضية : باب اليمين على المدعى عليه (١٧١١) (٣/ ١٣٣٦) ، عن ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس – رضي الله عنه – به .
وأخرجه البخاري وغيره مختصرًا بدون ذكر أوله .

به ، ذكر في هذا الحديث أن اعتماد القاضي على البينة وعلى اليمين » .البينة على المدَّعِي واليمين على من أنكر » . وقدم قوله : « **لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدَّعِي واليمين على من أنكر** » .

وبعض هذا الحديث في الصحيح ولفظه : « **ولكن اليمين على من المدَّعَى عليه** » . يقول : إن كثيرًا من الناس تغلبهم الأطماع ويغلبهم العدوان والاعتداء على حقوق غيرهم ويغلبهم حب المنافع وحب المال وحب الأمتعة وحب الدنيا وإذا غلبهم لم يفكروا في حل وحرمه بل يكون همهم تحصيل مطلبهم دون أن يفكروا في الحساب وفي الجزاء على الأعمال ودون أن يفكروا في المال وفيما يترتب على أخذهم لهذا المال أو سفكهم لهذا الدم فيكون هذا هو همهم فيدعون دماء قوم ويدعون أموالهم وهذا كثير وكثيرًا ما نسمع أن فلانًا امتد طمعه إلى أرض جاره وأخذ منها جزءًا كبيرًا أو صغيرًا مع تيقنه أنه لا يملكها ، وكثيرًا ما نسمع أن فلانًا حصل له شيء من الشبهة فجعلها حقيقة لما سمع قولًا أو نقلًا أنه يرث من هؤلاء أو له حق في هذا الوقف أو له حق في هذه المنفعة فجعل ذلك الظن حقيقة وأصر على أن يقيم دعوى ، ومعلوم أن أكثر هذه الدعاوى لا حقيقة لها ، بل معلوم أن أحد المتداعيين كاذب إما المدعي وإما المدعي عليه ، فلذلك تكثر الدعاوى فتجد القضاة يزدحم عندهم الناس هذا يقول الحق معي وهذا يقول الحق معي هذا يقول أنا مظلوم وهذا يقول بل أنا مظلوم وخصمي هو الظالم فمن الذي نصدقه ، القاضي لا يعلم الغيب إنما يحكم بما ظهر له ، حتى النبي - ﷺ- لا يعلم الغيب بل يحكم بما ظهر له ففي حديث أم سلمة -رضي الله عنها- المشهور في الصحيح أنه - ﷺ- قال : « **إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه أو بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من**

---

(١)أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب المظالم : باب إثم من خاصم في باطل .. (٢٤٥٨) =

النار فليأخذها أو ليدعها »(١) .

فهكذا أخبر أنه لا يعلم الصادق من الكاذب ، ولما ترافع إليه زوجان زوج قذف امرأته بالزنى والمرأة تقول كذب علي وقذفني لم يعلم أيهما الصادق بل أخذ يعظهما فيقول : « **اللَّه يعلم أن أحدكم كاذب فهل منكما تائب** »(٢) .

فهذا بلا شك دليل واضح على أنه إنما يحكم بما ظهر له ، ويقول بعض الحكماء : لو أنصف الناس من أنفسهم لاستراح القضاة ؛ وذلك لأن الكثير من الذين يتخاصمون يعلم أحدهم أنه كاذب ومتعمد للكذب فيقدم على إقامة هذه الدعاوى سواء دعوى في مال أو دعوى في دم فيتهم بريئًا يقول : هذا قتل ابني أو هذا قطع يدي او هذا شجني أو جرحني يتهمه وهو برئ اعتمادًا على الظن أو تعمدًا للكذب أو اعتمادًا على نقل غير صحيح بأن قيل له : إن الذي قتل أخاك هو فلان والقائل من الوشاة ومن الكذبة ، لا شك أن مثل هذا يعتبر كذبًا وأنه أقام دعوى ظنية وقد يكون صادقًا والمدعى عليه يعلم من نفسه أنه الذي اعتدى على هذا بقتلٍ أو بقطع طرفٍ أو بجرح أو نحو ذلك فيجحد هذا من نفسه ويصر على الجحد فيتحير القاضي لا يدري أيهما الصادق ، وكذلك أيضًا الدعاوى في الأموال كثيرًا ما يحتالون حيلًا ؛ يحتالون في الأموال و يحتالون في الحقوق وما أشبهها فإذا كان عند أحدهم مثلًا دين وأراد أن يجحد وهناك عنده وثيقة فقد يدعي أنه قضاه وهو كاذب ويقول :

= (١٢٨/٥ - فتح) وانظر : (٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٩، ٧١٨١، ٧٢٨٥)، ومسلم في « صحيحه » كتاب الأقضية : باب الحكم بالظاهر ... (٤ : ٦) ، - كلاهما - من طريق عروة بن الزبير عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة رضي الله عنها به .

(١) يشير إلى حديث ابن عمر - رضي الله عنه - الذي أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الطلاق : باب قول الإمام للمتلاعنين ... (٥٣١٢) (٣٦٧/٩ - فتح)، وفي باب صداق الملاعنة (٥٣١١) (٤٠٥/٩ - فتح) وانظر : (٥٣٤٩) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب اللعان (٦/٥) (٢/ ١١٣) ، - كلاهما - من طريق سعيد بن جبير عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به .

قضيته وليس عندى بينه ، أو يقول : قضيته وأخذت وثيقة ولكن الوثيقة فقدت أو رددت عليه أمانته أو ماله ومن الثقة لم أشهد على ذلك أو ما أشبه ذلك فتكثر الدعاوى دماءًا أو أموالًا ففي هذه الحال القاضي ليس له إلا أن يبني على هذا الحديث يبني على هذه القاعدة فلذلك قال في هذا الحديث : « **البينة على المدعي واليمين على من أنكر** » .

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن البينة هي الشهود الذين يشهدون على القضية يقولون : نشهد أن هذا قد أوفى دينه نشهد أن هذا رد الأمانة أو رد العارية نشهد أن هذا قتل أو قطع أو جرح أو ما أشبه ذلك ، فشهادتهم والحال هذه لا شك إنها إذا كانت عن يقين أي شهادة يقينية اعتمدها القاضي ولكن قد تطول الدعاوى بسبب أن الخصم قد يطعن في الشهود وقد يرميهم بأنهم أهل محاباة أو أن فيهم جرح قادح فيحتاج إلى تعديل وإلى تزكية ، وتكثر الدعاوى وتطول المسائل حتى يذكر أن بعض الدعاوى تقوم عشر سنين أو عشرين سنة أو أكثر أو أقل ، ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم لاستراحوا من هذه المرافعات ، والكثير منهم يعرف أنه كاذب ولكن يقول سأدعي بدعاوى حتى يمل الخصم فمع طول المدة قد يمل ويعجز ويتعب فيتركني ويترك ما عندي يفعل هذا حيلة ولا شك أن هذا ظلم وأكل لمال أخيه بغير حق وفيه الوعيد الشديد ، فقد ورد أنه - ﷺ- قال : « **من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى اللّٰه وهو عليه غضبان** » . قالوا : وإن كان يسيرًا يا رسول اللّٰه ؟ قال : « **وإن كان قضيبًا من آراك** »[1] . أي : عود سواك لم يتسامح فيه جعل ذلك من أسباب العذاب

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الأيمان : باب وعيد من اقتطع حق مسلم (١٣٧) (١٢٢/١) عن عبد اللّٰه بن كعب عن أبي أمامه الحارثي رضي اللّٰه عنه عن النبي - ﷺ - بلفظ : « **لا يقتطع رجل حق امرئ مسلم بيمنه إلا حرم اللّٰه عليه الجنة وأوجب له النار** » فقال رجل من القوم : يا رسول اللّٰه وإن كان شيئًا يسيرًا ؟ قال : « **وإن كان سواكًا من آراك** » .

وغضب الرب تعالى ومع ذلك هؤلاء الذين يطيلون هذه المرافعات ويوقعون القضاة في الحيرة لا شك أنهم يعدون ظلمة ، قد نقول إن صاحب الحق غير ملوم وهو الذي اعتدى على ماله أو على دمه أو على حقه وأخذ منه بدون سبب وبدون مبرر ، ولكن المتعدي الذي ليس له شبهة هو الظالم وهو المعتدي فعليه أن يتوب .

والحاصل : أن في هذا الحديث يقول : « **البينة على المدعي واليمين على من أنكر** » . فالقاضي يعمل بهذا الحديث فيقول : عليك أيها المعدي البينة وإذا لم يكن عندك بينة فعلى خصمك اليمين- هذا مقتضى هذا الحديث . وقوله - ﷺ- : « **البينة على المدعي واليمين على من أنكر** » . اشتهر أن البينة هي الشهود ولكن قال كثير من العلماء : إن البينة كل ما يبين الحق وكل ما يوضحه وليس خاصًا بالشاهدين ، ولا شك أن الشاهدين بينة ولكن توجد بينات غير الشهود يؤمر القاضي بأن يتتبع القضية وينظر فيها ويعلم ما يتعلق بها وأن يحكم بما يراه بعد ما يتحقق صحة ما يقول المدعي على المدعى عليه وبعد ما يتحقق أن المدعى عليه قد ألزم بالدعوى فأولًا يأمر بالشهود ويتوقى ما يقولونه ، روى عن بعض القضاة كشريح : إن القضية نار ، فاجعل بينك وبينها عودين تتناول النار هما . فسئل : ما هما العودان ؟ فقال : الشاهدان . كأن القاضي يحرك جمر النار بهذه القضية لأنه إما أن يعطي هذا حق ، هذا أو يأخذ من هذا لهذا بغير حق وكأنه أخذ ذلك من قوله - ﷺ- : « **إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها** » .

فكأنه يقول هذه القطعة قطعة من نار يأخذها المقضي له إذا كان كاذبًا والذي يتولى ذلك هو القاضي ولكن يجعل بينه وبين هذه القطعة من النار عودين لا يقبضها بكفه فتحترق بل بهذين العودين وهما الشاهدان ، فهكذا مثل لهذه الدعوى ، ولابد

مع ذلك أن القاضي يثبت في القضية ، فيتثبت في عدالة الشهود هل هم أهل لأن تقبل شهادتهم ؟ فإن كان يعرفهم معرفة كاملة يعرف ثقتهم وأمانتهم وعدالتهم حكم بموجب علمه فيهم وإلا طلب من يزكيهم ومن يعدلهم ، والمزكي لا بد أن يزكي عن معرفة فقد روى أن شاهدين شهدا عند عمر -رضي اللَّه عنه- فقال : إني لا أعرفكما ولا يضركما إني لا أعرفكما إإتياني بمن يعرفكما فقال أحد الحاضرين : أنا أعرفهما أو أنا أعرف أحدهما فأراد عمر -رضي اللَّه عنه- أن يسأله عن هذه المعرفة قال : هل سافرت معه سفرًا طويلًا حتى تعرف حدته وشدته وديانته ومحافظته وصدقه ومعاملته ؟ قال : لا . فقال : هل جاورته طويلًا حتى تعرف مدخله ومخرجه وجلسائه وأهله وأولاده وأعماله وما أشبه ذلك ؟ قال : لا فقال : هل عاملته بالدرهم والدينار بيعًا وشراءً ومداينة وأمانة حتى تعرف أمانته وصدقه ووفاءه وديانته وخوفه ؟ فقال : لا . فقال : لست تعرفهما إإتياني بمن يعرفكما[1]. فدل على أن مجرد المعرفة لا تكفي حتى يتحقق أنه يعرفهما معرفة كاملة- يعني : يعرف الصدق والأمانة والثبات ، كذلك أيضًا لا بد أن يشهد الشاهدان على البت وعلى العلم لا على الظن فإن كثيرًا من الشهود قد يشهدون على الظن .

فالحاصل : أنه لابد من البينة التي هي الشهود ثم لا بد مع ذلك من تعديلهما إذا لم يكن يعرفهما فلابد أن يأتي بمن يزكيهما تزكية كاملة ، فمتى حصل ذلك حكم

---

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١٥٠٨) (٣/٤٥٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/١٢٥) - أخرجاه - من طريق داود بن رشيد عن الفضل بن زياد عن شيبان عن الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر قال : شهد رجل عند عمر رضي الله عنه فذكره .

قال ابن حجر في «التلخيص» (٤/١٥٧٦) بعد أن عزاه للعقيلي والخطيب في «الكفاية» والبيهقي : (قال العقيلي : الفضل مجهول ، وما في هذا الكتاب حديث لمجهول أحسن من هذا ، وصححه أبو علي بن السكن) ا . هـ . - ولا يستقيم لجهالة الفضل ، وبمراجعة كلام العقيلي في «الضعفاء» وجدنا نصه : (الفضل بن زياد عن شيبان لا يعرف إلا بهذا وفيه نظر) ا . هـ .

بهذه البينة ، ثم إذا لم يكن هناك بينة فإن للقاضي أن يطلب البينات الأخرى مثل قرائن الأحوال التي تقترن بأحد المدعيين فإنها تعتبر بينات- يعني : غالبًا ، وهذه القرائن يعرفها أهل الذكاء وأهل المعرفة ولهم في ذلك قصص كثيرة فمثلًا لو رأيت إنسانًا هاربًا وعلى رأسه عمامة وفي يده عمامة أخرى ورأيت إنسانًا آخر يطارده وهو حاسر الرأس ولم يكن من عادته أن يمشي حاسر الرأس وهو من أهل السمت ومن أهل الفضل والاحتشام فإنك ستعاونه وتطرد معه هذا الهارب حتى تأخذ منه تلك العمامة وتجزم بأن هذا الهارب قد اختطف عمامته ولو لم تكن رأيته عندما اختطفها ولكن هروبه وهي في يده قرينة على أنه أخذها ولو لم يكن هناك شاهد يشهد بالحال ، وهكذا أيضًا لو علمت أن صاحب هذا البيت مريض ثم مررت فإذا في بيته بكاء ونحيب وأصوات عالية ثم رأيت بعد ذلك جنازة حملت من بيته على نعش فإنك تحكم أو تجزم بأنه مات وأن هذه جنازته وأن هؤلاء يبكون عليه ، فللقاضي في هذه الحال أن يقسم أمواله وأن يحكم بموته ولو لم يشاهده ولو لم يأته بينة يشهدون بذلك ، وهكذا مثلًا إذا رأيت إنسانًا في مزرعة مثلًا وهو الذي يتولى حرثها وسقيها وزرعها وتلقيحها وتشميسها وجني الثمار ولا أحد يعارضه ورأيته على ذلك عدة سنين وطلب منك أن تشهد بأنها ملكه فإنك تشهد بذلك ولو لم تشاهده عندما غرسها ولا عندما حفر آبارها ؛ وذلك لأن مشاهدتك له عشران السنين وهو مستقل بها ليس له من ينازعه فيه دليل واضح على أنه مالكها وأنه ليس هناك من يشاركه .

فالحاصل : أن هذه بينات ثم لابد أن الشاهد يشهد على يقين لا على ظن ، فقد يتساهل كثير من الناس في هذه الأزمنة فيشهدون دون أن يتحفظوا الشهادة وفي هذا مخاطر ، وقد روي أنه - ﷺ- قال لرجل : « **ترى الشمس ؟** » . قال : نعم . قال : « **على مثل هذا اشهد أو دع** » . أي : لا تشهد إلا على شيء تتحققه ، ودليل ذلك أيضًا قول اللّه تعالى عن إخوة يوسف : ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف : ٨١]

أي : بشيء علمناه يقينًا ، فالذين يتساهلون ويشهدون حمية مثلًا إذا كان المشهود له قريبة شهد حمية نقول : إن هذه شهادة كذب تدخل في شهادة الزور ، وقد ثبت أنه - ﷺ- عد شهادة الزور من الكبائر في حديث أبي بكره أنه قال : « **ألا أخبركم بأكبر الكبائر ؟** » . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « **الإشراك بالله وعقوق الوالدين** » . وكان متكئًا فجلس ثم قال : « **ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور** » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[1] . فأكد أن شهادة الزور من أكبر الكبائر .

الزور في الأصل هو الكذب الذي لا حقيقة له وقد ذكره الله تعالى وذكر تجنبه من صفات عباد الرحمن في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان : ٧٢] أي : لا يحضرون الزور ولا يشهدون شهادة زور وقد روى في حديث : « **شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يعرض على النار** » . وعيد شديد ، فنقول لهؤلاء الذين يتساهلون في الشهادة ويشهدون بمجرد الظن والتخمين أو يشهدون بمجرد الحمية والتعصب لقومهم وأهليهم : إنهم على خطأ وإنهم يخاف عليهم هذا الوعيد أن يكونوا من شهداء الزور ، فعلى المسلم أن يؤدي الذي عليه ولا يجحد شيئًا لغيره بل يقر بما عنده إقرارًا حقيقيًا حتى لا يحاسب عليه فإذا جحد ما عنده من أمانة أو دين أو اعتداء أو نحو ذلك وعلم أن صاحب الحق ليس عنده شهود فقد أكل حق غيره وتعرض للوعيد الذي في الحديث : « **من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان** » . قيل : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ؟ قال : « **وإن كان قضيبًا من آراك** » .

أما اليمين : فقد ذكر أن اليمين على المدعى عليه واليمين على من أنكر فالمدعي هو الذي إذا سكت ترك والمدعى عليه الذي إذا سكت لم يترك وذلك لأن

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الشهادات : باب ما قيل في شهادة الزور ... (٢٦٥٤) (٥/٣٠٩) من طريق عبد الرحمن الجريري عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه به .

المدعي طالب والمدعى عليه مطلوب فاليمين على المدعى عليه وذلك لقوة جانبه لأن الأصل براءة ذمته أي الأصل أنه بريئ من هذه الحقوق التي اتهم بها والتي يطالب بها فإذا لم يجد المدعي بينة فإن المدعى عليه يحلف ، ولكن الواجب عليه أن يوقر اللَّه تعالى في اليمين فلا يحلف وهو كاذب ؛ فإن الحلف مع الكذب لأخذ المال تسمى اليمين الغموس لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار وبالأخص إذا أخذ بها حق غيره « **من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه لقي اللَّه وهو عليه غضبان** » .

فإذا حلف وهو يعلم أنه كاذب فإنه يعتبر قد أتى هذه اليمين الغموس ، ولا شك أن هذا له عواقبه فقد ورد أن اليمين الغموس أو اليمين الفاجرة لها آثارها ، يقول بعض العلماء : (اتق اليمين الفاجرة فإنها تدع الديار بلاقع) أي : إن الذين يحلفون وهم كاذبون يوشك أن يعجل اللَّه تعالى لهم العقوبة فيموتوا موتًا سريعًا ، وفي « **صحيح البخاري** » قصة وقعت في الجاهلية أن أناسًا قتلوا رجلًا ظلمًا ، ثم دعوا لأن يحلف منهم خمسون رجلًا فواحد عذره أهل الميت لأنه صهر لهم وواحد فدى نفسه ببعيرين وثمانية وأربعون حلفوا يقول ابن عباس : فما تمت السنة وفي الثمانية والأربعين عين تطرف(١)، أي : ماتوا في سنتهم لذلك يقال : إن اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع . فلا يجوز أن يتساهل باليمين بل عليهم أن يوقروا اللَّه في أيمانهم فلا يحلفون إلا وأنهم صادقون ، ورد في الحديث : « **من حلف باللَّه فليصدق ، ومن**

---

(١) أخرجه مطولًا البخاري في « صحيحه » كتاب مناقب الأنصار : باب القسامة في الجاهلية (٣٨٤٥) (٧/١٩٠ - ١٩١ - فتح) من طريق أبي معمر عن قطن أبي الهيثم عن أبي اليزيد المدني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما به .

(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب الكفارات : باب من حُلف له بالله فليرض (٢١٠١) (١/٦٧٩) ، والبيهقي في « الكبرى » (١٠/١٨١) - أخرجاه - من طريق أسباط بن محمد عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما به .

وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه » .

حلف له بالله فليرض، ومن لم يرضى فليس من الله»[1] .

وورد أيضًا: **«لا تحلفوا بغير الله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»**[2] . أي: وقروا أيمانكم وذلك لأن الحالف يعظم الله في يمينه حيث يذكر الله تعالى بصفة العظمة بأن يقول: والله العظيم وقد يطلب القاضي تغليظ اليمين بأن يقول: قل والله العظيم الجبار المنتقم من الظالم الذي لا تخفى عليه خافية فيذكره بهذه الأوصاف، فإذا حلف مع هذه الصفات كان فاجرًا فجورًا كبيرًا فيستحق هذه العقوبة، فالواجب على من عنده حق أن يعترف به ولا يعوز صاحبه إلى أن يطلب بينة، وإذا عرف أن صاحبه ليس عنده بينة فلا يلجأ إلى اليمين وهو كاذب بل يقر بالحق الذي له حتى تبرأ ذمته وحتى لا يكون بينه وبين أخيه عداوة وبغضاء فإن ذلك مما ينهى عنه الشرع الشريف.

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح: يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنت صادقون»** أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الأيمان: باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٤٨) (٣/٢١٩)، والنسائي في «سننه» كتاب الإيمان: باب الحلف بالأمهات (٧/٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٢٥٧) (١٠/١٩٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/٢٩) - كلهم - من طريق عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود والنسائي»، وصحح إسناده على شرط البخاري ومسلم الأرناؤوط في «هامش ابن حبان».

الحديث الرابع والثلاثون
النهي عن المنكر من الإيمان

عن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي اللهُ عنه - قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقوُل : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » . رَواهُ مُسْلِمٌ[1] .

شرح الحديث :

هذا الحديث أورده النووي -رحمه الله- في هذه الأربعين وذلك لاشتماله على معاني كثيرة تتعلق بالاعتقاد وتتعلق بالأعمال .

موضوع هذا الحديث يتعلق بإنكار المنكر ، ففيه وجوب إنكار المنكر ، وفيه مراتب تغيير المنكر ، وفيه أدنى المراتب ؛ فأولًا ما المراد بالمنكر ؟ المنكر هو الذنوب والمعاصي وما حرمه اللَّه في كتابه أو على لسان نبيه - ﷺ- ، وسمي منكرًا لأن القلوب الحية تنكره وتستبشعه وتشهد بقبحه وتنفر منه أشد النفرة وتبغضه وتبغض أهله فلذلك سمي منكرًا ، وأما القلوب الميتة والمريضة فإنها قد تستحسن المنكر وتركن إليه ولا تستحضر قبحه وبشاعته وشناعته ولكن لا عبرة بهم مهما كانوا لأنهم قد انتكست فطرهم وطمست معارفهم فرأوا المنكر معروفًا والمعروف

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان : باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ... (٧٨، ٧٩) (١/ ٦٩) من طريق قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن أبي سعيد رضي الله عنه به .
وأخرجه أيضًا في الموقع من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد رضي الله عنه به .

منكرًا والسنة بدعة والبدعة سنة فلم يروا بذلك بأسًا . وجاء الشرع ببيان إنكار المنكر علم اللَّه تعالى أن هناك من سيستحسن المنكرات ويدعي أنها معروف وهناك من يتأول في المنكرات ويفعلها ويداوم عليها ويرى أنه لا بأس بها وهناك من تحبها نفسه وتميل فيطاوعها مع علمه بأنها محرمة وأنها منكرات ، فلابد والحال هذه من الإنكار على مثل هؤلاء . وقد ذكرنا أن المنكر تنكره النفوس الأبية النفوس المطمئنة وتنفر منه القلوب ، ولكن قد يقال إن هذا يخالف بعض الأدلة مثل قوله - ﷺ - : «**حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره**»(١).

فيفهم من هذا أن المنكرات شهوات وأن المعاصي التي تدفع إلى النار مما تشتهي الأنفس ومما تستلذ بها ومما تحبها وأن النار تؤدي إليها تلك الشهوات وتوقع فيها تلك الشهوات فكأن الشهوات أحيطت بالنار ، إذا قلنا مثلًا إنها حفت بها نقول مثلًا ههنا منكر وههنا منكر وههنا منكر كلها تدور أو مستديرة حول النار ، مثل بها بعضهم أو رسم بعضهم بعض تلك المنكرات فقال مثلًا : من المنكرات الزنا إلى جانب النار ، ومن المنكرات الكبر ، ومن المنكرات الغناء ، ومن المنكرات الخمر ، ومن المنكرات اللهو واللعب ، ومن المنكرات الباطل وما أشبه ذلك ، فهي محيطة بالنار حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، فنقول : إن اللَّه تعالى له حكمة في جعل هذه الشهوات محرمة وذلك ليعرف من يطيعه ممن يعصيه ليعرف من يطيع الشيطان ومن يعصيه ليعرف من يطيع الهوى ومن يعصيه ، فالهوى يعمي ويصم ، الهوى معبود يعبد من دون اللَّه تعالى ، هذه المعاصي ولو كانت تشتهيها وتستلذها بعض النفوس المريضة فإنها محرمة وهي أيضًا مما ينكره الإنسان بطبعه إذا بقي على فطرته فإذا قيل مثلًا : كيف يكون الزنا منكرًا مع أن النفوس تميل إليه بكونه شهوة

---

(١) يشير إلى حديث أنس الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجنة وصفة نعيمها (١) (٤/ ٢١٧٤) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت وحميد عن أنس رضي الله عنه به .

مستلذة تندفع إليها النفس ؟ نقول : بالنظر إلى عواقبه وبالنظر إلى آثاره السيئة لا شك أنه منكر وما ذاك إلا أنه يترتب عليه مفاسد كبيرة يترتب عليه انتهاك الأعراض يترتب عليه اختلاط الأنساب يترتب عليه فساد الأخلاق هذا من الحكم في تحريم هذه الفاحشة ولذلك سماه اللَّه فاحشة : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] . ولا شك أيضًا أن الخمر منكر ولو كانت النفوس تستحليه في غاية اللذة لها لماذا حرمه اللَّه ؟ لمفاسد تترتب عليه من السكر ومن زوال العقل ومن التصرف السيء ومما أشبه ذلك من المفاسد التي حرم لأجلها ، وقد تكلم عليها العلماء وتوسعوا في مفاسدها ومضارها ، وكذلك أيضًا لماذا حرم الغناء مع أن النفوس قد تشتهيه وتلتذ به وتجد له نشوة وتجد له طربًا ؟ ذلك لأنه داعية إلى الزنا وداعٍ إلى الفساد وما أشبه ذلك .

نقول : إن كل المعاصي من المنكرات وأنها حقًا تنكرها النفوس الصحيحة النفوس المطمئنة تنكرها وتشهد بقبحها مهما كانت الحال ولو ادعوا فيها ما ادعوا ولو استحسنها من استحسنها هي منكرات .

المنكرات تعم الأقوال والأفعال والتروك فنقول مثلًا : إن سفور النساء وتبرجهن منكر ، ولو أن هناك من يستحليه أو يميل إليه من أهل الشهوات النفسانية من أهل الشهوات البهيمية ، فهو منكر لما يترتب عليه من الفساد ونقول : إن النظر مثلًا في الصور الفاتنة في الصحف والمجلات وما أشبهها وفي الأفلام والشاشات نقول : إنه منكر وإن كان هناك من يستلذه أو يستطيب النظر إليه لذة نفسه ولكنها نفس مريضة كذلك نقول : إن هذا من المنكر وإن لم ينكره بعض الناس الذين يحبونه ويألفونه ، ولا شك أيضًا أن هناك منكرات يعترف أهلها بأنها من المنكر ولكن يصرون عليها من باب اتباع الهوى فحرم اللَّه تعالى القتل والعدوان على النفس ، وكل أحد يعرف أنه ظلم وأنه منكر ولكن هناك الأشر والبطر والكبر والترفع مما يحمل كثيرًا من الناس

على أن يعتدوا ويظلموا ويتعدوا على إخوانهم بقتل أو بقطع طرف أو بجرح أو بشج أو بضرب أو نحو ذلك ولا شك أن هذا منكر كذلك أيضًا يعرف كل أحد أن الاعتداء على الأموال المعصومة أنه منكر ولذلك حرم اللّٰه السرقة والاختلاس والنهب والسلب وجحد العارية والاغتصاب وما أشبه ذلك من أخذ الأموال بغير حق فقال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة : ١٨٨] ، ورتب على ذلك العقوبة وكل يعرف أن هذا من المنكر ولكن هناك من يستحلي هذا ، وهناك من تميل نفسه إلى أن يحصل على مال كثير أو قليل بدون تعب بل باختلاس أو بنهب أو بسرقة أو بجحد أمانة أو عارية أو ما أشبه ذلك كل يعرف أن هذا منكر ولأجل ذلك لا يقره في نفسه لو قيل له : أتحب أن يغتصب مالك كما اغتصبت مال فلان ؟ يقول : لا أريد ذلك ولا أحبه فدل على أنه يعترف بأنه منكر ولكن نفسه الأمارة بالسوء سولت له وأوقعته في هذه المحرمات وهناك أيضًا منكرات موجودة يعترف أهلها غالبًا أنها من المنكر ولكن يقعون فيها بتسويل من الشيطان وبدعايات من أعوان الشيطان ، فتسأل مثلًا شارب الدخان وتقول له : هل الدخان منكر أو معروف ؟ فيعترف ويقول : منكر . لماذا تتعاطاه وأنت تعرف أنه منكر ؟ يعتذر ويقول : إنني مبتلي به إنني إنني ، أو يقول : إنه ليس حرامًا وإنما في درجة المكروه وهذا بلا شك جهل وإذا كان يعترف بأنه منكر فإن المنكر يجب إنكاره ، وهكذا يقال في بقية المنكرات التي يعترف أهلها بأنها من المنكرات هذا بالنسبة للأفعال .

أما بالنسبة إلى التروك : فإن ربنا سبحانه فرض علينا فرائض وتلك ا لفرائض هي عين المصلحة وعين الحياة السعدية ، وفي المحافظة عليها وفي إدامة التقرب بها إلى اللّٰه تعالى الرفعة والسعادة والخير الكثير وفي تركها الشقاء والتعب والنصب والعذاب الأليم فإذًا نقول : إن تركها من المنكرات ولو استثقلتها بعض النفوس ولو نفرت منها

بعض النفوس الضعيفة فلا عبرة بهم فنقول مثلًا : ترك الصلاة من المنكر ولو أنه مجرد ترك ولو قال هؤلاء : ما فعلنا ذنبًا إنما تركنا عملًا . نقول : إن هذا العمل هو مما أمركم اللَّه به لأجل أن تتعبدوا به فإذا تركتموه فقد عصيتم ربكم فتكونون بذلك قد بارزتم اللَّه تعالى بالمعصية ، وهذا بلا شك منكر يجب إنكاره وكذلك أيضًا منع الحقوق والواجبات المالية من المنكر وتفاصيلها معروفة : منع الزكاة ومنع النفقات ومنع الكفارات وما أشبهها والبخل بالحقوق الواجبة والبخل بالمستحبات التي يحبها اللَّه تعالى وشدة الإمساك وشدة ا لشح وما أشبه ذلك نقول : إن هذا من المنكر ولو ادعى أهله أن المال محبوب عند النفوس ولو أنه كسبهم ومالهم فنقول : إن بخلكم به وإمساككم به ومنعكم الحقوق التي أوجبها اللَّه عليكم يعد من المنكرات إلى آخر ما أمر اللَّه تعالى به ، ولا حاجة بنا إلى تفصيل ذلك .

فهذه أدلة على أن المنكرات تعم الأفعال وتعم التروك . فمن الأفعال القتل والشرك ووسائله والضرب والزنا ووسائله كالتبرج واللمس وتقبيل الأجنبيات وما أشبه ذلك ، والخمر وشربها وتعاطيها وصناعتها ، والدخان والشيش وما أشبهها والصور والنظر فيها أيًا كان موضعها ، والغناء وسماعه والكبر والأشر والبطر والاغتياب والغصب والسرقة وما أشبه ذلك . كل هذا من المنكرات ، وكذلك نقول : إن ترك الصلاة والتخلف عن الجماعات وترك نوافل العبادات وترك الصيام مثلًا ومنع الزكوات ومنع الكفارات الواجبة وما أشبهها يعد أيضًا من المنكرات ولو ثقل ذلك على بعض النفوس فهذا الفعل منكر وهذا الترك منكر فنعرف من هذا كيف صار هذا منكرًا وكيف صار فعله معروفًا .

طريقة الإنكار في هذا الحديث : « **فليغيره بيده** » . ذكر أن هناك تغيير باليد ، ثم تغيير باللسان ، ثم تغيير بالقلب وهو ما نذكر له أمثلة في هذا المقام فنقول : التغيير : باليد هو إزالة المنكر وإزالة أثره ، وذلك يختلف باختلاف الناس فهناك من يكون لهم

قدرة على أن يغيروه باليد ، وهناك من لا يكون عندهم قدرة فيغيروه باللسان ، وهناك من لا يقدرون على التغيير إلا بالقلب .

فالتغيير باليد يكون بإتلاف المنكر فإذا رأوا آلات اللهو كالعود والطبول والطنبور -نوع من الملاهي- وجميع آلات اللهو القديمة والحديثة فإنهم يغيرنها بتحطيمها وتكسيرها ، وكذلك أيضًا المحرمات مثل التنباك الذي هو محرم وكذلك الآلات التي يستعمل بها مثلًا ما يسمى بالشيش البرابر التي يمز فيها نوع من الدخان وهذه من المنكرات ومن المحرم ، ومثل الصور المجسدة المصوبة التي يخشى تعظيمها وعبادتها وما أشبهها لقوله - ﷺ- : « **لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته** »(١) .

فإذا رأى صورة وكان عنده قدرة على أن يتلفها فإنكارها بالإتلاف باليد كإحراقها أو تقطيعها ، وكذلك المنكرات والبدع الشركية إذا رأى البناء على القبور الذي نهى عنه النبي - ﷺ- هدمه وسواه لقوله : « **ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته** » .

وكذلك تجصيص القبور الذي نهى عنه وجعله سببًا أو خاف كونه سببًا في الغلو فيها وكذلك الإسراج للقبور الذي نهى عنه فإنه سبب في تعظيمها وعبادتها ، فتغيير هذا إتلافه باليد لمن عنده قدرة ، وهكذا أيضًا إذا كان عنده قدرة ورأى النساء المتكشفات ألزمهن بأن يتسترن وعاتبهن على التكشف ، وهكذا إذا رأى الرجال الذين يغمزون النساء أو يعاكسون وجب مع القدرة إنكاره عليهم وأخذه على أيديهم وعقوبتهم والحيلولة بينهم وبين ما يتعاطونه ، وهكذا إتلاف آلات اللهو وآلات اللعب التي يلهى بها يتخذونها لعبًا كالأوراق التي يلعبون بها ما سمى بالبلوت وما أشبهه مما هو من آلات اللهو فالذي عنده قدرة يجب عليه أن يغيره ويتلفها ، ومعلوم

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الجنائز : باب الأمر بتسوية القبر (٩٣) (٢/٦٦٦) عن أبي الهياج عن علي رضي الله عنه به .

أن المنكرات كثيرة وأن المسلم يفعل ما يقدر عليه ، فالذي عنده سلطة وصلاحية واستطاعة وتمكن يغيرها بيده وهو الذي عنده قدرة ومفوض من قبل الدولة وعنده التمكن من التغيير ، فأما من ليس عنده قدرة فإنه يغير باللسان ينتقل إلى التغيير باللسان مع أن التغيير باللسان أيضًا قد يكون قبل التغيير باليد لمن عنده قدرة على التغيير باليد وذلك لأنه وسيلة إلى تخفيف المنكر فالذي يرى العاصي قد أظهر المعصية ولو كان قادرًا على أن يغير بيده فإنه يبدأ قبل ذلك بالتغيير باللسان وذلك بالنصيحة التي هي الموعظة قبل أن يباشر التغيير باليد فينصحه ويذكره فأولًا يذكره بأنه مسلم مؤمن وأن المسلم المؤمن عليه أن يطيع ربه وأن لا يخرج عن طاعة اللَّه وأن عليه أن يمتثل ما جاء به الشرع .

فإذا قال له مثلًا : تذكر يا أخي أنك تفتخر بدين الإسلام الذي أنت عليه وتعتز به وتقول : نعم أنا من أهل الإسلام أنا من أمة محمد - ﷺ- أنا من أتباعه أنا من الذين أرجو أن يحشروا في زمرته فإذا كان كذلك فإن واجبًا عليك أن تتبعه في كل دقيقة وجليلة أن تطيع ما أمرك به وأن تترك ما نهاك عنه تذكر أن ربنا سبحانه أمرك بالاتباع ونهاك عن المخالفة يذكر بمثل قوله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

وبقوله : ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وبقوله : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

فيذكره بمثل ذلك رجاء أن يتمثل ، وكثيرًا ما يتعظ إذا ذكره فلا يغير عليه باليد حيث يتعظ ويتقبل ، ثم إذا لم يتأثر إذا كان قد قسا قلبه ولم يلن بالموعظة انتقل بعد ذلك إلى إقناعه في تلك المعصية بكبرها وبعظمها وبأنها مخالفة للَّه تعالى ومخالفة لسنة نبيه - ﷺ- ولو احتقرها من احتقرها ولو صارت عادة متبعة ولو كثر أهلها فإذا مثلًا رآه يحلق لحيته فإنه يذكره بأنك قد خالفت السنة ولم تقتد بنبيك تذكر

قول الله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

يذكره بأن سنة النبي - ﷺ- واتباعه يحتم عليك أن تعفي لحيتك وأن تقص شاربك ، وكذلك يذكره بأن هذه اللحية أنبتها اللّه زينة للرجل وأنه ميز بها الرجل عن المرأة وأصبح بذلك له منزلة وله رفعة وله شرفه ويقنعه بهذا لعله أن يقتنع فلا يحتاج إلى إنكار باليد ، وهكذا أيضًا يُنصح كل من رأى منه معصية ورأى منه إصرارًا على ذلك الذنب فإنه متى نصحه فلعله أن يلين قلبه ولا شك أن هذا يختلف باختلاف الناس فمن الناس من لا يحسن أن يورد الأدلة ولا يقدر على إقناعهم إذا قالوا نحن نمشي مع الناس نحن نسايرهم ، هذا ليس فعلي وحدي فانظر إلى من هو دونك وإلى من هو خلفك وفوقك وانظر يمينك وشمالك كل الناس مثلي يحلقون لحاهم أو كل الناس يطيلون ثيابهم ويجرونها انظر إلى هذا وإلى هذا ، أو مثلًا أخذ يقول له أنت تنكر علينا مثلًا شرب الدخان وهويباع في كل مكان يشتريه الخاص والعام فهذه شبهات كثيرة ما يوردونها فعلية أن يقنعهم ويبين لهم بأن الحق أحق أن يتبع ، فلا تقتدِ بغيرك لا تقتدِ بآبائك وأجدادك ولا زملائك وخلطاءك ولا تتبع الباطل ولو كثر أهله عليك بأهل النجاة فاجعلهم قدوتك وأسوتك فعلّه بذلك أن يرعوي ويتقبل هذا الذي يلزم من امتثل وكان عنده قدرة ، لكن هناك من ليس له قدرة على الموعظة فيقتصر على الإنكار باللسان إذا رأيت مثلا شارب الدخان يمشي به في الأسواق قلت له : هذا حرام ، ثم مر به الثاني فقال : حرام ، ثم مر به الثالث فقال : حرام فلعله أن يخجل ، وهكذا أيضًا إذا جلست إليه أو رأيته وهو يجر ثوبه فنصحته فقلت : هذا حرام كلمة حرام تلفت نظره وينتبه إلى أنه على شيء حرام ويعرف أن الحلال والحرام موردهما الشريعة مأخوذان منها فلعله أن يرعوي ولو بكلمة واحدة يتكلم بها إنسان ثم ثان وثالث ثم رابع فإن ذلك قد يؤثر فيه .

أما الإنكار بالقلب : فهو في حق من لا يقدر على الإنكار باللسان وذلك لأن صاحب المنكر قد يكون شديد القوة وقد يكون له مكانة وقد يكون عنده سلطة وسيطرة يخشى ممن يتكلم عليه أو ينكر عليه من شدته وبطشه ، أو عرف مثلًا بأنه لا يتقبل وأنه نصح ونصح فأصر واستكبر وادعى أنه أكمل وأعرف من الذين ينصحون فيعد معاندًا قد نصح عن ترك الصلاة فأصر واستكبر وتمادى على تركه للصلاة ، ونصح عن سخريته واستهزائه بالمصلين والمتدينين الصالحين فأصر على ذلك وصار ذلك دينه وعادته لا يرعوي ولا يتذكر ولا يخاف ، وكذلك أيضًا نصح عن شربه الدخان وعن شربه للمسكر إذا كان معروفًا بذلك ، أو نصح عن سماعه للغناء فأصر وتمادى على سماعه للغناء ولم يتأثر ولم يكن عند الإنسان قدرة على أن يغير باليد وكذلك إذا رفع شأنه وأمره إلى أهل الحسبة ولكن خوفوه ولم يرعوِ وأصر وعاند على ما هو عليه فما الحيلة في مثل هذا ؟ نقول : في هذه الحال يكون الإنكار بالقلب .

والإنكار بالقلب هو بغض ذلك المنكر وبغض ذلك العاصي وهجره والبعد عنه واعتقاد أنه على منكر فإن قدر على أن يصرح له فَعَل ، فيقول له : إني أبغضك في اللَّه ؛ لأنك معاند عاصٍ للَّه تعالى مصر على هذه المعصية ، فإذا لم يقدر فإن عليه بغضه وإنكاره بالقلب ويقول : اللهم إن هذا منكر وإنا له منكرون ، ويمقتهم ويبتعد عنهم ويترك مجالسهم وهم على هذه المعاصي ولا يمازحهم ولا يضاحكهم فإن في هذا شيء من الإقرار لهم لأن إقراره أو مجالسته حجة لهم في أنه قد أقرهم فلان وفلان وأنهم على صواب ولو كانوا يعترفون بأنهم على خطأ .

ولا شك أن كثيرًا من أهل هذه المعاصي مثل ترك الصلاة وشرب المسكرات وشرب الدخان ، وكذلك أيضًا التساهل في أمر نسائهم ومولياتهم وتركهن يخرجن متبرجات ومتكشفات ، وكذلك مجالس اللهو أيضًا ومجالس الغناء والباطل ومجالس اللعب والسهو الذي يضيع به الوقت أنه كثير ومتمكن في هذه البلاد وفي

غيرها ، لكن هذه البلاد فيها والحمد للَّه من لا يزالون يغيرون ولا يزالون ينكرون ولكن المنكر وأهله كثيرون فسبيلكم أيها الصالحون أن تبغضوهم إذا لم يرتدعوا وأن تحذروهم وتحذروا ممازحتهم ومجالستهم ولو كانوا أقارب ولو كانوا آباءًا أو أبناءًا أو أخوة أو عشيرة كما أمر اللَّه بمعاداة هؤلاء إذا اختاروا الكفر لقوله تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فهكذا تكون مراتب تغيير المنكر .

فإن قيل : هل يشرع تغيير المنكر إلى منكر أخف منه ؟

الجواب : يجوز ذلك وربما أيضًا يترك المنكر إذا خيف أن يكون هناك منكر أشد منه فقد ذكروا أن الإمام ابن تيمية مر على أناس يلعبون بالشطرنج وهو من آلات اللهو فأراد الذين هم من تلاميذته أن يطردوهم ويفرقوهم فقال : دعوهم فإن هؤلاء إذا لم ينشغلوا بهذه اللعبة ذهبوا يسرقون ويقتلون وينهبون ويقطعون الطريق على المسلمين فانشغالهم بهذا أولى من إطلاقهم فيفسدون في الأرض ، فإذا خيف أنه إذا ترك هذا المنكر اشتغل بأكبر منه ترك على هذا الصغير وكذلك أيضًا إذا رجي أنه يترك منكرًا ويشتغل بمنكر أخف منه فإنه يقال : ارتكاب أدنى المفسدين أولى من ارتكاب أعلاهما .

❁ ❁ ❁

الحديث الخامس والثلاثون
أخوة الإسلام

عن أبي هُريرةَ - رضي اللهُ عنه - قال: قال رسُول اللهِ ﷺ: «**لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوَانًا، المُسْلمُ أَخُو المُسْلمِ: لا يَظْلِمُهُ، ولا يَكْذِبُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى ههُنا - ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمِ، كُلُّ المُسْلِمِ على المسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ**». رَواهُ مُسْلِمٌ(١).

شرح الحديث:

هذا من الأحاديث التي بين فيها النبي - ﷺ- أسباب الأخوة بين المسلمين والتي يحث فيها على الوئام والتواد والتحاب فيما بينهم ويحذر فيها من أسباب التهاجر وذلك لأن المسلمين كلما كانوا متآخين متحابين متعاضدين متعاونين على الخير كان أقوى لمعنويتهم وكان أقوى لكلمتهم، وذلك لأنهم يكونون يدًا واحدة على من ناوأهم وتجتمع كلمتهم على الإسلام وعلى الجهاد وعلى إظهار الحق وعلى دحض الباطل فلذلك تكثر الأدلة في الأمر باجتماع كملة المسلمين واجتماع قلوبهم وتآلفهم وتحابهم وتعاطفهم وتعاونهم على الخير مثل قول اللّه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم... (٣٢، ٣٣) (٤/ ١٩٨٦) من طريق أبي سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كريز عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

الاعتصام: هو القبض بقوة أي: تمسكوا به واقبضوا عليه قبضًا متينًا قويًا .

«ولا تفرقوا». أي لا تتفرق كلمتكم ولا تتفرق آراؤكم ووجهاتكم، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. أي: بعد ما جاءتم الأدلة الواضحة ومع ذلك تفرقوا وكانوا فرقًا متعادية كل فرقة تضلل الأخرى، وقد قال الله تعالى لنبيه - ﷺ - لما أمره بأن يؤلف بين المسلمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: يعني جعلوه متفرقًا **«وكانوا شيعًا»**. يعني: أحزابًا ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]. أي: أحزابًا متعادية متضادة كل طائفة تدعي أن الصواب في جانبها وأن من خالفها فإنه ضال مضل فتتفرق كلمات المسلمين ولا شك أنها متى تفرقت كلمتهم ضعفت معنوياتهم بينما أعداؤهم مجتمعون سواء كانوا من الكفار أو من المبتدعة وإذا اجتمع أولئك الأعداء وصارت كلمتهم واحدة قويت معنوياتهم فتغلبوا على أهل السنة والجماعة وتغلبوا على المسلمين.

ففي هذا الحديث نهى النبي - ﷺ - عن بعض الأسباب التي تسبب الفرقة فمن ذلك:

الحسد: **«لا تحاسدوا»**.

والنهي عن الحسد لأن الحسد يضعف معنوية الإنسان نحو إخوته، روي في بعض الأحاديث: **«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**(١). وقد

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الزهد: باب الحسد (٤٢١٠) (١٤٠٨/٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٦٥٦) (٢٣٠/٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٤٩) =

وصف الله تعالى اليهود بالحسد قال الله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة : ١٠٩] . لما رأوا التفاف المسلمين حول النبي - ﷺ- وأنهم سبقوهم بالإيمان وقد كانوا يتمنون أن تكون النبوة فيهم فحسدوهم ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء : ٥٤] .

الحسد : هو تمني زوال النعمة عن المحسود بمعنى أن الحاسد يسعى في إزالة النعمة عن أخيه ، وسواء كانت تلك النعمة نعمة دين أو نعمة دنيا فهو يسعى في إضعافها وفي إزالتها فإذا رأيت المسلم مثلًا قد نال مالًا أو بركة أو خيرًا كثيرًا أو منصبًا رفيعًا فإن عليك أن تهنئة بذلك وتدعو له بالخير والبركة وأن تحثه على أداء حق هذا العمل أو هذا المال وليس لك أن تحسده ولا أن تسعى في تكدير النعمة عليه ولا أن تسعى في إضعاف ما هو به ولا في إيقاعه في خسران أو تخذله حتى تخسر صفقاته فإن هذا من الحسد ، ثم إن الغالب أن الحسد يضر صاحبه أكثر مما يضر أخاه روى عن بعض الأدباء أنه قال : الحسد داء منصف يعمل في الحاسد أكثر مما يعمل في المحسود فالحاسد إذا رأى أخاه قد تنعم ساءته النعمة التي عليه فيستاء من صحته ويحسده على ما هو فيه من الثروة والغنى والمال ويستاء أيضًا من منصبه يحسده على أن حصل على هذا المنصب وعلى هذه الرياسة أو نحوها ، ثم ماذا يفعل يبقى قلب الحاسد محترقًا دائمًا وهو يتمنى زوال النعمة عن أخيه فهو دائمًا مشغول البال بالمحسود ولا يدري عنه المحسود فهو في غبطته وفي نعمته وفي خيره وفي صحته وفي رفاهيته ولا يشعر بأن هذا الحاسد يتألم ويتململ لا يهنيه نوم

= ٢/١٣٦) - كلهم - من طريق ابن أبي فديك عن عيسى بن أبي عيسى الحناط عن أبي الزناد عن أنس - رضي الله عنه - به .

وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» .

ولا تهنيه راحة ولا يتهنى بأكل ولا بشرب من الهم والغم الذي يجده على أخيه المسلم، فلذلك نهى النبي - ﷺ- عن الحسد.

ولا شك أنه يحاول إضرار المحسود ولأجل ذلك أمر اللّه بالاستعاذة منه في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. وذلك لأنه قد يسعى في إضرار المحسود إما بوشاية وإما بكذب وإما بسعي في إبعاده عن تلك الوظيفة أو سعي في إهلاك ما عنده من المال ونحوه يسعى في ذلك، وقد يضر المحسود وقد لا يضر إلا نفسه.

وقد ورد في حديث آخر أيضًا النهي عن المنافسة التي هي المنافسة في الدنيا يعني: المكاثرة في أمور الدنيا لكنها تجوز في أمور الدين فقد ورد في أثر: « **إذا رأيت من ينافسك في أمور الدنيا فنافسه في أمور الآخرة** ». المنافسة في الآخرة هي الأولى قال اللّه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. يعني: في درجات الجنة وفي الأعمال الصالحة التي تؤهل لدخول الجنة، هذا هو الذي يجب أن يكون المنافسة فيه فأما كونه ينافس في أمور الدنيا إذا رآه اشترى ثوبًا بعشرين قال: أنا أنافسه وأشترى بثلاثين، وإذا اشترى سيارة بأربعين قال: أنا أشتري بأكثر منها، وإذا بنى بيتًا مسافة ستمائة قال: أنا أبني أوسع منه أبني ألفًا فينافسه في أمور الدنيا، هذه منافسة دنية وذلك لأنها تؤدي بصاحبها إلى الضرر ولا فائدة فيها.

كذلك أيضًا ورد في هذا الحديث النهي عن المناجشة، فالنجش فيه إضرار بالمسلم، والنجش هو كون الإنسان يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها وإنما يزيد فيها حتى يتضرر ذلك المشتري فإذا بلغت زيادة عرف بأنه قد ارتفعت وقف وترك ذلك المسلم الذي يرغبها يشتريها فبدل ما تكون بعشرة يزيد فيها إلى أن تكون بعشرين ثم يتخلف وقد يقصد نفع البائع؛ ولذلك ورد الحديث في النهي عن النجش الذي هو الزيادة في السلعة من غير رغبة فيها.

كذلك أيضًا ورد في حديث آخر النهي عن التحسس والتجسس « **لا تحسسوا ولا تجسسوا** » . وهما بمعنى واحد .

كذلك أيضًا ورد النهي عن التهاجر « **لا تهاجرو** » . والهجر هو ترك السلام على المسلم من غير سبب إلا لأمور دنيوية ، وقد ورد الوعيد على الهجر بقوله - ﷺ - : « **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام** »(١) .

الهجر : هو ترك السلام على الأخ المسلم يعني إما بغضًا له وإما لأمر دنيوي ونحو ذلك ، ولا يدخل فيه الهجر لأجل الدين كما إذا هجره لكونه لا يصلي أو هجره لكونه يتعاطى مسكرًا أو مخدرًا ولم يقبل النصيحة أو غير ذلك من المعاصي فلا مانع ، وهجره حينئذ هجر في ذات اللَّه .

وورد النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر وهي بمعنى واحد ، لكن التقاطع هو قطع الصلة بين المسلمين ومنه قطع الأرحام قال اللَّه تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد : ٢٢] . فقطع الرحم هو هجران الأقارب والتباعد عنهم سواء قرابة من قبل الأب أو من قبل الأم كالأعمام وبنيهم والأخوال وبنيهم ونحوهم وقد ورد في الأدلة الكثيرة النهي عن قطيعة الرحم ، ويلحق بها أيضًا قطيعة المسلم لإخوانه ، فإخوانك المسلمون يجمعك وإياهم دين الإسلام ، وقد أمرت بأن تحبهم وأن تعينهم وتحب لهم ما تحبه لنفسك كما قال - ﷺ - : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب : باب الهجرة .. (٦٠٧٧) (١٠/٥٠٧ - فتح) ، وفي « الأدب المفرد » (٣٩٩) (ص١٤٥) ، (٤٠٦) (ص١٤٧) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة : باب تحريم الهجر ... (٢٥) ، - كلاهما - من طريق ابن شهاب عن عطاء بن يزيد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه به .

(٢) تقدم .

وهو دليل واضح على أن الإيمان من شرطه محبة المسلمين لذات اللَّه تعالى ومحبة الخير لهم والحرص على إيصال الخير لهم ، وكذلك المساعدة لهم والتعاون معهم قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة : ٢] . وهو دليل واضح على الأمر بالتعاون ، أي : على أن المسلم يعاون إخوته ، فكونه مثلًا يقاطعهم ويقطع الصلة بهم هذا من إيصال الضرر إليهم ومنع الخير ، ويدخل في ذلك أيضًا تركهم على المعاصي فإن ذلك من قطعهم إذا رأيتهم قد انهمكوا في المعاصي وأكثروا منها كان عليك أن تنصحهم وأن تدلهم على الخير وتحذرهم من الشر ، وإذا تركتهم وشرهم وأعرضت عن نصحهم أو أقررتهم على ذلك كان هذا من قطيعة إخوانك الذين يتقبلون لو نصحتهم ، أما إذا نصحتهم وأكدت عليهم وكررت لهم ولكنهم تمادوا فلم يقبلوا فإنك معذور إذا قطعت صلتهم لأنك حينئذ هجرتهم في ذات اللَّه تعالى ، فأما مقاطعة الأخ لإخوانه المسلمين التي هي قطع زيارتهم وقطع الاتصال بهم أومكاتبتهم أو السؤال عنهم أو الاطمئنان على حالتهم واستقامتهم وصحتهم أو قطع نصيحتهم أو قطع دلالتهم على الخير وتحذيرهم من الشر أو ما أشبه ذلك فإن هذا داخل في القطيعة لا تقاطعوا داخل في التادبر لا تدابروا .

التدابر بمعنى : التهاجر وهو أن يولي كل منهما الآخر قفاه إذا تقابلا مثلًا في طريق أعرض هذا وأعرض هذا وكل منهما ولى الآخر دبره هذا من التهاجر .

والحاصل : أنه - ﷺ - نهى عن الأسباب التي يحصل بسببها نفرة المسلم عن إخوته وهجره لهم وقد بين في الأحاديث أنه يجوز أن يهجره ثلاثة أيام ولا يزيد على ذلك إذا كان لأمر الدنيا ونظم في ذلك بعضهم لما هجره أخ له فوق ثلاث أرسل إليه أبياتًا يقول فيها :

يا سيدي عندك لي مظلمة　　فاستفت فيها ابن أبي خيثمة

فـإنـه يـروي عـن جـده ما قد روى الضحاك عن عكرمة
عن ابن عباس عن المصطفى نبينا المبعوث بالمرحمة
إن صـدود الإلـف عـن إلـفـه فـوق ثـلاث ربـنـا حـرمـه

فوق ثلاثة أيام ننتبه إلى مثل هذه التوصيات ونحرص على أن نكون مع المسلمين أمة واحدة متحابين نوصل إليهم كل خير ونبعد عنهم كل شر في أمور دينهم وفي أمور دنياهم .

وقوله : ولا بيع بعضكم على بيع بعض : صورة ذلك ما ذكره الفقهاء في كتاب البيع أن يقول لمن اشترى سلعة بعشر : أنا أبيعك مثلها بتسعة ، ومثله الشراء على شرائه كأن تقول لمن اشترى سلعة بتسعة : عندي فيها عشرة ليفسخ في مدة الخيار ويعقد معك ، ومثله في بعض الأحاديث أن يخطب على خطبة أخيه إذا علم أنه خطب امرأة وركنوا إليه خطبها ورغب أهلها ليقدموه على أخيه السابق ، وهذا مما يسبب التباغض بين المسلمين وكثرة الأحقاد بينهم ، حيث إن الأول يحمل على الثاني ويسيء به الظن لحسده ومضايقته واستئثاره بالمصلحة ومنع أخيه من البيع والربح والمصلحة فيكون هذا الفعل سببًا لوقوع البغضاء بين المسلمين ولو كانت على أمور دنيوية لما في ذلك من الإضرار على المسلم والتضييق عليه عند كل مصلحة تتيسر له بحيث يحول بينه وبينها ويختص بها الآخر ، ولا شك أن هذا مما يسبب تفرق الكلمة وطعن كل واحد منهما في الآخر وعيبه والتماس عثراته وإفشاء كل زلة وهفوة ، ويكون عن آثار ذلك تفرق الكلمة واستبداء كل منهما برأيه وهذا ما نهى اللَّه عنه من الافتراق بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ . وغيرها من الآيات .

ثم أمرهم بقوله - ﷺ - : « **وكونوا عباد اللَّه إخوانا** » . وهو تذكير بقول اللَّه تعالى : ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ . وذلك أن الأنصار بل العرب كانوا قبل

الإسلام يتقاتلون بينهم وتدوم الحروب ويذهب صحبتها ألوف الأنفس، وكل قبيلة تقاتل الأخرى لأدنى سبب فلما جاء الإسلام اجتمعوا وصاروا كالإخوة والأقارب كل منهم يحب إخوته المسلمين كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. أي: في الدين والإيمان فيجب عليهم إظهار هذه الأخوة وترك ما يضادها.

ثم أكد ذلك بقوله: «**المسلم أخو المسلم**». أي: كل منهما على دين الإسلام فهم أخوة في هذا الدين فعليهم العمل بهذه الأخوة التي هي آكد من أخوة القرابة فلابد أن تظهر آثارها من المودة والمحبة وصفاء القلوب والحرص على إيصال الخير إلى المسلمين وعلى نصحهم وإرشادهم إلى صالح دينهم ودنياهم، وعلى الدفاع عنهم وكف الظلم والعدوان عنهم من أي عدو يحاول الضرر بهم في دينهم ودنياهم سواء كان العدو في الدين كالكفار أو في الدنيا كالمسلمين الظالمين المعتدين، فيجب على المسلم إظهار علامات هذه الأخوة الدينية وأن يحب كل منهم لإخوته ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ليكون صادقًا في هذه الأخوة الدينية وهذه المحبة التي هي أثر من آثار الأخوة والصداقة.

ثم ذكر بعض الآثار لهذه الأخوة وهي ترك الإضرار بالمسلمين، فأولا أن لا يظلمه فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ودعوة المظلوم ترفع فوق الغمامة ويقول اللّٰه تعالى في الحديث القدسي: «**وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**». وفي الحديث: «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللّٰه حجاب**». (متفق عليه)، والظلم هو الاعتداء على النفس بقتل وما دونه، أو على المال أو العرض بما يضر المسلمين وذلك من العدوان والبغي والاستطالة بغير حق كالذي يتسلط بماله من قوة ومكانة وشرف ورفعة ورتبة ويضر المسلم الضعيف والفقير ويسيء إليه في نفسه

وماله وما علم أن اللّٰه تعالى له بالمرصاد وأن الواجب الرحمة بالضعفاء والمساكين والفقراء لقول النبي - ﷺ - : « **هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم** » . فلا يجوز احتقار الضعفاء والتعدي عليهم فاللّٰه تعالى هو وليهم وناصرهم .

ثم قال : « **ولا يخذله** » . والخذلان يطلق على التخلي عن المسلم وترك نصرته ، أو على إيقاعه في الشر والفساد والضرر بأن يخدعه في معاملة أو تجارة ، أو يراه قد اعتدي عليه ووقع في مأزق وضائقة فيتركه ولا يسعى في تخليصه مع قدرته على ذلك ، فإن المسلم يجب عليه نصر المظلوم كما قال النبي - ﷺ - : « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** » . وفسر نصر الظالم بمنعه من الظلم والعدوان ، فمتى رأيت مسلمًا قد وقع في شدة أو حيرة من أمره فإن عليك السعي في إنقاذه وتخليصه مما وقع فيه من الضرر والأذى ، سواء كان المعتدي عليه مسلمًا أو كافرًا ، فتركه والغفلة عنه هو الخذلان المنهي عنه في هذا الحديث ؛ لأن مسلم مظلوم فيجب على أخوته نصره وإنقاذه من الأضرار .

ثم قال ثالثًا : « **ولا يكذبه** » . أي : لا يحدثه بحديث مكذوب وهو يعتقد صدقه فيبنى على كلامه بما قد يتضرر به ، كما إذا باعه سلعة وكذب عليه في ثمنها فأخبره أنه اشتراها بكذا أو باع جنسها بكذا وقد كذب في الخبر ، أو اشترى منه سلعة بعد أن أخبره كاذباً بسعرها عند الناس فصدقه فباعها برخص ، أو كذب عليه بوصف شيء يريده عند غيره أو نحو ذلك فإن الكذب من صفات المنافقين ومن أشبههم لقول النبي - ﷺ - : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا أوعد أخلف ، وإذا ائتمن خان** » . فالمسلم يبتعد عن هذه الصفات التي يتضرر بها المسلم ولو كان له فيها مصلحة بل عليه أن لا يتسبب في ضرر أخيه المسلم وإذا رأى من يتعاطى الكذب على المسلمين حذره من ذلك وبين له تحريمه وما يترتب عليه من الإثم

لقول النبي - ﷺ- : « **وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عن الله كذابًا** » . وقوله - ﷺ- « **الصدق طمأنينة والكذب ريبة** » . وقوله - ﷺ- في المتبايعين : « **فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما** » . (متفق عليه) وقد قال تعالى : ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . ففي هذه الأدلة ما ينفر من سمة الكذب فيبتعد عنه المسلم فلا يتعاطى الكذب الذي يضر به المسلمين .

ثم قال رابعًا : « **ولا يحقره** » ، الاحتقار : هو الازدراء والتصغير والتقليل من شأن المسلم وعدم احترامه مع النظر إليه بعين الإذلال والإهانة ، ويحصل ذلك من أهل الكبر والظلم والترفع على الناس بسبب الثروة والغني والرئاسة ورفعة المنصب والمكانة العالية في أعين الناس بحيث أنه يحتقر من هو دونه في المنصب والرتبة فينظر إليه نظر الاستصغار والذل والضعف والهوان ، ولا شك أن هذا محرم وجرم كبير فإن الكبرياء للّه تعالى الكبير المتعالي ، وأما الإنسان فهو مخلوق ضعيف ذليل مهين فأوله خلق من ماء مهين من نطفة إذا تمنى ونهايته الموت وكونه جيفة قذرة ، وفي حال حياته يحمل البول والعذرة فكيف مع ذلك يترفع على بني جنسه من البشر وهو يعلم أنهم مثله في الإنسانية وقد يكون بعضهم أرفع منزلة عند اللّه تعالى كما قال النبي - ﷺ - : « **رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللّه لأبره** » . فعلى هذا لا يجوز لأي مسلم أن يحقر أخاه المسلم ، ولهذا أكد شأن الاحتقار خاصة بقوله : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » . فجعل الاحتقار هو غاية الشر الذي ينال أي إنسان فلا شر أكبر من احتقار المسلم لأخيه المسلم لما فيه من الأذى والضرر حيث أن ذلك المسلم تصغر عنده نفسه وتضعف معنوياته ويحقد على هذا الذي احتقره وآذاه وتكبر عليه وقلل من شأنه

فيحصل بينهما من العداوة والبغضاء والشنآن ما لا تحمد عقباه والواجب على كل مسلم أن يعرف قدر إخوته المسلمين الذين رفعهم اللَّه بالإيمان والعلم كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾. فجعل الرفع لأهل الإيمان والعلم لا لأهل الدنيا الدنية ولا لأهل المناصب والرتب الدنيوية.

وأما قوله: «**التقوى ههنا**». ويشير إلى صدره ثلاثًا فالمعنى: أن التقوى والإيمان هو ما يمتلئ به القلب من آثار الأدلة والبراهين والآيات البينات بحيث يطمئن القلب بهذه العقيدة وهذا الدين ويكون الإنسان من أهل تقوى اللَّه تعالى والعمل بما يحبه فيطيعه فيما أمر وينتهي عما نهى عنه وزجر، فالقلب الذي امتلأ بالإيمان لابد أن تظهر عليه آثار ذلك وتعمه الجوارح كلها فيشتغل بالعبادة فلا ينظر إلا إلى ما ينفعه وما يزيد في عمله الصالح ولا يسمع إلا المواعظ والنصائح المفيدة ولا يتكلم إلا بخير ولا يحرك يديه ولا قدميه إلا إلى ما يحبه منه ربه تعالى فيحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى ويذكر الموت والبلى ويستعد للآخرة ويترك زينة الدنيا، وكل هذا من آثار التقوى التي تكون في الصدر، فأما من يدعي أن التقوى في القلب ثم يعصي ربه ويتمادى في المخالفة ويجاهر بالذنوب ولا يراقب ربه ولا يستحيي من اللَّه ولا من الناس وإذا نصح ذكر أن العبرة بما في القلب ويذكر أنه: مؤمن مصدق وأن قلبه مطمئن بالإيمان فإننا نقول: هذا ليس بصحيح فإن التقوى في القلب والإيمان الصحيح لابد أن يظهر أثره على بقية أعضاء البدن وقد قال الحسن رحمه اللَّه تعالى: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن بما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. أي: إنما الأعمال الصالحة تعبر عن الإيمان والتقوى التي في القلب، فمتى عمل الصالحات وحافظ على الواجبات وقام بما فرض اللَّه تعالى عليه وحرص على نوافل الصلوات والعبادات وترك المحظورات وحرص على النوافل من الطاعات وابتعد عن المكروهات علم بذلك أنه صادق فيما يدعيه من التقوى

والإيمان وقد أخبر النبي - ﷺ - عن صلاح القلب وفساده بقوله : « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » . فصلاح اللسان والعينين والأذنين واليدين والرجلين دليل على صلاح القلب وفسادها دليل على فساده لأنها هي الظاهرة للعيان ، والمعاملة إنما هي بما يظهر للناس فمن أظهر الخير والعمل الصالح والنفع العام وابتعد عن الكفر والبدع والفسوق فإننا نحبه ونواليه ونشهد له بالخير ولا نعلم ما يكن ضميره ، ومن أظهر الشر والأذى والكفر والمعاصي وترك العبادات فإننا نبغضه ونتبرأ منه ونحذر من صحبته ولو كان باطنه بخلاف ظاهره .

وأما قوله : « **كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه** » . فالمراد تحريم الاعتداء على المسلم الذي قد حصنه إسلامه وحماه وحفظه عن الاعتداء عليه بغير حق ، وقد سبق قول النبي - ﷺ - : « **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث** » . الحديث ، فتحريم دمه يعم تحريم قتله أو قطع طرف منه أو جرحه أو طعنه بمحدد أو نحو ذلك ، وأكثر ما يعبر بالدم عن القتل فهو أشد أنواع الاعتداء والظلم وقد أخبر النبي - ﷺ - : « **بأن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء** » . ولعل ذلك لأن الاعتداء على المسلم بإزهاق روحه هو أكبر أنواع الظلم حتى روي عن ابن عباس وغيره أنه لا توبة له وذلك للوعيد الشديد في قول اللّه تعالى : ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ . فإن الآية خبر وقد أطلق فيها هذا الجزاء والأخبار لا تنسخ والجمهور على قبول توبته ؛ لأنه ليس أعظم من الشرك وقد دعى اللّه المثلثة إلى التوبة بقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ . الآية ولما ذكر اللّه الشرك والقتل مع الزنا في سورة الفرقان وذكر جزاء ذلك بقوله : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ، ثم قال : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ . الآية وقد ذكر ابن القيم رحمه اللّه

تعالى أن القتل يتعلق به ثلاث حقوق الأول حق أولياء المقتول ويسقط بالعفو أو القصاص أو الدية ، والثاني حق اللَّه حيث اعتدى القاتل على ما حرم اللَّه ويسقط بالتوبة النصوح ، والثالث حق المقتول حيث أريق دمه وذكر أنه يأتي يوم القيامة يحمل رأسه ويقول يا رب سل هذا لم قتلني ، فإذا تاب القاتل فإن اللَّه تعالى يتحمل عنه حق القاتل لتوبته الصادقة ، ثم ذكر تحريم المال والمراد به كل شيء يملكه المسلم ويختص به من عقار ومنقول والمراد تحريم أخذ شيء من مال المسلم بغير حق فقد قال النبي - ﷺ- : « **لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه** » . وما ذاك إلا أن لماذا الذي تعب في جمعه وتحصيله له وقع في النفس وله مكانة غالية عند صاحبه فمن اعتدى عليه وأخذه بغير حق فقد ظلم وتعدى ويعم ذلك أخذه من حرزه خفية وهو السرقة الذي رتب فيه الحد بقطع اليد اليمين وأخذه اختلاسًا على حين غفلة من صاحبه ، وكذا الانتهاب علانية والناس ينظرون ، وكذا الأخذ بالقوة والغلبة وهو الغصب وما أشبه ذلك من أخذ المال بدون علم صاحبه ولا رضاه وقد ورد الوعيد الشديد في أكل مال اليتيم لأنه ضعيف عاجز عن المطالبة لوليه الذي اعتدى عليه والوعيد في جحد العارية وخيانة الأمانة ونحو ذلك ، ويعم أخذه بالحلف الكاذب لقول اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ . وهو أن يدعى ما ليس له ثم يحلف عند القاضي ليحكم له لأن القاضي يحكم بالظاهر وحكمه لا يحل الحرام وقد قال النبي - ﷺ- : « **من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها فاجر لقي اللَّه وهو عليه غضبان** » . وأخبر أن من حكم له بشيء من مال أخيه فإنما يقطع له قطعة من النار . فيجب على المسلم احترام مال المسلم فمن أخذ شيئًا من مال المسلم ولو عصا ونحوها فليردها إلى صحابها .

ثم ذكر أيضًا تحريم العرض وهو الكلام في المسلم بما يكرهه ودليل التحريم

قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الغيبة والتحذير منها ذكر بعضها ابن كثير في تفسير هذه الآية من سورة الحجرات وقد قال النبي - ﷺ - : «**أتدرون ما الغيبة؟ ثم قال: «ذكرك أخاك بما يكره»**، قيل: يا رسول الله، أرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**». أي كذبت عليه، ويعم العرض الكلام في عمله وحرفته وطوله وقصره وتصرفه ومشيته وما أشبه ذلك بحيث أنه لو كان حاضرًا لم يتكلم فيه أو لرد على من تنقص وعابه ولذلك سمي هذا العمل غيبة؛ لأنه كلام في المسلم الغائب بما فيه تنقص وقدح وعيب لا يرضاه فكان حرامًا شبهه الله تعالى بأكل لحمة ميتًا، وشبهه النبي - ﷺ - بأكل الجيفة الخائسة ونحوها، وقد رخص بعض العلماء في الذم أو الكلام في الغائب في ستة أشخاص نظم ذلك بعضهم بقوله:

الذم ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر
والمظهر فسقًا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

فالمظلوم له أن يذكر من ظلمه إذا كان صادقًا رجاء أن تزال المظلمة أو يرجع الظالم، والمعرف هو من يذكر الإنسان بوصف لا يعرف إلا به كالأخفش وكالأعمش والأعرج والأعمى ونحو ذلك، والمحذر هو من يذكر الإنسان للتحذير من التعامل معه أو القرب منه في معاملة أو بيع أو نكاح أو شهادة ومنه كلام العلماء في رواة الحديث الضعفاء للتحذير من قبول أحاديثهم الضعيفة ونحوها، وأما المظهر فسقًا فهو المجاهر بالمعاصي فقد قال بعض السلف: لا غيبة لفاسق، وهو كل من أعلن معصية محرمة وجاهر بها كترك الصلاة وأكل الحرام وتعاطى الزنا وشرب الخمر ونحوها فذكره للتحذير منه حيث لم يخش الله تعالى ولم يحرم ما

حرمه فقد أسقط احترامه، وأما المستفتي فهو من سأل عن إنسان غائب يجهله ويريد أن يتعامل معه ببيع أو شراء أو زواج ونحوه فإن الإخبار بما فيه من باب النصيحة ولا يكون غيبة محرمة. وأما من طلب إزالة منكر فله أن يذكر أولئك العصاة بما فيهم حتى يساعد في إزالة ذلك المنكر والله أعلم.

۞ ۞ ۞

الحديث السادس والثلاثون
فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر

عن أبي هُرَيْرَة - رضي اللهُ عنه -، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً من كُرَبِ يوْمِ القيامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنْيا والآخِرَةِ، ومَنْ ستَر مُسلمًا ستَرهُ اللهُ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كانَ الْعَبْدُ في عَونِ أخيهِ. ومَنْ سلك طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له بِهِ طَرِيقًا إلى الجنَّةِ.**

ومَا اجتَمَعَ قَوْمٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ويَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتهُمُ المَلائِكَةُ، وذَكَرَهُمُ اللهُ فيمَنْ عِنْدَه. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ». رَواه مُسْلِمٌ بهذا اللَّفظِ [1].

شرح الحديث:

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لما يجب على المسلمين من التعاون ومن المساعدات فيما يتعلق بأمور الدنيا والدين وذلك للأخوة الدينية التي عقدها اللَّه تعالى بينهم في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فإن هذه الأخوة لها آثارها فلابد أن المسلم يحب إخوانه المسلمين، يقول النبي - ﷺ-: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». ثم بين في مثل هذا الحديث آثار تلك المحبة، فأولًا: قوله - ﷺ-: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس اللَّه عنه كرة من كرب يوم القيامة**». يقع المسلم في الدنيا في

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الدعوات: باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن... (٢٦٩٩) (٤/٢٠٧٤) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

كرب وفي أزمات وفي شدائد تؤدي به إلى هم وغم وشدة وكرب قد لا يهنؤه طعام ولا يتهنأ بشراب ولا يتهنأ بنوم إذا وقع في كربة أو في خوف أو شدة من شدائد الدنيا كدَين مثلًا أو فقر أو خوف أو وعيد من أحد الأعداء وما أشبه ذلك ، فهذه الكربة إذًا نفسّها عنه أخوه فإن أجره كبير حيث أنه بعد ما ينفس عنه ينام قرير العين وتزول عنه تلك الهموم التي كدرت عليه صفو حياته ونغصت عليه معيشته فأنت إذًا فرجت عنه وأزلت عنه تلك الكربة إما أنك مثلًا أخرجته من أزمة من الأزمات أو سددت عنه دينًا أو وقيت عنه أو أعطيته ما يتقوت به أو ما يقوت به أهله أو شفعت له عند من يساعده فأجرك عظيم حيث أنك أزلت عن أخيك هذه الشدة .

كذلك أيضًا قوله : « **ومن يسر على معسر يسر اللَّه عليه** » . فالإعسار هو الفقر إذا افتقر مسلم ولم يجد القوت مثلًا أو لم يجد الكسوة أو طالبه أهله بنفقة ضرورية فلم يجد ، فيسر عليه أخوه هذا الإعسار وأعطاه ما يقضي حاجته ويسد خلته فإنه والحال هذه بلا شك يكون قد أزال عنه ضررًا ويسر عليه ما كان واقعًا فيه فأجره أن ييسر اللَّه عليه في دنياه بأن يخلف ما أنفقه ويفتح عليه باب الرزق وفي أخراه بأن ينجيه من هموم الآخرة ويجعل له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا والجزاء من جنس العمل .

الأمر الثالث : الستر فقوله : « **ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه في الدنيا والآخرة** » . يمكن أن يكون هو الستر الحسي بمعنى : أنه عار فأعطاه كسوة يستر بها عورته ويستر بها جسده فيكون هذا سببًا في أن يعامله اللَّه تعالى بمثل عمله فيستره في الدنيا والآخرة ، سترك في الدنيا يعني : جزاؤك بأن يرزقك اللَّه تعالى ما تستر به عورتك وما تكتسي به وتتجمل به ، وسترك في الآخرة هو كون الناس في الآخرة يبعثون عراة ثم بعد ذلك سيكسون أي يعطون ما يسترون به أجسامهم وسوءاتهم . ويمكن أن يكون الستر ههنا سترًا معنويًا وذلك أن الإنسان قد يقع منه زلة وهفوة وكلمة نابية فتعلمها

أنت وهو لا يحب أن تظهر فتستر عليه هذه الزلة وهذه الكلمة وتكتم هذا الأمر ولا تفشي ولا تدل عليه فيكون هذا سترًا معنويًا بمعنى أنك لم تفش أسراره إذا علمت بهذا السر الذي يكتمه سواء فيما يتعلق بأمور بدنه أو بأمواله مثلًا أي أنه كان له أموال ويحب أن يسترها ولا يطلع عليها أحدًا وكان له معاملات لا يحب أن أحدًا يطلع عليها، أو تكلم بكلمة في أحد ولا يحب أن تفشو وأنت علمتها فسترتها، وعرفت مثلًا أنه لا يحب إفشاءها لما عليه من الضرر فمن ستره يعني كتم هذا السر ستره اللَّه في الدنيا والآخرة أي ستر اللَّه عليه أسراره وستره في الآخرة بحيث لا يكشف عنه سيئاته فكل ذلك داخل في الستر.

ثم يقول - ﷺ - : «**واللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**».. كلمة عامة يخبر بها أن اللَّه تعالى يساعد المسلم إذا ساعد إخوته ويعينه على أمر دينه ودنياه ويسدد خطاه ويهيء له ما يتمنى إذا أعان أخاه.

كيف يعين أخاه؟

يعينه في أمور دينه وفي أمور دنيا؛ ففي أمور الدنيا قد ورد أنك تساعده حتى في الأمور الحسية وأن ذلك من الصدقة، فقد أخبر النبي - ﷺ - بأن من الصدقة أن ترفع متاع أخيك على راحلته إذا عجز عن رفعه مثلًا أو تفرغ من دلوك في دلوه أو تعيره شيئًا ينتفع به هو بحاجة إليه[1] فذلك من العون، أو تشفع له وتساعده على

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٤) (ص١١٤)، والترمذي في «سننه» كتاب البر والصلة: باب ما جاء في طلاقة الوجه... (١٩٧٠) (٣٤٧/٤) وقال: (حديث حسن صحيح)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣٤٤، ٣٦٠)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٠٩٠) (ص٣٢٩) - كلهم - من طريق المنكدر بن محمد بن المنكر عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه به بلفظ: «كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك».

وأخرجه البخاري في «صحيحه» مختصرًا، كتاب الأدب: باب كل معروف صدقة (٦٠٢١) =

قضاء حاجة له عند غيره ، أو تنصره إذا رأيته مخذولًا أو مظلومًا أو ما أشبه ذلك فإن هذا كله من نصر المسلم ومن إعانته فمن أعان أخاه فاللَّه تعالى يعنيه « **واللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** » .

أي : ما دام العبد يساعد أخاه فإن اللَّه تعالى يسدد خطاه ويعينه على أمور دينه ودنياه ، ومن عونه أيضًا في أمور الدين إرشاده إلى الصواب إذا كان متحيرًا ، وتعليمه ما يجهله ، وكذلك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، ودلالته على الحسنات التي يحبها اللَّه تعالى ، وإرشاده إلى صحبة الأخيار ونهيه عن صحبة الأشرار ، وهكذا فإن ذلك كله يعد من عونك لأخيك المسلم فإذا كان الإنسان في عون أخيه فإن اللَّه تعالى في عونه بمعني : أن اللَّه سبحانه يعينك ويسددك ويساعدك فيما أنت بحاجة إليه فيلهمك رشدًا ويفتح عليك علمًا ويسدد قولك وفعلك كل ذلك من عون اللَّه تعالى للعبد الذي هو في عون أخيه .

ثم في هذا الحديث أيضًا جمل لها مواضيع أخرى فإن أول الحديث فيما يتعلق بالمسلين وتعاونهم ولكن اشتمل على جمل أخرى فيها مواضع مهمة :

الجملة الأولى : طلب العلم :

يقول : « **ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له به طريقًا إلى الجنة** » .

وهذه فائدة عظيمة وبشرى كبيرة لمن اجتهد في طلب العلم يعني : سار طريقًا يطلب فيه علما سواء كان ذلك الطريق بعيدًا أو قريبًا ، سواء كان عشر خطوات أو كان مسيرة ألف ميل كل ذلك يعد طريقًا تلتمس فيه علمًا ، فإذا ذهبت إلى حلقة من حلقات العلم كان ذلك طريقًا إلى العلم ، وإذا سافرت بعيدًا من أجل أن تتعلم على فلان العالم ونحوه كان هذا أيضًا من طرق طلب العلم ، وكذلك من سلك وتوجه

= (١٠/٤٦٢ - فتح) من طريق آخر عن محمد بن المنكدر به .

إلى حلقة في مسجد من المساجد فيها علم كان في ذلك أيضًا سلوك لطريق العلم ويراد ههنا بالعلم: العلم الشرعي الذي هو ميراث النبي - ﷺ - والنبيين، وهذه الجملة وردت أيضًا في حديث عن أبي الدرداء وهو حديث صحيح مشهور قال فيه - ﷺ -: **«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له به طريقًا إلى الجنة وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**(1).

فمن سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهل اللَّه له به طريقًا إلى الجنة أي في المحشر بعد البعث. يعني في الآخرة بأن يفتح له الطريق ويسهله إلى أن يدخل الجنة وإما إلى الأعمال الصالحة التي يكون أثرها دخول الجنة.

الجملة الثانية: قوله - ﷺ -: **«وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده»**.

بيوت اللَّه: هي المساجد أو بيوت العلم التي يدرس فيها العلم الشرعي حتى

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب العلم: باب الحث على طالب العلم (٣٦٤١) (٣/٣١٦)، وابن ماجه في «سننه» كتاب المقدمة: باب فضل العلماء.... (٢٢٣) (١/٨٥)، والدارمي في «سننه» (١/٩٨)، وأحمد في «مسنده» (٥/١٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٨) (١/٢٨٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٢٣١) (٢/٢٢٤)، - كلهم - من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء رضي الله عنه به.

وأخرجه الترمذي في كتاب العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأحمد في «مسنده» (٥/١٩٦) من طريق محمد بن يزيد الواسطي عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء فذكره.

وأخرجه أبو داود في «سننه» كتاب العمل: باب الحث على طلب العلم (٣٦٤٢) (٣/٣١٦) من طريق آخر عن أبي الدرداء رضي الله عنه به وحسنه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة».

ولو لم تكن مساجد يصلى فيها دائمًا كالمدارس الخيرية والمدارس العلمية والمعاهد العلمية ونحوها ، فإذا اجتمعوا في إحدى هذه الأماكن وقصدهم أن يتعلموا العلم الشرعي الذي منبعه كتاب اللَّه تعالى يقرؤون ، القرآن ويتدارسونه بينهم ويتعلمون الأحكام فيه ويتعلمون معانيه ويكررونه ويحفظونه ويحفظون تعاليمه أيضًا أو معانيه من السنة النبوية وما يدور حول ذلك فكل ذلك من العلم الذي يثابون عليه أخبر في هذا الحديث أنهم يتلون كتاب الله تعالى يعني : يقرؤونه وكذلك شرحه من السنة وكذلك استنباطات العلماء منه ومن الأحكام الشرعية كل ذلك أخبر بأنه من العلم ، ثم ذكر فائدتهم وما أعظمها من فائدة بقوله إلا نزلت عليهم السكنية ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

فالسكينة : المراد بها المطأنينة التي يطمئن بها المؤمن ويعرف بها أنه من أولياء الله وأنه على دين وأنه على صواب وهي التي أنزلها الله تعالى في قلوب المؤمنين من الصحابة في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] . وأنزله على نبيه ومن معه في قوله تعالى : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح : ٢٦] . تطمئن قلوبهم بذكره تعالى ويطمئنون إلى عبادته ويتزودون من الطاعات ويكثرون من الأعمال الصالحة ويتزودون من الخير ويستغفرون ربهم ويدعونه كل ذلك من آثار نزول السكنية في قلوبهم وكذلك أيضًا يثقون بأنهم على صواب وأنهم عباد لله صالحون وأن الله تعالى قد قبل أعمالهم ووفقهم ، يثقون بأن عقيدتهم سليمة وأن أعمالهم مستقيمة ، كل ذلك من آثار هذه السكينة إذا نزلت في قلوبهم قال الله تعالى : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح : ٢٦] .

كذلك غشيان الرحمة أيضًا : « **وغشيتهم الرحمة** » رحمة الله التي وسعت كل

شيء إذا غشيتهم وتنزلت عليهم فهم من أهلها يعني : أن الله تعالى يرحمهم ويقبل منهم ويثيبهم ويعظم أجرهم ، وكذلك يعمهم بواسع فضله ، ومن رحمهم الله تعالى غفر لهم السيئات وكفر الذنوب وضاعف لهم الأجر وضاعف لهم الحسنات ورفع لهم الدرجات كل ذلك من آثار رحمته التي كتبها للصالحين من عباده في قوله : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . هذا من فوائد اجتماعهم في هذه البيوت التي هي بيوت الله تعالى .

كذلك قوله : « **وحفتهم الملائكة** » . تحف مجالس الذكر ومجالس العلم تحفهم بأجنحتها ، ثم يصعدون ويذكرون ذلك عند الله تعالى يقولون : « **أتينا من عند عباد لك صالحين يذكرونك ويشكرونك إلى قوله : أشهدكم أني قد غفرت لهم** » . هذا من آثار غشيان الملائكة لهم .

كذلك يذكرهم الله تعالى فيمن عنده ويذكرهم في الملأ الأعلى ويثني عليهم بأن عبادًا لي هذا فعلهم وهذا عملهم كما أخبر الله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧] إلى آخر الآيات .

فهذه ونحوه داخل في أنه - ﷺ- حث على مجالس العلم ومجالس القرآن ومن قوله : « **ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » . فيه أن الإنسان يعتمد على عمله لا يعتمد على نسبه ولا يعتمد على شرف آبائه ولا على أجداده ولا على حسنات أسلافه فلا ينجيه إلا عمله .

❁ ❁ ❁

الحديث السابع والثلاثون

فضل الله تعالى ورحمته

عن ابنِ عبَّاسٍ - رضي اللهُ عنهما - ، عن رسولِ اللهِ ﷺ فيما يَرْويهِ عن رَبِّهِ تَبارَكَ وتعالى قال : « إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ : فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللهُ عِنْدَهُ حَسَنةً كامِلَةً ، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها كَتَبَها اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كَثيرَةٍ ، وإن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كَتَبَها اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً ، وإن هَمَّ بها فَعَمِلَها كَتَبَها اللهُ سيِّئَةً واحِدَةً » . رَواهُ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ في « صَحِيحَيْهِما » بهذه الحروفِ(١) .

فانْظُرْ يا أخي - وَفَّقَنا اللهُ وإيّاكَ إلى عَظِيمِ لُطْفِ اللهِ تَعالَى - وَتَأَمَّلْ هذه الأَلْفَاظَ ، وَقَوْلُهُ : « عِنْدَهُ » إشَارَةٌ إلى الاعْتِنَاءِ بِها ، وَقَوْلُهُ : « كَامِلَةً » لِلتَّأْكِيدِ وَشِدَّةِ الاعْتِنَاءِ بِها ، وَقالَ في السَّيِّئَةِ التي هَمَّ بِها ثُمَّ تَرَكَهَا : « كَتَبَها اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً » فَأَكَّدَهَا بـ « كَامِلَةٍ » ، وَإنْ عَمِلَهَا كَتَبَهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، فَأَكَّدَ تَقْلِيلَهَا بـ « وَاحِدَةٍ » ، وَلَمْ يُؤَكِّدْهَا بـ « كَامِلَةٍ » ، فَلِلهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ سُبْحَانَهُ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عليه . وَباللهِ التَّوفِيقِ .

شرح الحديث :

هذا الحديث يقول : (فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى) أى : فيما يذكره النبى - ﷺ- عن ربه سبحانه وتعالى . ففي بعض الروايات التصريح بأنه حديث قدسي

---

(١) أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب الرقاق : باب من هم بحسنة ... (٦٤٩١) (١١/٣٣١ - فتح) ، ومسلم فى « صحيحه » كتاب الإيمان : باب إذا هم العبد بحسنة (٢٠٧) (١/١١٨) ، - كلاهما - من طريق أبى جابر العطاردى عن ابن عباس -رضى الله عنهما - به .

أن اللّه قال للملائكة : « **إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة وإذا هم بها فعملها فاكتبوها عشر حسنات وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائي ، وإن هم بها فعملها فاكتبوها سيئة واحدة** »[1] .

فيكون حديثا قدسيا - يعني : من كلام الله الذى يرويه النبى - ﷺ- وفيه عظيم فضل الله تعالى على عباده وأن رحمته سبقت غضبه وأنه يجزي بالحسنة إحسانا وبالسيئة عفوًا وغفرانًا وأنه يضاعف عباده الحسنات ولا يضاعف السيئات .

قد أخبر الله تعالى بمضاعفته الحسنات ففى سورة الأنعام يقول : الله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

وفى سورة النمل يقول الله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل : ٨٩، ٩٠] .

لا شك أن قوله : ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ . فى حق من أعماله كلها حسنات . وقوله : ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ . فى حق من أعمالهم كلها سيئات - يعنى : كفر وشرك وبدع ونحوها .

وأما أهل الإيمان الذين معهم الإسلام والإيمان والتوحيد والعقيدة السليمة فإنه أخبر بأنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات .

قوله : « **إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك ، فمن همّ بحسنة**

---

(١) يشير إلى حديث أبى هريرة الذى أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠١) (١٣/٤٧٣-٣٧٤ - فتح)، ومسلم فى « صحيحه » كتاب الإيمان : باب إذا هم العبد بحسنة .. (٢٠٣) (١/١١٧) ، - كلاهما - من طريق أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة » . هكذا أكدها بقوله : « **كاملة** » . دليل على أنه اهتم بها أولا : بقوله : « **كتبها** » . وثانيا : بقوله : « **عنده** » . وهذه العندية تقتضى شأنًا . مما يدل على عناية الله بها .

كذلك هذا فى حق من هم بحسنةولكن ما تركها إلا سهوًا أو عجزًا أو عن غفلة أو نحو ذلك فأما إذا تركها لهوى النفس ، أو تركها لدافع الشيطان ، أو تركها استجابة لدعاة السوء فإنه بلا شك يفوته خير حيث أنه ترك العمل الصالح بغير سبب وبغير موجب فمثلا : إذا هم بقيام ثم كسل فى تلك الليلة وغلبه النوم فإن الله تعالى يثيبه ويكتب له أجر حسنة تلك الصلاة التى هم بها ولكن لم يعملها ، أما إذا هم أن يقوم الليل أو يقوم نصفه أو ثلثه أو ساعة أو ساعتين منه ولكن استدعاه جلساء السوء وقالوا له : هل نبيت على ما نتسلى به فاجتذبوه فبات معهم على سماع أغاني وعلى سماع ملاهى وعلى رؤية صور وأفلام خليعة ، أو على سهو وغفلة ، أو على قيل وقال ، أو على لعب بآلات الملاهي بيلوت أو بغيره من الآلات التى يلعبون بها فقطع نصف الليل أو ثلثيه وهو على ذلك وفاته أن يصلي تلك الليلة ما الذي حبسه ما الذى منعه ؟ منعه عمل سيء ، فمثل هذا ما ترك هذه الحسنة عجزًا ولكنه تركها لانشغاله بضدها فيعاقب على ترك الحسنة التي هم بها أو يفوته أجرها ويعاقب على ما عمله من السيئات فى سهره الطويل حيث قطع ليله على هذه المعاصى ونحوها فيكون قوله : « **فمن همَ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة** » .

إذا منعه مانع كما إذا هم بأن يتصدق ولكن بدت له حاجة فصرف الصدقة فى شراء حاجة من الحاجات التى يحتاج إليها ، فلاشك أنه والحال هذا يعد قد عذر بتركه لهذه الصدقة ، كذلك إذا هم بأن يذكر الله تعالى ويدعوه فى وقت من الأوقات كبعد العصر يشغله بالذكر أو بعد الفجر يشغله بالذكر إلى طلوع الشمس ولكن غلبه نعاس أو غلبه تعب أو ملل أو نحو ذلك فتركه ونام أو انشغل بأمر ضرورى

فإن الله يكتب له أجر هذه الحسنة التى هم بها ولم يعملها ، وهكذا إذا ترك ذلك لعذر فقد ورد فى حديث عنه ﷺ : « **إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمله صحيحا مقيما** »[1] .

فضل من الله تعالى إذا مرض الإنسان وكان فى صحته يصوم فانشغل بمرضه عن الصيام كتب الله له أجر من صام ، وكذلك إذا سافر لحاجته وترك صيام كل اثنين وخميس ، أو صيام أيام البيض التى كان معتادًا عليها ، كتب الله له أجر ذلك ، أو كان يتصدق وبدت له حاجة سفر فصرف ثمن تلك الصدقة أو مقدارها فى نفقة السفر ونحوه كتب الله تعالى أجر ذلك كاملًا ، وهكذا إذا أراد أن يقرأ حزبا من القرآن بعد صلاة العصر أو صلاة الظهر وكان اعتاد ذلك وأحب أن يداوم عليه ثم شغله عنه شاغل ضروري كأن نزل به ضيف أو حبسه حابس أو حال بينه وبين ذلك حائل مع عزمه على ذلك كتب الله له أجر هذه الحسنة حيث إنه هم بها وعزم عليها ولكن حال بينه وبين ذلك حائل .

وليس كل ترك للحسنة بعد الهم بها يثاب عليها فإنما يثاب عليها إذا تركها لعذر ، أما إذا تركها زهدًا فيها فإنه قد يعاقب فإذا كان من أهل التقدم إلى المساجد ولكن انشغل بملهيات وبخرافات تشغله عن التقدم فمثل هذا أعتاض بالجلوس في المساجد الجلوس عند الملاهي فقد يعاقب على ذلك ، وكذلك إذا اعتاد أن يأتي بالأذكار بعد الصلوات بأن يسبح ثلاثًا وثلاثين أو يقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ثلاثًا وثلاثين بعد كل صلاة ولكن زهد فى ذلك ورأى أنه لا أهمية لذلك فتركها وصار يخرج فور سلامه ويعتاض به مجالس سهو ولهو مجالس قيل وقال

---

(١) أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب الجهاد والسير : باب يكتب للمسافر مثل ما كان ... (٢٩٩٦) (١٥٨/٦) من طريق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إسماعيل عن أبى بردة عن أبى موسى - رضى الله عنه - به .

ومجالس يشغلها الكلام الباطل ويترك هذا الخير الذي كان اعتاد عليه فإن مثل هذا قد بدل الحسنة بالسيئة فالأصل أنه يعاقب على فعله وهو تركه لهذا العمل الحسن واعتياضه بدله بالسيئ أو بالغفلة ونحو ذلك .

أما إذا وفقه الله تعالى وعمل هذه الحسنة ، فإن من فضل الله أنه يضاعفها بعشر أمثالها كما فى الآية الكريمة ، وقد تصل المضاعفة إلى أكثر من ذلك فقد ذكر الله تعالى مضاعفة الصدقة أو النفقة فى سبيل الله بقوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] . أى : حبة واحدة كانت ثمرتها سبعمائة حبة ، فمعناه أن من أنفق فى سبيل الله فإنها تضاعف الدرهم بسبعمائة درهم .

روى أن رجلًا جاء بناقة مخطومة وقال : يا رسول اللَّه ! هذه فى سبيل الله - يعنى ليجاهد عليها المجاهدون- فقال ﷺ : « **لك بها سبعمائة ناقة مخطومة** »(١) .

يعني : أجرك كأجر من جهز سبعمائة غاز ، فإذا هذه مضاعفة خاصة وهي النفقة على الغزاة الذين يجاهدون الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى . ذكر الله مضاعفة أعمالهم إلى هذه الأضعاف الكثيرة ، كذلك أيضا تضاعف الصدقة والحسنات فى الأماكن والأزمنة الفاضلة فى شهر مثلًا رمضان لكونه زمنًا فاضلا تضاعف فيه الحسنات ورد فى حديث : « **إذا دخل رمضان فانبسطوا فيه بالنفقة ؛ فإن النفقة فيه مضاعفة كالنفقة فى سبيل اللَّه** » .

النفقة فى رمضان صدقة على المستضعفين وعلى الصوام وعلى الفقراء ونحوهم لشرف الزمان تضاعف كالنفقة فى سبيل الله أى : إلى سبعمائة ضعف ، وكذلك النفقة فى الأماكن الفاضلة كالنفقة فى الحرمين الشريفين لاشك أن لها مزية ،

(١) أخرجه مسلم فى « صحيحه » كتاب الإمارة : باب فضل الصدقة فى سبيل اللَّه ... (١٣٢) من طريق الأعمش عن أبى عمرو الشيبانى عن أبى مسعود -رضى الله عنه - به .

وكذلك النفقة فى الأزمنة الفاضلة كيوم الجمعة ونحوه تضاعف ، وكذلك النفقة والصدقة فى زمن المجاعة على أهل الحاجة ونحوهم . هذا بالنسبة إلى النفقة ويلحق بذلك أيضًا الأعمال التى فيها مشقة فإن مضاعفتها أكثر ، وذلك لأن العمل كلما كان أشد كان أجره أكثر فمثلا الذى يؤدي الحج من بلاد بعيدة يسير سنة أو نصف سنة ذهابًا وإيابًا كما كان قبل عام خمسين وثلاثمائة وألف هجرة لاشك أن أجره مضاعف لأن عمله أكثر وأصعب من الذى يؤديه فى عشرة أيام أو فى نصف شهر أو نحو ذلك حيث أن هذا أكثر نفقة وأكثر تعبًا فتكون الحجة بعدة حجات ، وهكذا أيضا الأعمال التى فيها صعوبة .

فالحاصل : أن من فضل الله تعالى أن يضاعف أعمال العباد أضعافًا كثيرة ولكن بشرط أن يخلصوا فيها لله تعالى وأن يعملوها على الوجه الشرعى أى : بهذين الشرطين الإخلاص والمتابعة فإذا تم الشرطان فإن الله يضاعفهما أضعافا كثيرة بحسب المناسبات وبحسب كلفة العمل أو كثرة نفعه وتعديه أو قصوره أو نحو ذلك .

وهذا الحديث قد تكلم عليه المؤلف -رحمه الله- فى بعض النسخ ، فذكر أن هذا دليل على سعة فضل الله تعالى وأن رحمته تغلب غضبه فيقول : إذا تأملنا هذا الحديث رأينا فيه كثرة عفو الله وفضله فأولًا : أنه لما ذكر أن العبد إذا هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة تأمل أولًا : قوله : « **عنده** » . دليل على الاهتمام بها . ثانيًا : التأكيد بقوله : « **كاملة** » . دليل على أنها حسنة كاملة - يعنى : فى غاية الكمال ، وكذلك قال فى السيئة : « **وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة** » . أكدها بقوله : « **عنده** » . وأكدها بقوله : « **كاملة** » . وذلك دليل على فضل الله تعالى . ولما ذكر السيئة أخبر أنه إذا عملها كتبها الله سيئة واحدة فلم يذكر كلمة عنده ولم يؤكدها بكاملة .

ورد أيضا فى بعض الروايات زيادة : « **أو محاها ولا يهلك على الله إلا هالك** »(١) .

ثم روى أيضا عن ابن عباس -رضى الله عنهما- وغيره أنه لما ذكر مثل هذا الحديث أو مثل الآية الكريمة : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . يقول : (ويل لمن غلبت آحاده عشراته) . يريد بذلك أن الله تعالى يضاعف الحسنة إلى أن تكون عشرًا والسيئة لا يضاعفها ، فالذى يعمل سيئات كثيرة حتى تكون أكثر من الحسنات المضاعفة هذا ممن عرض للوعيد ويل لمن غلبت آحاده يعنى : السيئات التى لا تضاعف عددًا غلبت عشراته الحسنات التى تكون مضاعفة إلى هذا العدد .

وفى هذا الحديث أنه إذا هم بالسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وفى بعض الروايات أن الله تعالى يقول : « **اكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائى** » . أى : من أجلى ، إنه إذا هم بالسيئة ثم تركها خوفًا من الله فإن هذه تكتب حسنة ، وذلك لأن الذي حمله على تركها الخوف من عقاب الله لما تذكر أنها تكتب عليه ولما تذكر العقوبة التي تترتب على السيئات وجل قلبه وخاف فتركها فكتبت حسنة كاملة فهذه الجملة وهى قوله : « **إنما تركها من جرائى** » . تدل على أن الترك حسنة أي أنه ما تركها إلا خوفًا من اللّه ، فيخرج بذلك من تركها عجزًا وهو عازم على فعلها إذا قدر عليها فإن هذا قد يعاقب على نيته ، فإذا هم بالزنى ثم فعل الأسباب فقدر على أن يزني ، ولكن تذكر بعد أن تمكن فوجل قلبه وخاف من الله تعالى وأقلع ، مثل الذين انطبقت عليهم صخرة فى الغار(٢) فدعوا الله بصالح أعمالهم

---

(١) تقدم .

(٢) أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب البيوع : باب إذا اشترى شيئًا لغيره ... (٢٢١٥) (٤/ ٤٧٧) ، ومسلم فى « صحيحه » كتاب الذكر والدعاء والتوبة ...: باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ... (١٠٠) (٤/٢١٩٩-٢١٠١) عن ابن عمر -رضى الله عنهما - به .

فكان أحدهم توسل بعفته وأنه لما كانت له ابنة عم يحبها فطلب منها نفسها يعنى حراما فامتنعت منه ، فلما ألمت بها سنة من السنين وجاءته تستقرضه راودها فامتنعت حتى يعطيها مائة دينار ، فلما أعطاها وتمكن فيها قالت : « **يا عبد الله ، اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه** » .

فعند ذلك قام عنها وترك ما أعطاها فكان هذا الترك حسنة كبيرة حيث إنه خاف من الله خوفًا شديدًا بخلاف ما إذا بذل الأسباب وعجز يعنى : أنه طرق الأبواب فرد مثلًا أو حاول من المرأة فامتنعت منه أو صاحت بمن تستنجد به ويرده عنها مع عزمه على الزنى لو تمكن من ذلك ، فإنه قد يعاقب على مثل ذلك لنيته السيئة ، وقد ورد أن الإنسان يعاقب على نيته فى الحديث الذى ذكر فيه النبى - ﷺ- قال : « **إنما الدنيا لأربعة نفر : رجل آتاه الله مالًا وعلمًا فهو يعمل فى ماله بعلمه -يعنى يصل منه الأرحام ويتصدق منه وينفق منه فى سبيل الله- فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا فهو يقول : لو أن لى مثل مال فلان لعملت مثلما يعمل فهو بنيته وقصده فهما فى الأجر سواء** » . هذا الثانى معه علم ولو آتاه الله مالًا لأنفقه فى وجوه الخير ولتصدق منه كما نوى ذلك وعزم عليه فيثيبه الله تعالى على نيته . « **ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو يخبط فى ماله فلا يصل فيه رحمًا ولا يعلم لله فيه حقًا ولا ينفق منه شيئا فيما يحبه الله** » . يعنى : أنه ينفقه فى المعاصي ينفقه فى الذنوب ويمسك به عن جهاد المسلمين أو ينفقه فى الزنى أو فى الغناء أو فى المسكرات وما أشبه ذلك » . « **فهذا بأقبح المنازل ، ورجل لم يؤته الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو يقول : لو أن لى مثل مال فلان لعملت بعمله فهو بنيته وقصده فهما فى الوزر سواء** »[1] .

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذى فى « سننه » كتاب الزهد : باب ما جاء مثل الدنيا ... (٢٣٢٥) (٤/ ٥٦٢-٥٦٣) وقال : (حسن صحيح) ، وأحمد فى « مسنده » (٢٣١/٤) - أخرجاه - من =

فهذا أيضًا نيته سيئة فإنه لو آتاه الله مالًا لأنفقه في المعاصي وفي المحرمات .

وبكل حال فإن هذا دليل على أنه ليس كل من ترك السيئة يثاب عليها وإنما إذا تركها لله كما في الرواية التي ذكرنا وهي في « **صحيح مسلم** » : « **إنما تركها من جرائي** » . فينتبه لمثل ذلك من يغتر بذلك ، وكثيرًا ما نسمع أن فلانًا لا يشرب الخمر ولكنه ما قدر عليها وأنه يرجو أن يكتب ذلك في حسناته مع أنه ينوي لو قدر عليها لشربها وينوى أيضًا أنه يستمع الأغاني ولو قدر عليها لاستمع لها ولكنه ما قدر على ذلك إما لعدم القيمة التي يبذلها في أشرطة الغناء ونحو ذلك فهذا نيته سيئة ، فعليه أن يتوب من هذه النية ويعزم على أنه لا يفعل المعصية ولو تمكنت له حتى يثيبه الله تعالى وحتى يقبل توبته .

❁ ❁ ❁

= طريق عبادة بن مسلم عن يونس بن خباب عن سعيد الطائي أبي البختري عن أبي كبشة الأنماري - رضي الله عنه - به .

وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » .

الحديث الثامن والثلاثون
العبادة لله وسيلة القرب والمحبة

عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي اللهُ عنه - قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إنَّ الله تَعالَى قَال : مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُه عَلَيْهِ ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، ولَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ** » . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١) .

شرح الحديث :

هذا حديث رواه الإمام البخارى -رحمه الله- فى « **صحيحه** » . ولكنه انفرد بروايته عن بقية أهل الكتب الستة ، ولكن لا يضر تفرده ؛ فإنه أعلى الكتب وأصحها ، وهذا الحديث من الأحاديث القدسية التى ينقلها النبى - ﷺ- عن ربه ولا تعطى أحكام القرآن ، وذلك لأنها لم تثبت فى المصحف ولهذا لا يقرأ بها فى الصلاة بعد الفاتحة وليست مما يتعبد بتلاوته ولا مما يحصل بها الإعجاز ولكنها إذا صح إسنادها فهى من كلام الله الذى أنزله على رسوله أو ألهمه نبيه - ﷺ- ، وقد تقدم مثل هذا فى حديث أبى ذر -رضى الله عنه- الذى فيه أن الله يقول : « **يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى .. الخ** » . وهذا الحديث يقول : « **من عادى**

---

(١) أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب الرقاق : باب التواضع (٦٥٠٢) (١١/٣٤٨-٣٤٩ - فتح) عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » . وفيه زيادة لم تذكر ههنا وهي قوله : « **وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه** » . فذكر الشارح ابن رجب أن هذا أصح حديث روى فى الأولياء يعنى : أنه قد رويت أحاديث كثيرة فى الأولياء وفى فضلهم وأن هذا أصح ما روى وأن غيره من الأحاديث التى رويت فى الأولياء وفى عملهم كلها ضعيفة أو دون هذا الحديث فى الصحة « **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب** » .

أولا : من المراد بالولى :

من عادى ولي الله فاشتهر عند الصوفية ونحوهم أن هناك قسم خاص يسمونهم الأولياء فيقولون : هم خلاصة العباد ويزعمون أن المسلمين ثلاثة أقسام : العامة والخاصة وخاصة الخاصة . وخاصة الخاصة هم الذين يسمونهم أولياء ولكن هذا التقسيم غير صحيح ، والصحيح : أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون الذين حققوا الإيمان وحققوا التقوى وعملوا بطاعة الله تعالى واتقوا عذاب الله قال الله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] . ثم قال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] . فكل الذين آمنوا واتقوا الله تعالى حق تقاته هم أولياء اللّه ، أى : ما بينك وبين أن تكون من أولياء الله إلا أن تحقق الإيمان الذى ثمرته القول والعمل والاعتقاد وتحقق التقوى ، فمن كان بهذه الصفة فإنه من أولياء الله تعالى ، فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهذا بخلاف الذين يزعمون أن الأولياء إما الذين يسمونهم سادة وأشرافًا ونحوهم ،

وأما الذين يسمونهم الزهاد والأصفياء والخلاصة وما أشبه ذلك ، وإما من يعتقد الصوفية فيهم وأن الأولياء أفضل من الأنبياء وهذا كفر ، يقول أحدهم فى نظم لهم :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

نعوذ بالله هذا معتقد غلاة الصوفية فجعلوا الولى هو أعلى الرتب وجعلوا النبى فى الوسط وجعلوا الرسول أنزل من النبي وأنزل من الولي ، وهذا لا شك أنه ضلال وبعد عن الحق .

فنحن نعتقد أن أولياء الله تعالى هم أهل الطاعة وهم أهل الإيمان وهم أهل التقوى وهم أهل الأعمال الصالحة ، فمن كان كذلك فإنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا عمل بكتاب الله تعالى وحافظ على الأوراد وحافظ على العبادات وأدام الطاعة واستمر عليها ونزه نفسه عن المعاصى وعن المحرمات وما أشبه ذلك ، ويمكن أن يقال : إن هؤلاء هم المصطفون من عباد الله وذلك لأن الله تعالى قسم عباده المؤمنين فى سورة فاطر ثلاثة أقسام فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر : ٣٢] .

ذكر ابن القيم -رحمه الله- عن بعض العلماء فى وصفهم أوصافًا طويلة ، ملخصه : أن الظالم لنفسه هو المقصر وهو الذى يرتكب المكروهات وبعض المحرمات ويتوسع فى المباحات فيسمى هذا ظالمًا لنفسه بمعنى أنه منتهك لبعض المحرمات وإن لم يصل إلى حد الكفر ، وأما المقتصد فقالوا : إنه الذى يفعل الطاعات ويترك المحرمات ولا يفعل المستحبات ولا يترك المكروهات ، وأما السابق بالخيرات فهو الذى يفعل الواجبات ويحافظ على المستحبات والمندوبات ويترك المحرمات ويترك المكروهات ويترك كثيرًا من المباحات مخافة شغله عن الطاعات فهؤلاء هم السابقون إلى الخيرات وهؤلاء هم أولياء الله الذين آمنوا وكانوا

يتقون ، فمثل هؤلاء خيرة الله من خلقه هؤلاء صفوته من عباده هؤلاء عباده المؤمنون هؤلاء أولياؤه المتقون ، ولا شك أن من أبرزهم صحابة النبى - ﷺ- فإنهم أولى بهذا الوصف فهم الذين لما بايعوه وكانوا معه التزموا أداء جميع الطاعات وتركوا جميع المنهيات سواءً المكروهات أو المحرمات وزهدوا فى المباحات أو فى كثير منها واقتصروا على ما يبلغهم فى هذه الحياة الدنيا فكانوا أولى السابقين ، ففى هذا الحديث عقوبة من آذاهم ، فمن آذى أو عادى أحدًا من أولياء الله فإنه يحارب الله « **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب** » . فمن يقدر على أن يكون محاربًا لله تعالى لا شك أنه يصير مهزومًا إذا بارز الله تعالى بالمحاربة .

الأذى بأى شيء يكون . معلوم أن الأذى يكون بالقول ويكون بالفعل ، فالأذى بالقول يعم السب والتنقيص والعيب وما أشبه ذلك فضلًا عن التكفير والتفسيق فالذين مثلًا يكفرون الصحابة لا سيما الخلفاء الراشدين منهم لا شك أنهم قد آذوا أولياء الله فهم حرب لله تعالى فقد آذنته بالحرب ، والصحابة -رضى الله عنهم- أهل الحسنات وأهل السبق وأهل الفضائل ، فإن فضلهم على من بعدهم فضل كبير لا يلحق شأوهم ، فالذين أنكروا فضلهم وأنكروا سبقهم أو ادعوا أنهم قد أبطلوا أعمالهم أو رموهم بالردة أو رموهم بالكفر أو بالفسوق فقد آذوا أولياء الله تعالى وعادوهم . « **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب** » .

وهكذا أيضًا بقية المؤمنين من التابعين ومن تابع التابعين ومن سلف الأمة المهتدين ومن الأئمة المقتدى بهم الذين هم نجوم الهدى ومصابيح الدجى الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا وبه نطقوا كالأئمة الأربعة الذين هم قدوة ، وكذلك أيضًا أهل الأحاديث الذين تعبوا فى جمع الأحاديث النبوية واجتهدوا فى جمعها ، وكذلك فقهاء الأمة وعلماؤها ، وكذلك أهل الدعوة لله تعالى الذين دعوا إلى التوحيد ودعوا إلى الإسلام فى كل زمان وهدى الله على أيديهم بشرًا كثيرًا وأنقذوا

كثيرًا من الأمة مما كانوا فيه من الجهل ومن الضلال ومن أبرزهم أئمة الدعوة الذين أنقذوا أهل هذه البلاد كالشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- ومن كان على طريقته من أمراء ومن علماء ممن دعوا إلى الله تعالى لا شك أنهم أولياء الله وأنهم خيرته من خلقه فى ذلك الزمان وأنهم أهل فضل على الأمة فالذين عادوهم خذلهم الله فى كل مكان كلما انتصب أحد لسبهم وعيبهم وسلبهم فضحه الله تعالى وأظهر خزيه وبانت أحقاده التى يكيد بها الإسلام والمسلمين، وتبين لمن بعدهم أنهم ضالون مضلون حيث عادوا أولياء الله تعالى وآذوهم .

ونحذر أيضا من معادة كل مؤمن تقي من أهل الخير ومن أهل السنة والجماعة ومن الدعاة إلى الله تعالى ومن حملة العلم ومن العاملين به ومن الباذلين له الذين اهتدوا ودعوا إلى الله وهدى الله تعالى بهم من أراد به خيرًا نحذر من معاداتهم، وهذه المعاداة يدخل فيها اتخاذهم أعداءً أو وصفهم بأنهم أعداء للإسلام أو وصفهم بأنهم مفسدون أو ضالون أو مضلون، وقد ابتلي في هذه الأزمنة الكثير من المبتدعة من معتزلة ومن معطلة ومن صوفية ومن قبوريين ونحوهم بمعاداة أهل السنة الذين اعتنقوا مذهب السلف الصالح -رحمهم الله- فصار هؤلاء المبتدعة ينكرون على السلف القدامى وأتباع السلف فى كل زمان ويعيبونهم بكل عيب ويقدحون فيهم إلى هذا الزمان وإلى هذه الأيام، وهم ينشرون نشرات فيها القدح فى شيخ الإسلام ابن تيمية وأنه الضال المضل الذى أضل من اتبعه ومن سار على طريقته إلى هذه الأزمنة، ويقدحون أيضًا فى الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومن كان على طريقته أو دعوته، بل ويقدحون فى مشايخنا الذين قرأنا عليهم فى هذه البلاد وقرأتم عليهم، فلا يغتر بمثل هؤلاء فإن الله تعالى حرب لهم «**من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب**» . فيفطن لمن يسب أحد أئمة الدعوة أو قادة المسلمين أو أولياء الله من عباد وعلماء ودعاة ويتنقصهم بل يخوف من عذاب الله تعالى ومن أن يكون الله

حربه ومن حاربه الله فهو مهزوم .

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » . فى رواية : **« آذنته بالمحاربة »** . قيل : إن المراد هنا الولاية الخاصة . وقيل : الولاية العامة ، وذلك لأن المؤمنين كلهم أولياء اللّه ، فإن الناس قسمان أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فأولياء الرحمن هم أهل الإيمان كلهم ولكن ينقسمون إلى قسمين : أهل ولاية خاصة وأهل ولاية عامة :

فأهل الولاية العامة : هم جميع المؤمنين ولو كان فيهم عصاة ولو كان فيهم مذنبون ، فالمؤمنون الذين دخلوا فى الإسلام والإيمان ودانوا به يصدق عليهم أنهم من أهل الإيمان وأنهم أولياء اللّه ، وقد ذكر فى قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾ [البقرة : ٢٥٧] . قسم الله الناس إلى قسمين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فكلهم الله وليهم فهم أولياء اللّه . ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ . أى : جميع الكفار وليهم الطاغوت والطواغيت هم الشياطين أولياؤهم الطاغوت . فهذا تقسيم يحصر الخلق ، ثم من المعلوم أن المؤمنين يتفاوتون فى الولاية ، فكل ما كان المؤمن أتم إيمانًا وأتم عملًا صالحًا كان أتم ولاية لله تعالى بمعنى : أنه صادق فى عقيدته وصادق فى أقواله وعمله مطابق للشريعة لا يترك شيئًا من الطاعات ولا يفعل شيئًا من المحرمات قلبه معلق بالملأ الأعلى دائمًا يذكر ربه ويشكره دائمًا لا يخرج عن عبوديته لربه قيد شعرة ملتزم بأحكام الشريعة ملتزم بالتوحيد يتبع النبى - ﷺ - فيما أمره به يعامل أهل الإسلام بالمعاملات الحسنة يتأدب بآداب الدين ، لا شك أن من كملت فيه هذه الخصال فقد حاز الولاية الخاصة فيكون من أولياء الله وأصفيائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قال الله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢] . ثم فسرهم بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٣] . هذا

وصفهم ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] . هذا وصفهم الحقيقى المطابق لقوله سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ .

فنقول : هنيئًا لك أيها المؤمن هنيئًا لك أيها المتقي أنك من أولياء الله أنك من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولكن الشأن فى الإيمان والشأن كل الشأن فى التقوى فإذا حقق الإيمان ودان لله بالديانة الصحيحة والتزم بالطاعة وصدق الله ورسوله وتقبل كل ما جاء عن النبى - ﷺ- صدق عليه أنه من أهل الإيمان ، وإذا خاف من عذاب الله وابتعد عن المحرمات وترك المعاصى صغيرها وكبيرها وحفظ لسانه وحفظ سمعه وبصره وقلبه وحفظ جوارحه وحفظ بطنه وفرجه وحفظ نفسه عن الشيطان وعن أوليائه وابتعد عن الشبهات صار من أهل التقوى فيكون من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فنقول له : أنت من أولياء الله أنت من خلاصة أولياء الله فى هذا الحديث يقول : « **من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب** » . فإذا قلنا أن المراد الولاية الخاصة فأولياء الله خبرته من خلقه أولياء الله صفوة العباد ، أولياء الله جهابذة الأمة أولياء الله هم الزهاد أولياء الله هم العباد أولياء الله هم الأتقياء ، وأهل الإيمان أولياء الله هم الذين حفظوا أنفسهم وحفظوا أديانهم فهؤلاء من عاداهم وآذاهم فإنه يكون حربًا للَّه ، ومن حاربه الله فلا بد أن يذله ومن حاربه الله فلا بد أن ينهزم .

« **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب** » . قيل فى بعض الروايات : « **من آذى أولياء الله فهو حرب للَّه ، أو عادى أولياء الله فهو حرب للَّه** » . من عاداهم يعنى : من جعلهم أعداء له من اتخذهم أعداءً نقول له : الله يتولاهم وأنت تعاديهم ، الله يحبهم وأنت تبغضهم الله يكرمهم وأنت تهينهم ، الله ينفعهم وأنت تضرهم ، ماذا يؤثر عملك معهم إذا كان الله يتولى نصرهم فإنك لا تقدر على أن توصل إليهم ضررًا وأذى ، فالله تعالى قد تولى أمرهم فهو الذى ينصرهم ويؤيدهم .

« **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب** » . أو بالمحاربة يحذر أحدنا أن يعادى

أولياء الله وبالأخص الأصفياء الزهاد العباد الأتقياء أهل الصلاح وأهل الاستقامة وأهل الخير إياك أن تعاديهم إياك أن تبغضهم أو تحقرهم فإنك بذلك تكون عدوًا لله والله تعالى يحارب من عادى أولياءه .

« **فقد آذنته بالحرب** » . قيل : إن المراد أنه يكون حربًا للَّه ، ومعلوم أنه ليس الحرب الذى هو القتال بالأسلحة ولكن الحرب بمعنى أنه يحارب الله بالمعاصى كما ذكر الله تعالى أن الذين يأكلون الربا يحاربون الله ورسوله ، فكذلك الذين يعادون أولياء الله قد حاربهم الله وقد حاربوه فهم مهزومون ، ولو ظهر منهم فى الدنيا شيء من الأذى أو تمكنوا من إيصال الضرر فإنهم لا يزالون حربًا لله تعالى ينتظرون إما أن يعجل الله لهم عقوبة فى الدنيا ، وإما أن يدخر عقوبتهم إلى الآخرة يمهلهم ويؤخرهم إلى اليوم الذى يجازون فيه بأعمالهم فيجازيهم على عداوة أولياء الله يقال : هذا جزاؤكم على عداوة المسلمين المؤمنين ، وهذا جزاؤكم على سيئاتكم وذنوبكم ، وهذا جزاؤكم على كفركم أو فسوقكم أو معصيتكم ، فلا يلزم أن تكون آثار محاربة الله تعالى تظهر فى الدنيا ، ولذلك ورد أن كثيرًا من الناس فى سابق الزمان آذوا أولياء الله ومع ذلك متعوا بما متعوا به من زهرة الدنيا ومتاعها وكانت نهايتهم إلى ما انتهى إليه أمرهم .

وبكل حال : فإن في هذا تحذير شديد عن أذى عباد الله الذين هم خيرته من خلقه ، وأذاهم إضرارهم ومعاداتهم ، مع أن الواجب موالاتهم ومحبتهم لأنهم أولياء اللَّه ، ويجب نصرهم وإيصال الخير إليهم وإيواؤهم وتقريبهم ونفعهم بقدر المستطاع حتى يكون محبهم بذلك من أولياء الله فإن من أحب أولياء الله فهو ولي لله ومن نصرهم نصره الله ومن آذاهم آذاه الله ومن نفعهم فهو أهل لنفع الله وضد ذلك بضده كما ذكرنا .

وبكل حال : هذا الحديث يتعلق أوله بأولياء الله تعالى وبأسباب الولاية .

ثم قال « **وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه** » .

التقرب : معناه العبادة التي يقرب بها العبد إلى ربه ، فالعبادات -فروضًا ونوافل- تسمى قربات ، وذلك لأن المعاصي تبعده من الله والطاعات تقربه من اللَّه ، فلذلك يقال : الصلاة تقرب والصدقة تقرب والصوم يقرب والحج يقرب والعمرة تقرب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقرب والجهاد في سبيل الله يقرب وذكر الله يقرب وصلة الرحم وبر الوالدين وحسن الجوار والدعوة إلى الله والنصيحة للمسلمين وبذل السلام وما أشبه ذلك إذا احتسبها العبد فإنها قربات يقول : « **وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه** » . أي : ما عمل طاعة وقربة أحب إلى الله تعالى من الفرائض فهي عظيمة تفوق الوصف .

الفرائض التي فرضتها الله تعالى هي حتم على العباد ومع ذلك فإن فيها أجر وفيها ثواب كثير ، وقد وردت به الأحاديث والأدلة الظاهرة ، فلذلك كانت محبوبة عند الله تعالى ، فإذا حافظ العبد على الصلوات الخمس وكمل سننها وكمل أركانها وواجباتها وصفتها قيل : هذا تقرب إلى الله بما يحبه ، هذا تقرب إلى الله بالفريضة التي يحبها الله تعالى والتي ندب إليها وأمر بها ، وألزم بها وإذا تقرب العبد بالزكاة المفروضة وأخرجها طوعًا واختيارًا طائعًا لله تعالى وممتثلًا أمره صدق عليه أنه تقرب إلى الله بما افترضه عليه ، وإذا تقرب إلى الله بالصوم فكذلك أى صوم رمضان ، وإذا تقرب بأداء الحج الواجب أو العمرة المفروضة قيل : هذا تقرب إلى الله تعالى بما فرضه عليه فيكون قد تقرب بما هو أحب إلى الله تعالى ، وكذلك بقية الفروض التى أوجبها الله تعالى ، وكذا إذا تقرب بالكفارات الواجبة أو تقرب بالنذور الواجبة التى ألزم بها نفسه ، أو تقرب بالأذكار الواجبة فى العبادات وما أشبهها ، أو تقرب إلى الله بالجهاد الواجب ، وإذا وجب أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر عند وجوبه عليه ، أو ما أشبه ذلك فإن ذلك كله يعد مما يحبه الله يقول : « **وما تقرب إلى عبدي بشيء**

أحب إلى مما افترضته عليه » . معروف أن مما فرض الله تعالى أركان الإسلام الخمسة : الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وكذلك الجهاد عندما يكون واجبًا ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندما يكون واجبًا وفرضًا ، وكذلك أيضًا الدعوة إلى الله والنصيحة للمسلمين وأداء الحقوق المالية التى تجب على المسلم لإخوته والنفقات الواجبة التى تجب عليه كل هذه ونحوها تعد مما افترضه الله تعالى فإذا تقرب بها فإن الله تعالى يثيبه على فعلها ويعاقب على تركها بمعنى أن الذى يفعلها محتسبًا يؤجر على ذلك أجرًا كبيرًا كما تدل على ذلك الأحاديث ، فقد ورد فى الحديث أنه - ﷺ- قال لأصحابه : « **لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟** » . قالوا : لا . قال : « **فكذلك الصلوات الخمس يمحوا الله بهن الخطايا** »[(١)] . دليل على فضل هذه الصلوات المفروضة ، مع كونها فريضة وكذلك قوله ﷺ : « **الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** »[(٢)] . وكذلك ما ورد فى فضل الحج : « **الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة** »[(٣)] . هذا دليل على فضلها مع أنها فرائض ومع ذلك فقد ورد الوعيد الشديد على تركها فى مثل قوله : « **من ترك صلاة العصر حبط عمله** »[(٤)] . ومثل

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم فى « صحيحه » كتاب الطهارة : باب الصلوات الخمس ... (١٦) (٢٠٩/١) من طريق أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

(٣) أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب العمرة : باب العمرة (١٧٧٣) (٦٩٨/٣ - فتح) ، ومسلم فى « صحيحه » كتاب الحج : باب فى فضل الحج والعمرة ... (٤٣٧) -كلاهما - من طريق أبى صالح السمان عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

(٤) أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب مواقيت الصلاة : باب من ترك العصر (٥٥٣) (٣٩/٢) من طريق يحيى بن أبى كثير عن أبى قلابة عن أبى مليح قال : كنا مع بريدة بن الحصين رضى الله عنه ، فذكره .

الحديث الذى فيه : «من أفطر يومًا من رمضان بغير عذر لم يقضه عنه صيام الدهر وإن صامه»[١]. ومثل الأحاديث التى فيها إثم مانع الزكاة وأنه يمثل له ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه وأنه (يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) [٢]. هذا فى حق من لم يؤد الزكاة فيقال : أداء الفرائض فيه أجر ومنعها بخلا فيه وزر ، فأداءها فيه ثواب وتركها فيه عقاب .

أما قوله : «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» . فالنوافل هى الزيادة على الفرائض ، وذلك لأن الفرائض التى فرضها الله قد شرع لعباده أن يتقربوا

---

(١) يشير إلى حديث أبى هريرة -رضى الله عنه - الذى أخرجه أبوداود فى «سننه» كتاب الصوم : باب التغليظ فى من أفطر عمدًا (٢٣٩٦، ٢٣٩٧) (٣٢٦/٢)، والنسائى فى «الكبرى» (٣٢٨١: ٣٢٨٣) (٢٤٥/٢)، والدارمى فى «سننه» (١١/٢)، وأحمد فى «مسنده» (٣٨٦/٢، ٤٥٨، ٤٧٠)، والطيالسى فى «مسنده» (٢٥٤٠) (ص ٣٣١)، وإسحاق بن راهويه فى «مسنده» (٣٦٧) (٣٦١/١)، وابن خزيمه فى «صحيحه» (١٩٨٧) (٢٣٨/٣)، والبيهقى فى «الكبرى» (٢٢٨/٤) -كلهم - من طريق حبيب بن أبى ثابت عن عمارة بن عمير عن ابن المطوس أبى المطوس عن أبيه عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

وضعفه الألبانى فى «ضعيف أبى داود» .

وأخرجه الترمذى فى «سننه» كتاب الصوم : باب الإفطار متعمدًا (٧٢٣) (٩٢/٣)، والنسائى فى «الكبرى» (٣٢٧٨، ٣٢٧٩) (٢٤٤/٢)، (٣٢٨٠) (٢٤٥/٢)، وابن ماجه فى «سننه» كتاب الصوم : باب ما جاء فى كفارة من أفطر يومًا فى رمضان (١٦٧٢) (٥٣٥/١)، والدارمى فى «سننه» (١١/٢)، وأحمد فى «مسنده» (٢٧٣، ٢٧٤) (٢٩٦/١)، (٢٧٥) (٢٩٧/١)، والدارقطنى فى «سننه» (٢٩) (٢١١/٢) -كلهم - من طريق سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن ابن المطوس -ولم يذكر إسحاق بن راهويه فى طريقه - عن أبيه عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

وأخرجه الدارقطنى فى «سننه» (٣١) (٢١١/٢) من طريق آخر عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

(٢) أخرجه البخارى فى «صحيحه» كتاب الزكاة : باب إثم مانع الزكاة (١٤٠٣) (٣١٥/٣) من طريق أبى صالح عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

بقربات زائدة عليها من جنسها وتسمى نوافل وتسمى مستحبات وتطوعات الصلاة فمثلًا المكتوبة خمس صلوات مجموعها سبع عشرة ركعة ، ولكن أحب الله تعالى من عباده أن يزيدوا وأن يتقربوا بالنوافل فمن ذلك الرواتب اثنتا عشرة ركعة أربع قبل الظهر وركعتان بعدها وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء وركعتان قبل الفجر تسمى الرواتب يعنى : النوافل المرتبطة قبل الصلوات أو بعدها ، ويستحب أيضًا الزيادة على ذلك فقد ورد فضل من صلى أربعًا قبل العصر بحديث : « **رحم الله امرءًا صلى أربعًا قبل العصر** »(١).

كذلك ندب النبى - ﷺ- إلى أربع بعد الظهر وندب إلى ركعتين قبل المغرب ، وكذلك حافظ على صلاة الوتر إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة يعمر بها جزءًا كبيرًا من الليل يصليها فى خمس ساعات أو فى ست ساعات ، وندب الله تعالى إلى قيام الليل ومدح أهله بقوله : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات : ١٧] . يعنى : ينامون وبقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان : ٦٤] . وكذلك أيضًا ورد الترغيب فى صلاة الضحى ، فقد حث عليها النبى - ﷺ- وأوصى بها كثيرًا من أصحابة وجعلها مكفرة للخطايا فهذا دليل على فضل جنس الصلوات والتقرب بها إلى الله تعالى ، فمن واظب عليها كان قد

(١) يشير إلى حديث ابن عمر -رضى الله عنهما - الذى أخرجه أبوداود فى « سننه » كتاب الصلاة : باب الصلاة قبل العصر (١٢٧١) (٢/٢٣) ، والترمذى فى « سننه » كتاب الصلاة : باب ما جاء فى الأربع قبل العصر (٤٣٠) (٢/٢٩٥-٢٩٦) وقال : (غريب حسن) ، وأحمد فى « مسنده » (٢/ ١١٧) ، والطيالسي فى « مسنده » (١٩٣٦) (ص ٢٦٢) ، وابن خزيمة فى « صحيحه » (١١٩٣) (٢/٢٠٦) ، وأبويعلى فى « مسنده » (٥٧٤٨) (١٠/١٢٠) ، وابن حبان فى « صحيحه » (٢٤٥٣) (٦/٢٠٦) ، والبيهقى فى « الكبرى » (٢/٤٧٣) -كلهم - من طريق أبى داود عن محمد بن مسلم عن مهران عن جده عن ابن عمر -رضى الله عنهما - به .
وحسنه الألبانى فى « صحيح الترمذى وأبى داود » ، وحسن إسناده الأرناؤوط فى « هامش ابن حبان » .

أتى بما يحبه اللّه ، وكذلك جنس الزكوات والصدقات إذا أكثر من الصدقات والتطوعات والبر على المسلمين بأن تطوع بصدقات فى أوقات الحاجة وبصدقات على المستضعفين زائدة على الفرائض التى هى الزكاة كان ذلك أيضًا من جملة ما يحبه اللّه ، وكذلك أيضًا إذا تطوع بالصيام بأن يصوم يومًا ويفطر يومًا كصيام داود أو تطوع بصيام الأيام الفاضلة كيوم عرفة أو التسعة أيام من أول ذى الحجة أو اليوم العاشر من شهر محرم أو اليوم التاسع منه أو ما تيسر من هذا الشهر كان فى ذلك أيضًا أجر كبير ، وقد كان النبى - ﷺ - يحث على كثرة الصيام فيرغب في صيام ثلاثة أيام من كل شهر ويرغب فى صوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وكذلك أيضًا ثبت عنه فضل صوم يوم عرفة وأنه يكفر سنتين[(١)]، وفضل صوم يوم عاشوراء ورد أنه - ﷺ - قال : « **صوم يوم عاشوراء أحتسب أن يكفر السنة التى قبله** »[(٢)]. ورغب أيضًا فى صيام يوم قبله ويوم بعده وقال : « **صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده** »[(٣)]. فجنس الصيام مما يحبه الله فإذا تقرب العبد بجنس الصوم كصوم يوم عاشوراء أو غيره من الأيام كان بذلك قد تقرب إلى الله تعالى بما يحبه ، وكذلك إذا تقرب بنسك الحج أو بنسك العمرة أو بالطواف بالبيت طوافًا زائدًا على ما فرض تبع

---

(١) يشير إلى حديث أبى قتادة الذى أخرجه مسلم فى « صحيحه » كتاب الصيام : باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ... (١٩٦ : ١٩٨) (٢/٨١٨-٨١٩) عن أبى قتادة : أن رسول الله - ﷺ - سئل عن صوم يوم عرفة ؟ فقال : « كفارة سنتين » ، وسئل عن صوم يوم عاشوراء ؟ فقال : يكفر السنة التى قبله .

(٢) انظر التعليق الذى قبله .

(٣) يشير إلى حديث ابن عباس -رضى الله عنهما - الذى أخرجه أحمد فى « مسنده » (١/٢٤١) ، وفى « فضائل الصحابة » (١٩٥١) (٢/٩٨٥) ، والحميدى فى « مسنده » (٤٨٥) (١/٢٢٧) ، وابن خزيمة فى « صحيحه » (٢٠٩٥) (٣/٢٩٠) ، والبيهقى فى « الكبرى » (٤/٢٨٧) - كلهم - من طريق ابن أبى ليلى عن داود بن على عن أبيه عن ابن عباس -رضى الله عنهما - مرفوعًا : « صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا فيه اليهود ، وصوموا قبله يومًا أو بعده يومًا » .

الأنساك ، أو تقرب إلى الله بالجهاد فى سبيل الله بنفسه أو بماله ، أو تقرب بذكر الله تعالى بكرة وعشيًا ، أو فى كل الأوقات . أو تقرب بدعاء الله تعالى وتقرب بالتواضع لله والخشوع له والاستكانة بين يديه ، أو تقرب بنفع المسلمين فيما يحبه الله تعالى وفيما ينفعهم أو بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولو لم يكن فريضة عليه أو ما أشبه ذلك من القربات صدق عليه أنه تقرب إلى الله تعالى بما يحبه وهكذا أيضًا التقرب بترك المحرمات يثاب عليه المسلم وذلك لأن النفوس قد تدفع الإنسان إلى فعل المعصية فإذا قوى على نفسه وأمسك بزمامها وعصى الهوى أثابه الله تعالى على ذلك وجعل ذلك قربة وطاعة فيقول فى هذا الحديث : « **ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه** » . يعنى أن كثرة تقرباته بهذه التطوعات تكون سببًا فى حصول محبة الله تعالى له .

ومعلوم أنه لا يتقرب بها إلا وهو يحب هذه العبادات ، فإذا سألته لماذا تكثر من هذه الصلوات أو الصدقات يقول : أحب الله وأحب ما يحبه الله أو يقول : أحب هذه العبادة أجد لها لذة فى نفسى أحب أن أصلى زائدًا على الفريضة أحب أن أصوم أحب أن أتصدق أحب ذكر الله تعالى أحب دعاءه والتواضع له أحب أن أكون من الخاشعين الخاضعين لله دائمًا ففعله وكثرة تقربه بذلك دليل على أنه يحب اللَّه ، ولا شك أن من أحب الله تعالى أحبه الله فجعل الله كثرة النوافل سببًا لمحبة الله للعبد ولا شك أنها خصلة عظيمة فضيلة كبيرة وهى كونك من أحباب الله وكونك ممن يحبون الله ويحبهم اللَّه .

والله تعالى مدح الذين يقاتلون المرتدين بقوله تعالى : ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤] . بدأ بأنه يحبهم ومن آثار محبته أن أعانهم وأن وفقهم وسددهم فتقربوا إلى الله تعالى بما يحبه .

فالحاصل : أن من تقرب إلى الله بالنوافل وبالتطوعات حصلت له خصلة كبيرة

وهي أن يكون من أحباب الله فيقال : هنيئًا لك أيها المسلم أن الله تعالى يحبك أنك من أحباب الله تعالى .

يقول فى هذا الحديث : « **فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها** » . ففى بعض الروايات : « **فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي** » . والمعنى : أن الله تعالى يحفظه فلا يسمع إلا ما يحبه الله فلا يستمع إلى الحرام لا يستمع إلا إلى الطاعات لا يسمع إلا إلى الخيرات يحفظه الله ويصون سمعه فلا يستمع غيبة ولا يستمع نميمة ولا يستمع أغنية ولا يستمع كلامًا باطلًا ولا يستمع استهزاء ، بل يحفظ لسانه ويحفظ سمعه ويحفظ بصره فلا ينظر إلا إلى ما يعتبر به لا ينظر إلا إلى الطاعة نظرًا إلى ما ينفعه وما يفيده ولا يبطش بيده ولا يعمل بيده إلا طاعة محبوبة ولا يمشى برجليه إلا ما هو طاعة أو ما هو مباح أو مفيد هذا معنى قوله : « فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي » .

يقول : « **ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه** » . وهذا أيضًا من الفضل أن الله تعالى يعطيه إذا سأله سؤله ويجيبه وذلك لأنه عد من أصفياء الله وعد من خلاصة خلقه حيث إن الله تعالى أحبه وسدده فى كل حالاته ، كذلك أيضًا يعيذه فإذا استعاذ بالله تعالى أعاذه اللَّه .

تمام الحديث فى البخاري يقول : « **ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه** » . معلوم أن الله تعالى قدر الآجال ولكن المؤمن حتى ولو كان من أوليائه وأصفيائه يكره الموت ومع ذلك فإن الله يكره له ما يكره ، ولكن لما كان لا بد من الموت فإن المؤمن الذى هذه صفته يهون الله تعالى عليه الموت فيموت فى غاية من السهولة كما ورد فى حديث البراء أنه تنزع روحه كما تسل الشعرة من العجين .

فالحاصل : أن فى هذا فضل عبد الله الذى هذه صفته ، وما عليك إلا أن تتصف بهذه الصفات تتقرب إلى الله تعالى أولًا : بالفرائض ، ثم بعد ذلك تتقرب إليه بالنوافل وتكثر من الطاعات التى يحبها الله تعالى وتتقرب إليه ، بترك المحرمات وبترك الملهيات وبترك كثير من المشغلات التى تحول بينك وبين الطاعات أو تثقل عليك العبادات .

* * *

الحديث التاسع والثلاثون

التجاوز عن المخطئ والناسى والمكره

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي اللهُ عنهما - : أن رَسُوَل اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الله تَجاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتي : الْخطَأَ ، والنِّسْيانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ** » . حَديثٌ حَسَنٌ رَواه ابنُ ماجَه وَالبَيْهَقِيُّ وَغَيرُهُمَا(1) .

شرح الحديث :

هذا من الأحاديث الجامعة المفيدة التى فيها رحمة الله تعالى بعباده وعدم تكليفهم ما لا يطيقون .

فقد أخبر النبى - ﷺ- بأن الله تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان والإكراه وفى رواية : « **عفي لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** » . وفى حديث آخر : « **إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم** » (2). وقد

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطلاق : باب طلاق المكره والناسى (٢٠٤٥) ، وابن حبان فى « صحيحه » (٧٢١٩) (٢٠٢/١٦ - إحسان) ، والحاكم فى « المستدرك » (٢١٦/٢) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى « الكبرى » (٦٠/١٠) ، والطبرانى فى « الصغير » (٧٦٥) ، (٥٢/٢) -كلهم - من طريق الأوزاعى عن عطاء بن أبى رباح عن عبيد بن عمير -ولم يذكره ابن ماجه - عن ابن عباس -رضى الله عنه - مرفوعًا بلفظ : « إن الله وضع عن أمتى ...» وصححه الألبانى فى « صحيح ابن ماجه » وصححه الأرناؤوط على شرط البخارى فى « هامش ابن حبان » .

(٢) أخرجه البخارى فى الطلاق : باب الطلاق فى الإغلاق والكره ... (٥٢٦٩) (٣٠٠/٩ - فتح) ، وأنظر أطرافه (٢٥٢٨) ، ومسلم فى كتاب الإيمان : باب تجاوز الله عن حديث النفس ... (١٢٧) (١١٦/١-١١٧) من طريق قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

روى مسلم فى « صحيحه » . لما نزل قوله الله تعالى : ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] . شق ذلك على الصحابة وقالوا : يا رسول الله إذا كنا محاسبين على ما نخفيه وعلى ما نتحدث به فى أنفسنا فإننا سنهلك ، أو قالوا : هذه الآية لا نطيقها . فقال لهم النبى ﷺ : « **أتريدون أن تقولوا كما قالت بنوا إسرائيل سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا** » . فعند ذلك قالوا : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) . فنزلت الآية التى بعدها وفيها قول الله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال اللّه : « **نعم** » ، وفي رواية قال : « **قد فعلت** »(١) .

أى : لا تؤاخذنا إن نسينا ولا تعذبنا إن أخطأنا وذلك لأن الخطأ الذى هو غير متعمد معفو عنه لأن الإنسان لا يؤاخذ إلا على ما تعمده وعلى ما تجرأ على فعله عن عمد ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] . إذا أخطأ الإنسان فى كلمة فإنه يعفى عنه ، فأما إذا قال كلمة كفر أو نحوها متعمدًا فإنه لا يعفى عنه فقد ذكر النبى ﷺ قصة غير واقعية ولكن لو وقعت عفى عنه وهى قوله : « **الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته عليها طعامه وشرابه فانفلتت منه فنام تحت شجرة ينتظر الموت فلما رفع رأسه وإذا راحلته على رأسه فقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح** »(٢) . فلو كانت هذه الكلمة متعمدة لكانت

---

(١) فى كتاب الإيمان : باب بيان قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (١٢٥) ، (١/١١٥) من حديث أبى هريرة –رضى الله عنه – قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال : فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ....» الحديث .

(٢)البخارى فى « صحيحه » فى الدعوات : باب التوبة (٦٣٠٩) (١١/١٠٥-١٠٦ – فتح) ، ومسلم فى « صحيحه » كتاب التوبة : باب الحض على التوبة (٢٧٤٧) ، (٤/٢١٠٤) من حديث أنس – رضى الله عنه – به .

كفرًا لأن العبد عبد فكيف يدعى أنه ربه (اللهم أنت عبدى وأنا ربك) هذه كلمة كفر ولكن من شدة الفرح وقعت منه هذه الكلمة الخاطئة ، فكذلك الإنسان إذا زل لسانه بكلمة لم يقصدها فإن الله تعالى يعفو عنه ، وكذلك أيضًا يجب على الإنسان أن يعفو عن إخوانه إذا أخطئوا ولم يتعمدوا ، فإذا تكلم إنسان فى أخيه ولكن لم يكن متعمدًا أو كان كلاما منقولًا فإن عليه أن يعفو عنه وألا يؤاخذه بما حدث به نفسه وبما أخطأ فيه وبما تكلم فيه بدون قصد وبدون تعمد ، إذا كان الله تعالى يغفر الخطأ الذى لم يتعمد فكذلك المسلم يعفو عن خطأ إخوانه .

قد يقول قائل : إن الذنوب تسمى خطايا فى قول الله تعالى : ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة : ٥٨] . ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف : ١٦١] . مع وعده أنه يغفرها بعد التوبة ومع ذلك سماها خطايا ، وقال ﷺ : « **كل بنى آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون** »[(١)] .

الخطاء : هو الذى تقع منه خطايا ويراد بها الذنوب فالذنوب تسمى خطايا لماذا سميت ؟ لأن الذى يفعلها يقال له قد أخطأ الصواب يعنى قد فعل ما هو خطأ فى حق الله تعالى حيث إنه فعل الذنب الذى يعد فيه مخطئا ما يجب عليه ولو كان متعمدًا فيسمى هذا خطأ وخطايا ومع ذلك فإنه يلام على ذلك وإذا كان الخطأ هنا هو الذى يفعله عن غير قصد فيما بينه وبين الله تعالى كأن تكلم من غير تعمد بكلمة كفر أو نحوها أو استهزأ بشىء غير متعمد وذلك الاستهزاء قد يكون . كفرًا ولكن لم يكن

---

(١) أخرجه الترمذى فى « سننه » فى كتاب صفة القيامة : باب (٢٤٩٩) ، (٤/٦٥٩) ، وقال : غريب ، وابن ماجه فى « سننه » فى الزهد : ذكر التوبة (٤٢٥١) ، (٢/١٤٢٠) ، والدارمى (٢/٣٠٣) ، وعبد بن حميد فى « مسنده » (١١٩٧) ، (ص ٣٦٠) ، وأحمد فى « مسنده » مطولًا (٣/١٩٨) ، والحاكم (٤/٢٧٢) ، وصححه وتعقبه الذهبى ، وأبويعلى فى « مسنده » (٢٩٢٢) ، (٥/٣٠١) من طريق على بن مسعدة الباهلى عن قتادة عن أنس رضى الله عنه ، وحسنه الألبانى فى « صحيح الترمذى » ، و« صحيح ابن ماجه » .

متعمدًا يعني غير عارف بالحكم كذلك أيضًا الأفعال إذا فعل فعلًا وهو يعتقد أنه صواب فكان خطأ فإنه لا يلام عليه إلا في حق الآدميين ؛ وذلك لأن حقوق الآدميين مبنية على المضايقة والمشاقة وقد يلحق بذلك حق الله تعالى للاحتراز قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ إلى قوله : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٩٢] .

فهذا غير متعمد يعنى قتل الخطأ كحوادث السيارات ونحوها تسمى خطأ غالبًا ومع ذلك فإنه أمر أن يكفر بعتق رقبة أو بصيام شهرين إن لم يجد وأن يدفع الدية ويسلمها إلى أهلها مخافة أن يتساهل الناس في أسباب القتل فيكثر منهم التهور والتسرع والتفريط والإهمال ولا يتحفظون ولا يتثبتون فجعل هذا الخطأ فيه كفارة وفيه دية وذلك لئلا يتساهل الناس ولئلا يدعي كل من أتلف شيئًا أنه مخطئ وأنه غير متعمد ولو قامت القرائن على خطئه ، فمن باب الاحتياط لحقوق الآدميين لابد من الضمان ، أما في حقوق الله تعالى فإنها مبنية على المسامحة والمساهلة فلذلك لا يؤاخذ الناسي ولا يؤاخذ المخطيء فإذا أخطأ في جهة القبلة وصلى إلى غيرها ولم يكن عنده من يسأله غفر له هذا الخطأ ، كذلك إذا أخطأ في وقت الصلاة بأن اجتهد فأخطأ بأن قدم أو أخر فإنه معذور ، ولكن إذا علم خطأه بأنه صلى قبل الوقت أعاد كذلك أيضًا إذا اجتهد وأخطأ في القراءة مثلًا فهو معذور وهكذا الخطأ في عدد الركعات يجبر بسجود سهو ولا تبطل أو الخطأ في التأخير إذا أخطأ فنسي الوقت ولم يتذكر إلا بعد خروج الوقت فهو معذور ، وهكذا حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة فقد ورد في الحديث أنه ﷺ قال : « **من نسى وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه** »(١).

---

(١) أخرجه البخارى فى « صحيحه » فى كتاب الصوم : باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيًا =

هذا إذا كان صائمًا ولو فى نهار رمضان ثم مع ذلك نسى فأكل أو شرب غير متعمد فيعفى عن ذلك ، وكذلك أيضًا النسيان فى مشاعر الحج أو العمرة يعفى عن الناسي وعن الخاطئ غير المتعمد فلا إثم ولا فدية عليه فى فعل بعض المحظورات فهذا كله يبين أن الله تعالى يعفو عن عباده فيما أخطأوا فيه وفيما لم يتعمدوا وكذا فى النسيان : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ .

والنسيان يعم نسيان شيء من حقوق الله تعالى ، فيعد معذورًا كنسيان واجب فى الصلاة كالتسبيح فى الركوع والسجود أو التكبير فى الصلاة يعنى : تكبيرة التنقل أو الدعاء بين السجدتين أو بعد الرفع من الركوع فى الصلاة ، فإذا تذكر بعد ذلك سجد للسهو ولم تبطل صلاته ، وكذا إذا نسي شيئًا من حق الله تعالى فهو معذور وإن كان مأمورًا بأن يقضيه متى تذكره فإذا نسي سنة أو راتبة أو نسي الوتر وتذكر فقضاه فإن ذلك يكتب له أجره ، أما الإكراه فقد قال الله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل : ١٠٦] .

فالإكراه إجبار على فعل بغير اختبار ، فإذا أجبر وأكره على شيء فإنه لا يؤاخذ على ما أكره عليه حتى ولو أكره على السجود لصنم ، أو أكره على النطق بكلمة الكفر ، أو بكلمة شركية ، أو أكره على شرب خمر ، أو أكره على الصلاة لغير القبلة كأن أجبر بأن يصلى جهة الشرق فى نجد ونحوها من البلاد وكان الذى أكرهه قد ألزمه وكان يخشى من سطوته ويعرف أنه إذا قال فعل فإنه يعد معذورًا ، وإذا أكره على إتلاف مال الغير فإن الغرم على المكره ، فإذا أكرهك إنسان على أن تذبح شاة فلان فهو الذى يدفع ثمنها أو أن تقلع نخلته أو شجرته فهو الذى يغرمها إذا كنت لا تستطيع أن تتخلص من الإكراه وكذلك إذا أكره على قتل معصوم كان القصاص

= (١٩٣٣) ، (٤/١٨٣-١٨٤ - فتح) وطرقه فى (٦٦٦٩) ، ومسلم فى كتاب الصيام : باب أكل الناسى وشربه (١١٧١) ، (٢/٨٠٩) من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

على المكره إذا كان ذلك المكره كالآلة لا يستطيع أن يتخلى ويقول إن لم تقتله قتلتك وكان عارفًا بأنه قادر فيقول كونه يقتل واحدًا أفضل وأخف من أن يقتل اثنين ظلمًا وهكذا بقية ما يتعلق بحقوق الآدميين.

أما حقوق الله تعالى فإن الله تعالى يعفو عنه إذا أكره على غير ما أمر به، وقد ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] عن بعض من المسلمين الذين أسرهم الروم وشددوا في العذاب عليهم ثم قالوا لرئيسهم: إنك إن لم تسجد لهذا السيد فإننا سوف نعاقبك امتنع أن يسجد لغير اللَّه، ثم جاءوا برجل من المسلمين وقتلوه وأحرقوه وهم ينظرون وقالوا: إن لم تفعلوا ما نأمركم فعلنا بكم مثل هذا وأحرقناكم فلم يجدوا بدًا من أن يطلبوا شيئًا أخف فقالوا: أعطونا شيئًا أخف من السجود لغير اللَّه. فقالوا: تقبل أيها الرئيس رأس هذا السيد عندهم فعند ذلك قام وقبله وشرط أن يفكوا أسرى المسلمين فقبل رأس رئيسهم الذى هو من قواد الروم المشركين وتخلص أولئك السجناء حتى وصلوا إلى المدينة فعند ذلك قال عمر رضى الله عنه: من كان له حق علينا فليقبل رأس هذا المسلم الذى تخلص وخلص المسلمين(١).

ولا يعد هذا تعظيمًا إنما يعد هذا إكراهًا وسببًا فى تخليص المسلمين.

❁ ❁ ❁

(١) ذكر هذه القصة: المزي فى «تهذيب الكمال» (٣٢٢٣)، (٤١١/١٤) باختصار، وعزاه ابن كثير فى «تفسيره» (سورة النحل: آية ١٠٦) لابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة -رضى الله عنه- وذكر ابن سعد فى «الطبقات» (١٨٩/٤)، وابن حبان «الثقات» (٧١٤)، (٣/ ٢١٦): «أن الروم أسرته فكتب فيه عمر إلى قطسطنطين صاحب الروم، فخلى عنه».

الحديث الأربعون
الدنيا وسيلة ومزرعة للآخرة

عن ابنِ عُمَرَ - رضي اللهُ عنهما - قال : أَخَذَ رسُول اللهِ ﷺ بِمَنْكِبَيَّ فقال : « كُنْ في الدُّنْيا كأنَّكَ غَرِيبٌ ، أو عابرُ سبِيل » .

وكانَ ابنُ عُمَرَ - رضي اللهُ عنهما - يقولُ : إذا أمْسَيْتَ فلا تَنْتظرِ الصبَّاح ، وإذا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاء ، وخُذْ مِنْ صحَّتِك لِمَرضِك ، ومِنْ حَياتِك لِمَوْتِكَ . رَواهُ البُخاري(١) .

شرح الحديث :

هذه وصيته ﷺ لابن عمر ومعنى ذلك أن يهتم بأمر الآخرة ويجتهد فى العمل للآخرة وأن يجعل الدنيا ممرًا ومعبرًا إلى الدار الآخرة وأن يقتصر منها على ما يبلغه وعلى المتاع الذى يتمتع به بحيث لا ينشغل بشهواته وبلهوه وسهوه عما خلق له من العمل الصالح .

لا شك أن الله تعالى خلق هذه الحياة الدنيا وما فيها لحكمة عظيمة ومن ذلك أن فيها عبرة وموعظة يعنى : فى هذه الدنيا ما سخره لنا من الحيوانات التى ننتفع بها نأكل منها ونركب ونلبس ونشرب من ألبانها وننتفع بها ، فهى مسخرة للإنسان كما فى قوله تعالى : ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس : ٤٢] . بعد قوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى « صحيحه » فى كتاب الرقاق : باب قول النبى ﷺ كن فى الدنيا ... الخ (٦٤١٦) (١١/٢٣٧-فتح) من طريق مجاهد عن ابن عمر -رضى الله عنه - به .

وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١- ٧٢] .

وكذلك أيضا سخر الأرض قال تعالى :﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ٤٥] .

وقال تعالى :﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٢] .

فهذه من الدنيا التى خلقها الله تعالى للإنسان ، وكذلك أيضًا خلق له ما على وجه الأرض فالنبات الذى ينبته إما أن يغرسه فى الأرض ثم ينبت بإذن الله وإما أن ينبته الله تعالى بما ينزله من ماء السماء لمصلحة الإنسان ، وهكذا أيضًا ما سخر له من الأعمال والحرف والصناعات التى علمها : ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] .

لا شك أن هذا كله مما امتن الله تعالى به على جنس الإنسان فليس له أن يترك متاع الدنيا كلها وينقطع عنها انقطاعًا كليًا فإن هذا يخالف ما خلق الله له يقول الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] . ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ أى : خلقه لكم ، وكذلك الآيات التى فيها أنه سخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض يعنى هيأه وذلله وأظهره ومكن نوع الإنسان منه ولكن لا ينشغل بذلك عما وراءه فإنه أمر بأن يعتبر بما بين يديه وما خلفه يعنى : يأخذ عبرة وموعظة من هذه المخلوقات التى أوجدها الله تعالى وسخرها وثانيا أنه يأخذ منها ما تتم به حياته ، فإنه لا يتم بقاء الإنسان فى الدنيا إلا بما يحتاج إليه فهو بحاجة إلى غذاء ينمو به جسده ولو تركه لهلك ، وكذلك الدواب ذوات الأرواح ، وكذلك بحاجة إلى كسوة يستتر بها ويستر بها جسده ويتقي بها الحر والبرد ونحو ذلك ، وكذلك بحاجة إلى كن يكتن به ويستظل به من حر الشمس وما أشبه ذلك ، وكذا بحاجة إلى ما يتمتع به من أدوات وما تتم بها حياته ولكن كل ذلك متاع كما في قوله تعالى : ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧] . متاع فى الدنيا أى : كل ما خلق على هذه الأرض من هذا المال

ومن هذا النبات ونحوه فإنه يعد متاعًا يتمتع به يأخذ منه بقدر حاجته ، فأما إذا انشغل به وأكب عليه وجعله هجيراه وديدنه ونسي ما أمامه ونسي ما هو مقبل عليه من الآخرة ولم يتذكر الوعد والوعيد والأمر والنهى ولم يتعلم شيئًا مما أمر به فإنه والحال هذه يعد عبد هذه الحياة ، أى : قد عبدها وجعلها هى معبوده وحده ، ولذلك كان ﷺ يرغب أصحابه فى أن يجعلوا تنافسهم فى الدار الآخرة ويقول الله تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] . فيأمرهم بأن يكون منافستهم فيما يقربهم من الله تعالى فى الدار الآخرة وأن لا يكون تنافسهم فى الدنيا بل يأخذون منها ما يتمتعون به ، ولذلك ذكر النووى فى أول كتابه « رياض الصالحين » . قول الشاعر :

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحىّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

هكذا ذكرها يعنى : أن هؤلاء الفطناء هم الذين جعلوا الدنيا مثل البحر عبروها وجعلوا الأعمال الصالحة مثل السفن التى تقطع البحر من جانب إلى جانب ، فالأعمال الصالحة يقطعون بها هذه الحياة الدنيا ولا ينهمكون فى لهوها وشهواتها فنقول : إن المذموم من الدنيا هو ما يشغل عن الآخرة أما إذا كان الإنسان لا ينشغل بعمله الدنيوى عن الأعمال الأخروية فإن ذلك ليس بمذموم إذا طلب الرزق الحلال واكتسب ما يقوت به نفسه ومن تحت يده وعمل لآخرته واهتم بالأعمال الصالحة التى تقربه إلى الله تعالى ، فإنه والحال هذه لا يقال إنه مذموم بل إنه ممدوح حيث إنه اهتم بما يعينه فى حياته الدنيا ولم ينشغل به عن الحياة الأخرى ، لا شك أن التقليل من الدنيا والرضى منها بالقليل الذى يكون متاعًا هو الأولى ، وقد كثر الكلام حول ما يتعلق بالزهد والنهي عن الانشغال فى الدنيا وجمع متاعها وكثر الذم للذين ينهمكون

فيها وينشغلون بها نظمًا ونثرًا فيقول بعضهم :

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من سفكي وفتكي
فلا يغرركمو طول ابتسامي فقولي مضحك والفعل مبكي

يمثلون تغير هذه الدنيا وأن الإنسان يكون فيها قوي البنية وتركيب الأعضاء ثم بعد ذلك ينهمك وتتغير بنيته وتتغير حالته إلى أن يصير جلدًا على عظام ، لا شك أن هذا من تغير الدنيا ، وكذا أيضًا كونه إنسانًا ثريًا عنده من الأموال ما الله به عليم ثم بعد مدة يصاب بإفلاس فينقلب إلى أنه بدل الغنى صار من أفقر الناس وأقلهم متاعًا أو ملكية ، لا شك أن هذا شأن الحياة الدنيا وهو علامة أنها دار غربة ، ففى هذا الحديث يقول ﷺ : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » .

الغريب : هو الذى نزل فى البلد البعيدة عن أهله وليس من أهلها إذا جاء الإنسان مثلًا من بلاد بعيدة إلى هذه البلاد لقضاء حاجة أو لزيارة أو ما أشبه ذلك سمى غريبًا ، أى : أنه مستغرب ليس من أهل البلد فهل يتخذ فيها قرارًا ؟ وهل يعمر فيها مساكن ؟ وهل يتخذ فيها تجارات ؟ إنها ليست بلاده وإنما يتمتع فيها أيامًا قليلة ثم يرجع وكذلك أيضًا عابر السبيل وهو المسافر الذى يسير من بلد إلى بلد معلوم أنه لا يستغرق عمره فى الطريق لو التجأ إلى ظل يستظل به أو نزل تحت شجرة وقت القيلولة ثم بعد ذلك ذهب وتركها كما ورد فى حديث أنه ﷺ قال : « **ما لى وللدنيا ، إنما أنا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها** »(١) .

فقد مثل هذه الحياة بإنسان مسافر مر على شجرة فى وقت القيلولة فنام تحتها أو

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذى فى « سننه » فى كتاب الزهد : باب (٤٤) ، (٢٣٧٧) ، (٥٨٨/٤) ، وقال : حسن صحيح ، وأبويعلى فى « مسنده » (٥٢٩٢) (١٩٥/٩) من طريق المسعودى عن عمرو -ووقع عند أبى يعلى : عمر - بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه - قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ....، وصححه الألبانى فى « صحيح الترمذى » .

جلس يستظل تحتها حتى إذا طاب ظلها وازداد ذهب وتركها ، وهكذا يمثل وعظ ابن عمر -رضى الله عنهما- بقوله : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء) . يؤكد على المسلم العاقل أنه فى كل ساعة ينتظر الموت يعمل عمل من يأتيه الموت فى يومه فإذا أصبح الصباح قدر أن هذا آخر أيامه وعمل فيه العمل الذى ينجيه فى الدار الآخرة فإذا جاء المساء فكذلك قدر أن هذا آخر أيامه وأن حياته يمكن أن تمضى وذلك لأنه لا يدرى ما الأجل ولا يعرف الغيب ولا يدرى متى يفاجئه الموت فالموت يأتى فجأة .

الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

ولذلك عليه أن يقدر فى كل ساعة أن هذه آخر عمره يقول بعض العلماء : ما فات من عمرك فقد فات عليك وما هو مستقبل لا تدرى ما الله فاعل فيه وليس لك إلا الساعة التى أنت فيها أي : اجتهد فى هذه الساعة التى أنت فيها فيمكن أنها آخر حياتك هذا معنى حث ابن عمر على أن يهتم به كل يوم بالعمل الذى يكون وسيلة وسببًا إلى نجاته عند الله تعالى يقول : (وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك) .

ورد أيضًا حديث أنه - ﷺ- قال : « **اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك** »(١) .

اغتنم خمسًا قبل خمس فإنها لا تدوم فالشباب الذى أنت فيه لا يدوم بل ينقلب

---

(١) أخرجه الحاكم فى « مسنده » (٤/٣٤١) ، (٧٨٤٦) من حديث ابن عباس -رضى الله عنهما- به مرفوعًا وصححه على شرطهما ووافقه الذهبى ، وأخرجه ابن المبارك فى « الزهد » (٢) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٧٢٩) ، (١/٤٢٥) من مرسل عمر وابن ميمون الأودى مرفوعًا به ، وصحح الحافظ فى « الفتح » إسناد الراوية المرسلة .

إلى هرم أنت تقدر فى الشباب على ما لا تقدر عليه بعد ذلك ، وتقدر إذا كنت غنيًا على ما لا تقدر عليه إذا كنت فقيرًا فما دمت غنيًّا فاعمل أى تصدق فأنفق بما ينفعك فى الدار الآخرة ، كذلك أيضًا الفراغ فقد تكون فارغًا في وقت من الأوقات ثم تتغير الحال فتشغل ، أى : يأتيك ما يشغلك إما بأمر الدين أو بأمر الدنيا ، وإما بفتن أو عذاب أو أذى أو مرض أو ما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا صحتك قبل سقمك اغتنم ما دمت صحيحًا فإذا كنت فى شبابك أو فى شيخوختك صحيح البنية صحيح البدن صحيح التركيب لا تحس بألم فاغتنم هذه الحالة فإنها لا تدوم .

فالحاصل : أن هذا حث من النبى - ﷺ- ومن ابن عمر -رضي الله عنهما- على أن يهتم الإنسان بأمر دينه وأن يجعل دنياه ممرًا لا مقرًا .

❁ ❁ ❁

الحديث الواحد والأربعون

علامة الإيمان

عن أبي محمَّدٍ عَبدِ الله بنِ عَمرو بْنِ الْعاص - رضي اللهُ عنهما - قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « **لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حتَّى يكُونَ هَواهُ تَبعًا لِمَا جِئْتُ به** » .

حديثٌ صَحِيح ، رُوِّيناهُ في « **كتاب الْحُجَّةِ** » بإسْنادٍ صحيحٍ[1] .

شرح الحديث :

يقول فى هذا الحديث : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به** » . يراد بالهوى : الميل الذى يدفع صاحبه إلى ما يميل إليه وإلى ما يحبه ، ويتبع ذلك الهوى المحبة التى يكون أيضًا من آثارها الاندفاع إلى المحبوب ، وذلك أن هناك من يمتثل الأوامر ولكن لا يكون فى قلبه محبة لها ، وكذلك أيضًا يتبع إنسانًا ولكن من غير محبة ومن غير طمأنينة فى القلب لذلك المحبوب فاشترط فى هذا أن يكون هواه تبعًا لما جاء به النبى - ﷺ- وقد دلت الأدلة على وجوب الإتباع للنبي - ﷺ- والتقبل لما جاء به ، وعدم رد شيء من سنته التى بلغها لأمته وأن من رد شيئًا من ذلك فإنه لم يقبل ما جاءه من الشرع فنذكر بعض الأمثلة فمنها آيات الاتباع

---

(١) أخرجه الخطيب فى « تاريخ بغداد » (٢٢٣٩) ، (٣٦٨/٤) ، والبغوي فى « شرح السنة » (١٠٤) من طريق نعيم بن حماد عن عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عقبة بن أوس عن عمرو بن العاص رضى الله عنه . قال الحافظ فى « الفتح » : أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات ، وقد صححه النووى فى آخر الأربعين ، وضعفه الألبانى فى « السنة » لابن أبى عاصم (١٢/١) وسمعته يقول : معناه صحيح وإسناده ضعيف .

قال الله تعالى : ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

أصل الاتباع أن يسير الإنسان على أثر آخر فيقال : فلان يتبع فلانًا أى : يسير على أثره ويتبع طريقته ، ثم أطلق على الاتباع بالأعمال وإن لم يكن سيرًا حسيًا يقال : هذا يتبع أبا حنيفة وهذا يتبع الشافعي وهذا يتبع الثوري وهذا يتبع الليث وما أشبه ذلك يعني : أنه يسير على مذهبه ويقلده ويتأسى بما يقوله فنقول : إتباع النبي - ﷺ- فى هذه الآيات هو التمسك بسيرته ومتابعة أفعاله التى فعلها على أنها قربة وطاعة وعلى أنها من الدين والشرع فتفعلها مثل ما يفعلها ، وهذا يلزمنا إذا كنا نعرف أنها من شرعه ومن دينه ، وكذلك ورد الأمر بالمحبة أى أن محبة النبى - ﷺ- تابعة لمحبة ربه ولذلك استدل عليها بقول الله تعالى : ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [التوبة : ٢٤] . فهذا وعيد لمن قدم محبة هذه الأمور على محبة الله ومحبة رسوله ومحبة الجهاد فى سبيل الله والعمل له ، ودل على ذلك أيضًا قول النبى ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** »(١) .

فنقول : إن كون الهوى تبعًا لما جاء به يستلزم تقديم محبته على محبة النفس والمال والولد والعشيرة والأهلين ومن في الأرض جميعًا والناس أجمعين ، ولا شك أن محبته يكون من آثارها فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وتقليده والسير على نهجه هذا كله من آثار محبته ، فلذلك من ادعى أنه يحبه ولكن لم يطعه فلا حقيقة لهذه

---

(١) البخارى فى الإيمان : باب حب الرسول - ﷺ - من الإيمان (١٥) ، (١/٧٥ - فتح) ، ومسلم فى « صحيحه » فى كتاب الإيمان : باب وجوب محبة رسول الله ﷺ (٤٤) ، (١/٦٧) من حديث أنس -رضى الله عنه - به .

المحبة إلا بالسير على نهجه وإتباعه ، ومن ذلك الأمر بطاعته فى آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد : ٣٣] . وقوله : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة : ٩٢] . ونحو ذلك من الآيات أمر الله بطاعة الرب تعالى وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا تحقق الطاعة إلا بتمام المتابعة وأن يكون هواه تبعًا لما جاء به النبى - ﷺ- وأن يتابعه فى دقيق السنة وفى جليلها ولا يرد شيئًا منها إذا كان ثقيلًا عليه فى نظره أو ما أشبه ذلك ، وهكذا أمر الله بالإيمان به مع الإيمان بالله قال تعالى : ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن : ٨] . وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد : ٢٨] . وهذا فضل كبير يحصل لمن اتقى الله تعالى وآمن برسوله يحصل لهذا الثواب العظيم ، ولا شك أن من آمن بالرسول آمن بصدقه وصدقه فيما جاء به وصدق رسالته وشهد بالحق وعرف صحة ما يقول وعرف أنه الصادق المصدوق ولم يرد شيئًا من سنته التى جاء بها ولم يعمل عملًا يخالفه هذا من آثار الإيمان به فإذا رأيت من يشهد بأن محمدًا رسول الله ويقول : آمنت بأنه مرسل من ربه وصدقت بأنه عبد الله ورسوله ثم رأيته مع ذلك كثير المخالفة تأتيه السنة الصحيحة الثابتة ولكنه لا يقبلها أو لا يقبل من الإسلام أو من الأعمال إلا ما يوافق هواه أو ما يكون متابعًا لأبناء جنسه أو ما يماشي به أهل بلده أو ما أشبه ذلك عرفت أنه لم يكن صادقًا في أنه يحب الله ورسوله أو في أنه مؤمن بالرسول ومصدق برسالة النبى ﷺ .

وقد أكد الله تعالى على الأمة قبول بما جاء به والتحذير من مخالفته ، وقد ثبت عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه قال : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣] . ثم يقول الإمام : أتدرى ما الفتنة ؟

الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شيء من الزيغ فيهلك ، فإن هذه الآية صريحة فى عقاب من يرد شيئًا من أمر النبى - ﷺ- أو يخالف شيئًا من سنته .

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ . يعنى : يأخذ حذره فالذين يخالفون أمر الله وأمر رسوله (يخالفون عن أمره) ولا يطيعونه عليهم أن يحذروا أن تصيبهم فتنة يعنى : يقعوا مثلًا فى الشرك أو يقعوا فى الإثم أو يصيبهم عذاب أليم .

كذلك ذكر الزبير - رضي الله عنه- أنه تحاكم هو وبعض الأنصار فحكم النبي - ﷺ- للزبير -رضى الله عنه- ثم إن ذلك الأنصاري غضب وادعى أنه - ﷺ- حكم له لقرابته فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١) [النساء: ٦٥] . يعنى : أى يجعلوك حكمًا بينهم ويقبلوا حكمك ويطبقوه ، ولا يجدوا فى أنفسهم حرجًا من حكمك وقضاءك ويسلموا لأمرك ولا يردوا شيئًا منه ، فهذا بلا شك حث على تحكيم النبي - ﷺ- والرجوع إلى حكمه .

وثبت أيضًا أنه - ﷺ- قال : « **كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى** » . قالوا : ومن يأبى يا رسول اللّه؟ قال : « **من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى** »(٢) . وذلك لأن طاعته - ﷺ- تعد طاعة لربه دليل ذلك قوله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] . جعل طاعته طاعة لله وذلك لأنه إنما

---

(١) البخارى فى كتاب الشرب والمساقاة (٢٣٥٩-٢٣٦٠) ، (٥/٤٢-٤٣ - فتح) ، ومسلم فى كتاب الفضائل : باب وجوب إتباعه ﷺ (١٢٩) ، (٤/١٨٢٩-١٨٣٠) من حديث عروة عن عبد الله بن الزبير عن أبيه به رضى الله عنهما .

(٢) أخرجه البخارى فى « صحيحه » فى كتاب الاعتصام بالسنة : باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٠) ، (١٣/٢٦٣ - فتح) من حديث عطاء بن يسار عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به مرفوعًا .

يدعو لعبادة ربه ويدعو إلى دين الله الذى بعث به وجاء بشرع من الله ، فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ، ومن عصى الله فهو مستحق للعذاب إلا أن يعفو الله ولذلك قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [النساء: ١٣]. ثم قال : ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٤] . والعياذ بالله ، فيحذر المسلمون من رد شيء من السنة ولا يتساهلون بأمر الله وبأمر رسوله - ﷺ- فكثير من الناس إذا نصحهم ناصح واستدل عليهم بحديث قالوا : هذا الحديث لا يناسب هذا الزمان نحن نعمل بما يناسب زماننا ، فمثلا الذى يحلق لحيته يسمع أو يتلى عليه الحديث الذى يقول فيه ﷺ : « **حفوا الشوارب وأعفى اللحى -أو أرخوا اللحى-** »[(١)]. ومع ذلك يقول : العمل بهذا الحديث لا يناسب هذا الزمان إنما يناسب أهل هذا الزمان من يوافقهم على ما هم عليه ، أليس هذا لم يكن هواه تبعًا لما جاء به النبى - ﷺ ؟ ! فالنبى - عليه الصلاة والسلام- لم يوقت ذلك بوقت بل أطلق وأمر بالإعفاء ، وكذلك إذا رأيت الذى يجر ثوبه خيلاء أو يرخى ثوبه إلى أن يصل إلى الأرض حتى يتعثر فيه وذكر له الحديث الذى يقول فيه ﷺ : « **ما أسفل الكعبين من الإزار ففى النار** »[(٢)]. فيقول : العمل بهذا الحديث لا يناسب هذا الزمان نحن نخالط أناسًا لا يناسبهم أن يرفعوا ثيابهم إلى نصف الساق ، فإن هذا لم يكن هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ .

---

(١) البخارى فى كتاب اللباس : باب تقليم الأظفار (٥٨٩٢) ، (١٠/٣٦١ - فتح) وطرفه فى (٥٨٩٣) ، ومسلم فى الطهارة : باب خصال الفطرة (٢٥٩) ، (١/٢٢٢) من طريق نافع عن ابن عمر -رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - بلفظ : « خالفوا المشركين ، وفروا اللحى واحفوا الشوارب » .

(٢)أخرجه البخارى فى « صحيحه » فى كتاب اللباس : ما أسفل من الكعبين فهو فى النار (٥٧٨٧) ، (١٠/٢٦٨ - فتح) من طريق سعيد بن أبى سعيد المقبري عن أبى هريرة -رضى الله عنه - به .

فمن كان هواه تبعًا للسنة فلابد أن يطبقها تطبيقًا تامًا بحيث لا يرد حديثا ولو كان عادة أى لو كان فى الأمور عادة وذلك لأن أمور العادة إذا جاء بها النبى - ﷺ- وأمر بها أصبحت من العبادات ، وأصبحت من شرعه ، فقد يقول بعضهم إن نبات هذا الشعر فى الوجه من أمور العادة كان كذلك فإن أمور العادة ترجع إلى عادات الناس فليست من الدين وليست من الأخلاق أو من الشريعة أو ما أشبه ذلك فالجواب أن يقال : إن هذا طعن فى الرسالة ورد لبعضها ، والمؤمن يتقبل كل ما جاء فى هذه الشريعة ولا يرد منها شيئًا ولو خالفه الناس ، بل يكون هواه تابعًا لما جاء به النبى - ﷺ- ومحبًا له ومطمئنًا إلى أنه إذا فعل ذلك فإن ذلك علامة على محبته للنبى - ﷺ- وعلى محبته لصحابته وعلى محبته لمن سار على نهجه ، ومن أحب قومًا حشر معهم .

❁ ❁ ❁

الحديث الثاني والأربعون

أسباب مغفرة الذنوب

عن أنسٍ – رضي اللهُ عنه – قال : سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول :« **قال اللهُ تعالى : يا ابنَ آدَمَ ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ على ما كانَ مِنْكَ ولا أُبالي . يا ابنَ آدَمَ ، لَوْ بلغت ذنوبُك عَنَان السماء ، ثم استغفرتني غَفَرْتُ لكَ . يا ابن آدَمَ ، إنَّك لَو أَتيتَني بقُرَاب الأَرْضِ خطَايا ، ثُمَّ لَقِيتني لا تُشْرِكُ بي شَيْئًا ، لأتَيْتُكَ بقُرَابِها مَغْفِرَةً** » . رواه الترمذيُّ ، وقال حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[١] .

شرح الحديث :

هذا الحديث دليل على سعة عفو الله تعالى ورحمته بعباده وقد وردت أدلة تؤكد مدلولات هذا الحديث كقول الله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ . أي رحمته لعباده المؤمنين كما جاء في الحديث : « **إن الله تعالى كتب كتابا على نفسه فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي** » . فأخبر بأنه يغضب على من عصاه ولكنه يعفو ويصفح عن عباده ، وقال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية . فبين من يستحق الرحمة حتى لا يطمع فيها الكفار والمشركون ، وقد ورد في حديث قدسي أن الله تعالى قال : « **إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية ، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد** » . ففي هذا

---

(١) حديث حسن : أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٤٣٣٨).

حث للعاقل على الطاعة والعبادة وتحذيره من المعصية التي تغضب الرب جل جلاله . وورد عن النبي ﷺ أنه قال : « **لو عذب الله أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا من أعمالهم** » . وهو دليل على أن أعمال العباد وإن كثرت حسناتهم فإنها قليلة بالنسبة إلى حق الله تعالى عليهم ، وقد قال النبي ﷺ : « **لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله** » قالوا : ولا أنت يا رسول اللَّه ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة** » .

فدل على أن كل عبد مهما كثرت حسناته فلا غنى له عن رحمة الله تعالى في الآخرة ، فقد أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى جعل الرحمة مائة جزء أنزل منها جزءا واحدًا ، فبه يتراحم الخلق حتى أن الدابة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ، فإذا كان يوم القيامة جعل مع أجزاء الرحمة فرحم به عباده في الآخرة ، وذلك دليل على سعة رحمة الله لعباده ، فهو أرحم بهم من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك في السنة ، وقد روي أنه يجاء برجل قد عمل حسنات أمثال الجبال فيقول الله تعالى : « **أدخلوه الجنة برحمتي . فيقول : يا رب فأين هذه الأعمال ؟ فيقول اللَّه : حاسبوا عبدي فيقال لنعمة البصر : خذي حقك . فلا تكاد أن تدع من حسناته شيئًا ، فيقول اللَّه : أدخلوا عبدي النار** » فيقول : يا رب أدخلني الجنة برحمتك » . أو كما قال .

فلا يجوز للعبد أن يعتمد على الرحمة ويدع العمل أو يتثاقل عن الحسنات ويقع في المخالفات تغليبا لجانب الرجاء ، وقد ذكر العلماء أن المسلم عليه أن يجمع بين الخوف والرجاء ، دائمًا ، وذلك لأن الله يجمع الوعد والوعيد في كثير من الآيات ، مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فبدأ بالمغفرة مع وجود الظلم ثم أتبعه بذكر شدة العذاب ، وقال تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ .

وقال تعالى : ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ . ونحو هذه الآيات ففيها ، تقديم ذكر المغفرة والرحمة على ذكر العقاب والعذاب ، ليكون المسلم خائفًا راجيًا ، فلا يقتصر على الرجاء فينهمك في الذنوب والمعاصي كما هو قول المرجئة الذين يهملون أمر الذنوب ، ويقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل . وهذا خطأ ؛ فإن الإكثار من الذنوب والتهاون بأمر المعاصي يدل على الاستهانة بوعيد الله تعالى ، والإصرار على الصغائر يصيرها كبائر ، وقد وردت آيات وأحاديث تدل على الوعيد الشديد المرتب على الذنوب ، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » كثيرا من الأدلة التي رتبت العقوبة على المعاصي ، وذكر عقوبات الذنوب في الدنيا فوصلت إلى نحو خمسين عقوبة حسية أو معنوية ، وإن كان العصاة لا يحسون بها لموت قلوبهم بالانكباب على المعاصي كما قال ابن المبارك رحمه الله تعالى :

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها

فهذه من آثار المعاصي فهي تميت القلوب حتى لا يعرف الحق من الباطل ، وحتى يستحلي المعاصي ويتخذها ديدنه وعادته فيصعب عليه تركها ولو كبِر سنه وتعلم وعرف الأدلة ، والمعاصي قد تحرم العلم كما قال الشافعي رحمه اللَّه :

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلمْ بأنَّ العلم نورٌ ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولهذا يحسن بالمسلم في حال الصحة والقوة أن يغلب الخوف ويتذكر دائمًا عقاب الله تعالى على المعاصي في الدنيا والآخرة ، ليحمله ذلك على احتقار أعماله الصالحة ولو كثرت ، ولا يزكي نفسه بل يعترف بالنقص واقتراف الذنب ، ولا

يعجب بنفسه ، وليكثر من الحسنات ونوافل العبادة ويبتعد عن المحرمات وعن كبائر الذنوب وصغائرها ، أما في حال المرض المخوف فإن عليه أن يغلب جانب الرجاء حيث إنه قد خاف الموت وانقطاع عمله . وقد ورد في حديث مرفوع : « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه** » . وفي حديث قدسي أن الله تعالى يقول : « **أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء** » . ففي هذه الحال يظن بربه خيرًا ويعتقد أنه رحيم بالعباد .

فقول الله تعالى في هذا الحديث القدسي : « **يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي** » . فيه حث على تكرار الدعاء بالمغفرة والرحمة ووعد من الله تعالى بالمغفرة لكل الذنوب ، وقد جاءت الأدلة بالأمر بالدعاء والإكثار منه وذكر فائدة ذلك كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال ما معناه : إني إن لا تهمني الإجابة ، فإذا ألهمت الدعاء أيقنت بالإجابة . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة** » . وقال ﷺ : « **من لم يسأل الله يغضب عليه** » . وفي هذا الحديث القدسي الترغيب في الدعاء مع الرجاء الذي هو الأمل وتعلق القلب بالله تعالى والثقة بأنه يجيب من دعاه ، ويعطي من سأله ، ويغفر لمن استغفره مهما كانت الذنوب ، إذا صدق في الطلب وحقق الرغبة وتاب إلى الله تعالى ، وأناب إليه ، وعزم على الإقلاع عن الذنوب ، وترك السيئات ، وندم على ما حصل منه فيما سبق ، واعترف أنه خطاء كثير الذنوب ، فالله تعالى وعده بالمغفرة وإجابة الدعوة ، ولن يخلف الله وعده .

ثم قال في هذا الحديث : يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك » . ففيه الحث على الاستغفار ومعناه طلب غفر الذنوب ، وهو سترها

ومحو أثرها وعدم المؤاخذة عليها ، والذنوب هي الخطايا والمعاصي والسيئات ، وعنان السماء « **السحاب أو هو فرعها أو ما يقرب منها** » وهو تمثيل لكثرتها ، أي : لو كانت الذنوب أجراما وأجسامًا فتراكمت حتى بلغت العنان الذي هو السحاب وما حوله ، ثم حصل الاستغفار الصادق فإن الله تعالى يغفرها ويمحوها عن عبده التائب المنيب ، ففي ذلك حث على الاستغفار ولزومه والإكثار منه ، وقد أمر الله تعالى به في عدة آيات كقوله تعالى : ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ . فذكر من فائدة الاستغفار المتاع الحسن وإيتاء كل ذي فضل فضله .

وقال تعالى عن هود : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ . وهذه فائدة كبيرة . وقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ . فذكر أنه أمرهم بالاستغفار ثم ذكر فوائده .

وقد روي أن رجلا شكا إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه مئناث ، أي أولاده إناث ، فأمره بالاستغفار والإكثار منه فرزق ، أبناء ذكورًا ، وحقق الله قوله : ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ . وورد في الحديث : « **من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب** » . فالله تعالى يحب من عباده أن يتوبوا إليه ويستغفروه ، وأنين المستغفرين أحب إليه من زجل المسبحين ؛ لأن الاستغفار يكون من الاستضعاف والذل والاستكانة والتواضع والاعتراف بالذنوب وشدة الافتقار إلى الله تعالى ، وهو سبحانه يغفر لمن استغفره .

ولا يجوز الإصرار على الذنوب وقطع الرجاء من رحمة الله ، وهو القنوط الذي ذمه الله تعالى ونهى عنه بقوله : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ . وهذه المغفرة في حق التائبين

والمستغفرين، وفيها النهي عن القنوط وأنه محرم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ . فالقنوط هو قطع الرجاء واعتقاد أن الله لا يغفر الذنب لعظمه مع ما ورد أن الله تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، فلا يجوز اليأس من رَوح اللَّه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ .

ولا يجوز الأمن من مكر الله تعالى والانكباب على الذنوب تهاونا بعقاب الله تعالى .

وقوله في الحديث: « **يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة** ». فنقول: إن في هذا حثًّا على الإخلاص وترك الشرك بالله ولو كان شركًا أصغر، وأن هذا دليل على أن التوحيد الخالص يمحو الذنوب ويكفر الله به الخطايا. والمراد بالتوحيد إخلاص الدين لله تعالى بجميع أنواع العبادة، فلا يدعو إلا الله تعالى، ولا يخاف من غيره خوف السر، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ويتوب إلى ربه، وينيب إليه، ويخضع له وحده، ولا يخشى إلا اللَّه، ويخشع له ويتواضع بين يديه، ويركع له ويسجد، ويقوم له ويقعد، ويصلي لربه ويصوم، ويعلق قلبه بربه وينصرف عن كل من سوى اللَّه، ويعتقد أن كل الخلق لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فلا يعلق قلبه بمخلوق، ولا يجعل في عمله شيئًا لغير اللَّه، ومتى خالف في شيء من ذلك وصرف لمخلوق شيئًا من العبادة سرًّا أو علانية فإنه قد أشرك، فلا تغفر ذنوبه ولو كثرت حسناته، فإن الشرك يحبط الأعمال كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ . ويعم ذلك الشرك الخفي والجلي، وقد قال ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ .

قال : الأنداد هو الشرك ، أخفى في هذه الأمة من دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي . وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لما أتى اللصوص . وقول الرجل لأخيه : ما شاء الله وشئت وقوله : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك . رواه ابن أبي حاتم . ومنه يعرف أن ترك الشرك شديد على النفوس فيكون قوله : « **ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا** » شرطًا في غفران الذنوب ، وهو شرط ثقيل على أكثر النفوس ، ثم إن التوحيد الخالص يحمل على كثرة الحسنات ويرغب في الأعمال الصالحة ، ويزجر عن السيئات والمخالفات ، ومع ذلك أخبر بأن من لقي الله يوم القيامة موحدًا مخلصًا لله الدين فإن الله يغفر له ذنوبه ولو كثرت لقوله : « **لو أتيتني بقراب الأرض خطايا** » أي بملئ الأرض أو ما يقارب ملأها . ومعنى ذلك أن الله تعالى يكفر بالتوحيد ما اقترفه العبد من الذنوب والخطايا ، ولذلك أورد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الجملة في التوحيد كدليل على أن التوحيد يكفر الذنوب ولو كثرت ، ولعل السبب أن الإنسان إذا ختم عمله بالشهادتين وأيقن بمعناهما ومات على ذلك ، فإن هذه الشهادة تمحو ما عليه من الذنوب ، وقد قال النبي ﷺ : « **من كان آخر كلامه : لا إله إلا اللّٰه . دخل الجنة** » .

والمراد بالتوحيد ونطق بما يدل عليه في آخر حياته فإن ذلك يكفر ما عليه من السيئات بفضل الله تعالى . والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع الصفحة

❁ ❁ ❁